كتاب الشعب
١١

على هامش

التاريخ المصري القديم

عبد القادر حمزة

لن تتم على أحدكم نعمة الإيمان بمصر
حتى يحيط بتاريخها علماً

مطابع الشعب
١٩٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

زرت الأقصر فى سنة ١٩٢٤ لمشاهدة قبر الملك «توت عنخ آمون» الذى كان مستر هوارد كارتر (١) ، قد اهتدى إليه وكشف عنه بمساعدة اللورد كارنارفون (٢) ، فزرت فى الوقت نفسه كثيرا من قبور وادى الملوك ووادى الملكات ، وزرت الدير البحرى ومعبد الكرنك . وكنت نازلا فى فندق « ونتر بالاس » فمررت بمعبد الأقصر رائحا وغاديا ولكنى لم أجشم نفسى عناء دخوله . ووقع فى يدى وأنا فى الفندق كتاب « طيبة » Thêbes للأستاذ كابار (٣) » وقيل لى إن ثمنه مائتا قرش فترددت فى شرائه ، ولكنى اشتريته ، ثم عدت إلى القاهرة وفى نفسى من ذلك كله اثر غامض . وقرأت الكتاب فخيل لى أن الآثار التى مررت بها مرور الطير أخذت تتجسم أمام ناظرى رويدا رويدا ، وأن الحياة أخذت تدب فيها ، فتحدثنى عن مجد عجبت من أننى لم أجد فى مدارس الحكومة التى تلقيت فيها تعليمى فى جميع درجاته ما يرشد إليه أو يبعث فى الذهن فكرة عنه .

وحفزنى ذلك إلى زيارة الأقصر مرة أخرى فزرتها فى سنة ١٩٢٦ ، ولكن الزيارة فى هذه المرة لم تكن زيارة مشاهد يريد أن يمتع نظره بمناظر غريبة ، بل كانت زيارة مشوق كان قد فهم بعض الشىء من حياة طيبة ، فكان يهمه أن يدرس ما فيها من الآثار . وعدت من هذه الزيارة وقد ازددت شغفا بمصر القديمة ، فأحسست رغبة قوية فى زيارة المتحف المصرى ، مع أننى كنت قد زرته من قبل مرتين ، فجعلت ازوره من جديد زيارات كان لها فى نفسى معنى جديد .

وتكررت زياراتى للآثار ، وانكببت على المؤلفات التى وضعها علماء المصرولوجيا (٤) فكنت كلما أوغلت فيها شعرت كأن مصر تكبر فى عينى وكأنى أمتلىء بذلك زهوا ، وأخذتنى الدهشة من أننا ونحن أبناء مصر هذه لا نعرف عنها هذا الذى يعرفه الأجانب ، ولا نعجب بها هذا الاعجاب الذى يبذله لها الأجانب ، ولا نغرم بمجدها وتفصى خفاياه هذا الاغرام الذى يقبل عليه ويرتاح له الأجانب .

وكان من الضرورى أن أقرأ هذه المؤلفات ، أو بعضها على الأقل ، مرة وثانية ، بل ثالثة فى بعض الأحيان ، فلم أجد فى ذلك كلفة ، ولم ينقص التكرار شيئا من معنى بالقراءة ، لأننى كنت أفهم فى الثانية ما يبهم على فى الأولى ، وأنفذ فى الثالثة إلى ما يغيب عنى فى الثانية .

وانقضت سنوات وجاءت سنة ١٩٣٤ ، فكتبت فى « البلاغ » رسائل فى تاريخ مصر القديم كانت لى تجربة أولى ، ثم جذبتنى القراءة وشواغلى الصحفية فانصرفت إليهما . ثم حانت فرصة فى سنة ١٩٣٨ فكتبت فى « البلاغ » رسائل أخرى كانت تجربة ثانية . واليوم رأيت أن أخرج كتابى هذا فأجمع فيه بعض ما كتبته من قبل ، بعد تعديله وتنقيحه ، ثم أضيف إليه بحوثا أخرى .

وتاريخ مصر القديم بحر خضم ، لأنه تاريخ أربعة آلاف سنة أو أكثر ، فليس يوفى حقه فى كتاب ولا فى كتب . وقد كتب فيه العلماء الأجانب بعد كشف اللغة المصرية فى سنة ١٨٢٢ ميلادية ، مئات من الكتب (٥) ، وهم إلى اليوم كلما كتب واحد منهم وجد

(١) توفى مستر كارتر منذ عامين (صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٤٠ ـ دار الشعب) .

(٢) توفى اللورد كارنارفون منذ عدة سنوات .

(٣) J. Capart هو مدير معهد الآثار المصرية فى بروكسل .

(٤) يجعل العلماء درس الآثار المصرية القديمة والتاريخ المصرى القديم علما مستقلا يسمونه « ايجبتولوجيا » نسبة الى « ايجبت » أى مصر . فكلمة « مصرولوجيا » هى اذن تسمية صحيحة للعلم الخاص بتاريخ مصر القديم .

(٥) أمامى وأنا أكتب هذه الكلمة جدول بالمؤلفات التى وضعت من مصر القديمة وتاريخها منذ خمسين سنة فقط باللغات الفرنسية والانجليزية والألمانية والايطالية يصل العدد فيه الى ما يقرب من الف مؤلف . وهذا عن أمهات المؤلفات فكيف بغيرها !

جديدا ، وكلما ضربت فأسه فى أديم مصر خرجت بجديد . فلا مناص من أن أكتفى فى كتابى هذا بأطراف ، وإذا أراد الله فسأتبع هذه الأطراف بأطراف وأطراف .

* * *

وقد قصصت قصتى هذه فى انسياقى إلى التاريخ المصرى القديم لأنى اعرف أن شيئا منها يوشك أن يكون صورة لما ينشأ عليه — مع الأسف — جميع المصريين . فهم يجهلون هذا التاريخ لأنهم لم يقرأوا منه وقت تحصيلهم العلم غير أشياء ضئيلة مبهمة ، وهم بعد وقت التحصيل لا يجدون فى هذا التاريخ مؤلفات عربية (١) تجذبهم إليه ، وتسد النقص الذى اعترى تربيتهم الأولى فيه . وهكذا ينشأ المتعلمون منا وكل الذى يعرفونه من تاريخ مصر القديم لا يزيد فى مجموعه على مايعرفونه عن اليابان فى آسيا او عن كندا فى أمريكا . وقد يعرفون عن انجلترا او من فرنسا فى ماضيها وحاضرها أكثر مما يعرفونه عن مصر . وبهذا تنقطع الصلة بين مصر القديمة ومصر الحديثة ، ويمتنع علينا أن نأخذ من امسنا ليومنا وغدنا . والانسان الذى يعيش مقطوع الصلة بأمسه كالنبات الغريب ينمو ثم يموت وكأنه لم يوجد .

والآراء متفقة على أن التاريخ اعظم مهذب للأفراد والشعوب . فاذا كان هذا التاريخ تاريخ مجد لم يسبقه مجد أمة اخرى ، فهو لأبناء هذا المجد أعظم محى للشعور بالعزة القومية ، وأقوى ملقن للفضائل الوطنية والاجتماعية . ولعل هذا هو بعينه الذى دفع بالانجليز ، حينما كانوا مسيطرين على التعليم ، إلى أن يخرجوا منه تاريخ مصر القديم ، أو بعبارة ادق إلى أن يحيلوه فيه شبحا بغير روح . ولكن هذه السيطرة رفعت منذ سنين ، وصار لنا أن نضع كما نشاء مناهج التعليم ، فحقا إنه لتقصير منا أننا لم نعن بعد عناية جدية بسد هذا النقص المعيب .

وانا اعرف أن علم الآثار صار يدرس فى جامعة فؤاد الأول منذ بضع سنين ، وأن وزارة المعارف بعثت وقتا ما بعثة إلى المانيا تخصص افرادها فيه . ولكن أين هذا من العناية الواجبة بالتوسع فى تدريس التاريخ المصرى فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ؟ واين هذا من مئات المؤلفات التى يجب أن توجد فى هذا التاريخ باللغة العربية ؟

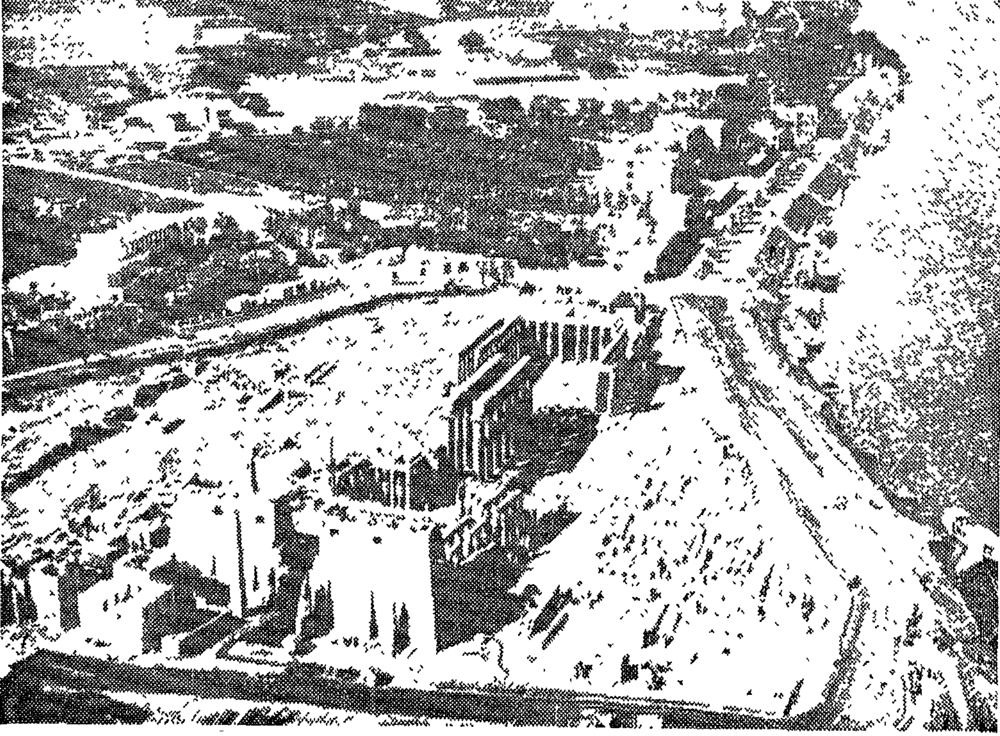
إن الناشىء فى انجلترا أو فى فرنسا أو فى المانيا او فى غيرها من البلاد الراقية ينشأ وتاريخ بلاده يسايره فى كل سنة من سنى تعليمه . فلا يكاد يغادر مقاعد الدرس حتى تكون نفسه قد انطبعت بطابع مافى هذا التاريخ من عظمة وجمال . ومن هذا الانطباع يتولد حب خاص للوطن ، وتتولد رغبة فى محاكاة أبطاله ، وينمو تبعا لذلك الشعور بالقومية ، وتتربى أو تقوى فضائل الاقدام وسمو النفس ومجالدة المخاطر والميل إلى طيب الأحدوثة . ومن عجيب امر التاريخ انه يولد هذه الفضائل كلها سواء أكان تاريخ مجد وبسطة فى الغنى والسلطان ، ام كان تاريخ متاعب ومكاره وآلام . وقد عرفت الأمم الراقية ذلك فجعلت من تاريخها القومى اول عامل فى تربية الفضائل النفسية وإبراز صفات الرجولة. اما نحن فقد جهلنا هذا فصار الناشىء منا ينشأ وهو لا يرتسم فى ذهنه عن مصر القديمة غير خيال مبهم ، وإذا اتفق له أن عرف شيئا عنها فليس هذا الشىء سوى صورة مشوهة تختلط فيها الخرافات بالاخطاء ، وبذلك يفقد التاريخ المصرى روحه ، ويتعذر عليه ان يتحدث إلى النفوس حديثا يقومها ويربى الفضائل فيها .

* * *

وقد ذكرت الخرافات والأخطاء التى تشوه التاريخ المصرى ، فأذكر هنا أن الخرافات هى الصورة التى يغلب أن ترتسم فى الذهن كلما ذكر المصريون القدماء ، وذلك لأن الكتاب اليونانيين والرومانيين الذين زاروا

(١) لا يفوتنى هنا أن أشير الى المؤلفات التى تركها العالمان احمد كمال باشا واحمد نجيب بك وهى مؤلفات نافعة فى ذاتها ولكنها صارت قديمة فصار الانتفاع بها محدودا . ولا يفوتنى ان الدكتور حسن كمال عرب كتاب «تاريخ مصر» للعالم J. H. Breasted وهو من الكتب النفيسة فى موضوعه . ولا يفوتنى اخيرا ان بعض الموظفين فى المتحف المصرى اصدروا فى السنين الاخيرة كتبا عالجوا بها نواحى من التاريخ المصرى القديم . ولكن هذا التاريخ يحتاج الى عشرات وعشرات من الكتب لا الى هذا العدد القليل منها .

من آيات الصانع المصري



الاقصر ... منظر عام



الأقصر ... أعمدة معبد أمنحتب الثالث

مصر وكتبوا عنها ، فيما بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الثانى بعد الميلاد ، شحنوا كتاباتهم بأشياء لم يفهموها ، فالبسوها لباس الغرابة والخرافة . مثلهم فى ذلك كمثل الذين يزورون مصر الآن من الأجانب فيدعون عليها دعاوى لا وجود لها ، لأنهم لم يفهموا ماشاهدوه ، أو لأنهم يريدون ان ينيروا دهشة قرائهم بما يقصونه عليهم من المبالغات والعجائب . يضاف إلى ذلك أن المصريين انفسهم كانوا ، حينما زارهم اولئك الكتاب ، قد سقطوا فى هوة الضعف والجهل ، فصاروا ينظرون إلى اجدادهم السالفين نظرهم إلى حلم بعيد غريب ، وصار من اسهل الأشياء لديهم أن ينسجوا حول هذا الحلم نسيجا من الأوهام والخرافات . وهؤلاء المصريون هم الذين اصغى إليهم أولئك الكتاب ، ونقلوا أحاديثهم عن عصور الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة ، اى عن عصور كان قد مضى على الأولى منها ٣٥٠٠ سنة أو اكثر ، وعلى الثانية منها ٢٥٠٠ سنة او اكثر ، وعلى الثالثة منها ١٥٠٠ سنة أو اكثر ، فكان من الطبيعى أن يختلط بهذه الأحاديث كثير من الأغلاط والخرافات .

وهذه الكتابات التى كتبها الكتاب اليونانيون والرومانيون امثال : هيكاتى دى ميلى وهيرودوت وسترابون وديودور الصقلى وكليمان الاسكندرى وبلوترك — كانت المرجع الوحيد لمعرفة مصر القديمة منذ ضاع سر اللغة المصرية إلى أن كشفه شامپوليون الشاب ، اى مدى اربعة عشر قرنا (١) . فلم يكن العالم يعرف مصر القديمة فى مدى هذه المدة الطويلة إلا من خلال ما تركه اولئك الكتاب . وهكذا علقت بها عنده الخرافات المعزوة إليها ، ثم انضاف الخيال إليها خرافات أخرى ، فصارت صورة مصر لا تخطر على البال إلا خطرت معها مجموعة كبيرة من الخرافات. ولم يزل الأمر كذلك حتى كشف شامپوليون اللغة المصرية ، واخذ العلماء يقراون ما على الآثار فى مصر من النقوش وما فى أوراق البردى من الكتابات ، فيجدون فيها مصرا تختلف عن مصر التى الف العالم

(١) من سنة ٣٩١ بعد الميلاد ، وهى السنة التى اصدر فيها الامبراطور الرومانى تيودوز الاول امره باقفال المعابد الوثنية المصرية ومطاردة الكهنة المصريين واللغة المصرية ، الى سنة ١٨٢٢ وهى السنة التى كشف فيها شامبوليون الشاب سر اللغة المصرية.

صورتها المشوهة ، أربعة عشر قرنا . وقد قضت بحوث هؤلاء العلماء على جانب من هذه الصورة المشوهة وما زالت فى سبيل القضاء على جانب آخر منها .

وحينما اقول إن بحوث العلماء قضت على جانب من الصور المشوهة ، اريد صورة مصر عند الأجانب ، لأن هؤلاء الأجانب قراوا ويقرأون ما كتبه علماء المصرولوجيا الالمانيون والانجليز والأمريكيون والفرنسيون والايطاليون والبلجيكيون . أما مصر عند المصريين فلا تزال صورتها المشوهة على ما هى عليه ، ولابد أن يمضى وقت قبل أن تزول . ومتى زالت فسيعرف المصريون أن المدنية المصرية التى يجعلها كثير من الباحثين أولى المدنيات جميعا ، والتى عاشت اربعين قرنا او تزيد ، لم تقم على أساس من الخرافات والعقائد الفاسدة ، بل قامت على أساس علمى وخلقى هو الذى اقتبسته منها المدنيات الأخرى بعد ذلك ، واخذت تسير فى نوره وتزيد عليه .

وسأعرض لهذا الأساس العلمى والخلقى فى بعض بحوث هذا الكتاب . وسأعرض أيضا لبعض ما يدعى على مصر ظلما من الخرافات والعقائد الفاسدة . ولكنى اقول هنا إن المدنية التى بنت الأهرام ، وشيدت معابد الكرنك والأقصر والدير البحرى والرمسيوم ومدينة هابو وإدفو ، ونحتت مقابر سقارة ووادى الملوك ، وخلفت تماثيل من كل نوع ما زالت تعتبر آية فى النحت والتصوير ، وصنعت الزجاج ، وصاغت الذهب والفضة والنحاس ، ووضعت أول أساس علمى للكيمياء (٢) والطب ، وكان

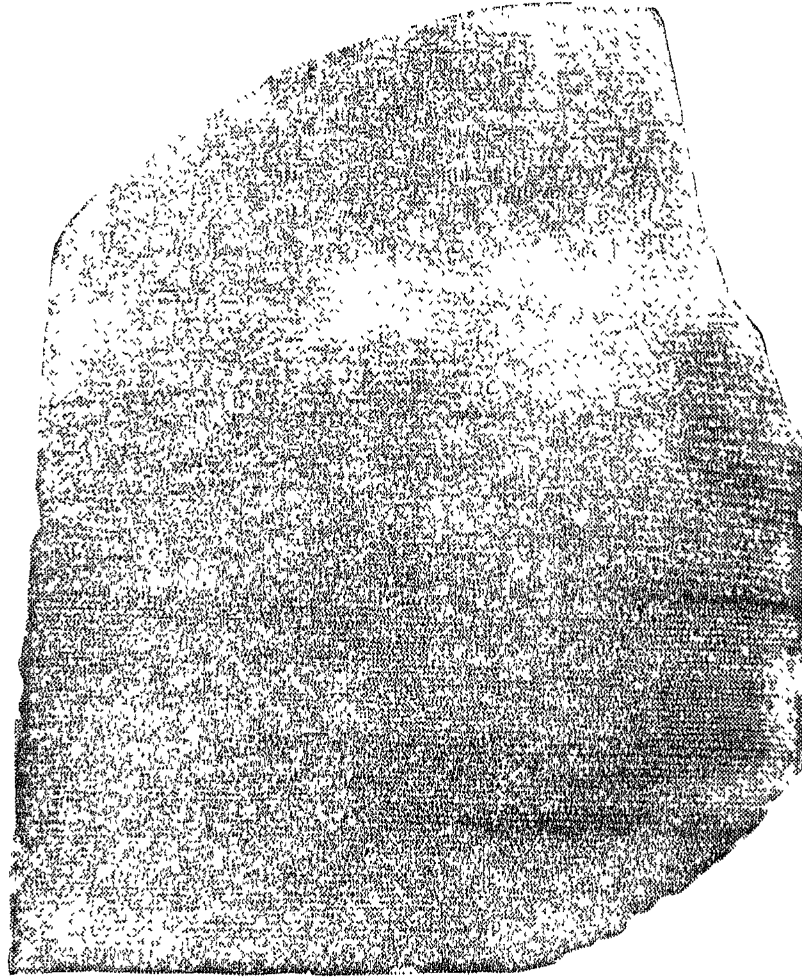
(٢) اكثر العلماء على ان المصريين هم أول من عرف علم الكيمياء ويرون ان كلمة « كيمياء » مشتقة من الكلمة المصرية « كيمى » التى كان المصريون يطلقونها على مصر والتى معناها الارض السوداء . والمقصود بالأرض السوداء هنا الأرض التى انتزعها النيل من أرض الصحراء الرملية وجعلها بطمية سوداء صالحة للزراعة .

وفى هذا يقول (A. Moret) فى كتابه :

(Le Nil et la Civilisation)

فى صفحة ٥٢٧ ما يأتى :

« ان علم العقاقير يقودنا الى اعمال التحضير فى المعامل الكيماوية ، وهنا نجد انفسنا فى ميدان مصرى محض حتى أن الكيمياء مدينة باسمها لاشتقاقه من كلمه « كيمى » التى معناها الأرض السوداء » .



حجر رشيد

عثر الضابط الفرنسي بوسارد (Boussard) على حجر رشيد عام ١٧٩٩ ، إبان حملة نابليون على مصر ، على بعد أربعة أميال شمالي مدينة رشيد . وقد توفر شامبليون على دراسته لحل لغز الكتابة المصرية القديمة .

وهو من البازلت ، ورقمت عليه النقوش باللغة المصرية القديمة : بالخط الهيروغليفي (الجزء الأعلى) ، والديموطيقي (الجزء الأوسط) . أما الجزء الأسفل فقد دونت عليه الترجمة اليونانية للنص نفسه .

وعندما تم جلاء الفرنسيين عن الاسكندرية عام ١٨٠١ اغتصبه الانجليز ونقلوه إلى المتحف البريطاني .

فيها بشهادة هيرودوت أطباء متخصصون فى كل نوع من أنواع الأمراض (١) ، ووضعت التقويم الشمسى ، وكانت أول مدنية عرفت علم الهندسة وبرعت فيه(٢) ، وأول مدنيــة اهتــدت إلى الكتابة ، وأول مدنيــة صنعت الورق وكتبت عليه ـ أقول إن هذه المدنية التى عرفت كل هذا ، وعرفت الله والآخرة والثواب والعقاب والجنة والنار ، لم يكن لها أن توجد ولا أن تعيش أكثر من اربعين قرنا ، وهى قائمة على أساس من الخرافات ، بل وجدت وعاشت هذه القرون الطويلة لأنها قامت على أساس علمى وخلقى صحيح .

* * *

ويحسن أن أسارع هنا إلى كلمة فى شأن الخرافات والعقائد الفاسدة . فلست أنكر أن هناك آراء وعقائد كان المصريون القدماء يظنونها صــحيحة ، والآن ـ اى بعد بضــعة آلاف من السنين تقدمت فيها خبرة الانسان بالحياة وتقدمت العلوم ـ يتضح لنا انها غير صحيحة . لا أنكر هــذا ، وهو لا يعيب مصر القديمة ، وقد وجــــد أكثر منه فى المدنيات التى عاصرتها ، بل فى المدنيات التى تلتها ، ولا يزال بعضه موجودا إلى اليوم . والأمة التى تنشىء أول حضارة فى العالم هى أمة يبدو العقل فيها فى حالة الطفولة ثم يتدرج فى النمو خطوة فخطوة . فليس يغض من مصر القديمة أنها مرت بحالة الطفولة ، وإنما يرفعها انها لم تجمد عليها ولم تقف فيها طويلا ، بل خرجت منها قبل غيرها ، وكانت خطواتها فى هذا الخروج جبارة ، فكانت لذلك هى التى ظهرت فيها التباشير الأولى لتفتح العقل الانسانى ، وكانت هى التى نمــا فيها هذا العقل بعد ذلك نموا قويا حتى استطاعت المدنيات التالية أن تأخذ منه وتزيد فى خطواته .

فلمصر القديمة آراء وعقائد يتضح لنا الآن أنها غير صحيحة ، هذا لاشك فيه (٣) . ولكن مما لاشك فيه

(١) نذكر هنا ما كتبه هيرودوت فى هذا . قال :

« الطب عند المصريين مقسم كما يأتى : كل طبيب يعالج مرضا واحدا لا جملة أمراض ، والأطبــاء يملأون كل مكان . فبعضهم لأمراض العيون ، وبعضهم لأمراض الرأس ، وبعضهم لأمراض الأسنان ، وبعضهم للأمراض الباطنية ، وبعضهم للأمراض التى لا يعرف لها مكان معين » .

وقد نقلنا هذا النص من كتاب هيرودوت عن مصر ، وهو الجزء الثانى من التاريخ العام الذى وضعه . والترجمة التى اعتمــدنا عليها هنا ، والتى سنعتمد عليها فى كل ما سننقله من هيرودوت فى كتابنا هذا ، هى الترجمة الفرنسية التى أصدرها فى سنة ١٩٣٦ (Ph. E. Legrand) الأستاذ بجامعة ليون بفرنسا . وهى آخر الترجمات . وقد طبعها صاحبها وطبع الأصل اليونانى معها صفحة فصفحة ليمكن الذين يعرفون اللغة اليونانية القديمة من مقابلة احداهما بالأخرى .

والفقرة التى عربناها هنا هى الفقرة ٨٤ ص ١٢٠ .

ويجب أن نقول هنا ان ماسبيرو عرض لهذا الموضوع فى كتابه : (Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient) ، فأظهر شكه فى أن يكون الطب قد تقدم عند المصريين الى هذا الحد ، ولكنه لم يقدم دليلا ينقض به هذه الرواية التى روى بها هيرودوت ما شاهده بعينه . ولعل ماسبيرو بنى شكه هذا على أوراق البردى التى كانت معروفة ومترجمة قبل وفاته ، والتى كانت منها أوراق خاصــة بالطب والسحر والتعزيم ، ولم تكن منهــا الورقة التى سميت « ورقة نيويورك » أو «ورقة ادوين سميث» . ولو أن ماسبيرو عاش حتى اطلع على ترجمة هذه الورقة لاعترف بتقدم الطب عند المصريين ، وبأنه تقدم على أساس علمى كمــا أثبت ذلك برستيد الذى ترجم تلك الورقة ودرسها درســـــا مستفيضا بعد وفاة ماسبيرو ببضع سنين .

(٢) تكلم هيرودوت فى الفقرة ١٠٩ من الجزء الثانى من تاريخه العام عن انشاء الترع والقنوات فى مصر وتقسيم الأراضى الزراعية فيها ثم قال :

« وهذا فى رأيى هو السبب فى اختراع علم الهندسة الذى نقله اليونانيون الى بلادهم » . ويؤيد مورى هذا الرأى فى كتــابه (Le Nil et la Civilisation) ص ٥١٩ ثم يقول :

« يؤخذ من كلام هيرودوت أن علم الهندسة نشأ فى مصر من الضرورة التى قضت بتقسيم الأراضى الزراعية فى مصر تقسيما منظما . وعلى كل حال ان النظام الاجتماعى فى وادى النيل قضى منذ العصور الأولى بايجاد قواعد ثابتة تكون دعامة للمقاسات » .

ومن هذا الرأى أيضا العالم الانجليزى (Griffith) فى بحث قدمه فى سنة ١٨٩٢ للجمعية الأثرية فى لندن .

ومن هذا الرأى أيضا العالم الألمــانى (Brugsh) فى كتابه «المصرولوجية» ص ٢٧٠ ، وعلماء آخرون .

(٣) أكثر ماتظهر فيه هذه الآراء الفاسدة عقائدهم الدينية . ولكن عذرهم فيها أنهم كانوا فى دور الطفولة كما قلنا . وقــد اتجهت عقولهم الى البحث فى الكون وخلقه وخالقه فــكان من الضرورى أن يخطئوا فى خلال تلمسهم الحقيقة . وتاريخ الانسان فى بحثه عن الحقائق العلمية يدل على أنه قلما اهتدى الى واحدة منها دفعة واحدة . وانما هو يبدأ فيسير فى طريق مظلم فيضــل يمينا وشمالا . وقد يعثر فى خلال ضــلاله هــذا على أطراف من الحقيقة التى يطلبها ثم لا يزال يواصل البحث الى أن يستقيم له الطريق ويبين النور فيصل الى غرضه . وكلما كان هذا الغرض عظيما كان الطريق اليه شاقا وطويلا .

وقد جرت هذه السنة على المصريين فى بحثهم فى الكون وخلقه وخالقه . وكان الطريق أمامهم شديد الظلمة ، وكانت عقولهم لاتزال فى بداية التفتح للبحث العلمى والفلسفى ، فأخطأوا تارة يمينا وتارة شمالا ، ولكنهم اهتدوا فى خلال خطئهم هذا الى حقائق لاينكرها عليهم منكر . منها أن روح الانسان باقية بعد الموت =

، هذه الآراء والعقائد شيء وما يدعى عليها من
ـت والأوهام شيء آخر . وبحسبى ان أذكر
ـى الأمثلة بايجاز ، وسأعالج أمثلة أخـرى فى
التالية .

* * *

هيرودوت عن موظف مصرى فى معبد المعبودة » فى صا الحجر أن النيل يولد بين « سيين »

و « ايلفنتين » (١) وأن شطرا من مائة يجرى إلى مصر والشطر الآخر إلى النوبة (٢) . وقد أخذ بعض المؤرخين هذا القول قضية مسلما بها ، وزعموا أنه كان بعض ما يعتقده المصريون فى منابع النيل . ومن الواضح مع ذلك أن هذا القول ليس سوى خرافة ما كانت تستحق أن يعنى بها هيرودوت ويثبتها فى كتابه ، وخاصة بعد أن قال هو نفسه « إنه يميل إلى الظن بأن ذلك الموظف الذى نقل عنه هـذا القول كان يمزح » . إذ المصريون الذين كانت سيين وايلفنتين من مدنهم كانوا يوقنون من غير شك أن النيل لا يجرى شطر منه إلى مصر وشطر منه إلى النوبة ، بل يأتى من النوبة جاريا إلى مصر . وقد أرسل المصريون قوافلهم التجارية وحملاتهم العسـكرية وسفنهم التجارية والحربية إلى النوبة ، وإلى ما وراء النوبة ، منذ الدولة القـديمة ، ووصلت فتوحاتهم فى عهد الدولة الحديثة إلى ما وراء الشلال الرابع . ولا تزال آثارهم فى هذه المنطقة قائمة يكشف عنها العلمـاء ويدرسونها . فهم إذن ركبوا النيل إلى ماوراء الشلال الرابع . فالادعاء عليهم بأنهم كانوا يعتقدون أنه يولد عند اسوان هو ادعاء زور ، والاعتماد فيه على حديث قال هيرودوت إنه سـمعه من موظف مصرى ، هـو اعتماد على سند ساقط .

وقد أراد بعض المؤرخين أن يتأولوا هذا الذى رواه هيرودوت فقالوا إن ولادة النيل عند ايلفنتين كانت

ـسمه هو الذى يفنى . وقد رتبوا على ذلك أنه يبعث بعد
ـاسب على ماقدم فى دنياه من خير أو شر ، فيجزى على
ـثواب وعلى الشر بالعقاب . وبرغم تعدد معبوداتهم ،
الأصنام ، وتقديسهم بعض الحيوانات ، وجدت عندهم
ـحدانية . وفى النظرية الدينية التى شرعتها مدرسـة
ـ او هليوبوليس مايمكن أن يكون صورة من صور هذه
وعبادة آتون التى دعا اليها الملك امينوفيس الرابع أو
(أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة) هى أيضا صورة من
، الفكرة .

ـرأ نظرية مدرسة هليوبوليس (وكانت تسمى باللغـة
ـت) فى كيفية خلق الكون لا يسعه الا أن يجد شبها بين
ـها وبين ماق الاصحاحين الاول والثانى من سفر التكوين
لعهد القديم المسمى بالتوراة .

ـسألة الوحدانية يقول احمد كمال باشا فى كتابه « الحضارة
، ص ١١٠ :

... قد اجتهدوا فحولوا التسبيع الأصلى الى تثليث
ـب الاشمونيين بأن ضموا الأب الى ابنه وبالعكس ، أو
الى الزوجـة فصـارا ذاتا واحـدة . وبذلك أدخـلوا
ـ كل تثليث فى بعض وجعلوها معبودا واحدا حالا فى ثلاثة
ـ أرادوا رياسته على التسبيع ... وكما حدث فى ادخال
ـ التسبيع حدث فى نفس التثليث بأن ضموا المعبودات
ـضها لبعض فصارت معبودا واحدا . وبذلك أوجدوا
. وعلى هذا نرى أن المصريين كانوا سائرين من طبيعتهم
الوحدانية المقدسة ... ... ومما تقدم يظهر أن علماء
ـسلوا من قديم الزمان بحصر صفات البارى فى معبود
ـ ان فرقت أسلافهم بينها » .

هذا القول قاله ماسبيرو أيضا وقاله كثير من العلماء .
ـرى من ذلك أن علماء اللاهوت المصريين قالوا فى عقيدة
ـما يقرب مما يقوله فيها الآن علماء اللاهوت المسيحيون .
العلماء المصريين لم يجعلوا الوحدانية لإله واحد اعترفوا
، بل جعلها كل فريق منهم لمعبوده الذى كان يطلق عليه
ـقب . فهليوبوليس جعلته لأتوم رع ، ومنفيس جعلته
ـرموبوليس جعلته لتوت ، وطيبة جعلته لآمون ، وهكذا .
ـناتون فنادى بالوحدانية لمعبوده آتون . وكان المصريون
كما نعتقد نحن الآن أن طريقة الخلق هى ان يقول الله
فيكون .

ـ ، فيما يلى من صفحات ، حين ذكر لنشيد النيل ، بيان
الذى أشير اليه هنا .

(١) سيين كانت ضاحية من ضواحى ايلفنتين . وايلفنتين مدينة قديمة كانت بجانب المكان الذى يقوم فيه الآن مدينة أسوان ، وكانت عاصمة لاقليم يسمى باسمها .

(٢) هذا تعريب ما كتبه هيرودوت فى ذلك نقلا عن موظف مصرى قال انه كاتب بمعبد « أتينا » فى صا الحجر . وأتينا هو الاسم الذى يطلقه اليونانيون على المعبودة « نيت » التى كانت تعبد فى صا الحجر وفى اسنا . قال هيرودوت فى الفقرة ٢٨ من كتابه :

« يقال ان بين سيين ، وهى احدى المدن التابعة لقسم طيبة ، وبين ايلفنتين ، جبلين لكل منهما قمة قائمة كالسن . وأحد هذين الجبلين يسمى كرونى والثانى يسمى موفى . وهما اللذان يقال ان النيل ينبع من هاويات واقعة بينهما . وشطر من الماء يجرى نحو مصر وريح الشمال بينما الشطر الآخر يجرى نحو اثيوبيا وريح الجنوب » .

« ومما قاله لى ذلك الموظف أن الملك بسامتيك أراد أن يعرف عمق هذه الهاويات فصنع حبلا طوله عدة الوف من الأوريى ثم دلاه فيها فلم يصل الى قاعها » .

والأوريى مقياس يونانى قديم يعادل مترا و٨٥ سنتيمترا .

اعتقادا للمصريين قبل أن يفتحوا النوبة ويركبوا النيلَ إلى ما وراء الشلال الرابع . ولكن هذا التأويل لا يستقيم ، لأن هيرودوت لم يقدم إلى مصر فى مفتتح الحضارة المصرية ، بل قدم إليها فى مختتمها ، أى بعد أن كان المصريون قد فتحوا النوبة فى عصر الدولة القديمة ، ووصلوا إلى ما وراء الشلال الرابع فى عصر الدولتين الوسطى والحديثة . فالموظف الذى نقل عنه هيرودوت ما نقله لا يمكن أن يكون إلا جاهلا أو مخرفا ، وهيرودوت لا يدل بنقله هذا التخريف إلا على أنه كان يلتقط كل ما يقال له بغير احتياط ولا تمحيص (١) .

وكل الذى نجح فيه هيرودوت باثباته هذه الخرافة ، هو انه كذب نفسه بنفسه فى غير هذا المكان من كتابه ، إذ قال إنه وصل فى تجواله فى مصر إلى ايلفنتين (٢) ، لأنه لو كان قد وصل إليها وشاهد مجرى النيل عندها لعلم أنه ليس له مجريان



المعبود النيل

فى هذه الصورة كانوا يتمثلون المعبود النيل . وهى صورة رجل ممتلىء الجسم تظهر عليه سيما النبل والمنى . وثدياه كبيران كانهما ثديا امرأة . وفى بعض الأحيان كانوا يرسمون الماء خارجا منهما . وامامه مائده للقرابين علقت فيها أنواع مختلفة من الزهور والأسماك والطيور . ومن خلفه كاهن يقدم له رسوم العبادة

متعارضان ، أحدهما يتجه إلى مصر والثانى إلى النوبة ، وإذن لما عنى بأن يسجل تلك الخرافة التى يعزوها إلى المصريين (٣) .

على أننا نحب أن نكشف هنا عن المصدر الذى نرجح أن تكون هذه الخرافة قد انبعثت منه ، فقد ورد فى بعض النقوش التى وجدت على حوائط الاهرام اناشيد موجهة إلى النيل ومنها نشيد يذكر قدوم فيضانه إلى مصر فيقول :

« إن ماء الحياة الذى فى السماء يأتى . إن ماء الحياة الذى فى الأرض يأتى . فالسماء تلتهب (يريد تبرق) من أجلك (يخاطب النيل) . والأرض تزلزل من أجل ولادتك .

---

(١) تدل الآثار على أن المصريين بداوا يغزون النوبة فى عهد الملك زوسر أحد ملوك الأسرة الثالثة (فى نحو سنة ٢٨٩٠ ق.م) . ثم غزوها مرة ثانية فى عهد الملك سنفرو احد ملوك الأسرة الرابعة وعادوا منها ب ٧٠٠٠ أسير و ٢٠,٠٠٠ راس من الحيوانات . ثم غزاها الملك أوناس أحد ملوك الاسرة الخامسة مرة ثالثة . ثم صارت فى عهد الملك بيبى الاول أحد ملوك الأسرة السادسة مستعمرة مصرية تصل حدودها الى ناباتا والى مروى بعد الشلال الرابع . فهذه هى فتوحاتهم النوبة فى عهد الدولة القديمة . أما فى عهد الدولة الوسطى فقد توالت فتوحاتهم لها فى زمن الأسرة الثانية عشرة والأسر التالية لها . وانتقلت اليها الحضارة المصرية فى عهد الدولة الحديثة حتى كان أمون يعبد فى عاصمتها ناباتا كما كان يعبد فى طيبة . ويقول احمد كمال باشا أن المصريين وصلوا الى الخرطوم (ص ٣٣٧ من كتابه الحضارة القديمة) والى ماوراء الخرطوم فى عهد الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة وكونوا عند مجمع النيل الابيض والنيل الازرق مملكة مصرية . ولكنى لم أجد سندا لأكثر من وصولهم الى ما وراء الشلال الرابع بقليل ، اى الى قريب مما يسمى الآن بلدة ابى حماد .

وكانت تلى ذلك الى الجنوب منطقة لم تحتلها الجيوش المصرية ، ولكن النفوذ المصرى كان سائدا فيها .

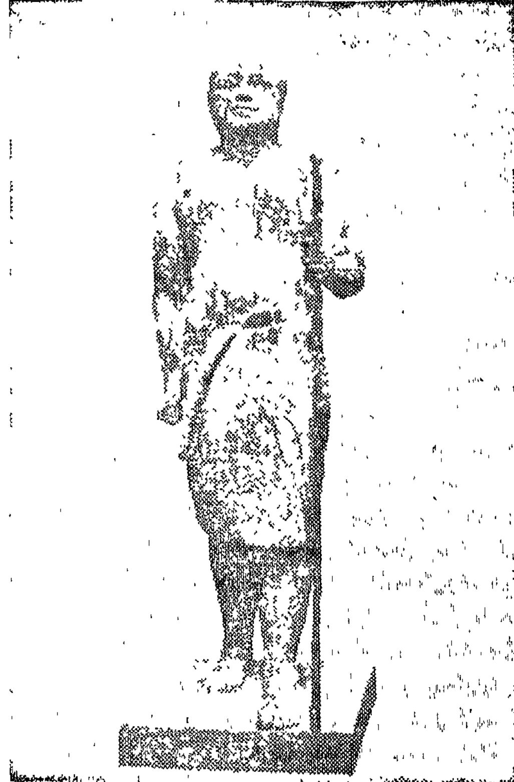
وفى عهد الأسرة الثالثة والعشرين (حوالى سنة ٧٣٠ ق . م) كانت مصر قد ضعفت وكانت ناباتا قد صارت مملكة مستقلة قوية فغزت مصر وحكمتها مدة من الزمن .

(٢) قال هيرودوت فى الفقرة ٢٩ من كتابه :

« وصلت فى تجوالى الى مدينة ايلفنتين ، فما أكتبه وصفا لمصر ، الى هذه المدينة ، رايته بعينى . اما ما أكتبه وصفا لما وراء ايلفنتين فهو مبنى على السماع وعلى ماوصل الى من الاخبار » .

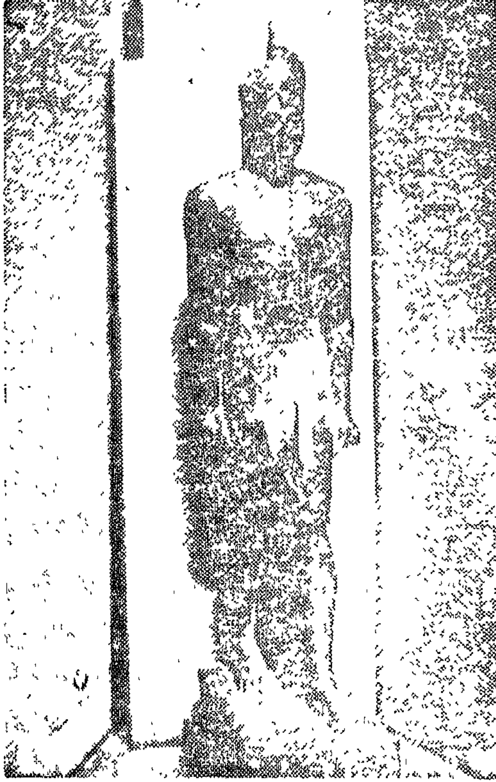
(٣) يرى هذا الرأى أيضا ليجران (Ph. E. Legrand) الاستاذ بجامعة ليون ص ٢٥ و٢٦ من المقدمة التى وضعها للكتاب الثانى من تاريخ هيرودوت .

من آيات الصانع المصري



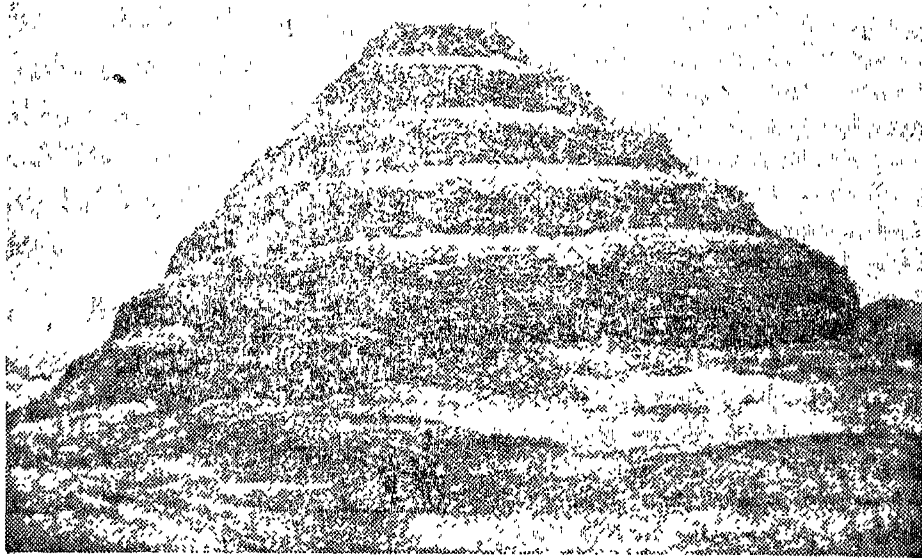
تمثال شيخ البلد

قال عنه ماسبيرو : «لو أن معرضا اقيم فى أى مكان لتعرض فيه روائع الفن فى العالم كله ، لكان هذا التمثال واحدا من التماثيل التى أقدمها اليه تمجيدا للفن المصرى » .



تمثال تحوتمس الثالث

وهـو مصنوع من حجر الشيست . وتحوتمس الثالث من ملوك الأسرة الثامنه عشرة التى اتسعت فى عهدها الامبراطورية المصرية ، حتى لقد سمى تحوتمس الثالث « نابليون مصر »



هرم سقارة الذى بناه زوسر من ملوك الأسرة الثالثة

لقد انفتحت الصخرتان وظهر المعبود . إن المعبود يضع يده على جسمه (يريد أنه يضع يده على أرض مصر) » .

فالصخرتان اللتان يقال هنا إنهما انفتحتا وظهر المعبود من بينهما قائمتان عند ايلفنتين . وأغلب الظن ان مراد الشاعر الذى وضع هذا النشيد أن النيل يدخل حدود مصر عند هاتين الصخرتين فكأنه يولد عندهما بالنسبة لها . وهذا تعبير شعرى جائز . والذين قرأوا كتابات المصريين فى ذلك العهد وما بعده يعرفون أنهم كانوا مشغوفين بالمعانى المجازية . فليس يبعد أن يكون ما كتبه الشاعر هنا جاريا هذا المجرى، والجملة التى نقلناها عنه هنا تدل كل كلمة منها على إمعانه فى هذا الضرب من التخيل .

أما إذا قلنا إن الشاعر لم يرد معنى مجازيا ، وانما اراد معنى حقيقيا كان المصريون يعتقدونه ، فنلاحظ اولا أن الشاعر اكتفى بأن يقول إن النيل يظهر من بين صخرتين عند ايلفنتين ، ولم يقل شيئا من السخافة التى نقلها هيرودوت ، وهى أن شطرا منه يجرى إلى مصر وشطرا يجرى إلى النوبة ، ونلاحظ ثانيا أن جميع علماء الآثار المصرية متفقون على أن نقوش الأهرام تسجل أساطير كانت عامة المصريين تعتقدها فيما قبل التاريخ ، أى حينما كانت المدنية المصرية تحبو كما يحبو الطفل . أما ماذكره هيرودوت فقد نقله عن موظف وقت زيارته مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد . فبين أسطورة الأهرام ورواية هيرودوت خمسة آلاف سنة على الأقل ، وهذه مدة من الزمن تتبدل فيها أعظم الأساطير وتتغير أقوى الآراء والمعتقدات .

* * *

ولما زار هيرودوت مصر وطاف فى مدنها كان مما لفت نظره ان للمرأة المصرية من المقام فى الأسرة ، والاحترام فى المجتمع ، والحقـوق فى المعاملات ، والحرية فى غشيان الأسواق وفى البيع والشراء ، ما لا مثيل له فى بلاده ، فكتب يقول إن الرجل فى مصر يباشر شئون البيت والمرأة تباشر الشئون خارج البيت (1) . ولم يكن هيرودوت صادقا فى هذا ولكنه رأى شيئا لم يألفه فأخطأ فى فهمه وتفسيره .

---

(1) اليك ما كتبه فى ذلك هيرودوت فى الفقرة ٣٥ من كتابه . قال :

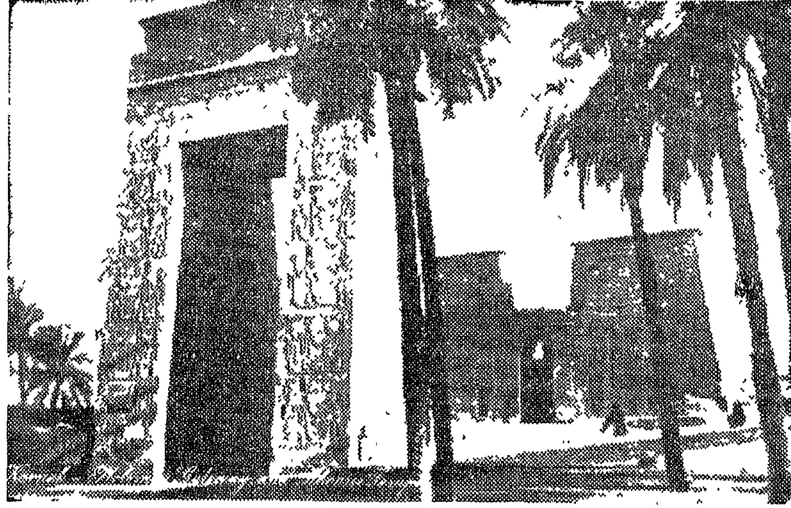
« ان المصريين الذين يعيشون فى مناخ لا نظير له ، وحول نهر تخلف طبيعته عن طبيعة الأنهار الأخرى ، جروا فى كل شىء تقريبا على أخلاق وعادات تخالف أخلاق غيرهم من الناس وعاداتهم . فالمرأة لديهم هى التى تذهب الى السوق وتشترى الأشياء بينما الرجل يقعد فى البيت وينسج » .

وقد خلط هيرودوت بعد ذلك أشياء صحيحة بأشياء غير صحيحة فقال :

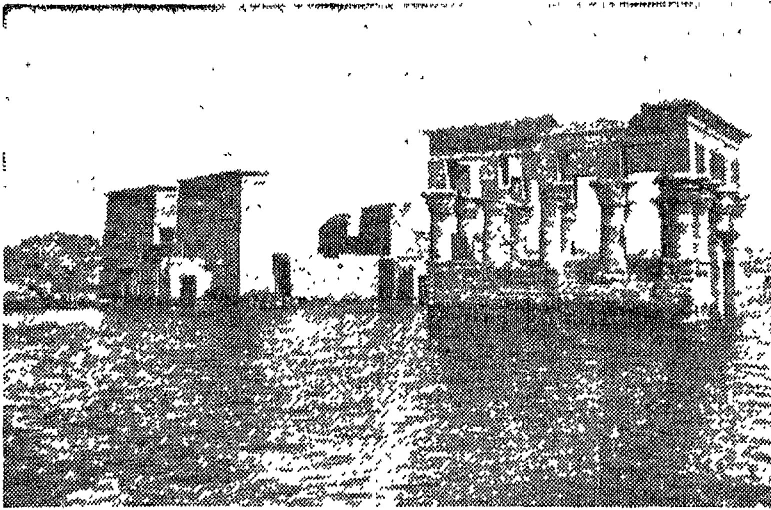
« وفى البلاد الأخرى يضمون الشبكة الى أعلى لينسجوا ، أما فى مصر فانهم يجذبونها الى أسفل . والرجال فى مصر يحملون الأحمال على رؤوسهم بينما النساء يحملنها على أكتافهن . والمرأة تبول واقفة . والرجل يبول قاعدا القرفصاء . وهم يتبرزون فى البيوت ويأكلون فى الشوارع . والعلة عندهم فى ذلك أن الاعمال الضرورية التى تخدش الآداب ينبغى أن تعمل سرا ، أما الاعمال التى لا تخدش الآداب فينبغى أن تعمل جهرا . ولا توجد امرأة تباشر الكهانة لمعبود أو معبودة ، وانما الرجال هم الكهان للمعبودات جميعا . وليس الابن ملزما بأن يعول ابويه ، فله أن يفعل والا يفعل ، أما البنت فملزمة ولو لم ترد . والكهان فى البلاد الاخرى يرسلون شعورهم ، ولكنهم فى مصر يحلقونها . ومن عادات الشعوب الأخرى فى الحداد أن يحلق أهل الميت شعور رؤوسهم أما المصريون فيرسلونها بعد أن كانت محلوقة . وغير المصريين يقيمون بعيدين عن الحيوانات والمصريون يقيمون معها . وغيرهم يعيشون على القمح والشعير وهم يجعلون طعامهم من نبات « الأوليرا » وبعضهم يسميه « ظيا » — (لم يعرف العلماء هذا النوع من النبات وقد ذهب بعضهم الى أن المقصود به الذرة) — والمصريون يعجنون الخبز بأرجلهم ويعجنون الطين (الذى تصنع منه الأوانى) بأيديهم . وهم يجمعون روث البهائم . والرجال فى جميع الشعوب يتركون أعضاءهم التناسلية على حالتها الطبيعية الا المصريين والذين تعلموا منهم فهم يختتنون . والرجل فى مصر يلبس ثوبين والمرأة تلبس ثوبا واحدا . والعادة عند جميع الأمم أن تثبت الحلقات والحبال التى لطلوع المراكب فى الظاهر من افريز المركب ، الا فى مصر فانها تثبت فى باطن الافريز . والاغريق يكتبون ويرصون الحصى الذى يستعملونه فى الحساب من الشمال الى اليمين بينما المصريون يكتبون ويحسبون من اليمين الى الشمال . وهم يقولون انهم أصحاب اليمين وغيرهم أصحاب الشمال . ولهم نوعان من الكتابة احدهما مقدس والثانى شعبى » .

انتهى ما كتبه هيرودوت فى هذا . وكل الذين درسوا التاريخ المصرى القديم ، كما دلت عليه النقوش وأوراق البردى ، لا كما دلت عليه كتب هيرودوت وغيره من الكتاب اليونانيين والرومانيين ، يعرفون الى أى حد خلط هيرودوت فى أقواله هذه فمزج حقائق قليلة بأخطاء كثيرة . ويكاد هيرودوت لم يقع على حقائق الا فى قوله أن المصريين يختتنون وانهم هم الذين علموا غيرهم الاختتان ، ثم فى قوله ان كهنتهم يحلقون شعورهم ، ثم فى قوله انهم يرسلون شعورهم فى الحداد ، اما فيما عدا ذلك فليس الا الخطأ الظاهر والخلط البين . ولهذا ولأشياء اخرى قال الذين بحثوا مزاعم =

من آيات الصانع المصري



بوابة البطالسة
ومعبد خنسو
(الكرنك)



معبد ايزيس
(جزيرة فيلى أو ((ايلفنتين)))



طريق الكباش
(الكرنك)

وعثر العلماء منذ سنين على ورقة بردى يظن انها كتبت فى عهد رمسيس الثانى وفيها أن بعض الأيام والساعات ميمون وبعضها الآخر مشــــئوم . فيوم ٤ طوبة طيب طيب طيب ، وكل شىء نظرته فيه يكون ميمونا ، وكل من ولد فيه يموت شيخا كبيرا . ويوم ٥ طوبة شؤم شؤم شؤم ، فلا يجتمع فيه بامرأة وقت ظهور القمر ، واحترس فيه من وقوعك فى النار التى توقد فى دارك . ويوم ٨ طوبة طيب طيب طيب ، كل ما نظرته فيه عيناك تعطيك إياه المعبودات ، وفيه يشفى المرضى . ومن يولد يوم ٤ أو ٥ او ٦ بابه

= هيرودوت هذه انه لم يدرس ما شاهده فى مصر درسا يمكن الركون اليه . والتمس له بعضهم عذرا فقالوا انه لم يختلط بالمجتمع المصرى بل رأى بعض السوقة فى الطرق فشاهد من أفراد منهم مناظر شاذة فحكم بها على المجموع . مثله فى ذلك كمثل كثير من السياح الذين يفدون الى مصر فى هذه الايام .

وما دمنا قد ذكرنا هذا ، يحسن أن نذكر كيف تظهـــر حالة المجتمع المصرى على ضوء الآثار التى خلفها المصريون ، لا على ضوء ماكتبه هيرودوت أو غيره ممن لم يفهموهم . ونستند فى هذا الى شهادة عالم انجليزى هو الاستاذ ارثر ويجل (Arthur Weigall) أحد كبار الموظفين السابقين فى مصلحة الآثار المصرية ، فقد لخص فى كتابه الذى ترجم الى الفرنسيه تحت عنوان :

(Histoire de l'Ancienne Egypte.)

وطبــع بباريس فى سـنة ١٩٣٥ ص ١٥٧ ما دلت عليــه الاثار من مظاهر الحيــاة الاجتماعية المصرية فى عهـــد الأسرة الثامنة عشرة والاسر التى تلتها فقال :

« كانت الحياة فى ذلك العهد ناعمة بالغة حدا بعيدا من التأنق ، حتى ليدهشنا ما نراه فيها من أوجه الشبه بالحياة فى عصرنا هذا الحاضر . فقد كان اهل الطبقات العليا ينامون على اسرة ذات اغطية ووسائد محشوة بالريش تشبه اغطيتنا ووسائدنا فى هذا العصر شبها كبيرا . وكانوا يجلسون مثلنا على كراسى محشوة بالشعر . وكانت الغرف تضاء بمصابيح زيتية ، تعكس ضوءها حيطان مكسوة بالمرمر الأبيض الشفاف . وكان النساء يضعن الدهان الأحمر فى شفاههن وخدودهن . وكن يتكحلن بالـكحل الاسود ويصبغن شعورهن . أما الرجال فكانوا يحلقون شعورهم بأمواس من المعدن . وكان من المألوف أن يعنى الرجال عناية خاصة بتنظيف اظافر أيديهم واقدامهم ثم بتسويتها . وكان الاطفال يلعبون بالعرائس من القماش ، وبالاطواق من المعدن ، وبالكرات المختلفة ، كما كانوا يلعبون ببهلوانات ذات خيوط تتحرك بهـا اجزاؤها . وفى المدرسة كان هؤلاء الاطفال يتعلمون كما يتعـلم اطفالنا الآن القراءة والكتابة والحساب .

« وكان الرجال يلبسون قفازات حين يخرجون من بيوتهم » وكانوا اذا شعروا بالظمأ فى وقت الحر تناولوا مرطبات بواسطة قصبة فارغة الجوف كقصبة القش التى نشرب بها نحن الآن . وكانوا اذا عادوا الى بيوتهم غسلوا أيديهم فى أحواض وبأباريق كالتى نستعملها فى عصرنا هذا .

« وفى الحفلات كان نافخون ينفخون فى نفر طويلة من الفضة . أما المدعوون فكانوا يتمتعون بمشــاهدة الرقص وسماع الغناء والاصغاء الى موسيقى مؤلفة من قيثارات ونايات ونقارات وصاجات وطبول . وكانت لهم العاب يتسلى بها الرجال والنساء فى البيوت منها الضامة والزهر والعاب أخرى من العاب الاجتماعات الخاصة .

« تلك أمثلة قليلة ذكرناها هنا اتفاقا ، ومن غير ان نفرد للموضوع بحثا خاصا ، وهى تكفى لاظهار أن المصريين فى ذلك العصر لم يكونوا على الطباع الغريبة التى نسبها اليهم بعض الكتاب . نعم انهم بما كانوا يضعونه على رؤوسهم من الشعور المستعارة ، وبما كانوا يلبسونه من الملابس المختلفة المتداخلة ، ثم بما كانوا يأخذون به أنفسهم من الآداب والتقاليد الجمة ... بهذا كله يظهرون امام أعيننا عند النظرة الأولى غرباء عنا ، كأنهم صينيون أو يابانيون من اهل الجيـل الغابر ، ولكن النظرة الفاحصة تنطق بأن عاداتهم قريبة كل القرب من عقلنا الغربى ، وان افكارهم متصلة بأفكارنا الى حد بعيد فى بعض الأحيان » .

هذه هى شهادة الحق التى كتبها أرثر ويجل ، وهى ترسم صورة للمصريين غير الصورة المزيفة التى رسمها هيرودوت . وقد طعن نفس مترجم هيرودوت من اليونانية الى الفرنســية (Ph. E. Legrand) فى الصورة التى رسمها هيرودوت للمصريين وحكم منها بأنه لم يختلط بالمجتمع المصرى (ص ٣٠ و ٣٥ من مقدمة كتاب هيرودوت) .

وقد ذكر هيرودوت فيما نقلناه عنه أنه « لا توجد امرأة تباشر الكهانة لمعبـود أو معبـودة وانما الرجال هم الـكهان للمعبودات جميعا » . وهـذا خطأ ، فقد دلت الآثار عـلى ان النساء كن يكهن للمعبودتين « نيت » و « هاتور » ولمعبودات أخرى . كما دلت الآثار على أنه كانت توجد فى معبد أمون فى طيبة طوائف من النســاء ملحقــات به . فبعضهن للرقص امـام المعبود فى مواكبه وحفلاته ، وبعضهن للغناء ، وبعضهن للضرب على آلات موسيقية ، وبعضهن للكهانة . وكانت كبيرة الكاهنات تلقب بالرئيسـة العليـا لسيدات أمون أو بزوجة أمون ، وهى فى الغالب الملكة أو بنت الملك أو زوجة الكاهن الاعلى أو أرملته . وفى عهد الأسرة الثانية والعشرين صارت زوجة أمون حاكمة لطيبة فصارت ذات سلطة ادارية واسعة . واستمر هذا التقليد الى ان دخل الفرس مصر فى سنة ٥٢٥ ق.م وكانت زوجة أمون حينذاك بنت بسماتيك الثالث .

على أن من الانصاف لهيرودوت أن نذكر انه عاد بعـد كلامه الذى اوردناه فقال فى وصف المصريين :

« ان القوم الذين هم اشد الناس استمساكا بالعقائد الدينية (يريد المصريين) يتبعون القواعد الآتية :

« فهم جميعا ، لا فريق منهم دون فريق ، يشربون فى أوان من البرنز ينظفونها كل يوم تنظيفا دقيقا . وهم يلبســون ملابس من الكتان يعتنون دائما بغسلها اعتناء كبيرا . وهم يختتنون رغبة فى النظافة لأنهم يرون أن النظافة خير للجسم . وكهنتهـم يحلقون اجسامهم مرة كل يومين حتى لا تعلق بهم اية حشرة وهم يخدمون معبوداتهم . ولا يلبس هؤلاء الكهنة غير لباس من الكتان وأحذية مصنوعة من نبات البردى . ومن المحظور عليهم أن يلبسوا ملابس من قماش آخر واحذية من نوع آخر . وهم يغتسلون بالمـاء البارد مرتين بالنهار ومرتين بالليل » .



لوحة محفوظة فى القسم المصرى من متحف برلين وهى تمثل جنديا سوريا اراد ان يشرب شرابا فاعطاه الخادم المصرى غابة يشرب بها

يموت بالحمى الأجامية أو بسبب العشق أو بسبب السكر . ومن يولد فى ٢٣ كيهك يلدغه ثعبان فيقتله . ومن يولد فى ١٩ أو ٢٩ كيهك يعيش طويلا ويمضى حياته فى لذة وسرور واحترام ... الخ (١) .

ولا أمضى إلى أكثر من هذا فى اقتباس ما فى ورقة البردى هذه لأنى لا أفتح هنا باب بحث خاص فيها ، ولكنى أقول إن كثيرا من الباحثين لم يكادوا يقفون على هذه « التوقيعات » حتى ذهبوا من التخصيص إلى التعميم وحكموا بما فيها على المصريين . وحينئذ لم تبق هذه الخرافات معزوة إلى كاتبها ، بل صارت عقائد كان المصريون يعتقدونها أجمعين . بهذا قال علماء من أمثال ماسپيرو(٢) واحمد كمال باشا(٣) وغيرهما ممن لا ينكر أحد فضلهم فى خدمة التاريخ المصرى وإظهار فضائله . وأنا أخالف أصحاب هذا القول وأرى انه يكون عجيبا إلى أقصى حدود العجب أن تستمر المدنية المصرية أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، ثم يبقى المصريون على اعتقادهم أن من يولد فى يوم ٤ طوبة يموت شيخا ، ومن يولد فى يوم ٢٣ كيهك يموت بأنياب تمساح ، ومن يولد فى يوم ٢٧ كيهك يموت بلدغة ثعبان ، وغير ذلك من التقديرات التى تتناول أكثر أيام السنة ، كأنما ثلاثة آلاف سنة لم تكف لاقناعهم بأن هذه التقديرات حساب غير صحيح .

والأمر فى هذه التقديرات بعد ذلك هين ، فمثلها موجود بيننا فى مصر ، وموجود فى أوربا ، إلى اليوم . وهانذا أفتح تقويم « طوالع الملوك » لسنة ١٩٣٦ ، فأجد فيه ما يأتى :

الثلاثاء	٥ مايو	يوم جيد لمقابلة الحكام .
الخميس	١١ يونية	يوم جيد لتجار البحر
الثلاثاء	٢٣ يونية	يوم يخاف فيه من لبس الجديد .
الأربعاء	٢٤ يونية	يوم سعيد لرفع البناء
الثلاثاء	٣٠ يونية	يوم سعيد لمقابلة الملوك .
الثلاثاء	٧ يولية	ظهور الحق لذى عينين .
الأحد	١٩ يولية	يستحب دخول الحمام .
الثلاثاء	١١ أغسطس	تموت الحية الرقطاء تحت حكم السلاح .
الاثنين	٣١ أغسطس	يوم سعيد لقضاء الحوائج .
السبت	٣١ اكتوبر	يجتنب الفصد والحجامة .
السبت	١٤ نوفمبر	يوم سعيد لحفر الآبار .
الاثنين	١٦ نوفمبر	أوان ظهور الملاحم الدموية .

والتقويم مشحون بكثير من أمثال هذه « التوقيعات » . ومثله « تقويم الأسيوطى » لسنة ١٩٣٦ ، وفى أوربا تقاويم من هذا النوع . فهل الذى يقرأ هذه التقاويم يسوغ له ان يحكم بأن المصريين والأوربيين يعتقدون ما فيها ؟ وهل إذا اتفق أن عثر الباحثون بعد ثلاثة آلاف عام على تقويم من هذه التقاويم يسوغ لهم أن يعزوا ما فيه من الخرافات إلى جميع اهل الزمن الذى عاش صاحبه فيه ؟

ولاحظ فوق هذا أن الذين يعزون إلى المصريين ما فى ورقة ساليير من الخرافات لايعزونه إلى المصريين الذين عاصروا كاتبها فحسب ، بل إلى المصريين فى جميع العصور ، أى فى ثلاثة آلاف من السنين ! !

(١) ورقة البردى هذه موجودة فى القسم المصرى من المتحف البريطانى وتسمى ورقة ساليير (Sallier) رقم ٤ . وأول من ترجمها العالم شاباس (Chabas)

(٢) كتاب (Causeries d'Egypte) من ص١٤٩ الى ص١٥٨

(٣) كتاب الحضارة المديمة جزء أول من ص ١١٦ الى ص ١١٨

فورقة ساليير لا تزيد قيمتها عندى على قيمة « طوالع الملوك » أو « تقويم الأسيوطى » ، والخرافات التى فيها لا تتعدى صاحبها وجماعة من الجهلة يوجدون فى كل عصر وكل بلد ، فلا يحكم بهم على البلد الذى هم فيه .

* * *

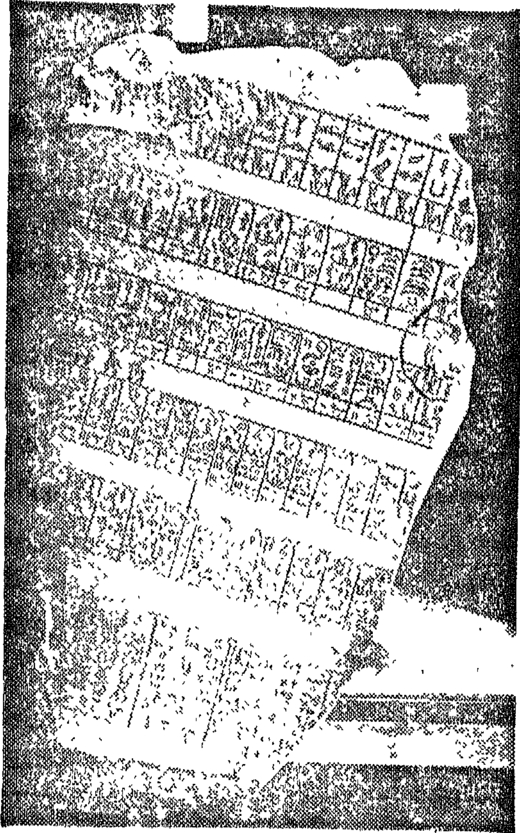
ومثل آخر من امثلة الخرافات المكذوبة على المصريين :

زعم المؤرخون العرب أن للنيل عروسا كان المصريون يقدمونها له كل سنة فلم يبطلها إلا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

« قال ابن الحكم : لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إلى عمرو حين دخل بؤنة من أشهر العجم فقالوا له : أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها . فقال لهم : وما ذاك ؟ قالوا : إنه إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل مايكون ثم ألقيناها فى النيل . فقال لهم عمرو : هذا لا يكون فى الاسلام وإن الاسلام يهدم ماقبله . فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى وهو لا يجرى قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء . فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بذلك ، فكتب إليه عمر أن قد أصبت . إن الاسلام يهدم ماكان قبله ، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها فى النيل إذا أتاك كتابى . فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فاذا فيها : « من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر . أما بعد ، فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك» . فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل . وأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا فى ليلة وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر » .

تلك هى القصة . وقد ذكر ابن عبد الحكم أن الرسول الذى حمل البطاقة كان يسمى جاحل الصدفى . فالذى يقرأ هذه البيانات المفصلة يظن أول وهلة أنها نقلت من سجلات حكومة المدينة أو سجلات حكومة مصر فى عهد عمر وعمرو . وقد شاعت هذه القصة وتناقلها الكتاب أكثر من ألف سنة ، وهى لا تزيد فى حقيقتها على أن تكون أكذوبة من الأكاذيب المدعاة على المصريين .

نعم هى أكذوبة على الرغم من التفصيلات التى ساقها ابن عبد الحكم ، فقد صار تاريخ مصر القديمة معروفا ، وأنت تقرأه كله فلا تجد فيه أثرا لهذه القصة . وقد دون المصريون ، فيما دونوه عن النيل ، أنهم رفعوه إلى صف المعبودات ، وعنوا بفيضانه فجعلوا له مقاييس يقيسونه بها كل سنة كما نقيسه الآن . وكانوا يسجلون فى سجلات خاصة درجات



حجر بالرم

قطعة من حجر بالرم الذى نقشت عليه أسماء الملوك فى عصر ماقبل الأسر ، ثم فى عصر الأسر الى منتصف الأسرة الخامسة . وقد نقشت عليه أيضا مقاييس النيل

علوه وانخفاضه فى أوقات معينة من كل سنة كما نسجلها الآن . وقد سجلوا هذه الدرجات على بعض حجارة المعابد . ولا يزال حجر « بالرم » واعمدة الكرنك وصخور اسوان والنوبة شاهدة بذلك (١) . فلو أنهم كانوا يلقون فيه عروسا كل سنة لكى يفيض لأشاروا إلى هذه العروس حين إشارتهم إلى الفيضان ودرجاته .

أضف إلى ذلك أن فيما دونوه عن النيل ذكرا لسنى جدب ومجاعة رزئت بها مصر بسبب انخفاض الفيضان ، وهم لم يذكروا فى ذلك عروسا قدمت أو كانت تقدم ، ولو أن هناك عروسا لوجب أن تذكر فى خلال ذكرهم تلك السنين (٢) .

ثم إن فيما تركه لنا المصريون من الآثار وصفا لاحتفالات دينية كانت تقام للنيل المرفوع إلى صف المعبودات ، وقصائد وجهها إليه الشعراء ، وأغانى تغنى به فيها المغنون ، وهذه الاحتفالات والقصائد والأغانى خالية كلها من أية إشارة إلى إلقاء فتاة فيه تسمى عروس النيل ، ولو أن قصة هذه العروس كانت صحيحة لما خلت منها .

---

(١) حجر بالرم هو حجريظنانه بقية من بقايا معبد هليوبوليس. وقد نقش عليه تاريخ ملوك مصر فى العصر السابق على عصر الأسر ثم تاريخ الأسر الخمس الأولى بأن قسم الى خانات متوالية خصصت كل خانة منها لذكر اهم ما وقع فى كل سنة واقصى الدرجات التى وصل اليها ارتفاع النيل فى تلك السنة . ولم يوجد من هذا الحجر الا جزء يظن انه عشره . وهو موجود الآن فى متحف بالرم فى جزيرة صقلية ولذلك يسمى حجر بالرم .

وفى متحف القاهرة أجزاء صغيرة يظن انها من حجر آخر كان نسخة ثانية لحجر بالرم .

(٢) كان النيل يسمى حابى . وقد وجد منقوشا على لوحة تذكاريه من الحجر تعرف عند علماء الآثار باسم « لوحة المجاعة » أن النيل جاء منخفضا سبع سنوات متواليات فى عهد الملك زوسر أحد ملوك الأسرة الثالثة فقال هذا الملك :

« اننى حزين لان النيل لم يفض فى عهدى سبع سنوات ، فقلت الغلال ، وجفت الحقول ، وهلك كل مايصلح أن يكون طعاما . وصار الرجل اذا استنجد بجيرانه هربوا منه ولم يأت أحد منهم لانجاده . وصار الطفل يبكى ، والشاب يذبل ، والشيخ يغمى عليه . وصارت سيقانهم جميعا لا تحملهم فهم مطروحون على الارض وقد القوا بأذرعتهم متعارضة على صدورهم » .

ومع أن هذه الاقوال معزوة الى الملك زوسر فقد عرف أن اللوحة نقشت فى عهد البطالسة ، وأن كهنة المعبود خنومو (معبود ايلفنتين) هم الذين نقشوها ثم أضافوا اليها أن الملك زوسر استغاث اذ ذاك بالمعبود خنومو فأغاثه واجرى النيل . وبهذه القصة حصل كهنة خنومو على امتيازات كان المعبد الذى يخدمون فيه قد حرم منها .

ومن هذا يتضح ان القصة مطعون فى صحتها ، ولكن هذا الطعن لا ينقص من قيمتها فيما نحن بسبيله . اذ من الجلى أنه لو كانت عروس تلقى فى النيل كل سنة ، لأشير اليها ولو مرة واحدة على الاقل فى هذه السنوات السبع التى جاء النيل فيها منخفضا ، ثم لقيل ان النيل بقى مع ذلك منخفضا حتى أجراه خنومو ، فيكون ذلك أدل على قدرته وفضله . فخلو القصة من أية اشارة الى =

= العروس لم يكن الا لأنه لم تكن هناك عروس . وهذه اللوحة وجدت فى احدى الجزر بالقرب من أسوان .

* * *

وانخفض النيل فى عهد الملك سنخاورع منتوحتب أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة ففشت مجاعة شملت مصر كلها ، ووصل الينا خبرها فى كتب كتبها بعضهم اذ ذاك . ومن هذه الكتب كتاب كتبه أحد كبار الملاك فى ذلك العهد الى أمه ، وكان يقيم فى الوجه البحرى وكانت أمه تقيم فى الوجه القبلى ، فقال فيه :

« كيف انت ؟ لا تقلقى على فانى حى وفى صحة جيدة ، ولكن البلد يموت جوعا . لقد حصلت لك على كل ما استطعت الحصول عليه من الغذاء .

« ألا يزال النيل شديد الانخفاض ؟ ... ... لا تستائى لقلة ما أبعث به اليك فان نصف الموت خير من الموت » .

ومن تلك الكتب أيضا كتاب كتبه هذا الرجل نفسه الى ولده يقول فيه :

« عليك أن تغذى رجالى حينما يكونون فى العمل . تذكر ذلك ولا تغفل عنه . وليكن وكدك أن تجعل انتاج أرضى أقصى مايمكن . احرث الارض وانصرف الى العمل بكل ما فيك من قوة . جد واجتهد واذكر انك تأكل من عيشى ، وأن من حسن حظك أنى مستطيع أن أقوم بحاجاتك . واذا عاف أحد من رجالى المأكولات التى تقدمها لهم فابعث به الى ليقيم معى ويعيش كما أعيش ، وذلك ما لا يفعله احد غيرى » .

وفى هذه الكلمات ما ينم عن شعور انسانى وعن أخلاق كريمة تستحق ان يقف الباحث عندها .

(كتاب (Histoire de l'Egypte Ancienne) تأليف (Arthur Weigall) ص ٧١ من الترجمة الفرنسية المطبوعة فى باريس فى سنة ١٩٣٥) .

* * *

وقد توفى الملك سنخارع منتوحتب فخلفه الملك نبتاوى رع منتوحتب ، وفى عهده أيضا جاء النيل منخفضا فى بعض السنين فاشتدت المجاعة وأدت الى ثورة فقد فيها الملك عرشه وخلفه عليه وزيره امنمحت . وبذلك انتهت الأسرة الحادية عشرة وابتدأت الأسرة الثانية عشرة .

* * *

وفى كل هذه المجاعات والثورات الناشئة من انخفاض النيل ، وفى كل الكتب التى بقيت لنا من مخلفات تلك العصور ، لم يرد ذكر لشىء يسمى عروس النيل .

نشيد النيل

وننشر هنا نشيد النيل نقلا من ماسبرو الذى ترجمه من النص المصرى فى كتابه :

Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient Classique

ص ٤٠ و ٤١ و ٤٢ من الجزء الأول . ويجب أن نقول هنا أن لماسبيرو موجزا وضعه هو بنفسه لكتابه هذا المؤلف من ثلاثة أجزاء كبيرة ، وهذا الموجز يقع فى جزء واحد ، وقد أثبت فيه هذا النشيد نفسه بعد حذف بعض أجزائه ومع تغيير طفيف جدا فى كلمات قليلة منه . وقد اعتمدنا نحن فى الترجمة العربية التى نثبتها هنا على الترجمة الأولى لأنها أوسع وأوفى . وهذا هو النشيد :

« سلام عليك يا حابى . يا من تخرج إلى هذه الأرض وتأتى لتحيى مصر . يا من تخفى فى الظلمات مجيئك (١) . إنك اللجة تنتشر على الحقول التى يخلقها رع . إنك تعطى الحياة جميع الظمآنين ، ولكنك ترفض أن تروى الصحراء من فيض ماء السماء (٢) . ومتى هبطت فان جب إله الأرض يشغف بالخبز على اختلاف أنواعه ، ونابرى إله الحبوب يقدم قربانه ، وبتاح ينشر الرخاء فى دار صناعته (٣) .

« أنت سيد الأسماك ، متى جزت الشلال (٤) . لم تعد الطيور ترتمى مترديه على الحقول . أنت صانع القمح والشعير وكاسى المعابد حال الأعياد .

« أنت من إذا أضربت عن العمل أصابعه ، أو مرض ، وقع ملايين من الناس فى البؤس . وإذا قل ماؤه فى السماء هلكت الآلهة نفسها ، وهلك الناس ، واستولى الذعر على المواشى ، وصار كل من فى الأرض كبيرا او صغيرا يعانى العذاب .

« أما إذا أجيبت دعوات الناس ، فعلا النيل ، وصار لهم خنومو (٥) . فان الارض حين ظهوره تصيح ابتهاجا ، وكل بطن يفرح ، وكل ظهر يهتز من الضحك ، وكل سن يقطع .

« هو النيل جالب الخيرات ومفيض الخير من المأكولات . هو موجد جميع الأشياء الطيبة . هو سيد جميع النطف والجرائم . هو حلو للذين يصطفيهم . هو موجد العلف للمواشى ، والقرابين لجميع الآلهه . والبخور الذى يأتى منه اجود من كل بحور غيره . وانه ليفيض على البلدين (٦) . فتمتلىء مخازن الحبوب وتزدحم المستودعات وتتوافر حاجات الفقراء .

« إنه ليضع نفسه فى خدمة جميع الأمانى فيجيبها من غير أن ينقص شيئا منها . وهو منشىء السفن . وهو فى غنى عن أن تنقش باسمه نصب من الحجارة او أن تنحت له تماثيل يوضع له التاجان عليها (٧) . وهو لا يراه الراؤون ، ولا يدفع له الناس ضريبة ، ولا يقدمون له هدايا ، ولا يفتنونه بالكلمات ذات الأسرار الخفية ، ولا يعرفون مكانه ، ولا يقفون بالكتابات السحرية على صندوق ذخائره المقدسة .

« وما من بيت يمكن أن تتسع له جوانبك يا حابى ، ولا من إنسان يدخل قلبك . وأبناؤك

---

(١) يرى ماسبرو ان فى قوله « تنحى فى الظلمات مجيئك » اشارة الى أسطورة كانت تقول ان النيل ينبع من نيل فى السماء ، ويجرى فى الظلمات الى أن يكون النيل الذى على الأرض والذى يروى مصر .

(٢) كان من الأساطير المعروفة عند المصريين ، من قبل عصر الأسر ، ان النيل مظهر من مظاهر المعبود أوزريس اله الخير والخصب ، وان الصحراء مظهر من مظاهر سيت اله الشر والجدب . وكان هذان المعبودان أخوين واخ سيت قتل أوزريس فانتقم له حوريس ابنه من ايزيس وحارب سيت حتى انتصر عليه . فقول الشاعر هنا ان النيل يرفض أن يروى الصحراء معناه انه يرفض ان يروى ظمأ اله الشر فى حين أنه « يعطى الحياة جميع الظمآنين » .

(٣) كان المعبود بتاح يلقب فى مبدأ أمره برئيس الصناع ورجال النحت والتصوير . وكان يعبد فى منفيس على هذا المعنى . وحينئذ كانت مصر توصف عند عابديه بأنها دار صناعته . ثم تطور الامر فصار بتاح معبودا عاما وخالقا للكون مثل رع فى عين شمس وامون فى طيبة .

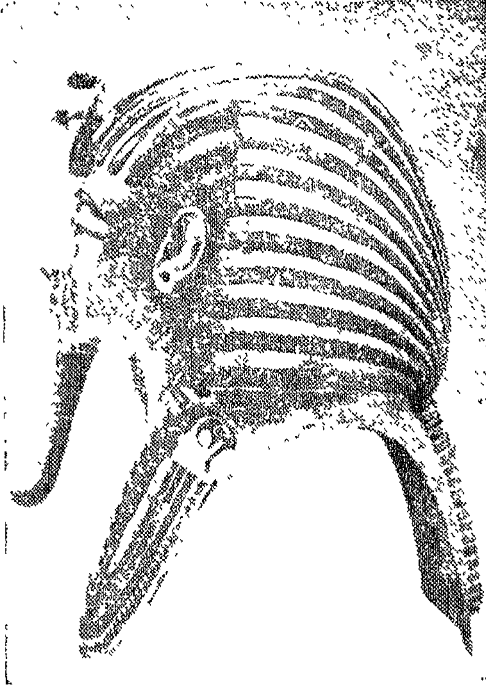
(٤) يريد الشلال الاول لأن النيل يدخل مصر باجتيازه .

(٥) قوله « فصار لهم خنومو » معناه انه صار الاله الذى يصنع بيده من الماء والطمى الخير للناس . وخنومو هو معبود ايلفنتين ، وكان يقال انه هو الذى صنع بيده الكون ويصنع بيده الناس حين يولدون ويصنع جميع الأشياء .

(٦) المراد بالبلدين الوجه القبلى والوجه البحرى من مصر .

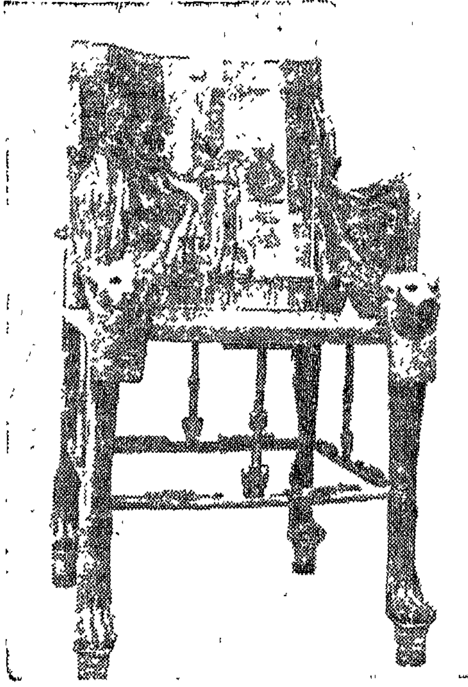
(٧) التاجان هما تاجا الوجه القبلى والوجه البحرى .

من آيات الصانع المصري



قناع مومياء توت عنخ آمون

وهو من الذهب الخالص . وهو يمثل صورة بالغة الدقة للملك . وقد كان هذا القناع يغطى رأس المومياء .



عرش توت عنخ آمون

وهو مصنوع من الخشب المحفور المكفت بالذهب ، وقد رصع بالأحجار الكريمة والفضه ، وصنعت الأرجل على صورة أرجل السنور .



تماثيل لرأس توت عنخ آمون

وهى مصنوعة من الجص فى مهارة فائقة . واتخذت أغطية لصندوق حفظ أحشاء الملك المحنطه .

وذراريهم يبتهجون بك لأنك تحكم كملك تسرى أوامره على الأرض كلها (١) ، ويظهر أمام أهل الجنوب وأهل الشمال على السواء ، ويجفف الدموع من جميع العيون ، ويبذل خيراته بغير حساب .

« واينما يوجد الألم فأنت تحوله إلى فرح . وحينئذ يبتهج كل قلب ، ويقفز سوفكو ، التمساح ابن نيت (٢) من الطرب لأن التتسيع الالهى(٣) الذى يرافقك ينظم كل شىء . فالفيضان الكافى يروى الحقول ويبعث النشاط فى الرجال ، وإذ ذاك يرتوى كل رجل بعمل أخيه من غير أن يتحاكم معه الى القضاء (٤) .

« وإذا كنت تدخل فى خلال الأغانى . وتخرج فى خلال الابتهاج(٥) ، ثم اذا كان الناس يرقصون طربا حينما تخرج من العالم المجهول ، فذلك لأن تثاقلك اضمحلال وفساد . وإذ ذاك يجتمع للابتهال إليك والحصول على مائك السنوى ، أهل طيبة جنبا إلى جنب مع أهل الشمال ، وكل واحد منهم يحمل آلات مهنته ، وليس فيهم من يتأخر عن جاره ، ولا من يلبس ملابس الأعياد التى كان قد تعودها . وأبناء توت ، إله الغنى ، لا يتجملون بالحلى . ومثلهم التتسيع الالهى . والليل عام شامل (٦) . ولكن متى بسطت فيضانك تحلى الكل وتعطروا .

« أيها المعطى الخيرات الحقيقية ، ومن تتجه إليه رغبة الخلق ، ها هى ذى كلمات مزوقة لكى تجيب (٧) ، ان انت أجبت وأعطيت أمواج الاقيانوس السماوى ، فان نابرى إله الحبوب يقدم قربانه ، والآلهة جميعا يعبدونك ، والطيور لا تتردى على الجبل .

« لو أن ما تعجنه يداك كان ذهبا ، أو قوالب من الفضة ، لما أكله الناس ، لأنهم لا يأكلون ذهبا ولا فضة ولا لازورد ، وإنما يأكلون قمحا هو أفضل من الحجارة الكريمة .

« لقد بدأوا يشدون باسمك على القيثارة ، مستلهمين صدى التصفيق بالأيدى . وهؤلاء هم ذرارى ابنائك يفرحون بك ، ويمطرونك برسائل الثناء عليك . ولا عجب فان إله الغنى هو الذى يزين الأرض ويبسط الخير للسفن ، ويبعث الحياة فى قلوب النساء الحاملات ، ويحب أن يتكاثر عدد القطعان .

« حينما ظهرت فى مدينة الملك شبع الغنى ، ولم يعد الصغير يعبأ بزهور اللوتس ، وصار كل شىء ثابتا ومن صنف جيد .

---

(١) المراد بالأرض كلها مصر بقسميها .

(٢) نيت هذه (Nit) غير نيت (Neith) معبودة صالحجر . وتقول الاساطر أنها عجلة ولدت فى الماء الاول الذى خلق منه الكون ، ولها طفلان هما تمساحان .

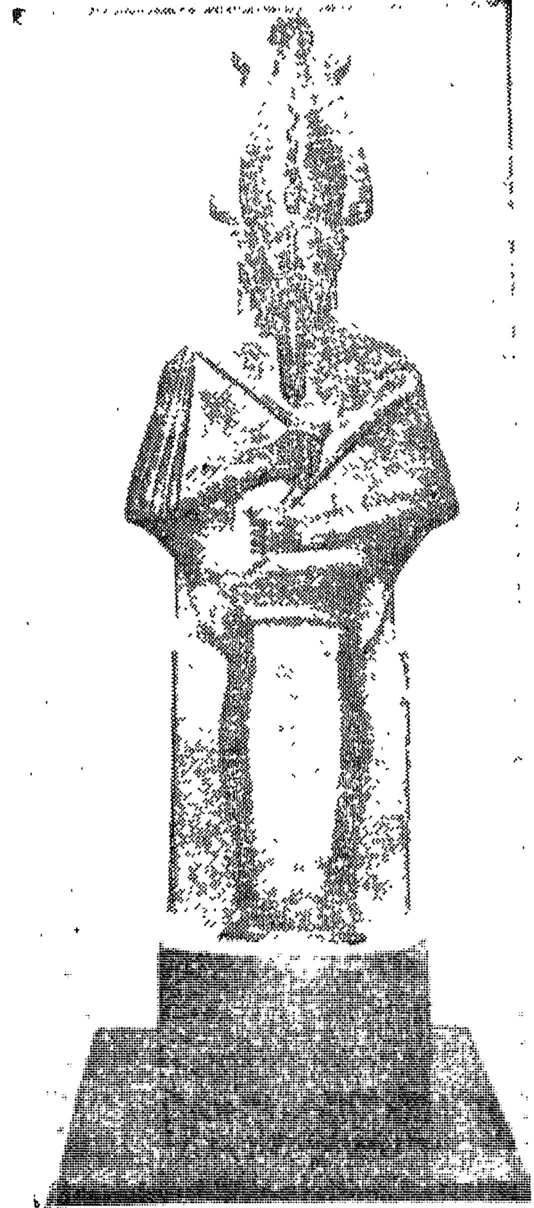
(٣) التتسيع الالهى موجود فى نظرية هليوبوليس عن كيفية خلق العالم . فقد كانت هذه النظرية تقول ان الخالق الاول هو أتوم رع ، وقد بدأ فخلق من نفسه شو (أى القضاء) وزوجته تفنيت . ثم جب (أى الأرض) ونويت (أى السماء) . ثم أوزريس (اله الخير والخصب) وزوجته ايزيس (وهى أخت أوزريس) وسيت (اله الشر والجدب) وزوجته نفتيس . فالمجموع تسعة آلهة . وقد اقتبست المدن الكبيرة هذا التتسيع نفسه بعد أن حولته الى معبودها الاكبر . فمدينة منفيس اخذته ولكنها وضعت معبودها بتاح بدل أتوم رع . ومدينة طيبة وضعت معبودها أمون مكان اتوم رع . ولكن لما كان أمون فى أول نشأته معبودا خامل الذكر فقد ضمت طيبة اليه رع فسمته أمون رع ليفيد من هذه الاضافة . على أنها لم يفتها حينئذ أن تقرر أنه ملك الآلهة وأن تصفه بجميع الأوصاف التى كانت هليوبوليس تصف بها اتوم رع . ومدينة هرموبوليس (الأشمونين) كان لها تتسبع آخر قمرى رئيسه توت.

(٤) يرى ماسبيرو أن فى هذه الجملة اشارة الى المنازعات والقضايا التى كانت تنشأ من توزيع المياه على الحقول حينما يكون النيل واطئا والفيضان قليلا ، أما حينما يكون الفيضان كافيا فلا يبقى محل لمنازعات ولا لقضايا .

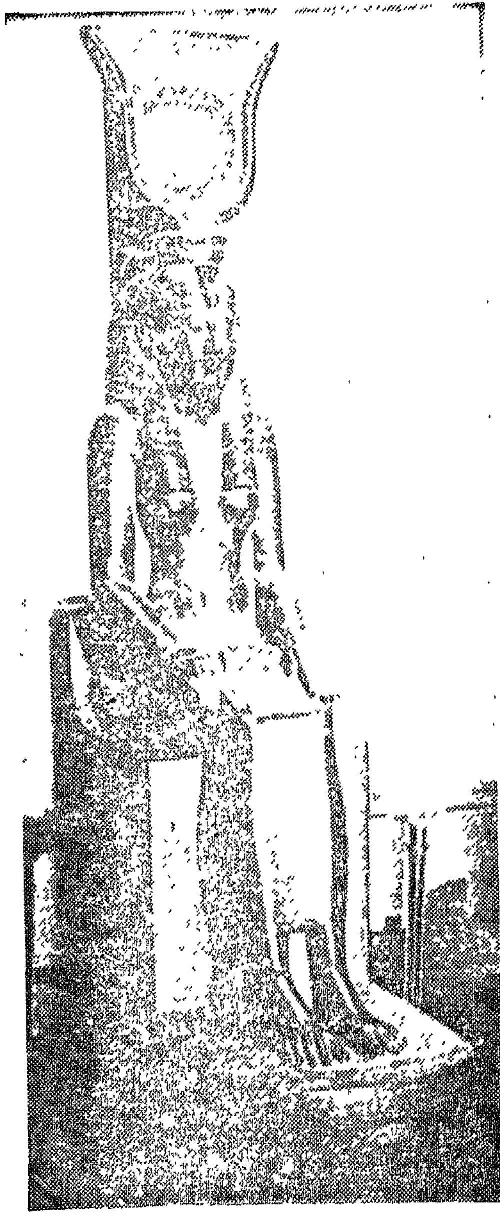
(٥) علق ماسبيرو على هذه الجملة فقال ان النص المصرى فيها مضطرب غير واضح ، وانه جعلها فى هذه الصيغة قياسا على كتابات من هذا النوع موجودة فى متحف اللوفر كان يقال فيها ان فلانا صاحب المقام الكبير يمثل أمام الملك بين كلمات الثناء ويخرج بين الأغانى . وذلك أنه كانت توجد فى البلاط الفرعونى كما كانت توجد فى بلاط بيزانس صيغ مختلفة الدرجات من الاغانى والكلمات لمقابلات الكبراء للملوك . فكأن النيل واحد من هؤلاء الكبراء يستقبل بالغناء ويودع بالابتهاج .

(٦) يصف الشاعر هنا ماذا يفعل اهل مصر حينما يكون النيل متثاقلا اى قليل الفيضان . فيلاحظ أنه ليس فى هذا الوصف أية اشارة لفتاة تلقى فى النيل .

(٧) كان من الأساطير الفاشية اذ ذاك أن الآلهة يمكن التسلط عليها بالوعود المزوقة ولو كانت مما لا يمكن تحقيقه ، وأن الآلهة تنخدع بهذه الوعود فتجيب صاحبها الى ما يطلبه منها . فالمراد بقوله « ها هى ذى كلمات مزوقة لكى تجيب » أن الشاعر يزف الى النيل كلمات مزوقة لكى يفيض .



تمثال أوزريس
اله الخير والخصب



تمثال ايزيس
اخت أوزريس وزوجه

« إنه النيل ، لأبنائه جميع النباتات ، وإذا هو لم يطعم الناس ، هجر النعيم المساكن وأصيبت الأرض بالاضمحلال » .

وقد عرضنا هنا للحفلات الدينية التى كانت تقام للنيل ، فنذكر واحدة منها تمس موضوعنا هذا ، وهى التى كانت تقام كل سنة فى موعد معين لأجل دعوة النيل إلى الفيضان .

كانت هذه الحفلة تقام فى منطقة جبل السلسلة (بين الأقصر وأسوان) . وكان يحضرها الملك فى كثير من الأحيان ، فاذا لم يستطع حضرها مندوب عنه . وقد وجدت ثلاث لوحات واحدة لرمسيس الثانى ، والثانية لمرنفتاح ، والثالثة لرمسيس الثالث . وفى كل واحدة وصف واسع لهذه الحفلة ، وأن الملك حضرها بنفسه . وفى هذا الوصف انه كان يذبح على سبيل القربان للنيل عجل أبيض واوز وطيور أخرى ثم كان يلقى فيه قرطاس من البردى يدعى فيه النيل

إلى أن يفيض . وهذا القرطاس هو كل ما كان يلقى فيه . وكان الكهنة يزعمون أن للكتابة التى فيه قوة سحرية .

فهذه كما رأيت ثلاث لوحات مختلفة ، لثلاثة ملوك مختلفين ، فى عصور مختلفة ، وصفت كل منها الحفلة التى كانت تقام لدعوة النيل إلى الفيضان . وظاهر أنه لو كانت هناك عادة جارية بتقديم عروس لوجب أن تقدم فى هذه الحفلة . ولكن واحدة من اللوحات الثلاث لم تشر إلى شىء يسمى عروسا تلقى أو لاتلقى، وإنما أشارت إلى القرطاس من البردى . ومن البديهى أن إلقاء عروس أهم بكثير من ذبح عجل وأوز وإلقاء قرطاس ، فاشارة اللوحات إلى هذه الأشياء وسكوتها عن شىء يسمى عروسا قاطع فىالدلالة على أنه لم تكن هناك عروس .

على أن كلمة « عروس النيل » ليست اختراعا محضا ، بل هى كلما كان المصريون يقولونها ويريدون منها « أرض مصر » ، وكان معناها عندهم أن النيل متى فاض دخل على أرض مصر كما يدخل الرجل على عروسه . ولا يبعد أن يكون هذا المعنى المجازى هو الذى أدى مع الزمن إلى توهم أن هناك عروسا كانت تلقى .

هذا هو التمحيص التاريخى يثبت أن لا وجود لعروس كانت تلقى فى النيل ، فاذا نحن تركنا هذا التمحيص جانبا ، وانتقلنا إلى التمحيص العقلى وجدناه يدل على أن رواية ابن عبد الحكم لا تستقيم ولا يمكن أن تقبل . أفلا تراه يقول إن النيل بقى « لا يجرى قليلا ولا كثيرا ثلاثة أشهر هى بؤنة وأبيب ومسرى » فهل يمكن أن يبقى فى مصر أثر للحياة إذا جف ماء النيل فلم يجر قليلا ولا كثيرا ثلاثة أشهر متوالية ؟ وهل من المعقول أن يجرى النيل بعد ذلك دفعة واحدة ، وفى ليلة واحدة ، على أثر إلقاء البطاقة ، ستة عشر ذراعا بعد أن كان جافا لا يجرى قليلا ولا كثيرا ؟

وقد فات ابن عبد الحكم أنه جعل قصته هذه فى عهد عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ، وأن مصر فى ذلك العهد كانت مسيحية ولم يكن قد بقى فيها شىء من الوثنية ، بل لقد كان الرومان طاردوا الوثنية وكهنتها وأنصارها حتى انقرضت اللغة المصرية . وكان قد مضى على هذا كله بضع مئات من السنين . وقد تحمس المصريون للمسيحية حينما اعتنقوها حتى كان منهم « الشهداء » الذين يعرفهم التاريخ . فاذا قيل ـ والقول غير صحيح ـ إن العقيدة الوثنية كانت تبيح تقديم عروس للنيل ، فكيف يمكن أن يقال إن العقيدة المسيحية والحكومة المسيحية أقرتا تقديم هذه العروس ؟

لا شك فى أن القصة مخترعة وأن ابن عبد الحكم لم يزنها حينما رواها .

* * *

فأنت ترى مما تقدم أن الخرافات المختلقة على مصر القديمة كثيرة ، وأن الأسباب التى دعت إلى اختلاقها كثيرة أيضا ، وإذن لم تقم المدنية المصرية على هذه الخرافات التى لم يكن لها وجود ، كلا ، ولم تقم على الآراء التى كان المصريون يعتقدونها والتى يظهر لنا الآن أنها فاسدة ، وإنما قامت على أسس علمية وخلقية سليمة ، ولهذا استطاعت أن تعيش أكثر من ثلاثة آلاف عام ، وأن تخطو بالانسان إلى الأمام .

فاذا تيسر لكتابى هذا أن يساهم ، ولو بنصيب ضئيل ، فى جلاء هذه الحقيقة ، فذلك ما أغتبط به ، وهو كل ما أبغى .

مارس سنة ١٩٤٠

عبد القادر حمزة

المدنية المصرية
هل نبتت فى مصر؟
أو طرأت عليها من الكلدان؟

كان الاعتقاد السائد عند العلماء إلى سنة ١٨٦٨ م أن المدنية المصرية تبتدىء فجأة بالأسرة الأولى التى أسسها الملك منا ، أو قبلها بقليل . وكانوا يقولون إن هذه المدنية بدأت فجأة لأنها لم تترب فى مصر بل طرأت عليها مع وافدين غزوها غزوا حربيا أو سلميا ، فعلموها الكتابة وصناعة المعادن وتشييد المبانى وادخلوا إليها دياناتهم ، وكانوا هم الذين أقاموا فيها نظام الحكم على النحو الذى عرف عن الفراعنة . ومن نسل هؤلاء الغزاة كان الملك منا وخلفاؤه (١) .

وتساءل العلماء : من يكون هؤلاء الغزاة ؟ فلم يختلفوا كثيرا ، بل قالوا إنهم من الجنس السامى ، ومن أمة الكلدان .

وتساءل العلماء بعد ذلك : أى طريق سلك هؤلاء الغزاة ؟ فاختلفوا لأن جماعة منهم قالوا : إن الطريق بلاذ اليمن فالبحر الأحمر فالصومال فالنوبة فمصر العليا ، بينما جماعة آخرون قالوا : إن الطريق فلسطين فصحراء سيناء فدلتا مصر . فالأولون رأوا أن مصر غزيت من الجنوب إلى الشمال ، والآخرون رأوا أنها غزيت من الشمال إلى الجنوب . ولكل من الفريقين أدلة لاندخل هنا فيها .

ولكننا إذ ندع هذه الأدلة على غزو مصر من الشمال أو غزوها من الجنوب لا يسعنا إلا أن نسير بايجاز إلى أهم الأدلة التى كان العلماء يستندون اليها ، والتى مازال بعضهم يستند اليها ، ليقولوا إن غزاة من الكلدان غزوا مصر فكانوا هم الذين جلبوا لها المدنية وأسسوا فيها الأسرة الأولى .

فالدليل الاول استعمال معدن النحاس فى صناعة السكاكين والدبابيس والمسامير ورؤوس الحراب ، واستعمال الذهب فى الأسلحة والحلى وغيرها . وقد قال أصحاب هذا الدليل إن النحاس والذهب لم يستعملا فى مصر إلا فى عصر ما قبل الأسر بقليل ، وكان استعمالهما فيها فجأة ، وهذا يفسر انتقال المصريين فجأة من حالة إلى حالة . ولم يذكر أصحاب هذا الرأى الحديد لأنه دخل مصر فى عصر الأسر .

والدليل الثانى استخدام الضمائر فى اللغة المصرية على نحو شبيه بالذى تستخدم به فى اللغات السامية ، ثم شيوع كتابة أسماء الرؤساء والملوك داخل إطارات مستطيلة ، تسمى الآن « خراطيش » ، قبيل عصر الأسر ثم فى عصر الأسر . وهذه العادة كانت توجد عند الكلدان فى ذلك الوقت نفسه .

والدليل الثالث أن المبانى التى وجدت لملوك الأسر الأولى فى نقادة ، وبخاصة للملك « عحا » ذات واجهات مزينة بأشكال مخروطية خارجة وداخلة . وهذا النوع من البناء له شبيه فى مبانى الملوك فى الكلدان .

والدليل الرابع أنه وجدت على بعض الأوانى المخلفة عن عصر ما قبل الأسر رسوم حيوانات خرافية ذات أعناق طويلة (انظر الوجه الثانى من لوحة نعرمر) . وقد وجد مثل هذا النوع من الزخرفة على بعض الأوانى فى الكلدان .

والدليل الخامس وجود قصة منقوشة على معبد إدفو لقوم يسمون « أتباع حوريس » فسرت بما معناه أن هؤلاء الأتباع وفدوا على مصر من جنوبها وغزوها . وحوريس واحد من المعبودات الأولى التى عبدها المصريون .

تلك هى الأدلة ، وقد ذكرناها لأننا سنعود إليها

---

(١) لولا أن جماعة من كبار العلماء هم الذين رفعوا ومازالوا يرفعون الى اليوم راية هذا الرأى لما عنينا هنا عناية خاصة بشرحه وتفنيده . فمن العلماء السابقين الذين قالوا به ماريت باشا وماسبيرو ولبسيوس ونافيل وشوينفورت ومورجان . ومن العلماء الذين ما زالوا يقولون به فلندرز بيترى .

فيما بعد لتثبت أنهــا واهية لايمكن أن يبنى عليهــا افتراض حادث تاريخي جسيم ، كغزو الكلدانيين مصر ونقلهم المدنية إليها .

***

كان هذا إذن هو الاعتقاد السائد عند العلماء إلى سنة ١٨٦٨ م ، وكانوا لهذا يقولون إن مصر لم تعرف العصر الحجرى (١) بالترتيب الذى عرفته به امم أوربا ، بل كانوا يقولون إن من العبث البحث فيها عن عصــور ما قبــل التاريخ . ففى تلك السنة دعــا الخديو اســماعيل ملوك أوربا وعلماءها للاحتفــال بافتتــاح قنــاة الســويس ، وكان من بينهــم العالم الجيولوجى أرسلين (٢) ، فجاب مصر صعودا وهبوطا فاستوقفت نظره أدوات من الحجارة وجدها بالقرب من منطقة الأهرام تشبه الأدوات الحجــرية التى وجدت فى أوربا ، ثم لما بحث فى الأقصر وجــد فى وادى الملوك أدوات وأسلحة حجرية مصقولة .

وبعد ذلك بسنتين وجد العالمان هامى(٣) ولينرمان(٤) فى الأقصر مجموعة أخرى مــن الأدوات والاسلحــة الحجرية المصقولة وغير المصقولة .

وعندئذ فتح أمــام المجمع العلمى المصرى (٥) باب البحث فى هل العصر الحجرى يوجــد فى مصر كمــا يوجد فى أوربا أو لا ، فرفض العلماء المصرولوجيون أن يقولوا بوجوده ، ومنهم ثلاثة كانوا فى ذلك الوقت من زعماء المصرولوجيا وهم ماربيت باشا (٦) ولبسيوس(٧) وشاباس (٨) فانهزم القائلون بوجود العصر الحجرى . وكانت اعظم حجــة لهؤلاء الرافضــين أن الأدوات والأسلحة الحجرية توجد فى بعــض قبــور الدولة القديمــة ، اى فى الوقت الذى كان المصريون فيــه يصنعون المعادن صناعة راقية . فالعصر الحجرى مختلط عندهم إذن بعصر المعادن ولا يمكن فصــل احدهما من الآخر .

قالوا : وسبب هذا أن المدنية طرأت على مصر فجاة من الخارج بينما كان اهلها لايزالون فى الحالة البدائية ، وبذلك اختلطت عندهم المدنية بالبدائية ، وكان الأثر الملموس لهذا وجود الاسلحة والادوات الحجرية فى قبور الدولة القديمة ، إلى جانب الأسلحة والأدوات المعدنية .

وكانت هذه الهزيمة قاسية ولكنها لم تثن من همة الباحثين عن العصر الحجــرى فى مصر ، فتوالت بحوثهم ، وتوالت معها كشوفهم . ولا نستطيع هنا أن نخوض فى هذه وتلك لأن للخوض فيها كتبا خاصة ، فيكفينا أن نقول إن البحوث والكشوف استمرت بغير انقطاع ، وانها مازالت مستمرة الى الآن . وقد ساهم فيها كثير من كبار العلماء ، نذكر منهم ديلانو (٩) فى سنة ١٨٧٢ وكان محل بحثه إسنا وأسوان ، والدكتور ريل (١٠) فى السنة نفسها وكان محل بحثــه حلوان ، والسير جون لوبوك (١١) فى سنة ١٨٧٣ ، والدكتور شوينفورت(١٢) البحالة النمساوى الذى استمر بدرس ارض مصر واعالى النيل نحو اربعين سنة ، وفلندرز بترى(١٣) وجاك دى مورجان(١٤) فى سنتى ١٨٩٦ و ١٨٩٧ وإليه وإلى مساعديه ليجرين(١٥) ودارسى(١٦) وجيكيير (١٧) الذين كانوا موظفين تحت رياسته فى مصلحة الآثار المصرية يرجع كثير من الفضل فى تأييد الرأى القائل

(١) العصر الحجرى هو العصر الذى كانت فيه أدوات الانسان واسلحته من الحجر . وهو ينقسم الى عصرين كبيرين : احدهمــا عصر الحجر غير المصقول ، والثانى عصر الحجر المصقول . وذلك ان الانسان حينما بدأ يتخذ من الحجر ادواته واسلحته لم يكن يعرف كيف يصقلها ، ثم جاء عصر استطاع فيه صقلها ، وبعد ذلك بدأ ينتقل الى عصر استعمال المعادن . فباستعمــال المعــادن ، ولا سيما النحاس والذهب والبرنز ، يبــدأ العصر التــاريخى لان الانسان بدأ فيه يكتب ويقيم المبانى التى تحدثنا الآن آثارها الباقية بأخباره .

والعصور السابقة على استعمال المعادن تســمى كلها عصــور ما قبل التاريخ .

(٢) (Arcelin) (٣) (Hamy)

(٤) (Lenormant) (٥) (Institut Egyptien)

(٦) (Mariette Pacha) وكان مديرا لمصلحة الاثار المصرية .

(٧) (Lepsius) وهو من كبار المصرولوجيين الالمانيين .

(٨) (Chabas) وهو من خلفاء شامبوليون الشاب فى خدمة المصرولوجية .

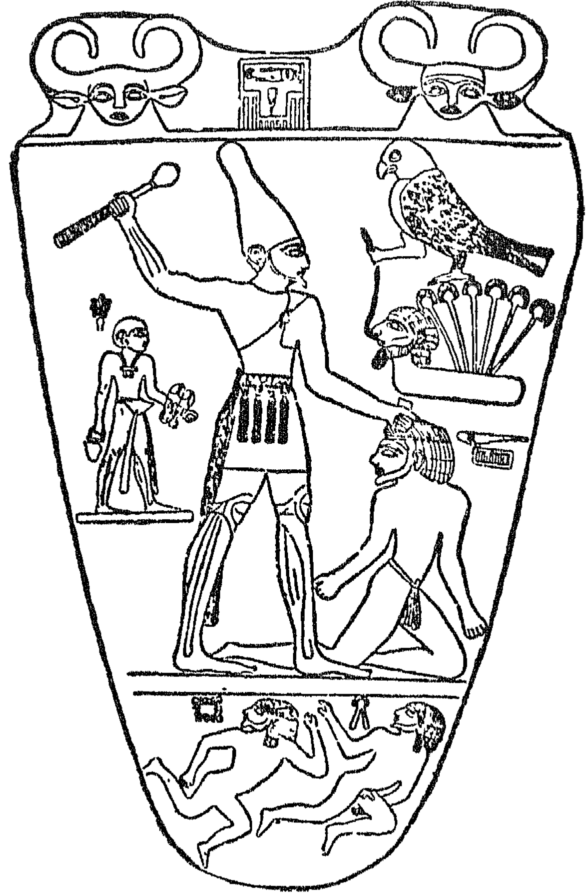
(٩) (Delanoue) (١٠) (Dr. Reil)

(١١) (Sir J. Lubbock) (١٢) (Schweinfurth)

(١٣) (Flinders Petrie) وهو من المصرولوجيين الانجليز المعروفين فى العصر الحاضر (وقت ظهور الطبعة الأولى عام ١٩٤٠) .

(١٤) (J. de Morgan) وكان مديرا لمصلحة الآثار المصرية

(١٥) (Legrain) (١٦) (Daressy) (١٧) (Jequier)



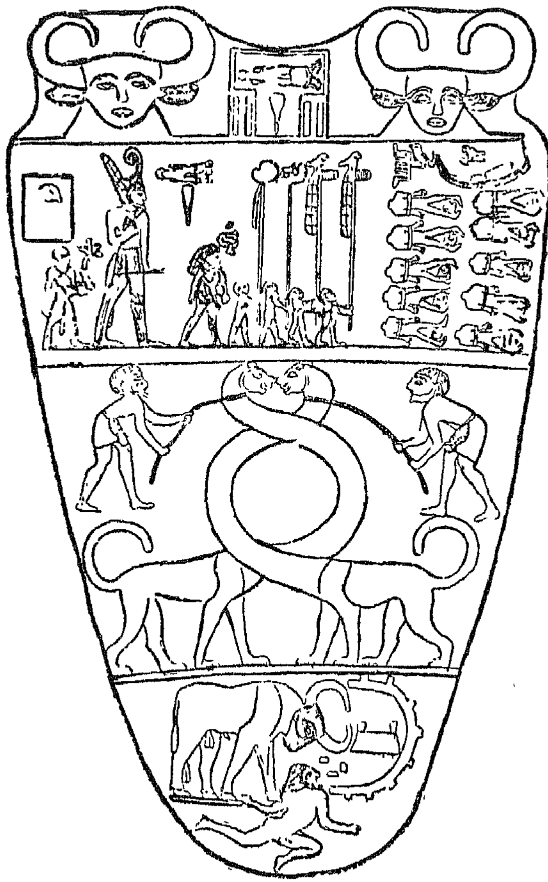
لوحة نعرمر (الوجه الاول)

هذه اللوحة مصنوعة من حجر النيست . وهذا أحد وجهيها. ويرى بعض العلماء (ومنهم برستيد) أن الملك نعرمر واحد من ملوك الاسرة الاولى، ويرى الآخرون (ومنهم مورى) أنه سابق عليها.

وفى هذا الوجه من اللوحة يرى فى وسط الخانة العليا اسم الملك . وفى الخانة التى تليها يرى الملك قابضا بيده اليسرى على شعر رأس أسير جاث امامه من اهالى الاقليم السابع من اقاليم الوجه البحرى . ويحمل الملك فى يده اليمنى مضربا يهم بأن يضرب به هذا الاسير . وامامه الصقر آتيا اليه واحدى قدميه تقبض بمخلبها على راس أسير اسيوى . ومن فوق هذا الأسير ستة سيقان من النبات كل واحدة منها تمثل ألف أسير . فالمجموع ستة آلاف أسير

وكان الصقر معبود مدينة الكاب التى كانت عاصمة للملوك الحوريين أتباع حوريس .

والملك يضع على رأسه التاج الأبيض ، تاج الوجه القبلى .



لوحة نعرمر (الوجه الثانى)

فى هذا الوجه من اللوحة يرى فى الخانة العليا اسم الملك كما هو فى الوجه الاول .

ويرى فى الخانة الثانية الملك لابسا التاج الاحمر ، تاج الوجه البحرى ، وهو يسير وأمامه رجال يحملون أربع شارات هى من شارات الحوريين . ثم عشرة أجسام قطعت رؤوسها ووضعت بين أقدامها .

فمعنى ذلك أن الملك ذاهب الى احتفال قطعت أو ستقطع فيه رؤوس الاسرى .

وفى الخانة الثالثة رسم حيوانين خرافيين لهما منقان طويلان . وهذا النوع من الرسم هو الذى يقول بعض العلماء انه منقول عن الكلدان .

وفى الخانة الرابعة ملك فى شكل ثور كبير يهدم برأسه حصنا ويدوس بقدمه أسيرا اسيويا ، أى شعبا أسيويا .

بوجود العصر الحجرى فى مصر (١) ، ثم أميلينو (٢) سنة ١٨٩٥ وسنين تالية . ثم العالم الأمريكى برستيد (٣) الذى توفى منذ ثلاث سنوات . ثم العالم البلجيكى كابار (٤) ، وهو الآن رئيس المعهد الأثرى المصرى فى بروكسل .

ويطيب لنا هنا أن نذكر أن بعض المصريين اشتغلوا بهذا البحث وانصرفوا إليه انصرافا علميا صحيحا فحصلوا فيه على نتائج قدرها لهم العلماء . ومن هؤلاء المصريين الامير (السابق) كمال الدين حسين وكان أكثر بحوثه فى الواحات والصحراء . ثم المغفور له أمين العمرى وقد كشف منذ بضع سنوات فى شمالى حلوان عن قرية كاملة من قرى العصر الحجرى ثم توفى بعد كشفها بقليل فسماها العلماء باسمه اعترافا بفضله . ثم الأستاذ مصطفى عامر وهو يعمل الآن لحساب الجامعة المصرية فى منطقة المعادى وقد كشف هو أيضا عن قرية من قرى العصر الحجرى .

وهذه الأسماء وحدها — ولحن لم نذكر غير البارز منها — تدل على مقدار الجهود التى اتجهت إلى البحث فى عصور ماقبل التاريخ فى مصر ، وقد ادت كلها إلى نتيجة واحدة لم يبق الآن شك فيها ، وهى أن عصور ماقبل التاريخ توجد فى مصر كما توجد فى أوربا ، وبالترتيب نفسه . ففيها عصر الحجر غير المصقول بأقسامه الفرعية ، وفيها عصر الحجر المصقول بأقسامه الفرعية ايضا ، وفيها أخيرا عصر الانتقال رويدا رويدا من الحجر المصقول إلى المعدن .

ولكن هناك مع ذلك فارقا بين المصرى والأوربى فى العصر الحجرى ، أو بعبارة أصح بين المصرى وغيره من جميع أمم العالم . وهذا الفارق هو أن المصرى اجتاز عصور الحجر بسرعة بينما الأمم الأخرى تأخرت فلم تخرج منها إلا بعد المصرى بأزمنة تتفاوت بتفاوت استعداد كل منها ، فهى عند البعض مئات وعند البعض الآخر ألوف من السنين .

والشعب الوحيد الذى يشترك مع الشعب المصرى فى هذه الميزة هو الشعب الكلدانى ، لأن الطبيعة هيأت له من الأسباب فى وادى دجلة والفرات مثل ماهيأته للشعب المصرى فى وادى النيل (٥) . وإنما الذى يجب أن نسجله هنا هو أن وجود العصور الحجرية فى مصر هدم جانبا من النظرية القائلة بأن المدنية المصرية ليس لها جذور قديمة فى مصر ، وأنها طرأت على يد غزاة من الكلدان غزوا مصر غزوا حربيا أو سلميا .

* * *

إذن توجد فى أرض مصر مخلفات لعصور ماقبل التاريخ ، وإذن يستطيع العلم أن يرشد إلى الحالة التى كانت عليها مصر وكان عليها سكانها منذ أقدم هذه العصور ، فيحسن أن نقول فى هذا كلمة .

قال العلماء : إن الانسان انتشر فى عدة نقط فى أوربا وأفريقيا وآسيا فى عصر واحد تقريبا . ولكن الأرض التى كانت الأسباب الطبيعية المجتمعة فيها إذ ذاك تجعلها أصلح للحياة من غيرها هى ارض وادى النيل وأرض ما بين النهرين (دجلة والفرات) . ولهذا ظهرت المدنية المصرية والمدنية الكلدانية حينما كانت كل أمم العالم الأخرى لاتزال على الحالة البدائية .

والمراد بصلاحية ارض وادى النيل وأرض مابين النهرين للحياة أكثر من غيرهما ، أن أوربا وآسيا كانتا فى ذلك الوقت تهاجمهما سيول من الثلج تلجىء الانسان فيهما إلى أن يعيش فى مغارات الجبال وتمنعه من أن يفارق الحالة الوحشية . ويقال إن عدد السيول التى هاجمت أوربا اربعة ، وإن مدتها تستغرق الوفا من السنين . وكانت الأرض الوحيدة التى انقطعت منها هذه السيول هى الواقعة على سواحل البحر الأبيض المتوسط فى افريقيا وآسيا .

ولكن هذه الأرض لم تكن كلها فى مستوى واحد من حيث الصلاحية للحياة بل كانت فيها بلاد تمتاز

(١) من أعجب ما يقال هنا أن اثبات وجود العصر الحجرى فى مصر كان من الأدلة القوية التى هدمت نظرية طروء المدنية على مصر بواسطة غزاة من الكلدان ، ومع ذلك كان جاك دى مورجان من القائلين بها وقال بها أيضا فلندرز بترى .

(٢) (Amelineau) (٣) (J. H. Breasted)

(٤) (J. Capart)

(٥) دلت كشوف حديثة على أن هناك واديا ثالثا اشترك مع وادى النيل ووادى الفرات ودجلة فى هذه الميزة وفى نتائجها ، وهذا الوادى هو وادى نهر الهندوس فى الهند . ويرى كثير من العلماء أن الكلدانيين الذين أنشأوا أول حضارة فى الكلدان كانوا من اهل هذا الوادى الهندى نزحوا الى دجلة والفرات وهم السومريون المعروفون فى تاريخ الكلدان .

على بلاد . ومن هذه البلاد الممتازة وادى النيل ووادى ما بين النهرين .

قال العلماء ايضا : وكان الوجه البحرى كله غير موجود ، وكانت مياه البحر المتوسط تضرب فى جبل المقطم حيث توجد القاهرة الآن . وكانت الأمطار غزيرة فى صحراء أفريقيا الكبرى ، فكانت تجرى فى هذه الصحراء أنهار ، وكانت أرضها تزدحم بالغابات والأشجار والحيوانات ، وحدث بعد ذلك تحول فى الأمطار فجعلت تقل شيئا فشيئا فى الصحراء وتزداد شيئا فشيئا فى وسط أفريقيا ، وحينئذ بدأ نهر النيل يوجد ويشق طريقا له من أواسط افريقيا إلى البحر الأبيض المتوسط .

ولما جرى النيل أخذت جموع من الانسان تتجمع حوله . ولا يعرف الآن تاريخ صحيح لبدء هذا التجمع ، ولكن من المباحث التى بحثها شوينفرت انه حفر فى مدخل الدلتا حتى وصل إلى عمق ٢٠ مترا فى بعض النقط و٣٠ مترا فى بعضها الآخر ، فوجد أوانى من الفخار وقوالب من الطوب ، ووجد على مثل هذا العمق بالقرب من دمياط جمجمة إنسان . ولما كانت طبقة الطمى التى يكسو بها النيل أرض الدلتا كل سنة معروفة على وجه التقريب ، فقد حسب برستيد فوجد أن الانسان الذى عاش حيث وجدت تلك الجمجمة وتلك الأوانى والقوالب يرجع الى ١٦ الف سنة مضت . ولا يزال باب البحث فى هذا الموضوع مفتوحا ، ولا تزال الكلمة الأخيرة فيه متروكة للمستقبل .

ومر إنسان وادى النيل بالعصر الحجرى ، فكانت أسلحته التى يقاتل بها ويصطاد الحيوانات ، من الحجر غير المصقول ، ثم تقدمت فصارت من الحجر المصقول . وفى هذا العصر الأخير يشهد العلماء جميعا بأن تقدم الانسان فى مصر كان سريعا ، وكان يفوق مثله فى أوربا . فآلات الانسان فى مصر وأسلحته وأدواته تشبه آلات الانسان فى أوربا وأسلحته وأدواته، ولكنها اتقن منها صقلا وأحسن صنعا . وفى هذا الوقت عرف الانسان فى مصر كيف يصنع الفخار الأحمر والأسود ، وكيف يصنع منهما أوانى ، ثم استطاع أن يزين هذه الأوانى برسوم السفن والحيوانات والنباتات .

وفى هذا يقول مورى (١) فى صفحة ١٤٠ من كتابه (Des Clans Aux Empires)

«لم تجد الطبيعة فى ذلك الوقت على بقعة من بقاع الأرض بالخصائص اللازمة لنمو مجتمع انسانى كما جادت على مصر . ولهذا لا توجد فى أية بقعة من بقاع الأرض صناعة من صناعات عصر الحجر المصقول هى فى إتقان الصناعة التى توجد من هذا النوع فى مصر . على أنه لم يوجد فى ما بين النهرين ، ولا فى سوريا أى أثر للانسان سابق على ٤ آلاف سنة قبل الميلاد ، ماخلا نقطا قليلة فى فلسطين لم يحدد تاريخها بعد بدقة ، ولكن يظن أنها من عصر الحجر المصقول . وفى هذا الوقت أى فى حدود أربعة آلاف سنة قبل الميلاد نرى المصريين يدخلون فى العصر التاريخى من عصور المدنية » (٢) .

ويقول برستيد فى الجزء الأول من كتابه (A History of Egypt) فى الصفحة ٢٩ من الترجمة الفرنسية المطبوعة فى بروكسل سنة ١٩٢٦ :

« أن الأسلحة والأدوات التى وجدت فى مصر من الحجر الصوان ، أجمل وأحسن صقلا من جميع الأسلحة والأدوات التى وجدت من هذا النوع فى جميع بلاد العالم » .

---

(١) الاستاذ (A. Moret) كان الرئيس الشرفى لمتحف (Guimet) فى باريس ومدير مدرسة الدراسات العليا فيها . وهو من كبار المصرولوجين فى العصر الحاضر وله فيها مؤلفات عدة . وقد توفى منذ سنتين (مفهوم أنه منذ سنتين من صدور الطبعة الأولى) .

(٢) هذا شاهد من الشواهد التى تهدم نظرية القائلين بأن المدنية طرأت على مصر فجأة على يد غزاة من الكلدان . ولهذا يستمر الاستاذ مورى فى كلمته تلك فيقول :

« يحسن اذن أن نعزو الى عبقرية سكان مصر الاولين ، والى الخصائص الاستثنائية التى توافرت فى وادى النيل ، تقدم هؤلاء المصريين المبكر . وليس هناك دليل على أن هذا التقدم راجع الى غزاة أجانب كانوا قد نالوا من المدنية أكثر مما ناله المصريون . فان وجود هؤلاء الاجانب ، أو على الاقل وجود مدنيتهم ، امر يحتاج الى اثبات » .

ونقول بعد ذلك ان الاستاذ مورى كان من الذين جروا مع نظرية الغزاة الكلدانيين ولكنه عدل عنها فى مؤلفاته الاخيرة .

ويقول جوستاف جيكبير (١) :

« وصل العمل الفنى فى صقل الحجر فى عصر الحجر المصقول فى مصر حدا من الاتقان والدقة يتعذر أن يوجد له مثيل فى أى بلد آخر . وهذه الدقة لا تلاحظ فى أدوات البذخ فقط ، بل تلاحظ فى الأدوات العادية أيضا » .

ومن مخلفات المصريين فى هذا العصر سكاكين ذات حدين كل منهما يماثل الاخر ، وأساور ، ورؤوس سهام ، كلها من الحجر الصوان . ويشهد مورجان أنها « ليست أدوات نافعة فقط ، بل هى أعمال فنية عجيبة أيضا ، تفوق جميع ما خلفه الانسان فى عصر الحجر المصقول فى جميع البلاد الأخرى » (٢) .

ومن مخلفات المصريين فى هذا العصر عظام وجلود وألواح من العظام عليها رسوم مختلفة . ويرى مورجان(٣)أن وجود هذه الأشياء مضافا إليه الرسوم التى وجدت على الألواح العظمية يدلان على أن المصرى إذ ذاك لم يكن يوجه همه إلى صيد الحيوانات ليأكل من لحمها فقط ، بل كان يوجه همه فى صيدها إلى غرض آخر أيضا ، هو اقتناص مايمكن استخدامه منها كالكلب والغزال والخروف والثور والحمار .

ووجدت مع هذه المخلفات حبوب من الشعير والذرة والقمح . ووجدت أسلحة محاريث مصنوعة من الحجر الصوان (٤) . فدلت هذه وتلك على أن المصرى فى عصر الحجر المصقول عرف الزراعة واستطاع أن يستخلص منها النباتات الصالحة لغذائه من النباتات الوحشية (٥) .

وهنا لا يفوتنا أن نقول إن نباتات الشعير والذرة والقمح لم يجدها الانسان أول الأمر كما هى الآن ، بل وجدها نباتات وحشية فأخذ يعالجها قرونا وقرونا حتى استخلص منها الأنواع الصالحة لغذائه . ويرى كثير من العلماء أن الأدلة كافية على أن الانسان فى مصر هو أول من استخلص — على الأقل — القمح المعروف الآن ، من القمح الوحشى .

وقد قال شوينفورت الذى تقدم ذكره : إن القمح الوحشى يوجد الآن فى بعض المناطق المرتفعة فى فلسطين وإيران . وعنده أن هذا دليل على أن المدنية المصرية دخلت مصر على يد غزاة من الكلدان كانوا هم الذين حملوا إليها نبات القمح . ولكن برستيد يخالفه فى هذا ويقول : إن نبات القمح الوحشى وجد فى وادى النيل كما وجد ولا يزال يوجد فى بلاد أخرى . فوجوده فى فلسطين وإيران ليس دليلا على أن المصريين لم يستخلصوا منه نبات القمح المعروف (٥) .

وتلا هذا أن اخترع الانسان فى مصر الكتابة(٦) وتدل إشاراتها ورموزها على أنها ولدت فى مصر خطوة فخطوة ، وترقت فيها خطوة فخطوة . فهى اختراع مصرى محض . ولم يصل هذا الاختراع إلى اللغة التى كانت معروفة فى عهد الملك « منا » إلا بعد مئات ومئات من السنين . وبالكتابة يبدأ العصر التاريخى .

* * *

وقد قلنا فيما تقدم إن النيل جمع سكان مصر الأولين حوله ، فهنا نقول إنه لم يجمعهم حوله فقط ، بل رباهم وعلمهم ، حتى أخرجهم من حالة الوحشية إلى حالة المدنية . وذلك أن أولئك السكان رأوا النيل يفيض فى وقت معين من السنة فيغرق مساكنهم ويلجئهم إلى الهرب منه إلى مناطق بعيدة عن الغرق ، ثم ينسحب ويقل خطره فيعودون إلى حيث كانوا لأنهم لايستطيعون أن يعيشوا بعيدا عنه . فقادهم ذلك إلى إقامة حواجز بينهم وبينه ثم إلى تقوية جسوره .

وعندما ينسحب النيل يترك الأرض التى ينحسر

---

(١) (Gustave Jequier) ص ٥٧ من كتابه :

(Histoire de la Civilisation Egyptienne)

المطبوع فى باريس فى سنة ١٩٣٠ ، والاستاذ هو الآن مدرس علم المصرولوجيا فى جامعة نوشاتل فى فرنسا .

(٢) (J. de Morgan) فى كتابه :

(L'Humanité Préhistorique)

(٣) المصدر السابق من ص ٩٦ الى ص ١٠٠

(٤) سلاح المحراث هو الجزء الأمامى منه الذى يشق الأرض .

(٥) كتاب (J. de Morgan) الذى مر ذكره — الفصل الثانى من الجزء الثانى .

(٥) كتاب (The Origins of Civilisation) المعاد طبعه فى سنة ١٩١٩ ص ٣١٦ .

(٦) اكثر العلماء على أن الكتابة المصرية هى التى عمد الفينيقيون اليها فاختزلوا اشاراتها واستخلصوا منها الحروف الفينيقية . ومعروف أن هذه الحروف هى الاصل فى الحروف الاوربية .

عنهامكسوة بالطمى صالحة للزراعة . ولكن الزراعة تحتاج إلى محاريث لشق الأرض ، وإلى قنوات يجرى الماء فيها ، وإلى آلات للرى ، فصنع المصرى المحاريث من الحجر الصوان وجرها بنفسه فى مبدأ الأمر ثم جرتها الحيوانات المستأنسة . وفى الوقت نفسه شقت القنوات وجرى فيها الماء .

وكان سكان مصر يعيشون قبل الزراعة على صيد الحيوانات والأسماك ، ثم على الحشائش والنباتات المتوحشة وثمار الأشجار ونباتات البردى واللوتس التى كانت تنبت فى المستنقعات . فلما عرفوا الزراعة والفوا التغذى بمحصولاتها ادى بهم ذلك ، بعد تجارب استمرت قرونا وقرونا ، إلى استخلاص القمح والذرة والشعير من النباتات الوحشية .

وكان من الضرورى لهم فى حالتهم هذه الجديدة استخدام بعض الحيوانات فاستخدموا الحمار والخروف والثور .

وكان خطر الغرق لاينفك يهددهم كل سنة ، وكان شره لايقتصر على جماعة منهم دون جماعة ، فقادهم ذلك إلى ان يتعاونوا على دفعه وتنظيم مجرى النيل .

وابتدأ هذا التعاون أول الأمر فى حدود ضيقة بين كل جماعة تعيش فى منطقة واحدة ، ثم امتد من منطقة إلى اخرى . ودعا هذا إلى أن تكون هناك سلطة تنظم التعاون بين أفراد المنطقة الواحدة ثم بين المناطق المتجاورة ، فوجدت الحكومات الاقليمية ، ثم الحكومة الواحدة فى بضعة اقاليم ، ثم الحكومة الواحدة فى كل من الوجه البحرى والوجه القبلى ، ثم الحكومة الواحدة فى الوجهين معا ، وصارت مصر بلادا واحدة ومملكة واحدة .

فالنيل على هذا هو الذى علم سكان مصر الأولين تكوين الجماعات ، وبث فيهم روح التعاون ، فنقلهم من حالة الرجل الهائم على وجهه العائش مع الحيوانات وبين الغابات ، إلى حالة الرجل العائش فى وسط الجماعة من امثاله ، المتعاون معهم ، الخاضع لسلطة حاكمة منظمة .

والنيل هو الذى علم المصريين الزراعة ، حينما كان غيرهم لايزال يعيش على النباتات الوحشية ، وعلى صيد الحيوانات (١) . وهذا الانتقال من المعيشة على صيد الحيوانات وعلى النباتات الوحشية إلى المعيشة على الزراعة ، هو خطوة كبيرة فى تاريخ المدنية فى العالم . وهو الأساس الأول فى وجود المدنية المصرية .

وبهذا يعترف مورى فيقول إن المجهودات العجيبة المنظمة التى بذلها المصرى فى هاتيك القرون « هى التى هيأت للمدنية أن تظهر لأول مرة على وجه الارض »(٢) .

ونحن نضيف إلى ذلك أن النيل هو الذى قاد المصرى فى مجهوداته هذه وغذاه بالعناصر الأساسية للمدنية ، فالمدنية على هذا لم تطرأ على مصر من الخارج ، بل هى بنت النيل ، بنت مصر .

* * *

والآن نظن ان الحقائق العلمية التى مرت هدمت جانبا كبيرا من الفكرة القائلة بطروء المدنية على مصر مع غزاة من الكلدان ، ودلت على أن هذه المدنية نشأت فى مصر ، وخطت فيها خطواتها واحدة بعد أخرى ، من العصر الحجرى إلى عصر التاريخ . وظاهر أن على الذين يقولون بالغزو أن يقدموا دليلا تاريخيا ، وإلا كانوا يبنون قولهم على قرائن هى أدخل فى باب الأمور الفرضية منها فى باب الحقائق العلمية . والدليل التاريخى الوحيد الذى يلجأون إليه هو — كما تقدم — وجود قصة منقوشة على معبد ادفو لقوم يسمون « أتباع حوريس » فسرت بأن هؤلاء الأتباع وفدوا على مصر من جنوبها وغزوها . وحوريس واحد من المعبودات الأولى التى عبدها المصريون . هذا هو دليلهم التاريخى الوحيد ، ومن الذين يقيمون له وزنا كبيرا ماسبيرو واحمد كمال باشا (٣) . ولكن هذا

---

(١) يرى بيرى (M. Perry) فى صفحة ٣٠ من كتابه :
(The Growth of Civilization)

ان مصر هى المهد الاول للزراعة لا ، فيضان النيل وطميه المخصب كانا كافيين لانبات البذور التى تلقى على الارض من غير أى عمل يعمله الانسان .

قال : « ولقد كان يكفى حينئذ أن يوجد العبقرى الذى يشق قنوات تجرى فيها مياه النيل لكى تنتشر هذه وتنتشر معها الزراعة فى سطح أوسع » .

(٢) كتاب (Des Clans Aux Empires) ص ١٤٥ .

(٣) كتاب « الحضارة القديمة » من ص ٣٣ الى ص ٥٢ . ولكن كمال باشا يقول ان اتباع حوريس هم قوم وفدوا من جنوب بلاد العرب ولا يذكر الكلدان . ولا نعرف نحن أية مدنية كانت فى جنوب بلاد العرب فى العصر الحجرى فنقلها أصحابها الى مصر .

الدليل يسقط بقليل من التأمل ، لأن كل مافيه — إذا أخذ على علاته وسيأتى أنه معلول — هو أن أتباع حوريس وفدوا على مصر من جنوبها ، وجنوب مصر قد يكون بلاد النوبة ، أو قد يكون أعالى النيل ، كما قد يكون إقليما من الأقاليم المصرية الجنوبية مثل وادى حلفا او اسوان ، ولكنه لايمكن أن يكون بلاد الكلدان ولا بلاد اليمن .

ثم إن قصة أتباع حوريس مطعون فى قيمتها التاريخية لأنها لم تنقش على معبد إدفو فى العصر الأول من عصور المدنية المصرية ليمكن أن يقال إنها ترديد لحادث تاريخى وقع قبل عصر الأسر ، ثم لما جاء هذا العصر كان أثره لا يزال ماثلا فى الأذهان . بل نقشت القصة فى عصر البطالسة ، لأن المعبد نفسه بنى فى هذا العصر على انقاض معبد قديم ، فبين الوقت الذى نقشت فيه القصة والوقت الذى يعزى فيه إلى اتباع حوريس أنهم وفدوا على مصر اكثر من ستة آلاف سنة أو سبعة آلاف على الأقل .

وقد يقال مع ذلك إن البطالسة حينما جددوا معبد إدفو نقشوا عليه تلك القصة نقلا عن المعبد القديم . وهذا غير بعيد ، ونحن لانجادل فيه ، وخاصة لأن كلمتى « اتباع حوريس » وردتا فى بعض نصوص الاهرام التى شيدت فى عهد الأسرة الخامسة . ولكن مورى (١) اثبت أن حوريس المعنى بهذه القصة ليس حوريس إدفو القديم وإنما هو حوريس بن إيزيس ، وهما معبودان مختلفان . ونصوص القصة تدل على ذلك دلالة صريحة . وهذه القصة تذكر حوريس على انه لقب ملكى ، وعلى أنه مندمج مع رع ، لا على انه معبود وكفى . وحوريس لم يصر كذلك إلا فى نهاية الأسرة الثانية . وإذن ليس المعنى بالقصة حوريس إدفو الذى لا محل للشك فى وجوده قبل وجود الأسر ، وإنما المعنى حوريس آخر ، هو حوريس بن إيزيس الذى خرجت قصته من الوجه البحرى وسرت عبادته إلى الوجه القبلى ، ثم اندمجت فى عبادة رع ، وصار الملوك — منذ الأسرة الثانية — كلما ارتقوا العرش حملوا أسماء مشتقة من اسمه بجانب اسمائهم الأصلية .

وقال مورى إن السبب فى هذا الخطأ راجع إلى أن ماسبيرو أخطأ فى قراءته إحدى كلمات القصة، وهى كلمة (mesentiou) فذهب إلى أن المراد بها قبيلة كانت تسمى « قبيلة الحدادين » كانت تقيم فى أعالى النيل ، لأن الكلمة تؤدى هذا المعنى فى اللغة المصرية . ثم استنتج ماسبيرو من ذلك أن هذه القبيلة هى التى وفدت على مصر بقيادة حوريس . وقد ارشد مورى إلى هذا الخطأ فأثبت الكلمة على صحتها وهى (mesenou) ، ومعناها « حملة الخطاطيف » ، أى أهل الاقليم السابع من أقاليم الدلتا ، وكانوا يلقبون بذلك لأنهم كانوا معروفين بصيد عجول البحر من البحيرات المجاورة لهم بالخطاطيف . ولهذا كان الخطاف رمزا قديما لاقليمهم . وإذن تكون القصة منصرفة إلى حوريس بن إيزيس ، وإلى زحفه من الوجه البحرى الذى نشأ فيه ، ثم إلى حروبه ضد سيت عدو أبيه أوزريس ، بعكس ما ذهب إليه ماسبيرو .

وغزو الوجه البحرى للوجه القبلى فى العصر الذى يسمى « عصر ماقبيل الأسر » ، وهو الذى سبق عصر الملك « منا » ببضع مئات من السنين ، صار الآن من الأمور التى يسلم بها أغلب العلماء ، ولهم على ذلك ادلة قوية لا محل هنا للافاضة فيها .

* * *

هذا هو الدليل التاريخى الوحيد ، أو الشبيه بالتاريخى ، قد انهدم من جميع نواحيه ، فبقيت الأدلة الأخرى وهى استعمال معدنى النحاس والذهب ، واستخدام الضمائر فى اللغة المصرية على النحو الذى تستخدمها به الشعوب السامية ، وشىء من الشبه بين المبانى فى عهد الأسرة الأولى والمبانى فى الكلدان ، وزخرفة بعض الأدوات برسوم حيوانات خرافية ذات أعناق طويلة ، واستعمال « الخرطوش » فى كتابة أسماء الملوك، فسنرد هنا على هذه الأدلة جملة وسنقف عندما يستحق الوقوف منها .

لم تكن مصر حين بدات تباشير المدنية تظهر فيها ، منعزلة عن الأمم المجاورة لها ، بل كانت على صلات مستمرة بها ، تجارية وغير تجارية . فكانت معاملاتها لاتنقطع مع قبائل النوبة جنوبا والشعوب الليبية غربا

(١) كتاب (Le Nil et la Civilisation) ص ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٦ و١٢٧ .

والبلاد الأسيوية شرقا وسكان جزائر البحر الأبيض شمالا . وكانت تأخذ من هذه الأمم المواد الأولية التى تنقصها وتعطيها مصنوعاتها ومنتجاتها . وكانت هذه الامم نفسها نعرف أن مصر سبقتها فى الزراعة والصناعة والانتاج ، وانها صارت بفضل الزراعة بلادا غنية تدر الخير على أهلها ، فكانت تلتمس عندها بعض هذا الخير من طريق المبادلات أو من طريق السطو على حدودها ونهب ماتصل اليه أيديها . ولم تحل دون هذا الاتصال ، وجود صحراء ليبيا وصحراء سيناء فى حدود مصر الغربية والشرقية ، كما لم يحل دونه وجود البحر الأبيض (١) فى حدودها الشمالية . وقد ظن بعض العلماء إلى زمن قريب ان وجود هاتين الصحراوين والبحر الأبيض حمل مصر تعيش فى عصر ماقبل الأسر منعزلة عن العالم ، كأنها فى صندوق مقفل ، إلى أن اتصلت بالأمم المجاورة لها فى عصر الأسر ، وأخذت تفكر فى الغزو والفتوحات . وأصحاب هذا الرأى هم الذين يستغربون وجود شبه بين المبانى وزخرفة الأدوات فى مصر والمبانى وزخرفة الأدوات فى الكلدان . وهم كذلك الذين يستغربون استخدام الضمائر فى اللغة المصرية على النحو الذى تستخدم به عند الشعوب السامية . ولا تفسير عندهم لهذا التشابه غير الذهاب الى بعيد ، والقول بأن قبائل كلدانية غزت مصر وعلمتها أسباب المدنية ، فى حين أن التفسير الصحيح هو اتصال مصر بجاراتها واتصال هذه الجارات بها تم تأثر كل منهما بالأخرى . وقد أصبح هذا الاتصال الآن حقيقة مسلما بها لأن الأدلة المادية قامت عليه فلا حاجة لان نتوسع فيه .

وفى هذا الاتصال لابد أن تكون مصر قد نقلت أشياء عن الكلدان ، كما لابد أن تكون الكلدان قد نقلت أشياء عن مصر . وهذا النقل إما أن يكون بطريق مباشر ، وإما بواسطة القبائل السامية التى كانت هائمة إذ ذاك فى سوريا وفلسطين وكانت على علاقات دائمة بالبلدين معا ، أو بواسطة جزائر قبرص وردوس وكريت التى صار من الثابت الآن أنها كانت فى عصر ما قبل الأسر على صلات مستمرة بمصر من ناحية وبالكلدان من ناحية أخرى . أو ربما كان الأصح أن هذه العوامل كلها كانت تعمل معا فى سبيل النقل بين البلدين .

ولم تتصل مصر بالساميين والكلدانيين فقط ، بل اتصلت بالقبائل الأفريقية أيضا وأخذت منها ، فظهر أثر لغاتها فى اللغة المصرية . وقد عرف العلماء هذا الأثر فى السنين الاخيرة (٢) حتى لقد قالوا أن صلة اللغة المصرية باللغات الأفريقية أقوى من صلتها باللغات السامية . وبذلك يسقط البرهان المأخوذ من تشابه استعمال الضمائر فى اللغة المصرية واللغات السامية .

* * *

والآن لم يبق من الأدلة غير استعمال معدنى النحاس والذهب . والرأى عند أصحاب هذا الدليل أن الكلدانيين عرفوا استعمال النحاس والذهب قبل المصريين ، وأن الغزاة الذين غزوا مصر منهم هم الذين علموا أهلها هذا الاستعمال ، فننظر هل هذا صحيح. ويجب فى بحثنا هذا أن يكون ماثلاً فى اذهاننا أن الغرض الذى دعا إلى الأخذ بهذا الدليل ، هو القول الفاسد بأن المدنية وجدت فى مصر فجأة ، وفى عصر سابق على عصر الأسر بقليل ، فهى لم تترب جذورها فيها ، وانما انتقلت اليها على يد قوم مغيرين . وقد بينا فى كل مامضى فساد هذا القول ، واثبتنا ان عناصر المدنية تربت كلها فى مصر وأخذت تنمو فيها شيئا فشيئا منذ العصر الحجرى ، وكان يحق لنا أن نكتفى بذلك ، لأن استعمال النحاس والذهب ليس أهم فى بناء المدنية من الزراعة ، ولا من استخلاص النباتات الصالحة لغذاء الانسان من النباتات الوحشية ، ولا أهم من التعاون على تنظيم مجرى النيل ، ولا من

---

(١) كان المصريون يسمونه الاخضر الكبير لان واضعى أسطورة اوزوريس قالوا : انه لما قتله أخوه سيت ثم وضعه فى صندوق والقاه فى البحر سار الصندوق الى البحر الابيض المتوسط وعام فيه متجها الى ميناء بيلوس (وهو جبيل الآن) . وحينئذ اخضر لون الجثة ثم اسود . ومن هنا سمى هذا البحر الاخضر الكبير راجع فى ذلك ص ٩٦ من كتاب (La religion des Eg.) تأليف أدولف ارمان (Adolf Erman) الذى كان أستاذا للمصرولوجية فى جامعة برلين وتوفى منذ بضع سنين . وقد نقل كتابه هذا من اللغة الالمانية الى اللغة الفرنسية (Henri Wild) وطبعه فى باريس سنة ١٩٣٧ تحت العنوان الذى تقدم ذكره .

(٢) راجع فى ذلك كتاب : (Les Peuples de l'Orient Méditerranéen) تأليف (Et. Drioton) مدير مصلحة الآثار المصرية (اذ ذاك) و (Jaques Vendier) ص ٤ وه طبعة باريس فى سنة ١٩٣٨ .

إيجاد المناطق الاقليمية والحكومات الاقليمية ثم الحكومة الواحدة ــ نقول ليس استعمال النحاس والذهب بأهم فى بناء المدنية من هذه الأسس ، بل هو دونها ، ولكننا لاندع هذا الدليل من غير تفنيد ، لانه ليس من الحق فى شىء أن يقــال إن المصريين لم يعرفوا اســتعمال النحاس والذهب إلا على يد غزاة من الكلدانيين ، وقبل عصر الأسر بقليل .

لايزال العلماء يواصلون البحث فى عصر ما قبــل الأسر ، فمن المجازفة أن يقول قائل ان الكلمة الأخيرة قد قيلت فيه . ولكن هناك حقائق دلت عليها الحفائر فى مناطق مختلفة عرف أن بعضا منها خلفه المصرى حينما كان قريبا من الحالة الوحشية وكان يعيش على صيد الحيوانات أكثر من عيشه على الزراعة ، وبعضا آخر حينما كان عيشــه على الزراعة وبدأ يســتخدم الحيوانات وبعضا ثالثا حينما خطا خطوة إلى الأمام بعد ذلك ، وبعضا رابعا حينما خطا خطوة أوسع واخذ يمهد لعصر الأسر .

فالحالة الأولى تمثلها حفائر دير تاســا ، ويسمى عصرها عصر تاسا أو حضارة تاسا . والثانية تمثلها حفائر البدارى ونقادة ، وتسمى حضارة البدارى . والثالثة تمثلها حضارة العمرة . والرابعة تمثلها حضارة جرزة . وهذه المناطق كلها قائمة فى الوجه القبلى . اما فى الوجه البحرى فقد وجدت حفائر مرمدة بنى سلامة وحفائر المعادى وهما أرقى من حضارة البدارى ، ولكن لم توجد حفائر يمكن ترتيبها على النحو الذى رتبت به الحفائر فى الوجه القبلى ، لسبب ظاهر هو أن الأرض فى الوجه البحرى رخوة فالنيل وطميه يجعلانها أقل من أرض الوجه القبلى احتفاظا بما فيها .

ففى حضارة البدارى ، أى عند الدرجة الثانية من درجات سلم الصعود إلى المدنيــة المصرية ، عرف المصريون النحاس واستعملوه . وقد وجدت أدوات منه فى قبورهم . وفى ذلك يقول جوردن شيلد (١) بعــد أن تــكلم عن حضارة تاسا ثم شرع يتكلم عن حضارة البدارى :

« ... وحينئذ بدأ يشتد البحث عن مواد أولية ، فأدى ذلك إلى استخدام عنصر اقتصادى جديد هو عنصر المعاملات التجارية . ومن المؤكد أن معدن الدهنج الذى كان يستعمل إذ ذاك فى تكحيل العيون كان يجلب من سيناء والنوبة . وقد وجدت فى قبور عصر البدارى قواقع كثيرة من البحر الاحمر وقطع من خشب الأرز وخشب الراتنج ، مما يفهم منه وجود علاقات بين مصريى البدارى وبين سوريا (٢) ، وفى هذا الوقت عرف البداريون خواص معــدن النحــاس ، فعرفوا قابليته للطرق ، ولكنهم لم يهتدوا الى قابليتــه للانصهار » .

ويستمر جوردن شيلد فيقول بعد ذلك بقليل :

« كان البداريون يلبسون ملابس من جلود الحيوانات ... وكانوا يكحلون عيونهم بمعدن الدهنج(٣) ، وكانوا يضعون فى أعناقهم وأوساطهم عقودا أو احزمة فيها قطع من النحاس » .

أما برستيد فقد قال فى كلامه عن مصر البدائية(٤)

« كــان المصريون البــدائيون يصــنعون ويستعملون أسلحة وأوانى من البرنز . ويمكن وضع العصر الذى كانوا يعيشون فيه إذ ذاك فى زمان الانتقال بين عصر الحجر وعصر استعمال النحاس . وكانــوا يعرفون الذهب والفضــة والرصاص ، ولكنهم لم يكونوا يستعملونها إلا قليلا » .

وتكلم دريوتون (٥) عن حضــارة البدارى فقال :

« ... وكان النحاس فى ذلك الوقت قليلا فكان استعماله مقتصرا على الأدوات الصغيرة كالدبابيس التى تســتخدم لتعليق الجلود أو كالإبــر أو اسنان الخطاطيف أو المكاشط أو أزاميل النجارة . وقد عرف المصريون منــذ

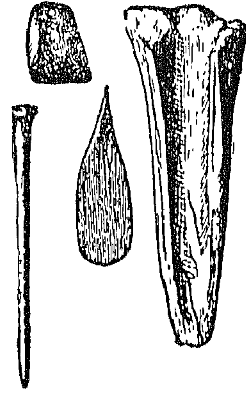
(١) (V. Gordon Childe) هو استاذ علم الآثار فى جامعة ادنبرة ، وقد اشــتهر بحفرياته فى الهند والعــراق ومصر ، ثم بمؤلفاته فى عصور ما قبل التاريخ لهذه البلاد جميعا . ويعتبر كتابه عن « الشرق فى ما قبــل التاريخ » زبدة بحوثه هذه . وقد وضــعه بالانجليزية ونقــله (J. Lévy) المــوظف بمتحف (Guimet) بباريس الى اللغة الفرنسية فى سنة ١٩٣٥ تحت عنوان : (L' Orient Préhistorique) . وعن هذه الترجمة ص ٧١ و٧٢ و٧٣ نقلت مانقلته هنا .

(٢) قلنا فيما تقدم ان المصريين فى عصر ما قبل الاسر كانوا على اتصال بجيرانهم فى فلسطين وسوريا وجزائر البحر الأبيض وليبيا والنوبة ، فهذا هو بعينه الذى يقوله جوردن شيلد هنا .

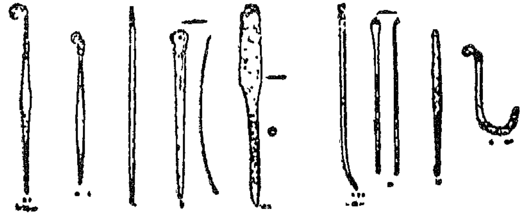
(٣) الدهنج هو المعدن الذى يسمى باللغة الفرنسية malachite

(٤) ص ٢٩ من الترجمة الفرنسية لكتابه :
(A History of Egypt) وقد سبق ذكرها .

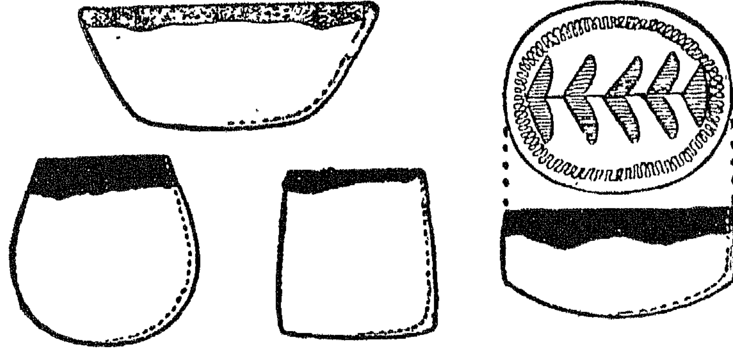
(٥) ص ٣٧ من كتاب :
(Les Peuples de l'Orient Méditerranéen)



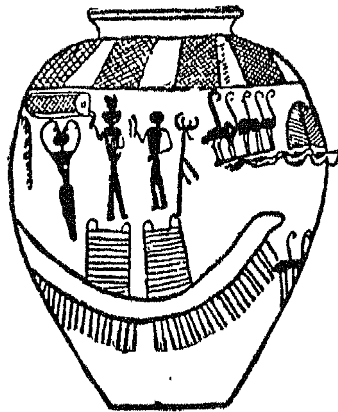
ادوات مصنوعة من عظام الحيوانات وحجمها هنا يعادل ٢/٥ من حجمها الطبيعى • وقد وجدت فى حفائر مرمدة بنى سلامة



ادوات من النحاس وجدت فى مقابر نقادة وترجع الى ما قبل عصر الأسر • وهى دبابيس وابر وسنارة



أدوات من الفخار ترجع الى حضارة البدارى • وحجمها هنا سدس حجمها الطبيعى



اناء من الفخار يرجع الى ما قبل عصر الأسر ، وقد زين برسوم مختلفة منها طيور وأشخاص ثم سفينة تحمل شارة على ساريتها

ذلك الوقت انه قابل للانثناء ، وانه قليل الصدأ ، فكانوا يصنعون منه تلك الأدوات ، ولكنهم كانوا يصنعونها منه وهو على حالته الطبيعية وبطريقة الطرق والصقل » .

ذلك فى حضارة البدارى ، أما فى حضارة العمرة التى تلتها فقد تقدمت صناعة النحاس والذهب وجلب المصريون اللازورد من سوريا .

هؤلاء إذن هم المصريون عرفوا النحاس والذهب منذ حضارة البدارى . ولم يكونوا يجلبونهما من الكلدان ، ولا من بلاد قريبة من الكلدان ،بل كانوا يستخرجونهما من سيناء والنوبة ومن مناجم لهما فى مصر . وبين حضارة البدارى وعصر الأسر بضعة الوف من السنين عاشت فيها حضارة العمرة ثم حضارة جرزة . فعلى الذين يزعمون أن المصريين لم يعرفوا النحاس والذهب إلا بعد أن دخل بهما الكلدانيون ، أن يثبتوا أن هؤلاء الكلدانيين جلبوهما قبلعصر الأسر بألوف من السنين، وليس إلى هذا الاثبات من سبيل .

ويحسن أن ننقل هنا كلمة كتبها فى ذلك مورى ودافى (١) فقد قالا :

« حينما كان المصريون قبل الميلاد بنحو ٤٥٠٠ سنة (٢) يستخدمون النحاس ويصنعون الأدوات المعدنية ، كان غيرهم من أمم العالم لايزال يستخدم الأدوات من الحجر ، أو هذا على الأقل هو ماوصلت إليه معلوماتنا الى الآن . ولذلك تفوق سكان وادى النيل تفوقا لم يكن فى استطاعة الأمم الأخرى أن تقاومه . وفى هذا الوقت نفسه اخذ جيران مصر يظهرون على الآثار المصرية الأولى ، وبهذه الآثار صرنا نستطيع درس العلاقات الأولى التى كانت متبادلة بين أمم الشرق القديم » .

وإليك كلمة أخرى كتبها جوردن شيلد فقال فيها إنه ان كانت توجد وجوه من الشبه بين مصر والكلدان فليس معنى ذلك أن الكلدانيين جلبوا المدنية إلى مصر، ولا أن مصر اخذت منهم ، وانما قد يكون معناه الأصح أن الكلدان وبلادا أخرى هى التى أخذت من المدنية المصرية . قال بعد أن فرغ من شرح الحضارات المختلفة فى عصر ما قبل الأسر (٣) :

« ... إلى هنا كان من الممكن تفسير التقدم الذى تقدمته المدنية فى وادى النيل بعوامل متواصلة مستقلة عن الخارج . ومع أن هناك أكثر من عنصر عالمى كان له أثر فى هذا التقدم، ومع أننا نستطيع تمييز حضارتين ، فان جميع الكشوف والمخترعات ذات الأهمية هى بنت حوض النيل . نعم إن حضارة جرزة تحتوى على مظاهر شبه بينها وبين آسيا ، ولكن ليس هناك مايدل على أن مصر مدينة لآسيا فى هذه المظاهر . ومن الممكن نظريا على الأقل ، تفسير مظاهر الشبه هذه بين مصر وبلاد النهرين (يريد الكلدان) بأنها نتيجة تيار من المدنية صادر من مصر » .

ثم استمر جوردن شيلد فأخذ يثبت أن جميع العوامل الطبيعية كانت تجعل من وادى النيل أرضا صالحة للزراعة منذ أقدم العصور ، وأن المصريين عرفوا فى حضارة البدارى وحضارة العمرة صنع السفن قبل أن يعرفه سواهم ، وأنهم شرعوا حينذاك يعرفون مبادىء الكتابة ، وأنهم اتصلوا بالبلاد المجاورة لهم فجلبوا منها الخشب ومواد أولية أخرى . ثم قال إن المخلفات التى وجدت فى قبور المصريين فى حضارة البدارى وحضارة جرزة :

« تدل على أنهم كانت لهم علاقات تجارية تمتد الى بلاد العجم وارمينيا وسوريا الشمالية . ومن هذا الاتصال وجدت الفرصة لاحتذاء مثال الكشوف والمخترعات المصرية فى هضاب إيران ، وفى آسيا الصغرى ، وفى جزيرة كريت » .

فنظن بعد ذلك أن ماكان باقيا من نظرية جلب المدنية إلى مصر على يد الكلدانيين قد انهدم . ونظن ايضا انه صار واضحا أن المدنية المصرية بنت مصر لا بنت بلد آخر ، فى مصر تكونت عناصرها الأولى ، وفى مصر نمت وتطورت حتى صارت نورا يرسل اشعته إلى القريبين والبعيدين من الأمم .

(١) (A. Moret, G. Davy) فى صفحة ١٩٣ من كتابهما : (Des Clans Aux Empires)

(٢) يلاحظ هنا أن مورى ودافى يأخذان بالتاريخ القصير الذى يجعل الملك « منا » فى نحو سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد .

(٣) ص ١٠٢و١٠٣و١٠٤ من الترجمة الفرنسية التى مر ذكرها .

التقويم المصرى

حينما بدأ المصريون يقسمون الزمن كان من البديهى أن يعتمدوا فى تقسيمه على القمر ، لأنه يبدو فى أول ظهوره صغيرا ، ثم ينمو ليلة فليلة حتى يصير بدرا ، ثم يتضاءل ليلة فليلة حتى يبلغ المحاق . فهو علامة بارزة كان من الضرورى أن يلتفت الانسان إليها وأن يجعلها قبل غيرها قاعدته فى تقسيم الزمن . ومن هنا وجد الشهر القمرى ووجدت الشهور القمرية .

وقد وجد التقويم القمرى فى مصر ، كما وجد فى البلاد الأخرى ، ثم أخذ المصريون يدركون ما فيه من عيوب ، واغلب الظن أن البلاد الأخرى أدركت هذه العيوب أيضا ، ولكن المصريين وحدهم هم الذين استطاعوا أن يخرجوا منها إلى تقويم آخر يصلحها ، ليس الحساب فيه قائما على الدورة القمرية ، بل على الدورة الشمسية ، وهذا التقويم هو الذى وجده يوليوس قيصر حينما جاء مصر فحمله منها إلى روما ، وهو بعينه الذى يستعمله العالم الآن باسم التقويم الجريجورى بعد تعديل طفيف فيه .

أما كيف اهتدى المصريون إلى هذا التقويم الشمسى ، فذلك أنهم لاحظوا أن الشهور القمرية التى تقع فى إحدى السنين فى زمن الفيضان ، أو زمن بذر الحبوب فى الأرض ، أو زمن حصاد الزرع ، تقع بعد سنين قليلة فى ازمنة أخرى ، فقام البرهان المادى لديهم على أن هذه الشهور لا يمكن التعويل عليها فى ضبط مواسم الزراعة . وهم قوم كانت الزراعة همهم الأول ، وكان ضبط أزمنتها ومواعيدها ضرورة لهم قصوى . ففكروا فى إيجاد تقويم يضبط لهم هذه الأزمنة والمواعيد . وكانوا قد لاحظوا أن كوكب الشعرى اليمانية يسطع فى الأفق قبيل شروق الشمس فى يوم معين من السنة – هو يوم ١٥ يونية فى التقويم الجريجورى المستعمل الآن – ثم يمضى حول كامل حتى تعود الشعرى اليمانية إلى الظهور قبيل شروق الشمس . فحسبوا هذا الحول فوجدوه ٣٦٥ يوما ، فجعلوه سنتهم ، وقسموه إلى ١٢ شهرا ، كل شهر منها ٣٠ يوما . ثم أضافوا إليها خمسة أيام هى التى سميت بعد ذلك أيام النسىء (١) .

وقسموا السنة إلى ثلاثة فصول : هى فصل الفيضان وفصل البذر وفصل الحصاد ، كل واحد منها اربعة أشهر .

وقسموا الشهر إلى ثلاثة اثلاث ، كل ثلث منها عشرة أيام . وقسموا اليوم إلى ٢٤ ساعة نصفها لليل ونصفها للنهار .

أما الأشهر فهى بعينها الأشهر القبطية المعروفة الآن وهى توت وبابه وهاتور وكيهك وطوبة وأمشير وبرمهات وبرمودة وبشنس وبؤنه وأبيب ومسرى .

وحينما وضعوا هذا التقويم ، اتفق أن وصل فيضان النيل إلى ايلفنتين فى اليوم الذى ظهرت فيه الشعرى اليمانية قبيل شروق الشمس ، فجعلوا هذا اليوم أول سنتهم ، أى أول شهر توت ، لأنه اليوم الذى اجتمعت لهم فيه ظاهرتان : ظهور الشعرى اليمانية قبيل شروق الشمس ، ووصول الفيضان إلى ايلفنتين .

وكان حسابهم هذا صحيحا ، لايدخله غير خطأ

---

(١) صاغ المصريون حول هذه الايام الخمسة أسطورة مؤداها أن المعبود جب اى الأرض بنى بالمعبودة نويت أو نوت اى السماء على غير رغبة الاله الاعظم رع . ثم حملت نوت فصنع لهما رع طلسما يمنعهما من التناسل فى أى شهر من شهور السنة . ولكن المعبود توت كان يحب نوت فلعب بالزهر مع القمر فكسب منه الجزء المتمم لكل سنبن يوما من أيام السنة فتكونت من ذلك خمسة أيام زائدة على شهور السنة ، وفيها استطاعت نوت أن تضع معبودا فى كل يوم . وهذه المعبودات الخمسة هى أوزيريس وسيت وايزيس ونفتيس وحارويريس . وحارويريس هذا هو حوريس الكبير ، وقد سمى بذلك تمييزا له من حوريس بن ايزيس . وكان يعبد فى مدينة ليتوبوليس على انه اله الحرب .

طفيف مقداره ٦ ساعات وبضع دقائق فى السنة ، فى حين كانت الشهور القمرية تختلف عن الدورة الشمسية بما لا يقل عن أحد عشر يوما فى السنة ، ولذلك كان اهتداؤهم إلى هذا التقويم القائم على دورة الشعرى اليمانية بالنسبة للشمس عملا بارزا جليلا .

وظهر فى السنين الأولى من وضع هذا التقويم أن الفصول ومواعيد الزراعة تقع فى شهور هى بعينها فى كل سنة . ولكن ذلك الفارق القليل بين التقويم ودورة الشعرى اليمانية أخذ يحدث أثره على مر السنين ، فصارت سنة التقويم تنقص عن دورة الشعرى يوما فى كل أربع سنوات . ثم توالت السنون فصار الفرق يزداد ، وصارت الفصول ومواعيد الزراعة تقع فى شهور غير التى قدرت لها .

ولم يخف هذا الفرق على المصريين ، بل أدركوه وعرفوا أنه ربع يوم فى السنة ، ولكنهم تركوا التقويم على ما هو عليه ، واكتفوا بأن يسجلوا الفرق كلما حانت فرصة لتسجيله (١) .

وبما أن السنة تنقص ربع يوم فمن البديهى أن يتوالى هذا النقص بمقدار أيام السنة مضروبة فى أربعة ، أى ٣٦٥ × ٤ = ١٤٦٠ تضاف إليها السنة التى نقصت فى هذه المدة فيكون المجموع ١٤٦١ ، ومعنى هذا أنه كلما مضت ١٤٦١ سنة اعتدل الحساب من جديد ، وعادت الشعرى اليمانية تظهر قبيل شروق الشمس فى أول توت . ولكنها لا تظهر فيه إلا لمدة أربع سنوات ثم تنقص السنة يوما .

***

ويستطيع الفلكيون الآن أن يعرفوا دورات الشعرى اليمانية ودورات الشمس فى الماضى كما يعرفونهما فى الحاضر والمستقبل . فهم يعرفون جميع السنين التى ظهرت فيها الشعرى اليمانية فى أفق مصر قبيل شروق الشمس ، ويعرفون أيضا أنها لا تظهر كذلك إلا فى منطقة تقع فى الدرجة الـ ٣٠ من خطوط الطول ، وهذه المنطقة هى منطقة الوجه البحرى حيث كانت مدينتا منفيس وهليوبوليس . وبما أن منفيس لم تكن قد أنشئت حينما وضع التقويم المصرى ، فلا بد أن يكون أساس الحساب ظهور الشعرى اليمانية فى أفق هليوبوليس ، ويغلب على الظن أن يكون علماء هذه المدينة ، أى كهنتها ، هم الذين وضعوا التقويم . وهذا يتفق مع المعروف عن هذه المدينة ، إذ الأدلة قائمة على أنها كانت فى عصر ماقبل الأسر ذات نفوذ علمى ودينى واسع . وقد استمر نفوذها هذا فى عصور الأسر ، واستمرت عبادة معبودها رع إلى أن انتهت المدنية المصرية .

ومما اشتهرت به هليوبوليس (وتسمى فى اللغة المصرية أون) على وجه خاص ، أن كهنتها كانوا فى كل وقت يعنون برصد الشمس والنجوم . وكانوا يدونون نتائج مشاهداتهم سنة بعد أخرى ، ولهذا أطلق على رئيس كهنتها لقب « المبصر الأعظم » أو « رئيس الذين يبصرون الشمس ، والوحيد الذى يراها وجهها لوجه » (٢) .

وننتقل بعد ذلك إلى ماتركه لنا المصريون عن الفروق بين التقويم ودورة الشعرى اليمانية .

كان المصريون يجعلون للشعرى اليمانية مقاما دينيا وكانوا يقيمون لها احتفالا حين ظهورها كل سنة ، ففى عهد تحوتمس الثالث (أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة) نقشوا على أحد الصخور فى إيلفنتين أن الشعرى ظهرت قبيل شروق الشمس فى يوم ٢٨ من شهر أبيب بدل اليوم الأول من شهر توت . وهذه البيانات تكفى علماء الفلك فى وقتنا هذا لكى يعرفوا أن ذلك الفارق وقع فى المدة من سنة ١٤٧٤ إلى سنة ١٤٧١ ق م . ومن الضرورى أن نذكر هنا أربع سنوات

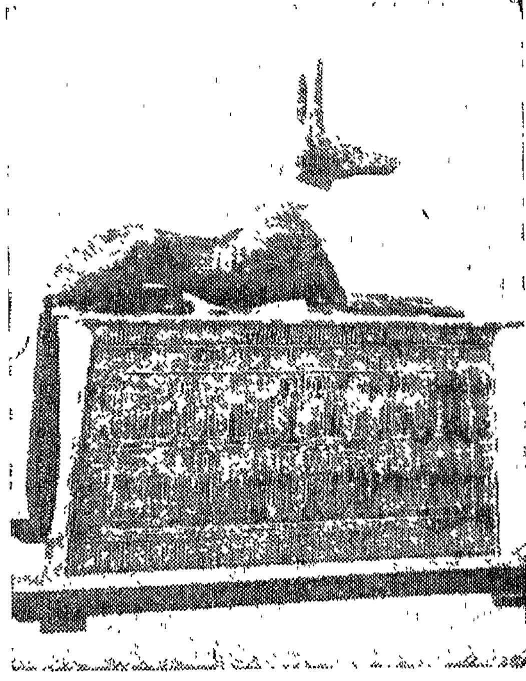
(١) من الكتابات الطريفة التى وصلت الينا خاصة باختلاف الفصول عن الشهور التى قدرت لها فى التقويم كلمات دعابة كتبها طالب علم فى زمن الأسرة التاسعة عشرة فى كراسة تمرينه على الكتابة والانشاء ، هذا تعريبها :

« الى يا أمون . انقذنى من السنة المختلة . فالشمس لاتسطع ، والشتاء يأتى فى وقت الصيف . والشهور تمشى القهقرى » .

ويؤخذ من قوله « فالشمس لا تسطع » انه كتب كلماته هذه فى يوم غيم فى فصل الشتاء .

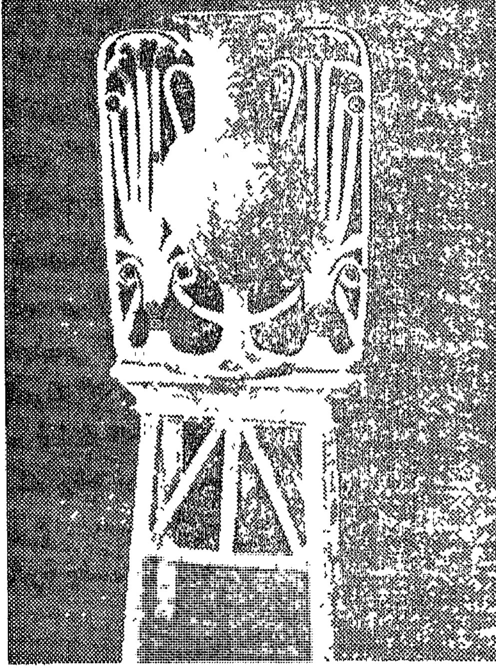
(٢) وجدت لوحة لاحد رؤساء الكهنة وصف نفسه فيها كما يأتى : « القارىء الذى يعرف وجه السماء ، والمبصر الاعظم فى قصر الامير » وقد ترك المصريون عدة خرائط محفورة على الحجر لاجزاء من السماء . منها خريطة فى معبد الرمسيوم فى الاقصر . وخريطة فى معبد دندرة . وسيأتى بحث خاص بها وبالضجة التى اثارها نقلها الى باريس . وخريطة فى مقبرة سيتى الاول .

من آيات الصانع المصري



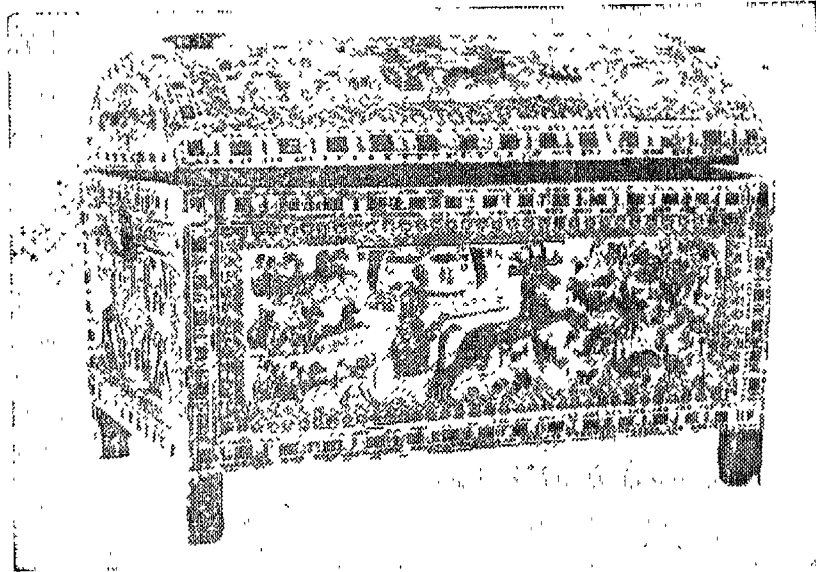
خزانة لحفظ التمائم

وهى مصنوعة من الخشب المزين بالرسوم والألوان والذهب ، وقد علا غطاءها تمثال للاله أنوبيس .



وعاء لحفظ الطيب

وقد صنع من الجص ، وكان يحفظ فيه دهان للتطرية ، وله حامل ذو أربعة قوائم . وقد تداخلت فى زخرفه زهور البردى واللوتس ، التى ترمز للوجهين القبلى والبحرى .



خزانة لحفظ المجوهرات

وهى من افخر ما أخرجت يدا الصانع المصرى من الآثار الفنية المصنوعة من الخشب وهى محلاة بالمنمنمات التى تسمى الآن (Miniature) . وفى وسطها صورة للملك توت عنخ آمون فى عجلته يصيد وحش الصحراء .

لأن الفرق فى السنة الواحدة ربع يوم كما تقدم ، فلابد أن تكون الشعرى قد ظهرت فى يوم ٢٨ ابيب أربع سنوات متواليات . وليس من المعروف أى يوم من هذه الأيام الأربعة هو الذى أريد بما نقش على صخرة ايلفنتين فى عهد تحوتمس الثالث . وإذن تبين ان تحوتمس الثالث كان جالسا على عرش مصر فى الوقت الذى سلفت الاشارة إليه .

وجاء فى ورقة من أوراق البردى الطبية تسمى « ورقة إيبرس » (١) أنه فى السنة التاسعة من حكم الملك امينوفيس الأول (ثانى ملوك الأسرة الثامنة عشرة) ظهرت الشعرى قبيل شروق الشمس فى يوم ٩ أبيب . فعلماء الفلك يعرفون أن هذا الحادث لابد ان يكون قد وقع فى المدة من سنة ١٥٥٠ إلى سنة ١٥٤٧ ق م . ومن هنا يمكن ان يقال إن الأسرة الثامنة عشرة جلست على العرش فى نحو سنة ١٥٨٠ ق م .

وفى ورقة من البردى تعرف باسم ورقة اللاهون انه فى عهد الملك سنوسريت الثالث (احد ملوك الأسرة الثانية عشرة) ، وفى السنة السابعة من حكمه ،ظهرت الشعرى فى ١٦ برمودة بدلا من أول توت . فعلماء الفلك يعرفون أن هذا الحادث وقع فى المدة من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٧٩ ق م . ومن هذا يؤخذ ان ابتداء جلوس الأسرة الثانية عشرة على العرش يقع حوالى سنة ٢٠٠٠ ق م (٢) .

* * *

(١) (Georg Ebers) هو عالم المانى ولد فى سنة ١٨٣٧ وتوفى فى سنه ١٨٩٨ ، وقد شغف بعلم الاثار المصرية ، فانصرف اليها أغلب أيام حياته وزار مصر عدة مرات واشترى فيها ورقة من أوراق البردى وترجمها فاتضح أنها تبحث فى الطب عندالمصريين ، فذاعت شهرتها عند علماء الآثار المصرية . ووضع ايبرس كتبا عدة من مصر بعضها بحوث علمية وبعضها الاخر روايات تحيلها وجعل موضوعاتها تدور حول مصر القديمة .

(٢) يرى بعض العلماء فى المصرولوجيا ان هذا الحساب ينقص دورة كاملة من الدورات التى يعدل بها التقويم . وعلى هذا فالأسرة الثانية عشرة عندهم تبتدىء فى سنة ٣٥٧٩ ق م. والاسرة الاولى تبتدىء فى سنه ٥٥٤٦ ق م . وهذا هو ما يسمى عند العلماء بالتاريخ الطويل . اما التاريخ القصير الذى يأخذ به أغلب العلماء فى الوقت الحاضر فانه يجعل ابتداء الأسرة الثانية عشرة فى سنة ٢٠٠٠ ق م . وابتداء الاسرة الاولى ، نحو سنة ٣٢٠٠ أو ٣٤٠٠ ق م .

وهنا سؤال لابد منه ، وهو : هل ترشدنا هذه البيانات إلى الوقت الذى وضع المصريون فيه تقويمهم هذا ؟

فعلى هذا السؤال يجيب علماء الفلك فيقولون إن التقويم ابتدأ فى يوم ظهرت فيه الشعرى فى أول توت، والحساب الفلكى يدل على أن هذا الحادث وقع قبل سنة ٢٠٠٠ (التى تقدم أن الأسرة الثانية عشرة جلست فيها على العرش) فى المدة من سنة ٢٧٨١ إلى سنة ٢٧٧٨ ، ثم قبل ذلك بـ ١٤٦١ سنة أى فى المدة من ٤٢٤١ إلى ٤٢٣٨ . فالتقويم لابد أن يكون قد وضع فى إحدى هاتين المدتين أو قبلهما . فأما المدة الأولى فيجب طرحها جانبا ، لأن نقوش اهرام سقارة تذكر ، فيما تذكره ، الأيام الخمسة التى تضاف إلى الشهور الاثنى عشر لتكملة السنة ، فمعنى ذلك أن التقويم كان مستعملا فى وقت بناء الاهرام ، ومعناه أيضا أن الفرق بين ابتداء الأسرة الثانية عشرة وهذه المدة ، وهو نحو ٧٨١ سنة ، لايمكن ان يكون كافيا للأسر التى حكمت مصر من وقت بناء اهرام سقارة إلى وقت ارتقاء الأسرة الثانية عشرة إلى عرش الحكم .

وإذن لابد من الرجوع الى المدة الثانية ، وهى كما قلنا من سنة ٤٢٤١ الى سنة ٤٢٣٨ . وإذن تكون هذه المدة اقرب زمن يمكن أن يقال إن التقويم كان موجودا فيه . أما وضع التقويم فلا يعرف زمنه ، ومن المرجح أن يكون قبل هذه المدة .

فاذا نحن اخذنا بالتاريخ القصير الذى يقول إن الملك «منا» حكم فى نحو سنة ٣٢٠٠ ق م . فالتقويم المصرى كان موجودا قبل هذا الملك بأكثر من الف سنة . ومن البديهى ان المدنية المصرية لم تستطع وضع هذا التقويم إلا بعد أن كانت قد وصلت الى درجة من الحضارة مكنتها من رصد دورة الشمس ودورة الشعرى اليمانية وجعلهما أساسا للسنة .

ولا نختم هذه الكلمة قبل أن نذكر أن برستيد كان من المعجبين بقدرة المصريين على وضع هذا التقويم فى ذلك الزمن القديم فقال : (٣) .

(٣) ص ٣٥ من الترجمة الفرنسية لكتابه عن تاريخ مصر ، وقد مرت الاشارة اليها .

« إن هذا التقويم العظيم الذى كان يستعمل فى عصر بعيد، هو بعينه الذى يستعمل فى أيامنا هذه . فقد حمله يوليوس قيصر من مصر إلى روما فاستعمل فيها على أنه أفضل تقويم . ثم ورثناه نحن عنها . وبذلك يكون قد استعمل بغير انقطاع أكثر من ستة آلاف سنة . وقد كان المصريون من أهل الوجه البحرى ، الذين عاشوا فى نحو القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد ، هم أصحاب الفضل علينا فيه . ومن المهم أن نلاحظ أنه خرج من أيدى واضعيه الأولين ، بشهوره الاثنى عشر ، والتى كان كل شهر منها ثلاثين يوما ، أفضل مما صار إليه بعد أن عدله الرومانيون » .

وقد كان الذى فعله يوليوس قيصر أنه لما جاء إلى الاسكندرية وجد فيها التقويم المصرى ، وكانت روما لاتزال تستعمل التقويم القمرى ، فلما عاد إليها حمله معه ، فأخذه الرومانيون وأضافوا إليه يوما كل أربع سنوات ،فتكون كل سنة من السنوات الثلاث الأولى ٣٦٥ يوما ثم تكون السنة الرابعة ٣٦٦ يوما، وسموا الثلاث السنوات الأولى بسيطة والسنة الرابعة كبيسة .

وفى سنة ١٥٨٢ قرر مجمع الكرادلة برياسة البابا جريجوار الثالث عشر إدخال تعديل طفيف على التقويم الرومانى ، فسمى تقويمه التقويم الجريجورى ، وهو الذى يستعمله العالم الآن ، وهو التقويم المصرى معدلا تعديلا طفيفا .

* * *

ونضيف هنا إلى ذلك أن عالما اسمه ويل(R. Weill) استطاع أن يجمع أخيرا من أوراق البردى وجدران المعابد نصوصا تثبت أن الكهنة ورجال الحكومة المصريين كانوا يصلحون التقويم بما يزيل منه ذلك الفرق القليل ويجعله ثابتا غير متغير .

وهذه النصوص التى جمعها ويل فى كتابه :

Bases, Méthodes et Résultats
de la Chronologie Egyptienne

تشتمل على أيام محددة لحفلات موسمية زراعية طبقا للتقويم ، وأمام كل واحد منها اليوم المقابل له طبقا لدورة الشعرى اليمانية . وقد دل البحث على أن الحساب فى هذه الأيام الأخيرة صحيح ، ومنه يستنتج أنهم كانوا يعدلون التقويم بما يزيل النقص منه .

وقد كتب فى ذلك مورى فى كتابه :

(Histoire de l'Orient)

فى ص ١١٠ و١١١ فذكر أن الاعتقاد كان سائدا « بأن المصريين سكتوا على هذا الاختلاف المكدر بين السنة فى تقويمهم والسنة الفلكية » . ثم أشار مورى الى النصوص التى جمعها ويل ، وقال :

« فبين أيدينا ، منذ العهد الذى كانت فيه طيبة قاعدة للملك ، جداول بأعياد دينية مكتوبة على البردى أو منقوشة على المعابد ، وقد عينت فيها الأيام طبقا للتقويم الناقص وعين أمام كل واحد من هذه الأيام اليوم المقابل له تعيينا صحيحا ، بحسب دورة الشعرى اليمانية . فالكهنة ورجال الحكومة كانوا اذن يستعملون تقويما ثابتا قائما على هذه الدورة التى مدتها ٣٦٥ يوما وربع يوم . وفى هذا التقويم الثابت كانت حفلات المواسم الزراعية تقع فى أيام ثابتة بالنسبة لفصول السنة الطبيعية ولنظام العالم . فكيف يمكن حساب هذا التقويم إلا باضافة يوم سادس الى الأيام الاضافية الخمسة كل أربع سنوات » .

ومما يستحق الذكر هنا ــ وقد ذكره مورى ــ أن العالم مير (١) عرض للتقويم المصرى فى كتاب له عن « تاريخ مصر » ، فذهب الى أن من المستبعد أن يكون المصريون قد أغفلوا الفرق الذى بينه وبين دورة الشعرى اليمانية . ولكنه لم يستطع أن يقدم برهانا على قوله هذا . وجاراه فى ذلك العالم سيت (٢) ، وتوسع فيه ولكنه لم يقدم ، هو أيضا ، برهانا حاسما . فما كان يفترضه مير افتراضا ويؤيده فيه سيت ، صار الآن أمرا صحيحا تثبته النصوص .

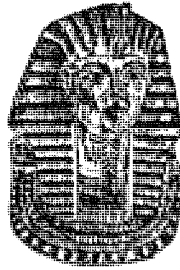
---

(١) (Ed. Meyer) عالم المانى من كبار المصرولوجيين ، وهو القائل بالتاريخ القصير ، وقد أخذه منه فريق كبير من العلماء .

(٢) (K. Sethe) هو عالم ألمانى أيضا من كبار المصرولوجيين .

وفى سنة ٢٣٨ ق . م أصــدر بطليموس الثالث المسمى « ايفرجيت » أمرا يعرف عند العلماء « بالأمر الكانوبى » بتعديل التقويم . ويقضى هــذا الأمــر « باضافة يوم كل اربع سنوات الى الأيام الخمســة الاضافية ، لكى تجرى فصــول السنة عــلى قاعدة لاتتحول ولا تختلف بالنسبة لنظام العالم ، فيمتنــع بذلك ان تجىء فى فصل الصيف مواعيد حفلات يجب أن تقام فى الشتاء بسبب تقــدم كوكب الشــعرى اليمانية فى دورته يوما فى كل اربع سنوات ، ويمتنع أيضا ان تجىء فى الشتاء مواعيد حفلات يجب أن تقام فى الصيف . وهذا ماحدث من قبل ولا بد أن يحدث اذا بقيت السنة مكونة من ٣٦٠ يوما وخمسة أ اضافية » .

فهذا الأمــر الذى أصدره بطليموس الثالث هـ تعديل للتقويم ، ولكنه ليس جديدا ، بل هو تنة لعرف قديم كان جاريا منــذ العهد الطيبى ، و الكهنة ورجــال الحكومة يدونونه فى ســجلاتهم ينقشونه على جدران المعابد . ومن هذا كله يتض أن يوليوس قيصر لما جاء الى مصر وحمــل التقو منها الى روما ، لم تفعل فيه روما غير ما كانت مـ نفسها قد فعلته من قبلها بأكثر من الف سنة .



معركة
بين الكنيسة وعلم الآثار المصرية

قامت بين سنة ١٧٩٣ وسنة ١٨٨٠ معركة بين الكنيسة وعلم الآثار المصرية شغلت بها أوربا فى هذه المدة الطويلة . وكان منشؤها أن الكنيسة وقسسها وقعوا فى خطأ البسوه ثوب الدين وجعلوا منه عقيدة من انكرها خرج على الكنيسة وكفر بالدين . وكان كثير من البحث العلمى فى ذلك الوقت واقعا فى ايدى القسس ، فما عرض واحد منهم لهذه العقيدة إلا وهى عنده من الحقائق الثابتة التى لايرقى الشك إليها . وما زالوا كذلك حتى هب عليهم علم الآثار المصرية ، فثار بهبوبه غبار ، ثم اشتد هذا الغبار فتحول إلى معركة حامية تقف منها الكنيسة وقسسها فى جانب ، وتقف الآثار المصرية فى جانب آخر ، إلى ان انهزمت العقيدة بعد حوالى تسعين سنة . وحينئذ افاقت الكنيسة وافاق قسسها فاعترفوا جميعا بأنهم مخطئون وأن الآثار المصرية انتشلتهم من باطل كانوا فيه مخدوعين .

وموضوع هذا الخطأ أن فى التوراة ، أو « كتاب العهد القديم » ، نصوصا عن خلق العالم وتسلسل الأجيال من آدم (عليه السلام) إلى نوح (عليه السلام). وقد ذكرت التوراة فى هذا التسلسل أعمار الأشخاص واحدا بعد الآخر ، فكان من السهل على الذين يجمعونها ان يحددوا الزمن الذى مضى على خلق الانسان . ونذكر هنا شيئا من نصوص التوراة على سبيل المثال .

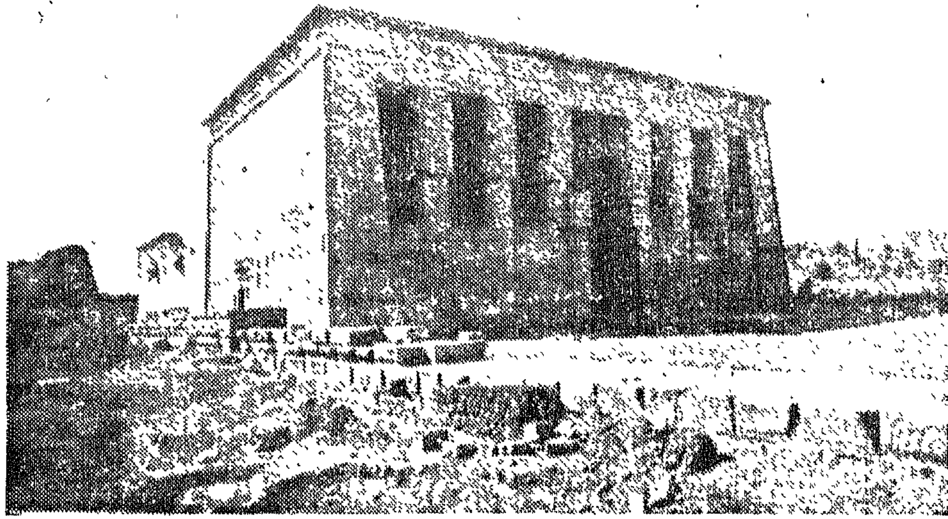
ففى « الاصحاح الخامس » من « سفر التكوين » مانصه :

« هذا كتاب مواليد آدم يوم خلق الله الانسان على شبه الله ، عمله ذكرا وأنثى ، خلقه وباركه ودعا اسمه آدم يوم خلق . وعاش آدم مائة وثلاثين سنة وولد ولدا على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثا . وكانت أيام آدم بعد ما ولد شيثا ثمانمائة سنة . وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام آدم التى عاشها تسعمائة وثلاثين سنة ومات .

« وعاش شيث مائة وخمس سنين وولد أنوش . وعاش شيث بعد ما ولد أنوش ثمانمائة وسبع سنين وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام شيث تسعمائة واثنتى عشرة سنة ومات . . الخ . . الخ » .

وتستمر النصوص على هذا المنوال حتى تصل إلى نوح ثم إلى ابراهيم . فعلى هذه النصوص استند الذين قدروا عمر الانسان على الأرض . ثم لما كانت هذه النصوص قد اختلفت باختلاف النسخ فقد اختلف تبعا لذلك تاريخ خلق الانسان . وذلك أن هناك ثلاث نسخ للتوراة كل واحدة منها اعتبرتها الكنيسة مقدسة : نسخة عبرية ونسخة سامرية ونسخة سبعونية . ففى الأولى يبلغ مجموع الأعمار من آدم إلى إبراهيم ٢٠٢٣ سنة . وفى الثانية يبلغ مجموع هذه الأعمار نفسها ٢٣٢٤ سنة . وفى الثالثة يبلغ هذا المجموع ٣٣٨٩ سنة . أما المدة من إبراهيم إلى عيسى (عليه السلام) فهى ٢٢٠٠ سنة . وبهذا تكون أقصى مدة قدرت من خلق الانسان إلى رسالة عيسى هى ٥٥٨٩ سنة .

وقد أخذت الكنيسة هذه الأرقام قضية مسلما بها ، وجعلتها إحدى العقائد المقدسة ، فانتشرت فى المؤلفات الدينية وسرت منها إلى المؤلفات العلمية التى الفها القسوس . وهذا هو الخطأ الذى أخذ العلم المصرى يصدمه منذ سنة ١٧٩٣، فثارت الكنيسة وثار معها انصارها فى أوربا كلها على مصر والعلم الذى يأتى منها ، فتغلبوا فى بدء المعركة ، ولكن الصدام استمر ، فكان العلم المصرى ينهض يوما ويكبو يوما ، وبلغ من حمو المعركة أن اشترك فيها أكبر العلماء من الجانبين ، واشتغل بها رجال الدين ورجال العلم ورجال السياسة،



معبد دندرة

لا بل اشتغل بها البابا لبون الثانى عشر نفسه . واخيرا انتصر العلم المصرى فقضى على الخطأ واعترف بانتصاره الذين حاربوه .

والآن فلنخض ميدان المعركة ولنتتبع اطوارهـا واحدا بعد واحد .

***

فى سنة ١٧٩٣ كان عالم فرنسى يسمى ديپوى (Dupuis) قـد درس البروج (١) التى وجـدت فى بعض المعابد المصرية ، فالف كتابا استنتج فيـه من علامات فى هذه البروج ومن حساب حسبه أولا أن المصريين هم أول من اخترع رسـم هـذه البروج ، وثانيا أن عمر البروج المصرية يبلغ ١٣ او ١٥ الف سنة قبل مبلاد المسيح . ثم قال : « وبما أن شعبا من الشعوب لايستطيع أن يخترع هـذه البروج فى مستهل حضارته فالحضارة المصرية ترجع إلى ابعد من ١٥ الف سنة » .

وكان ديبوى ذا سلطان بين العلماء فدوت كلمته هذه عندهم ، ورأى كل واحد منهم فيها تحديا لنصوص التوراة والانجيل التى قدستها الكنيسـة ، ولكنهـم تركوها تمر كما تمر الأشياء التى تستحق الاهمال .

(١) هذه البروج هى رسوم مستديرة على المبانى تمثل مناطق من السماء والكواكب والبروج الفلكية .

وبعد ذلك ببضع سنوات ، أى فى سنة ١٧٩٨ ، غزا نابليون بونابرت مصر ، وزار العلماء الذين كانوا يرافقونه الصعيد فشاهدوا برجين فى سقوف معبد دندرة وبرجين آخرين فى معبدين بالقرب من إسنا ، ولاحظوا أن قواعد التقسيم فى هذه البروج كلها واحدة ولكن العلامات ومناطق الكواكب مختلفة . ففى إسنا تبتدىء البروج بالعذراء وفى دندرة تبتدىء بالأسد ، فاستنتجوا من ذلك أن الغرض هو الدلالة على الوقت الذى بنيت المعابد فيه ، وأن معبدى إسنا بنيا حينما كانت الشمس فى فلك العذراء ، وان معبد دندرة بنى حينما كانت الشمس فى فلك الأسد . وهذا معناه أن معبدى إسنا يرجعان إلى ٧ آلاف سنة وأن معبد دندرة يرجع إلى ٤ آلاف سنة .

ونشرت جريدة المونيتور (Moniteur) التى كانت الحملة الفرنسية تصدرها فى القاهرة هذا الخبر فى عددها الصادر فى ١٨ اغسطس سنة ١٨٠٠ ، وقالت إن معابد إسنا ودندرة تعتبر مع ذلك من أحدث المعابد المصرية . ووصل هـذا الخـبر ، ووصلت جـريدة المونيتور ، إلى دوائر أوربا الدينية والعلمية ، فأحدثا فيهـا رجة ، واخـذ المتســائلون يتساءلون : ماذا ؟ ٤ آلاف سنة و٧ آلاف سنة ؟ ! ومعابد إسنا أحدث المعابد ؟ ! والبـلاد التى تعـرف بروجـا كهـذه

البروج وترسمها بهذه الدقة الفلكية يجب أن تكون حضارتها قد استمرت قبل ذلك الوفا اخرى من السنين ؟ ! ... فالمصريون الذين هم أهل هذه البلاد متى وجدوا ، وكم من الزمن قطعوا حتى خرجوا من الهمجية إلى المدنية ؟ ! ... وهل يصح حينئذ قول ديبوى إن الحضارة المصرية ترجع إلى أكثر من ١٥ الف سنة ... ؟! وأى شىء يبقى من نصوص التوراة إذا كانت الحضارة المصرية والآثار المصرية فى هذا القدم ؟! ... ولكن لا ، ثم لا ، فان التوراة مقدسة ، فهى صادقة ، اما مصر وآثارها والريح التى جاءت تهب من ناحيتها ، فهى كلها زور وخداع .

تلك هى الضجة التى ثارت فى الدوائر العلمية والدينية على أثر ذيوع الخبر عن بروج إسنا ودندرة . وحينئذ انقسم العلماء فريقين : فريقا يقول إن الآثار المصرية تثبت ان خلق الانسان أقدم من الزمن الذى حددته له التوراة ، وفريقا يتمسك بالتوراة ويدافع عنها . فمن الفريق الأول ديبوى الذى مر ذكره ، وبورخارت (Bourckhardt) وريمى ريج (Remi Raige) وفوريى (Forrier) وجولوا (Jollois) وديفلبرز (Devilliers) . أما الفريق الثانى فكانت تقوده الكنيسة وكان يتولى زعامته الأب تيستا (Testa) سكرتير البابا فى روما ويعاونه فيسكونتى (Visconti) والأب جريبو (Greppo) والقسيس هالما (Halma) وليترون (Letronne) وغيرهم .

وحميت المعركة بين هذين الفريقين من العلماء ، وكانت نظرية الفريق الثانى ان البروج التى وجدت فى إسنا ودندرة لاترجع إلى اكثر من القرن الثالث قبل الميلاد وانها لذلك لاتقدح فى التوراة . وإنما نادى الفريق الثانى بهذه النظرية لأنه راى ان التشبث بأرقام التوراة من غير الطعن فى قدم البروج المصرية لايفيد .

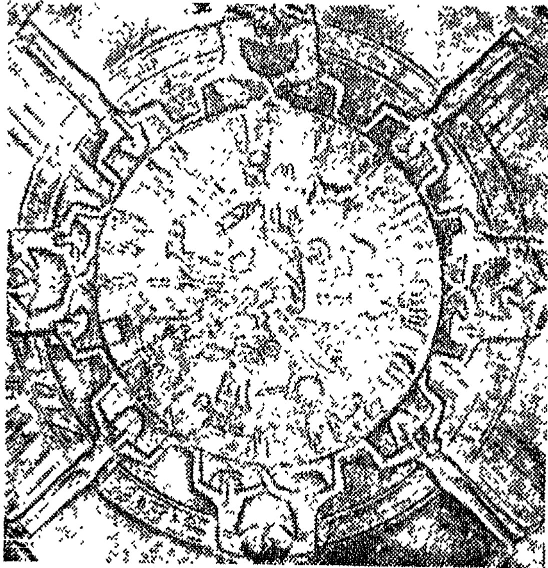
واستمرت المعركة على هذا المنوال ٢٥ سنة أخرج فيها كل واحد من هؤلاء العلماء عدة كتب كان موضوعها كلها البروج المصرية والحضارة المصرية .

* * *

وبينما المعركة عند هذا الحد إذا بقائل يقول : إن برج دندرة وصل إلى مرسيليا ، فسرى الخبر مسرى البرق ، ووقع فى النفوس كما تقع الأعجوبة . وكان الخبر صحيحا ، وكانت جليته أن ابن احد أعضاء مجلس النواب فى فرنسا أخذته نشوة المعركة الناشبة حول البروج المصرية ، فذهب بنفسه إلى دندرة واستطاع أن ينزع برجها من مكانه وأن ينقله إلى فرنسا بعد أن اتخذ جميع المعدات لصونه من أن يصاب بسوء . فلما وصل البرج إلى مرسيليا فى يناير سنة ١٨٢٢ لم تبق فى أوربا كلها جريدة لم تنشر خبر وصوله . وكانت الذى جلبه ـ وهو يسمى ليلورين ـ ولأصدقائه الذين ساعدوه مصلحة شخصية فى أن يدقوا حول البرج طبولا ضخمة فدقوا منها ما شاءوا وكيفما شاءوا . وكان الناس مستعدين لأن يسمعوا هذه الطبول فأقبلوا عليها وجعلوا يتمثلون حول البرج المصرى ، والحضارة المصرية ، والعلوم المصرية ، ما لا يتسع له إلا الخيال الواسع .

ولحظ رجال الكنيسة هذا الأثر فى الناس فانزعجوا ، ولحظه خصومهم الذين كانوا فى ميدان المعركة فتشجعوا واغتبطوا .

ونقل البرج إلى باريس ، واخترق شوارعها فى موكب كموكب الغازى المنتصر ، وضن به أصحابه عن أن يبتذل ، فلم يعرضوه للجمهور ، ولم يقبلوا أن يدخل عليه إلا العظماء . وكتب كاتب فرنسى هو كاميل لاجيى (Camille Lagier) يصف شغف باريس حينئذ بالبرج فقال :



البرج الذى نزع من معبد دندرة ونقل الى باريس

« إن هذا البرج الذى كان يظهر ويختفى فى آن واحد صار معبود المتحدثين فى الصالونات ، وفى أماكن الرياضة ، وفى كل مكان . فما كنت تسمع غير سيدة تقول لصاحبها : « أرأيت البرج ياعزيزتى ؟ » ، أو رجل يقول لصاحبه : « مارأيك يا أخى فى البرج ؟ » أو مايجرى هذا المجرى من الحديث » (١) .

واذاعت الصحف على اثر ذلك ان الحكومة الفرنسية الفت لجنة من ثلاثة من العلماء لفحص البرج ، وهل هو زائف أو ذو قيمة علمية . ثم فحصته اللجنة فقررت انه غير زائف . وكان اصحابه ينتظرون هذا التقرير ، فلما قدم إلى الحكومة كتبوا إليها يطلبون أن تشتريه منهم ، ويقولون إن دولة أجنبية دفعت لهم فيه ٢٠٠ ألف فرنك فرفضوا لأنهم يؤثرون ألا يفوت بلادهم الاحتفاظ بذخيرة مثله . واشترته حكومة لويس الثامن عشر ودفعت فيه ١٥٠ الف فرنك (أى نحو ستة آلاف جنيه) ووضعته فى متحف اللوفر وسمحت للجمهور بأن يراه فيه .

واشتد فى هذا الوقت حنق رجال الكنيسة ، واشتد معه حنق المؤمنين الغيورين على نصوص التوراة فكانوا جميعا « يلعنون الحجر الأسود الحقير » (٢) بينما كان بعض أعضاء مجلس النواب فى فرنسا يثيرون الثوائر عليه لأنه « أداة لبث الالحاد وإنكار الدين » (٣) وهذه الكلمات كافية للدلالة على أن المعركة وصلت فى هذا الدور إلى أقصى شدتها . وبعد ذلك يأتى الدور الثالث وفيه انقلب الأمر فانهزمت البروج وانتصرت الكنيسة .

* * *

بقى الأب تيستا يناضل نضالا عنيفا ، وجعل أساس نضاله أن يدرس البروج نفسها لبهدمها . وكان العلماء الذين رافقوا حملة نابليون بونابرت قد عادوا إلى فرنسا ونشروا الرسوم والصور التى جلبوها معهم لكثير من الآثار المصرية ، ومنها معابد إسنا ودندرة . وكانوا قد نشروا ايضا أوصاف هذه المعابد فى مؤلفهم العلمى الذى سموه « وصف مصر » (Description de l'Egypte)، فلاحظ الأب تيستا ولاحظ معه فيسكونتى أن على معابد إسنا ودندرة كتابات يونانية ، فقالا إن هذه الكتابات سترشد على الأرجح إلى التاريخ الصحيح لهذه المعابد والبروج التى وجدت فيها .

وتتبع ليترون هذه الفكرة ، فلاحظ أن اسمى الامبراطورين الرومانيين انطونين وادريان موجودان على معبد إسنا . وقرأ على معبد دندرة عبارة باللغة اليونانية كتبت تكريما للامبراطور تيبير ابن الامبراطور اغسطس .

وفى هذا الوقت كان شامبولبون الشاب قد فك حروف الخط الهيروغليفى فاطلع على جميع الأوصاف والرسوم الخاصة بمعابد دندرة وإسنا ، فأثبت أن جزءا من معبد دندرة بنى فى عهد كليوباطرة وابنها قيصرون ، وان جزءا آخر منه بنى فى عهد الأمبراطور اغسطس .

أما معبدا إسنا فأثبت انهما بنيا فى عهد الامبراطور كومود .

واثبت فى الوقت نفسه أن البروج حديثة وانها صنعت فى الوقت الذى بنيت فيه المعابد أى فى حكم الرومانيين لمصر .

وبذلك سقطت دعوى قدم البروج وانتصرت الكنيسة .

* * *

انهزمت البروج وانتصرت الكنيسة ، فكان معنى هذا ان عمر الانسان على الأرض لا يتجاوز ٣٣٨٩ سنة على اكثر تقدير قبل النبى إبراهيم ، وكان المعنى ايضا أن كل قدم تدعيه الحضارة المصرية لنفسها ابعد من هذا الحد زور وخداع . وهذه المدة التى تحددها التوراة هى المدة التى يجب أن يكون المصريون قد انتقلوا فيها من حالة الوحشية الأولى إلى حالة المدنية ، ثم من حالة المدنية إلى الحضارة الراقية ، فحضارتهم على هذا لا تتجاوز قرونا تعد على الأصابع قبل النبى إبراهيم .

(١) صفحة ٣٠ من كتاب (Autour de la Pierre de Rosette)

(٢ و٣) صفحة ٣٢ من المصدر السابق ذكره .

ولكن هذا الحساب فيه تسامح أيضا ، لأن من المفروض أن الطوفان جاء على عهـــد نوح فأهلك فى مصر — كما أهلك فى غـــبرها — كل حى ودمر كل عامر (١) ، فالمدة التى بين آدم ونوح يجب إسقاطها من الحساب . وفى النسخة السبعينية من نسخ التوراة — وهى النسخة التى يزيد رقمها على رقمى النسختـــين الأخريين — ان المدة من آدم إلى نوح ٢٢٤٢ سنة ، ومن نوح إلى ابراهيم ١١٤٧ سنة فقط . فهذه المدة الأخيرة هى وحدها التى يجب أن تكون قاعدة الحساب وهى التى عمرت فيها مصر بالمصريين ووصل المصريون فيها الى الحضارة التى وجدهم عليها إبراهيم حينما جاء مصر . فالحضارة المصرية حديثة إذن ، وليس لها أن تتيه على حضارات الأمم الأخرى بدعوى القدم .

هذا كان مؤدى انتصـــار الكنيسة عـــلى البروج المصرية . ولهذا لم يكد الانتصار يتقرر فى الأذهان حتى بدأت حملة منيفة على مصر وتاريخها ، وقاد هذه الحملة الأب جيرين دى روشى (Guérin du Rochet) وكان قد الف قبل ذلك ببضع سنين كتابا عنوانه « التاريخ الصحيح للعصور الخرافية » ، هاجم فيه مصر وتاريخها وحضارتها ، فأعاد طبعـــه وزاد عليه . وكان الأب دى روشى من العلماء الواسعى الاطلاع البارعين فى صناعة القلم ، فاستطاع أن يصوغ كتابه هذا فى شكل يلبس فيه الحق بالباطل . فزعم أن التاريخ المصرى من أوله إلى آخره ليس ســـوى تخليط فى الحوادث التى تسردها التوراة . فالملك (منا) الذى يذكره المؤرخ المصرى مانيتون (٢) ويقول إنه اول ملك حكم مصر ليس سوى نوح . والملوك الذين يعدهم مانيتون ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين خلفاء (لمنا) ليسوا سوى أولاد نوح الثلاثة . والفرعـــون موريس (٣) ليس سوى مصرايم حفيد نوح . وما زال الأب دى روشى يمضى فى السلسلة على هذا القياس حتى جرد مصر من تاريخها وحوله كله إلى التـــوراة والقصص التى فيها . وعنده أن المؤرخين : مانيتون وديودور الصقلى وهيرودوت ، لـــم يفعلوا غـــير أن وضعوا التوراة أمامهم ، ثم جعلوا يأخذون منهـــا ويخترعون .

وهذا القول يظهر لنا الآن غاية فى السخف ، ولكنه راج فى ذلك الوقت على إنه حقيقة تاريخية ودينية . واستقر فى الأذهان أن كل ما وراء إبراهيم من الزمن يجب أن يؤخذ تاريخه من التوراة . فما اثبتته فهو الحق الذى وجد ، وما لم تثبته فهو الباطل الذى لم يوجد .

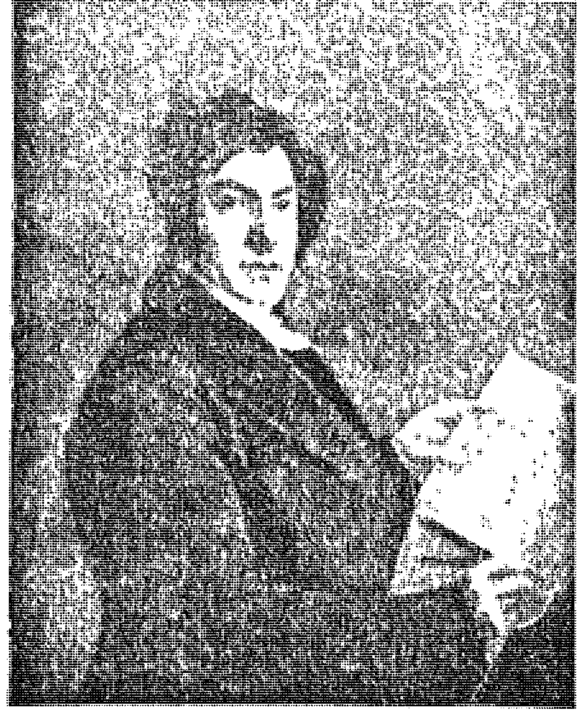
ولكن هذا الانتصار للكنيسة لم يدم طويلا لأن المعركة عادت تتجدد فى شكل آخر . وعادت تتجدد فى هذه المرة بشىء غير البروج ، وعلى يد عالم هـــو الذى نصر الكنيسة على البروج ، وهذا العـــالم هو شامبوليون الشاب الذى تقدم أنه أثبت من كتابات على معابد دندرة وإسنا أنها هى وبروجها بنيت فى عصر كليوباطرة والرومانيين .

وذلك أن شامبوليـــــون كان قد كشف الخط الهـــيروغليفى كما قلنا ، وعرف الخطين المصريين الآخرين الديموتيقى والهيراتيقى ، فصار فى استطاعته أن يقرأ جميع الكتابات التى تركها المصريون على المعابد وفى أوراق البردى . فبدأت الكنيسة تحس قلقـــا من هذه الناحية على الرغم من انها كانت قد ارتاحت لعمل شامبوليون فى هدم قدم البروج . وقد كانت على حق فى هذا القلق ولكن شامبوليون كان سياسيا بارعا فأخذ يهدىء روعها حتى لا تحول بينه وبين بحثه العلمى . فنجح واستنامت له الكنيسة ، ثم لم تفق إلا بعد أن صار كل نضـــــال لها فى المعركة لا يفيد .

(١) يقول بعض العلماء الآن ان الطوفان لم يعم الأرض كلها ، بل اقتصر عـــلى بلاد الكلدان وارمينيـــا ، ولكن هـــذا القول لم يكن شائعا فى الوقت الذى نشبت فيه معركة البروج .

(٢) مانيتون (Manéthon) هو ابو التاريخ المصرى بحق . وكان كاهنا مصريا من كبار العلماء ، وكان قد عاش فى زمن حـــكم البطالسة مصر ، فطلبوا اليه أن يضع تاريخا لمصر باللغة اليونانية فوضعه وعليه اعتمد جميع المؤرخين من بعده .

(٣) الفرعون موريس هو الفرعون الذى زعم المؤرخون اليونانيون والرومانيون ولا سيما المؤرخ سترابون ، انه انشا بحيرة موريس (بحيرة قارون) فى الفيوم لتكون خزانا للنيل . ولكن الآثار دلت بعد ذلك على أن هـــذه البحيرة انشئت فى عهد أمنحت الثالث أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة وانه لا يوجد فرعون مصرى يسمى موريس .



شامبوليون كاشف الحروف الهيروغليفية

وكان شامبوليون محتاجا فى أول أمره لرعاية ملك فرنســـا لويس الثــامن عشر ، فسعى له الدوق دى بلاكاس (Duc de Blacas)حتى حصل له عليها وعلى إذن بأن يزور متحف تورين والمتاحف الايطالية الأخرى ليــدرس مجموعات الآثار وأوراق البردى المصرية فيها . وكان الدوق من أنصار الكنيسة ومن محبى شامبوليون معا . فلما حصل شامبوليون على الاذن بدراسة الآثار المصريه فى متاحف إيطاليا اعتراه الخوف من أن يكون فى هذه المتاحف ما يخالف التوراة أو الديانة المسيحية ، فخلا به ورجا منه الا ينشر شيئا يخالفهما اذا اتفق له ان عثر على شيء مخالف. ففعل شامبوليون واعطى على نفسه عهدا بالذى يطلبه منه الدوق .

وهنا يقول المدافعون عن شامبوليون إنه أعطى هذا العهد لا لأنه كان ينوى الغش ، بل لأنه كان يعتقد بنية حسنة أن جميع الآثار والأوراق السريقة فى القدم دمرت بفعل الزمن أو بفعل المفســرين الذين أغاروا على مصر . ولكنا نحن نرى أن شـــامبوليون فى غنى عن هذا الدفاع ، وأن ليس عليه من حرج فى إعطائه ذلك العهد لأنه لم يؤذ به أحدا ولم يفعل غير أن فتح به الطريق أمامه للبحث العلمى ولتبـــديد الخرافات من الأذهان .

وسافر شامبوليون إلى تورين ، وقرأ فيها كثيرا من الكتابات المصرية ، ولا سيما سلسلة الملوك الذين حكموا مصر . ثم انتقل إلى روما ، وفيها قابله الأب تيستا الذى تقدم ذكره فى معركة البروج فرحب به ترحيبا وصفه شامبوليون نفسه فى أحد كتبه فقال :

« أستقبلنى باسطا ذراعيه وهنأنى بأن كنت مرسل الضربة الأخيرة للبروج » .

ثم قابل شامبوليون البـابا ليون الثـانى عشر ، ووصف هذه المقابلة فى أحد كتبه أيضا فقال :

« تكرم قداسته بمقابلتى على الرغم من أنه مريض . وكان فى حديثــه ظاهــر العطف والملاطفة . وقد قال لى بلغة فرنسية فصيحة ثلاث مرات متواليات إننى اديت بكشوفى خدمة جميلة ، وكبيرة ، وطيبة ، للديانة » .

ويرى من هذا أن الكنيسة ورجالها كانوا سعداء حقا بأن تخلصوا من كابوس البروج المصرية . ويرى منه أيضا أن شامبوليون نجح إلى الغاية القصــوى فى طمأنتهم من ناحيته .

وبعد هذا النجاح مع الأب تيستا ومع البابا ، جعل أعيان روما يتسابقون لمعـــرفة شامبوليون والحديث معه عن مصر والكتابات المصرية ، واقترحوا عليه إلقاء محاضرات فألقاها ، وصارت للحديث عن مصر فى صالونات روما ومجالسها لذة لا تعادلها لذة. وأطلق على شامبوليون لقب « المصرى » ، وتنافس الناس فى تلقيب علماء آخرين فى فرنسا وإيطاليــا والمانيا وانجلترا بمثل هذا اللقب فلقب العالم جومار « المصرى بمعنى الكلمة » ، ولقب العالم الانجليزى ينج

(Young) (١) « المصرى بالتراكم » ، ولقب العالم جوليونوف « المصرى بالالهام » ، ولقب العالم الألمانى سيفارت « المتشبه بالمصرى » .

***

وبينما شامبوليون يتمتع بكل هذا المجد المصرى فى روما ، وبينما الكنيسة مطمئنة إليه ، إذا بصيحة خطرة ترتفع آتية من مدينة تورين . وكان هذا الصائح أمين المتحف فيها . وكانت صيحته أن :

دراسة الآثار والكتابات والعلوم المصرية تهدم الأسس التى تقوم عليها الديانة ، وتدمر سلطان التوراة » .

وفى الوقت نفسه برز الأب ميشيلانج لانسى فى روما ينذر بأن العلم المصرى الذى يعلمه شامبوليون للناس يخالف التوراة خاصة ،وتعاليم الكنيسة على العموم . وكان لانسى هذا قد تعلم اللغتين العربية والعبرية ، وعين أستاذا لهما فى إحدى كليات روما ، فأثرت صيحته بعض التأثير . وتشجع لانسى بذلك فجعل يطبع كراسات يلعن فيها مصر وعلومها لأنها شوشت الأذهان وأوقعت أوربا فى حرب فكرية كانت فى غنى عنها ، ووصف الكتابات المصرية بأنها كاذبة ، ووصف الطريقة التى وضعها شامبوليون لقراءة الكتابة الهيروغليفية بأنها تلفيق .

ولكن شامبوليون كان ماهرا ، وكان حريصا على الا يفقد ثقة البابا به وبالعلوم المصرية . وكان البابا لا يستطيع ان ينسى انه هو الذى هدم البروج ، فأقنعه شامبوليون بأن صيحة الأب لانسى ناشئة من حسد فى نفسه لكاشف الحروف الهيروغليفية التى ادى كشفها إلى هدم البروج . وحينئذ أمر البابا بفصل الأب لانسى من منصبه ، فتقدم إليه شامبوليون يطلب العفو عنه ورده إلى منصبه ، فأجابه البابا إلى طلبه .

وعلى أثر ذلك كتب سفير فرنسا فى روما إلى وزير خارجية الحكومة الفرنسية يصف هذا الفوز الذى فازه شامبوليون فقال :

« لقد شافهنى البابا بأنه يشكر لشامبوليون أعماله لأنها خدمت الديانة خدمة ذات أهمية . ومن قوله لى فى ذلك إن شامبوليون أسقط كبرياء تلك الفلسفة التى كانت تزعم أنها عثرت فى برج دندرة على تاريخ لخلق الانسان أقدم من تاريخ الكتب المقدسة » .

ثم استمر السفير فقال :

« وقد استدعى البابا الأب ثيستا وعرف منه جميع البراهين التى يثبت بها شامبوليون أولا أن برج دندرة صنع فى عهد الامبراطور كلود والامبراطور نيرون .

« وثانيا أنه لا يوجد أى أثر مصرى يمكن أن يرجع إلى أبعد من ٢٢٠٠ عام قبل ميلاد المسيح أى قبل عصر إبراهيم . وبهذا يبقى نحو ١٨٠٠ سنة لا يمكن الوصول إلى معرفة شىء منها إلا من الكتب المقدسة » .

ومن هذا يستطيع القارىء أن يعرف كيف كانت الكنيسة ترى أن النجدة التى انجدها بها شامبوليون لهدم البروج كانت ذات قيمة كبيرة . ويستطيع القارىء أن يعرف أيضا أن مما كانت تحرص الكنيسة عليه الا يوجد أثر من الآثار المصرية يرجع إلى ابعد من ٢٢٠٠ سنة قبل المسيح ، لأن هذه هى المدة التى كانت تقدر للزمن الذى بين المسيح وإبراهيم .

***

ورحل شامبوليون بعد ذلك إلى مصر ليرى بعينيه مافيها من الآثار ويقرأ ما على هذه الآثار من الكتابات .

وقبل أن نخوض فى هذه الرحلة يحسن أن نعرف ماذا كان رأيه الداخلى فى اعتقادات الكنيسة . ويكفى بيانا لهذا أن نقول إنه لما قرأ فى متحف تورين بعض الأوراق البردية ، ورأى فيها سلسلة الملوك الذين حكموا مصر ، وعرف من هذه السلسلة أن عدد

(١) العالم الانجليزى ينح عالج كشف الحروف الهيروغليفية قبل شامبوليون بسنوات قليلة فنجح فى أربعة حروف او خمسة ، واخفق فى الباقى . وقد قام فى ذلك جدال بينه وبين شامبوليون ، والانجليز يتعصبون له . وقد احتفلوا فى لندن سنة ١٩٣٢ بمرور مائة سنة على وفاته ، ووصفوه حينئذ بأنه كاشف الحروف الهيروغليفية . وهذا غير صحيح الا فى اربعة حروف او خمسة كما تقدم .

الملوك الذين سبقوا الأسرة الثامنة عشرة يزيد على المائتين ، كتب فى سنة ١٨٢٥ إلى اخيه شامبوليون فيجاك (١) كتابا يقول فيه :

« . . . لقد قام الدليل القاطع على ان المصريين كانوا فى عصور بعيدة فى القدم يعدون أكثر من مائتى ملك حكموا بلادهم قبل ان تحكمها الأسرة الثامنة عشرة . . . فهذا هو الدستور الذى يجب تقديمه للجمهور ، ولكن فى قفاز ملون بلون خاص » (٢) .

فهو إذن لم يكن يقول فى سريرته بقول الكنيسة . وإنما كان يصانعها حتى لا تضع العقبات فى سبيله . وكان يرى أن قدم المدنية المصرية إلى أبعد مما فهمته الكنيسة من التوراة ، هو :

« الدستور الذى يجب تقديمه للجمهور ، ولكن فى قفاز ملون بلون خاص » .

ومن الطف ما يذكر من مصانعة شامبوليون للكنيسة انه لما كان على وشك الرحيل إلى مصر خاف الدوق دى بلاكاس ان تؤدى رحلته هذه إلى ما ينافى عقيدة الكنيسة ، فكتب إليه فى ٦ يوليه سنة ١٨٢٦ يذكره بأن خصومه مازالوا يدعون ان العلوم المصرية تهدم الديانة . قال الدوق :

« حينما ابلغنى الدوق دى دودوفيل القرار الصادر بشأنك لم يخف عنى المعارضة التى كان عليه ان يقاومها لكى يحصل لك على هذا القرار . فسيكون عليك انت ان تكذب ، بالأدلة المادية لا بالأقوال ، ما حاول ذوو النيات السيئة أن يحيطوا به عملك من ناحية ، والمبادىء السياسية التى تدين بها من ناحية أخرى » .

فرد عليه شامبوليون فى ٢٥ يوليه من السنة نفسها بكتاب قال فيه :

« اسمح لى ياسيدى الدوق ان اقول لك إننى سأسارع إلى استخدام كل الوسائل التى ستعرض لى ، لكى اهدم ماحاول ذوو النيات السيئة أن يذيعوه لغرض لا أريد أن أبحث فيه ، حول النتائج التى يؤدى اليها كشفى للحروف الهيروغليفية بازاء الديانة ، ثم حول مبادئى السياسية . فأما الحروف الهيروغليفية فأمرها تاريخى محض ولن يكون لها مساس قط بالاعتقاد الدينى . وأما مبادئى السياسية فقد أرشدتنى من تلقاء نفسها إلى مايجب على احترامه وتأييده ، حتى من قبل أن يقوم فى نفسى شعور الاعتراف بالجميل لمسديه فيجعل ذلك الواجب اعظم قوة واشد تقديسا . فسأكون دائما عندما يمليه هذا الشعور بلا أدنى تحفظ » (٣) .

* * *

وتعود بعد ذلك إلى رحلة شامبوليون الى مصر (٤) ، فنقول إنه طاف فيها ، وقرأ الكتابات التى على آثارها ، ولا يهمنا هنا أن نعرض لطوافه هذا إلا من ناحية واحدة هى التى تمس الكنيسة وعقيدتها فى عمر الانسان . فنقول إنه لما طالت

(١) (Champollion Figeac)

(٢) ص ١٢٨ من كتاب : (Autour de la Pierre de Rosette)

(٣) هذان الكتابان المتبادلان بين الدوق دى بلاكاس وشامبوليون فى ص ١٢٦ و١٢٧ من المصدر السابق .

(٤) لما جاء شامبوليون الى مصر كان من الضرورى له أن يستأذن والى مصر اذ ذاك محمد على باشا الكبر فى زيارة آثارها القديمة ، فسعى حتى قابله وأخذ منه الاذن الذى يريده . وقد كتب بعد ذلك الى أخيه شامبوليون فيجاك يصف هذه المقابلة فقال :

« نزلنا فى الدرج الكبير للديوان ، ثم دخلنا قاعة كبيرة مملوءة بالموظفين ، ومنها أدخلنا القاعة التى كان صاحب السمو (يريد محمد على باشا) فيها . وكان جالسا فى احدى زوايا القاعة ، بين نافذتين ، وفى ملابس بسيطة ، وفى يده « شبق » مطعم بالماس . وقد بدت لى قامته عادية ، وبدا لى فى مجموع مظهره ما يبعث انشراحا يدعو الى الغرابة من عظيم مثله مشغول بأعمال عظيمة . وعيناه تتقدان ذكاء . ولحيته بيضاء ، جميلة ، تغطى صدره . فبعد أن سألنا عن احوالنا بكرم فرحب بنا ، ثم سألنى عن خطتى فى رحلتى فشرحتها له بايجاز ، وطلبت الفرمانات التى لابد لى منها ، فمنحنى أياها فى التو ، واعطانى اثنين من قواصيه لمرافقتى فى كل مكان اذهب اليه . وبعد ذلك أمر لنا بالقهوة فشربناها ، ثم استأذنا من سموه فى الانصراف ، فودعنا مسلما علينا بيده ، مظهرا لنا كثيرا من العطف » .

وطلب محمد على باشا من شامبوليون أن يقدم له مذكرة عن تاريخ مصر القديم ومن الوسيلة التى يقترحها للمحافظة على الآثار المصرية القديمة فقدمها له .

تأملاته فى الآثار والكتابات التى عليها ، لم يبقَ لديه شك فى أنه امام مئات من البراهين كل واحد منها يهدم عقيدة الكنيسة ، ويثبت أن الحضارة المصرية أقدم من التاريخ الذى ترى الكنيسة أن التوراة حددته لخلق الانسان ، ولنوح ، ولابراهيم . ولكنه شاور نفسه فى هل يعلن هذه الحقيقة أو يسكت عليها . فرأى بعد كثير من التفكير أن يطوى جوانحه على مافيها ، وحينئذ كتب إلى أخيه فى ٢٥ مارس سنة ١٨٢٩ يقول :

« أقول لك ، فيما بينى وبينك ، إننى حصلت على نتائج ، هى مربكة لى إلى الحد الأقصى من وجوه عدة ، ولهذا يجب إبقاؤها فى الكتمان. وهذه النتائج لم تخالف فى شيء ماكنت أتوقعه وما كان يتوقعه معى « فوريى » ، وقد جلت امامى اشياء اخرى كثيرة كانت تتردد فى نفسى ترددا مبهما فصارت الآن عندى من الحقائق التى لايتطرق الشك إليها » .

ثم عاد شامبوليون إلى فرنسا ، وكان من المنتظر ان يكتب تاريخا لمصر فلم يكتبه ، وعاجله الموت فى سنة ١٨٣٢ .

* * *

وبعد أن مات شامبوليون مضت فترة هدوء ظن فيها كثيرون أن الأسرار التى طواها الموت بطيه لن تعرف . ولكن اسم ايمانويل دى روجى (١) ،



ايمانويل دى روجى

(١) (Emmanuel de Rougé)

سطع فى سنة ١٨٤٦ عالما كبيرا من علماء المصرولوجيا . وكانت الحقائق العلمية قد تقدمت، وكانت عقيدة الجماهير فى أرقام الكنيسة قد بدأت تتزعزع ، فلم يتردد دى روجى فى أن يذيع فى سنة ١٨٦٣ ترجمة لبعض الأوراق البردية التى فى متحف برلين وأن يجعل بعض عنوانها « قصص منذ ٤ آلاف سنة » . فلماظهرت هذهالترجمةهاج قسوسالكنيسة وجعل بعضهم يكتبون إليه يتهمونه بالمروق من الدين فرد على واحد منهم فى ١٧ ديسمبر سنة ١٨٦٣بكتاب قال فيه :

« لقد وجدت فى الانجيل أسبابا قوية للاعتقاد بتقديس المسيح، وهى فى نظرى أسباب كافية ،فلست أجد معها محلا للبحث عن أسباب اخرى . ولكن العلم يستطيع أن يسلك طريقه من غير أن يمس عقيدتى المسيحية » .

وكتب ايضا فقال :

« يستخدم بعضهم كتابات المصريين القدماء من غير أن يفهموها ، وهم لذلك يظنون انهم واجدون فيها قصصا من التوراةمشوهة تشويها مكشوفا (١) . فالنقد السليم قد قضى منذ زمن طويل على المؤلفات التى من هذا النوع والتى قامت على أساس الرغبة فى مسايرة الأوهام . وهناك غير هؤلاء قوم لايترددون فى أن ينكروا صراحة قواعد علمنا (٢) ، ويقولوا إنه وهم أو اقل .

وبعد أن يتخلصوا بهذه الطريقة من هذا العنصر المربك لهم يؤكدون بجراة انه لايوجد فى مصر اى بناء اثرى يمكن أن يكون أقدم من سنة ١٠١٢ ق م (٤) . فعلى هؤلاء نرد بالكلمة

(٢) لعل دى روجى يشير بذلك الى الاب جيرين دى روشى الذى تقدم انه زعم ان الملك «منا» هو نوح ، وأن ملوك مصر الدين ذكرهم مانيتون هم اولاد نوح الثلاثة ، وان الفرعون موريس هو مصرايم حفيد نوح .

(٣) يريد بقوله « علمنا » علم الآثار المصرية .

(٤) يشير بذلك الى كاتب انجليزى كان اسمه كرنوال ، وكان قد وضع كتابا فى سنة ١٨٦٢ ذهب فيه هذا المذهب .



لى بيج رينوف

التى كتبهامصرولوجى انجليزى كبير (١) وهى : « ما ابعد الجاهل عن سبيل العذر فى جهله إذا كانت الوسائل لمحو هذا الجهل فى متناول يده ».

ثم اشار دى روجى إلى الذين يرون بنية حسنة أن أرقام التوراة سور لايصح تخطيه ، ثم قال :

« إن مبادئنا لا تسمح لنا بأن نتهم المسيحية بأنها تتزعزع أركانها من جراء تقدم علم اياكان. ونحن على تمام اليقين من أن سلسلة التواريخ المصرية ، مهما يكن القدم الذى تنقلنا إليه ، ستأخذ مكانها فى العلم الحديث ، بجانب العلم الذى يبحث فى القوانين الخاصة بسير الكواكب، وبجانب العلم الذى يبحث فى كيفية تكوين طبقات الأرض ، من غير أن يكون ذلك مسيئا إلى الايمان المسيحى » .

وبينما كانت هذه الصيحة تدوى فى فرنسا كانت صيحةمثلها تدوى فى انجلترا على يد لى بيج رينوف ، وكان لبسيوس قد حمل علم المصرولوجية فى المانيا. ثم ظهر لينورمان فى فرنسا فى سنة ١٨٨٠ فعزز الحملة . وحينئذ لم تقو عقيدة الكنيسة على الثبات فانهارت البقية الباقية منها .

❊ ❊ ❊

ولما بلغ الأمر هذا الحد عادت الكنيسة إلى التوراة ترجع البصر فيها ، ففكرت وفكرت ، ثم اهتدت فجأة إلى أنها أخطأت فى اعتبارها تلك الأرقام التى فيها مقدسة وفى استخراجها منها الحساب الذى استخرجته . ولا يتسع المقام هنا لشرح جميع الأسباب التى بنت الكنيسة عليها نظريتها فى هذا الخطأ ، فيكفى أن نذكر منها سببين :

الأول : أن كل نسخة من نسخ التوراة الثلاث اختلفت الأرقام فيها عن الاخرى فى جملتها وفى تفصيلاتها ، فهذا الاختلاف وحده يمنع من أن تكون مقدسة .

والثانى : أن التوراة حينما تقول إن فلانا ولد فلانا لايكون مرادها أن الثانى ولد للأول من غير أن يكون بينهما جيل او أجيال ، بل المراد فقط أن الثانى نسل للأول بحيث قد يكون حفيدا له أو أبعد من حفيد . وإذن يكون من الخطأ ان تجمع الأرقام التى فى التوراة ليقال إن مجموعها هو الزمن الذى انقضى بين آدم ونوح ، ثم بين نوح وإبراهيم ، ثم بين إبراهيم وعيسى ، ثم ليقال فى النهاية ان هذا هو الزمن الذى انقضى على خلق الانسان .

وبهذا التفسير الأخير خرجت الكنيسة من التصادم مع العلم المصرى . وبه ايضا اعلنت أنها كانت على خطأ فى تحديدها السنين التى كانت تحددها لخلق الانسان . وبه أخيرا اعترفت بهزيمتها امام الآثار المصرية . ولكن اعترافها هذا لم يأت إلا بعد معركة حامية شغلت بها أوربا كما رأيت من سنة ١٧٩٣ إلى سنة ١٨٨٠ .

❊ ❊ ❊

ونقول بعد ذلك إن العلم الحديث دل على أن وجود الانسان على الأرض يرجع إلى بضع عشرات الألوف من السنين . فبعضهم يقدر هذه المدة بنحو اربعين الف سنة ، والبعض الآخر يقدرها بنحو خمسين الف سنة ، وهناك من يقدرها بأكثر .

(١) يريد لى بيج رينوف (Page Renouf) وسيأتى ذكره .

عقيدة الحساب بعد الموت

هل كان المصريون يعتقدون أن للانسان روحا ؟

وهل كانوا يعتقدون أن هذا الروح لايموت بموت الجسم ؟

وهل كانوا يرتبون على ذلك ان الانسان يحيا بعد موته حياة أخرى يحاسب فيها على أعماله فى الحياة الدنيا ، وتوزن فيها حسناته وسيئاته ، فمن رجحت حسناته استحق الثواب ، ومن رجحت سيئاته استحق العقاب ؟

وماذا كانوا يفهمون من الثواب والعقاب ؟ وكيف كانوا يتخيلون دار النعيم فى الحياة الأخرى للأتقياء الصالحين ودار العذاب للأشرار المفسدين ؟

وهل عرفت أمة اخرى من الأمم ماعرفه المصريون من ذلك كله فى الوقت الذى عرفوه فيه ، أم كانوا هم الذين سبقوا الأمم كلها إليه ؟

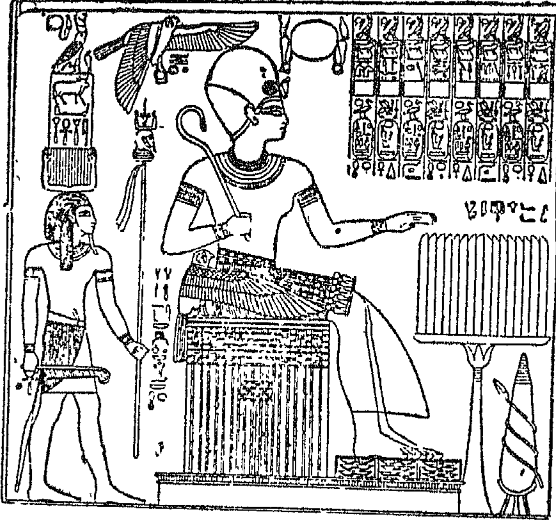
هذه هى الأسئلة التى سنجعل الجواب عليها مدار البحث فى هذا الموضوع .

***

لا ريب فى أن المصريين اعتقدوا منذ أقدم العصور أن للانسان روحا ، وأن هذا الروح لايموت بموت الجسم ، بل يحيا بعد ذلك حياة أخرى . وقد كان اعتقادهم هذا هو السبب الأول فى أنهم عنوا عنايتهم الكبيرة ببناء القبور المتينة ، وتشييد الأهرام الضخمة ، وتحنيط الجثة ، والاكثار من التماثيل الحجرية مع الميت فى قبره . فقد كان الغرض الأول من هذا كله حفظ الجثة من الفناء لكى يجدها الروح كلما دخل عليها القبر ، فاذا تعفنت مع ذلك وأكلها البلى فالتمثال يقوم مقامها ، وإليه يرتاح الروح . وقد يفنى تمثال ويبقى آخر ، ولهذا استكثروا من التماثيل فى القبور ، حتى إذا فنى بعضها بقى البعض الآخر .

ولا نطيل فى هذا فهو معروف مشهور .

وكانوا يقولون إن لكلّ انسان شبيها به ، يولد معه ، ولا يرى ، ويسمى « كا » . ويبقى هذا الكا لابسا جسمه مادام حيا ، فاذا فارقه مات . ولم يكن الانسان وحده هو الذى له كا ، بل الآلهة أيضا . وكانوا يرمزون لهذا الكا بذراعين مرفوعين لأنه قيل فى أساطيرهم إن الاله رع حينما بدأ بخلق الالهين الأولين شو وتفنيت وضع ذراعيه خلفهما فمسهما الكا الذى فيه ، فسرت فيهما الحياة (١) .



الملك سيتى الاول جالسا وأمامه مائدة القرابين ومن خلفه روحه المسمى « كا » . وقد وجدت هذه اللوحة فى أبيدوس حيث توجد الآن القرابة المدفونة

وللعلماء بحوث طويلة فى هذا الكا وطبيعته ، وهم يرون فيه معانى مختلفة عدها بعضهم أربعة عشر (٢) ، ومن أبرز خصائصه أن اتصاله بالجسم يعطيه الحياة ، وأن انفصاله منه يؤدى به إلى الموت ، وانه لايموت بموت الجسم بل يبقى ويتردد على الميت فى قبره .

(١) ص ٢٤٦ من كتاب (La Réligion des Eg.) لأودلف أرمان الذى مر ذكره .

(٢) ص ٢٠٩ من كتاب (Les Mystéres Egyptiens) تأليف (A. Moret) .

هذا نوع أول من الروح . وهناك نوع ثان كانوا يسمونه « با » وكانوا يعتقدون أنه هو أيضا يفارق الجسم عند الموت ، ويطير فى الجو ، ويصعد إلى السماء ، ويمكنه أن يتشكل فى أشكال مختلفة . وكانوا يجعلون له وجه صاحبه وجسم طائر . وهو أيضا لايموت بموت الجسم بل يبقى ويتردد على الميت فى قبره .

فقد اعتقد المصريون إذن أن للأنسان نوعين من الروح باقيين بعد موته . ولا نخوض هنا فى طبيعة كل منهما ، لأن لذلك بحثا ما زال المتخصصون يعالجونه . والذى يهمنا نحن فى بحثنا هذا هو أن المصريين لم يجعلوا الانسان يفنى بموته ، بل جعلوا له روحين باقيين . فننتقل بعد ذلك إلى البحث فى هل وقفوا عند هذا الحد أو مضوا إلى نتيجته الضرورية فرتبوا على بقاء الروح حياة أخرى يحياها الانسان بعد موته ، وفيها يحاسب على أعماله فى دنياه ، فيثاب على الحسنات ويعاقب على السيئات .

***

فى سنة ١٩٠٠ عثر المصرولوجى الانجليزى جريفث (F. L. L. Griffith) فى المتحف البريطانى على ملف من ملفات البردى المصرية فترجمه إلى اللغة الانجليزية فاذا هو قصة طويلة تتلخص فى أن فرعونا من فراعنة مصر اسمه أوزيماريس كان له ولد يسمى ساتنى أو ساتمى تفقه فى العلوم حتى كان الملوك يوجهون إلى أبيه أسئلة يطلبون منه الجواب عليها ، فان أجاب فذاك ، وإن عجز كان عجزه دليلا على تفوق بلادهم على مصر . فكان ساتنى يجيب على هذه الأسئلة ويجعل لمصر التفوق على جميع البلاد . وتزوج ساتنى فلم يرزق ولدا فحزن وذهبت امرأته إلى المعبد فصلت ودعت الله أن يرزقها بولد ، ثم نامت ليلتها فى المعبد فرأت فى نومها أن دعوتها ستجاب ، ثم رأت فى ليلة أخرى هاتفا يخبرها بأن ابنها سيكون صاحب كرامات ويطلب منها أن تسميه سينوزيريس .

ثم جاء هذا الولد فحذق علوم الحكمة والسحر وهو لايزال صبيا . وتطلع ساتنى ذات يوم من اعلى داره فرأى جنازة رجل غنى تسير من ممفيس إلى الجبل فى موكب حافل بالنادبات والمشيعين ومظاهر التكريم ، ثم رأى فى الوقت نفسه جنازة رجل فقير مدرج فى حصير ، ولا موكب معه ولا مشيعين ، فالتفت إلى ولده وقال إنه يرجو أن يكون له فى الدار الآخرة مصير كمصير ذلك الغنى لا كمصير هذا الفقير . فقال سينوزيريس إنه بالعكس يرجو له مثل مصير الفقير لا مثل مصير الغنى . فامتعض الوالد ، ولحظ الولد ذلك فأخذ بيد أبيه ليريه مصير الاثنين . ثم قرأ صيغا سحرية وذهب بأبيه إلى مكان فى جبل ممفيس فنزل به الى الدار التى يحاسب فيها الأموات (١) ، فاذا هما بسبع قاعات واسعة مملوءة بناس من جميع الطبقات ، فاجتازا ثلاثا من هذه الدور ثم دخلا الرابعة ، فاذا ناس يذهبون ويجيئون بينما حمير تأكل من خلفهم ، ثم ناس غيرهم يثبون الى طعام معلق فوق رءوسهم فلا يدركونه ، فيثبون ويثبون ، بينما حفارون يحفرون تحت أقدامهم ليزيدوا مسافة ما بينهم وبينه .

ثم دخلا القاعة السادسة فوجدا أرواحا من الأبرار لكل منها مكان تقيم فيه بينما فى الباب أرواح متهمة فهى واقفة تتضرع . ثم رأيا رجلا منطرحا تحت الباب على ظهره ، ومحور هذا الباب مركز فى عينه اليمنى يدور عليها كلما فتح أو أقفل ، وهو لاينفك يفتح ويقفل ، والرجل لاينفك يصيح من الألم .

ثم دخلا القاعة السابعة فوجدا آلهة الحساب جالسين والمنادين ينادون قضايا الأموات (٢) واحدة بعد أخرى ، والاله الكبير أوزريس جالس على عرش من الذهب متوج بالتاج ذى الريشتين (٣) بينما الاله

---

(١) هذه الدار ليس لها اسم معين فى النص المنشور فى كتاب (Les contes populaires de l'ancienne Egypte) أو « الفصص الشعبية لمصر القديمة » تأليف ج . ماسبيرو من ص ١٣٠ الى ص ١٣٨ من الطبعة الثالثة . ولكن هذه الدار سمى « الجحيم » فى النص الآخر المنشور فى كتاب :
(Causerie d'Egypte)
تأليف ج . ماسبيرو أيضا من ص ٢١٣ الى ص ٢٢١ .

(٢) هؤلاء المنادون يشبهون محضرى المحاكم الآن .

(٣) يقول ماسبيرو فى الحواشى التى وضعها لهذه القصة أن المصريين كانوا يسمون هذا التاج « يانف أو يوتف » وانه مكون من قلنسوة بيضاء ومن ريشتين من ريش النعام احداهما فى الجهة اليمنى والثانية فى الجهة اليسرى ».

الذى شاهدته مدرجا فى حصير وليس فى جنازته أحد من المشيعين . لقد جىء به إلى هنا ثم وزنت سيئاته وحسناته فرجحت الثانية الأولى . وكان الاله توت قد سجل له فى سجله أنه لم يتمتع على الأرض بسعادة كافية ، فأمر أوزوريس أن يعطى كل ماكان مجهزا به ذلك الغنى الذى رأيت جنازته مشيعة بمظاهر التكريم وأن ترفع منزلته بين الآلهة ، أما الغنى فقد وزنت سيئاته وحسناته فوجدت الأولى ترجح الثانية فقيد إلى الجزاء ، وهو الذى رأيت محور الباب يدور على عينه اليمنى ، وسمعته يصيح من الألم » .

وعلى هذه القاعدة ، قاعدة وزن الحسنات والسيئات ، جعل الولد يفسر لأبيه كل مارأياه من المناظر ، ثم أخذ بيده وعاد به إلى وجه الأرض من حيث جاء (٢) .

* * *

وروى ديودور الصقلى فيما رواه عن محاكمة الأموات فى مصر ، أن المصريين كانوا كلما مات لهم ميت ابلغوا موته ويوم دفنه لأقاربه ومعارفه ولقضاة مكلفين أن يحاكموه ، فاذا جاء يوم الدفن حملت الجثة فى قارب يجتاز بها بحيرة ، وجلس القضاة والمعارف ينتظرونها عند الشاطىء الثانى ، فاذا وصلت الى المرسى أبيح لكل مدع على الميت أن يتقدم للقضاة بدعواه ، فاذا ثبت أن الميت أساء فى حياته حكم القضاة بحرمان جثته من مدفنه ، أما إذا لم يتقدم أحد أو اذا ثبت أن المدعى كاذب فأهل الميت يخلعون حدادهم ويثنون على ميتهم ، فيجيب الجمهور بالتصفيق ويتمنى للميت الخلود مع الأبرار . والعقاب الذى ينزله القضاة بكل مدع كاذب فى هذه الحالة عقاب شديد رادع .

هكذا روى ديودور ، وهو مخطىء ، وقد التبس الأمر عليه ، فأخذ ماكان المصريون يعتقدونه حسابا يؤديه الميت فى الحياة الأخرى أمام قضاة من الآلهة ، على أنه حساب يؤديه أمام قضاة من الأحياء قبل أن يدفن . فما كتبه ديودور فى هذا يجب أن يضاف إلى الأشياء الكثيرة التى أخطأ المؤرخون اليونانيون

(٢) ليس ما أبتناه هنا ترجمة للقصة بل هو تلخيص لها كما قلنا . والقصة طويلة فمن أرادها فليطلبها فى المصدرين اللذين أشرنا اليهما من قبل .



أوزوريس الاله الأكبر لمحاكمة الأموات

أنوبيس (١) واقف الى يساره والاله توت (٢) الى يمينه والآلهة الآخرون الذين يتألف منهم مجلس دار الحساب واقفون يمينا ويسارا والميزان منصوب يزن السيئات والحسنات . فمن رجحت سيئاته حسناته ألقى إلى الوحش أماييت (سيأتى تعريف هذا الوحش) يفترسه ، ومن رجحت حسناته سيئاته قيد الى حيث الآلهة وصعدت روحه إلى السماء ، أما من تعادلت حسناته وسيئاته فلا يفترسه الوحش ولا ينضم إلى الآلهة بل يعين للخدمة .

ونظر ساتنى فرأى على مقربة من أوزوريس رجلا حسن البزة مرفوع المنزلة . فالتفت إلى أبيه وقال : « اترى هذا الجالس بجانب أوزوريس ؟ إنه الفقير

(١) أنوبيس هو مدير دفن الأموات ودليلهم فى الدار الآخرة .

(٢) توت أو تحوت هو المعروف عند اليونانيين باسم هرمس . وكان المصريون يزعمون أنه هو الذى علمهم الكتابة والقوانين والحكمة وجميع المعارف . وهو الذى يقيد وزن قلب الميت فى محكمة أوزوريس ويقدم تقارير عن أعمال الميت الى قضاة المحكمة . وهو المعبود الأكبر فى مدينة هرموبوليس او الأشمونين .

والرومانيون فهمها فى ما كتبوه عن المصريين . ولكن خطأ ديودور لايمنع من أن فى روايته حقيقة بارزة هى أن المصريين كانوا يعتقدون أن الميت محاسب بعد موته على سيئاته وحسناته ، معاقب على الأولى ، مثاب على الثانية . وهذه العقيدة هى بعينها التى رأيناها فى قصة ساتنى وابنه سينوزيريس .

* * *

ونقول بعد ذلك إننا لم نسق هنا قصة ساتنى وولده ، ولا رواية ديودور ، لأنهما الدليل على عقيدة الحساب بعد الموت ، كلا فان الدليل على هذه العقيدة نصوص صريحة وجدت فى قبور المصريين منذ أقدم العصور . وما ذكرنا قصة ساتنى وولده(١)إلا للدلالة على أن هذه العقيدة لم تكن فلسفة يتلقاها الكهنة فى المعابد أو يطلبها طلابها فى مصادرها الخاصة ، بل كانت شائعة فى سواد الشعب تدبج حولها القصص والأحاديث .

فقد وجدت هذه العقيدة فى نصوص الاهرام (٢) التى ترجع الىالأسرتينالخامسة والسادسة (٣). وقد اتفق العلماء على أن هذه النصوص تترجم فى الكثير منها عن عقائد وتقاليد تذهب فى قدمها إلى أبعد من هاتين الاسرتين ، بل الى ما قبل عصر الأسر .

ففى هذه النصوص أن الملك بعد وفاته يصعد الى السماء ثم يأخذ مكانا له فى سفينة رع (٤) ليجوب السماء معه (٥) ، ولكنه لايحصل على هذه المرتبة ، ولا تنفتح أمامه أبواب السماء الا بعد أن يؤدى حسابا أمام محكمة رع عن أعماله فى الحياة الدنيا ، وبعد أن تصدر المحكمة حكمها بأنه أحسن فى أعماله هذه وصار يستحق الثواب .

وهنا يقول مورى إن نصوص الاهرام صريحة فى ذلك ، وهذه هى الفقرة ١٢٣٨ منها :

« إن أتوم يدعو الملك الى السماء ليحيا فيها ... لقد فحصت أعمال الملك فلم يوجد فيها سوء . وهذه شهادة ذات معنى كبير أمام وجهك يا رع » .

ويمضى مورى بعد ذلك فى ذكر النصوص فى هذا الموضوع ، ومؤداها أن الملك أوناس (٦) يطلب حكم الآلهة على اعماله فى الدنيا ، فتجتمع المحكمة وتصدر حكمها ، وهو يقضى ، كما تقدم ، بأن « أعمال الملك فحصت فلم يوجد فيها سوء » . وبناء على هذا صار الملك يستحق أن تفتح له أبواب السماء وان يأخذ مكانا له فى سفينة رع .

وفى الفقرة ٣١٦ من هذه النصوص أنه لما مثل أوناس أمام الوحش الرابض فى المحكمة اعتراهالخوف ، ولكنه خرج بعد ذلك ومعه الهة الحق والعدل ، ولم يلق فى النيران . فمعنى ذلك أنه لو كانت المحكمة قد حكمت ضده لكان العذاب الذى ينتظره أن يترك للوحش يفترسه أو يلقى فى النيران .

فهناك إذن ، منذ أقدم العصور ، حساب ثم ثواب أو عقاب . وهذا العقاب قد يكون فى عذاب افتراس الوحش أو عذاب النار .

وقد قال بعض الباحثين فى نصوص الأهرام هذه إنها ذكرت محاسبة الملك على أعماله فى الدنيا وصعوده الى السماء ، ولكنها لم تذكر شيئا مثل ذلك لأحد غير الملك . فكأن الملك هو وحده الذى يحاسب ويصعد الى السماء ، أما من عداه من أفراد الرعية فلا . ولكن ارمان أثبت من نصوص الأهرام نفسها أن هذا القول خطأ (٧) . لأن النصوص تذكر بالعكس فى فقرات منها

---

(١) هذه القصة وضعت فى العصور الاخيرة للمدنية المصرية فهى حديثة .

(٢) نصوص الاهرام هى التى وجدت فى اهرام الاسرتين الخامسة والسادسة . والذى وجدها هو ماسبيرو فى سنة ١٨٨١ ثم ترجمها الى الفرنسية فى سنة ١٨٨٢ . ومن بعده ترجمها الى الالمانية العالم الالمانى سيت(Sethe) فى سنة ١٩٠٨ . ثم ترجمها أيضا العالم سبيرز (L. Speers) . وعلى هاتين الترجمتين الاخيرتين اعتمد مورى فترجم الى الفرنسية ما اقتبسه منها واعتمدت انا على ترجمة مورى .

(٣) الأسرة الخامسة حكمت من نحو سنة ٢٦٨٠ الى نحو سنة ٢٥٤٩ ق م (بحساب التاريخ القصير) . والاسرة السادسة حكمت من نحو سنة ٢٥٥٠ الى نحو سنة ٢٢٦٠ ق م .

(٤) سفينة رع هى السفينة التى كانت الاساطير القديمة تقول ان الاله رع (الشمس) يخترق بها السماء كل يوم .

(٥) الفقرة ١١٧١ من نصوص الاهرام فى ص ١٥٣ من الجزء الثانى من كتاب (Histoire de la Nation Eg.) لمورى .

(٦) الملك أوناس هو آخر ملوك الأسرة الخامسة . وقد ذكر اسمه فى هذه النصوص لأنها منقوشة فى هرمه ، ولأنها نقشت فيه من اجله .

(٧) ص ٢٤٥ من كتاب (La Rèligion des Eg.) لارمان .

«الميت الذى يرقد تحت الأرض والتراب والرمل» ، فميت كهذا ليس له ضريح مبنى بالطوب ولا هرم مشيد بالحجارة ، فهو ليس ملكا . وهناك فوق ذلك فقرة إخرى تذكر من مآثر هذا الميت أنه « لم يسب الملك قط » ، فبديهى انه لا بد أن يكون شخصا غير الملك .

ولهذا يرى ارمان أن عقيدة الحساب كانت تشمل غير الملك .

على أنه فى هذا الوقت نفسه كانت عبادة أوزريس قد اخذت تنتشر وتصير عبادة شعبية تقبل الطبقات كلها عليها . ونقول « فى هذا الوقت نفسه » لأن نصوص الأهرام أشارت اليها ، فدلت بذلك على أن هذه العبادة كانت قد بلغت شأنا رأى معه كهنة هليوبوليس أن من الخير لهم أن يقحموها على عبادة رع وأن يمزجوهما معا .

وعبادة اوزريس ، أساسها الأول أن كل انسان ، ملكا كان أو فردا عاديا ، مسئول بعد الموت عن أعماله فى الدنيا أمام محكمة إلهية يتولى القضاء فيها أوزريس نفسه ، ويساعده فيها توت وأنوبيس وحوريس ومعات واثنان واربعون قاضيا . فاذا حكمت هذه المحكمة بأن حسنات الميت ترجح سيئاته كوفىء بالنعيم الخالد وصار مثل أوزريس . اما اذا حكمت المحكمة بأنه اساء فى حياته فجزاؤه أن يفترسه الوحش ، أو أن يلقى فى النار ، أو أن يضرب عليه نوع آخر من انواع العذاب .

وقد راجت هذه العقيدة وراجت معها عبادة أوزريس فى زمن الدولة الوسطى ، ثم راجنا اكثر فى زمن الدولة الحديثة ، لأن كل أحد صار يرجو أن يكون مثل أوزريس فى الحياة الأخرى . وكان أوزريس قد نشأ فى مدينة بوزريس (وهى الآن بوصير أو أبو صير بمديرية الغربية) فانتقل الى مدينة أبيدوس (وهى الآن العرابة المدفونة بمديرية جرجا) فاعتبرت عاصمة له ومدينة مقدسة يرغب الملوك والأمراء وقواد الجيش والأعيان وغيرهم من سواد الأمة فى أن يدفنوا فيها للتبرك بترابها ، فاذا لم يجدوا أرضا لهذا الفرض اكتفوا بأن يقيموا لأنفسهم فى مقبرتها لوحة تذكارية من الألواح الحجرية التى تقام على القبور .

وفيما بين الدولة الوسطى والدولة الحديثة أخذ ينتشر ما سمى « بكتاب الموتى » حتى صار من العادات المرعية أن توضع نسخة منه مع كل ميت . وهذا الكتاب يشتمل على فصول مختلفة بعضها فى خلق الكون ، وبعضها فى بيان الأخطار التى يستهدف لها الميت بعد موته ، وبعضها تعاويذ سحرية كان الذين وضعوها يزعمون انها تنفع الميت وتنقذه من الأخطار ، وبعضها — وهو مايهمنا فى موضوعنا هذا — فى محاسبة الميت على أعماله فى الدنيا أمام محكمة أوزريس .

وكانوا يجسمون هذه المحاسبة فيضعون لها فى كتاب الموتى ، وعلى التوابيت ، رسم محكمة ومحاكمة وميزان . وفى هذه المحكمة يجلس أوزريس على عرشه حاملا عصاه وكرباجه ، ومعه اثنان واربعون قاضيا من الآلهة . ويلاحظ هنا أن مصر كانت مقسمة الى إثنين واربعين اقليما فكأن كلا من القضاة يمثل إقليما من هذه الأقاليم . فاذا جىء بالميت تسلمه أنوبيس وأخذ قلبه فوضعه فى إحدى كفتى ميزان ، ووضع فى الكفة الأخرى تمثال الالهة معات (إلهة الحقيقة والعدل) اوريشتها ، ثم وقف الاله توت بجانب الميزان وفى يده اليمنى قلم وفى يده اليسرى سجل يدون فيه نتيجة الميزان ثم يرفعها الى أوزريس . ويقف بالقرب من توت الوحش « أمايت » ، وهو وحش له رأس تمساح وجسم اسد ، متأهبا لأن يلتهم الميت الذى يصدر الحكم بالتهامه . وفى بعض الرسوم تضاف نيران الى المحكمة فى مكان خاص منها ، ليلقى فيها المذنبون . والقلب فى الميزان يمثل أعمال الميت فى حياته . وهو الذى يشهد بكل ما فعله صاحبه من خير أو شر .

* * *

وكتاب الموتى يدلنا على نوع الأعمال التى كان الميت يحاسب عليها أمام اوزريس . فقد وجد فى هذا الكتاب تضرع من الميت الى قلبه حينما يؤخذ منه ليوضع فى الميزان . وهو يقول فيه :

« أيها القلب الذى اخذته من أمى ، وولدت به ، وعشت معه على الأرض ، لا تشهد على . لا تكن خصمى أمام القوى المقدسة . لا تكن ثقيل الوزن ضدى » .

ثم وجد فى كتاب الموتى أيضا دفاع يدافع به الميت عن نفسه حينما يأخذ أنوبيس فى وزن أعماله . وهو دفاع فيه معان سامية من معانى الأخلاق الفاضلة المتأثرة بعقيدة الحساب بعد الموت . فى هذا الدفاع يقول الميت كلمات تقديس يوجهها الى اوزريس والقضاة الذين معه (١) :

« لقد جئت إليك اجلب الحقيقة واطرد الخطيئة .

« إننى لم أقارف الشر ، ولم اعتد ، ولم اسرق ، ولم أقتل غدرا ، ولم امس القرابين ، ولم اكذب ، ولم ارسل دموع احد ، ولم اتدنس ، ولم أذبح الحيوانات المقدسة ، ولم اتلف ارضا مزروعة ، ولم أقذف ، ولم اترك الغضب يخرجنى الى غير الحق ، ولم أزن ، ولم أرفض أن اسمع كلمة العدل ، ولم اسىء الظن بالملك ولا بأبى ، ولم الوث الماء ، ولم احمل سيدا على ان يسىء الى عبده ، ولم احلف كاذبا ، ولم اغش فى الميزان ، ولم امنع اللبن عن افواه الرضع ، ولم اصد طيور الآلهة ، ولم ارد ماء حين الحاجة اليه ، ولم اسد قناة رى على غيرى ، ولم اطفىء نارا يجب ان تشتعل ، ولم يخطر على بالى ان استخف بالآلهة . إننى طاهر ، طاهر » (٢) .

وهذا الدفاع يسميه شامبولبون « دفاعا انكاريا » لأن الميت يعزو فيه لنفسه الحسنات والفضائل فى صورة انكار للسيئات والرذائل .

ثم يخاطب الميت القضاة الاثنين والأربعين فيقول (٣) :

« لكم الحمد أيها القضاة . إننى اعرفكم واعرف اسماءكم . لست أسقط امام سيفكم . انكم لا تعلنون شيئا ضدى لهذا الاله الذى انتم حاشيته . لا شأن لكم بى . إنكم تقولون الحقيقة فى امرى أمام سيد كل شىء . لاننى اتبعت الحق والعدل فى مصر ، ولم أجدف فى حق الاله ، ولم يجد الملك المعاصر لى شيئا يأخذه على . لكم الحمد أيها الآلهة الجالسون فى قاعة الحقيقتين (٤) والذين ليس فيهم اثر من كذب ، وهم يعيشون من الحقيقة امام حوريس المستقر فى شمسه . انقذونى من « باباى » (٥) الذى يأكل احشاء العظماء فى يوم الحساب الكبير . هاكم انظروا : اننى آت اليكم بلا خطيئة ولا سوء . وقد فعلت مايرضى الناس والآلهة . وارضيت الاله بما يحبه . وقد اعطيت خبزا للجائع ، وماء للعطشان ، وثيابا للعارى ، وزورقا لمن ليس له مركب . وقد قدمت قرابين للآلهة ، وهدايا جنائزية للممجدين (٦) .

« انقذونى واحفظونى ، انكم لا تتهموننى امام الاله العظيم . اننى رجل ذو فم طاهر ، ويدين طاهرتين ، والذين يروننى يقولون لى : مرحبا بقدومك ، مرحبا بقدومك » (٧) .

(١) ترجمت هذا الدفاع عن كتاب :

(Le Nil et la Civilisation Eg.)

ص ٤٦٥ لمؤلفه مورى . وقد قال مورى ان هذا النص تلخيص وليس ترجمة حرفية . ويوجد فى كتاب :

(La Réligion des Egyptiens)

ص ٢٦٤ و٢٦٥ لمؤلفه ارمان نص يماثله ولا يختلف عنه الا قليلا .

(٢) مما يستحق الملاحظة هنا ان هذه السيئات التى يتبرأ منها الميت تنقسم الى انواع . فنوع منها خاص بالآلهة وهو مس القرابين ، وذبح الحيوانات المقدسة ، وصيد طيور الآلهة ، والاستخفاف بالآلهة . ونوع خاص بالملك وبالأب وهو سوء الظن بهما . ونوع خاص بالسلوك مع الناس وهو مقارفة الشر ، والاعتداء ، والسرقة ، والقتل غدرا ، واسالة الدموع ، واتلاف الأرض المزروعة ، والقذف ، والزنا ، والامتناع عن سماع كلمة العدل ، وتلويث الماء ، وحمل السيد على ان يسىء الى عبده ، والغش فى الميزان ، ومنع اللبن عن أفواه الرضع ، ورد الماء حين الحاجة اليه ، وسد قناة الرى على الغير ، واطفاء النار التى يجب ان تشعل . وهناك نوع ثالث خاص بتهذيب النفس قبل أن يكون خاصا بالغير وهو التدنس ، وترك الغضب يخرج الانسان الى غير الحق ، والكذب ، والحلف كذبا . ويختم الميت دفاعه بكلمة هى جماع الفضائل النفسية وهى قوله « أننى طاهر ، طاهر » .

(٣) هذا الخطاب مترجم من كتاب :

(La Réligion des Eg.)

ص ٢٦٦ و ٢٦٧ لمؤلفه ارمان .

(٤) المراد بالحقيقتين حقيقة للوجه القبلى وحقيقة للوجه البحرى . وكانت محكمة أوزريس تسمى قاعة الحقيقتين .

(٥) فسر أرمان كلمة « باباى » هذه فقال . ان المراد منها رفيق لاله الشر سيت أو سيت نفسه .

(٦) الممجدون هم الأموات الذين كانوا صالحين فى الدنيا وينالون هذه المنزلة فى الآخرة .

(٧) فى هذا الخطاب فضائل دينية وأخلاقية غير التى مرت فى الدفاع الانكارى . وهذا يدل على ان هذا الدفاع الانكارى لم يجمع كل ما كان المصريون يعتبرونه فضيلة وتهذيبا نفسيا . وستأتى شواهد اخرى تؤيد هذه الحقيقة .

فذلك الدفاع الانكارى الذى يدافع به الميت عن نفسه ، وهذا الخطاب الذى يوجهه الميت الى القضاة ، هما نتيجة مباشرة لعقيدة الحساب ، وفيهما الدليل القاطع على ان الميت يتقدم الى الحساب وهو ممتلىء خوفا من أن تكون اعماله فى الدنيا مؤدية به الى العقاب . ومن هذا الخوف تكون عقيدة الحساب أساس عمل الخير وتهذيب النفس والاستقامة فى معاملة الغير .

* * *

ويحسن هنا ان نعرف كيف كان تأثير هذه العقيدة فى نفوس المصريين ، فلنستعرض شيئا مما كتبوه فى ذلك ، فى قبورهم ، تعريفا بأشخاصهم وبسلوكهم فى الحياة .

ففى عصر الأسرتين الخامسة والسادسة ، اى فى الوقت الذى كانت تنقش فيه نصوص الأهرام ، نقش احد الأعيان على لوحة حجرية نصبها لنفسه :

« لم أسىء الى احد فى حياتى ، لأننى أريد أن تسير الأمور كلها سيرا حسنا حينما أكون امام الاله الكبير » (١) .

وظاهر من رغبته فى ان تسير الأمور كلها سيرا حسنا حينما يكون أمام الاله الكبير ، انه يريد أن تجد محكمة أوزريس انه لم يذنب فتجعل الثواب نصيبه .

وكتب حاكم إقليم من أقاليم الوجه القبلى يقول :

« اطعمت الجائعين وكسوت العارين ، ولم امس قط شيئا لغيرى بحيث لم يشكنى احد قط الى اله مدينتى .. ولم يحدث فى عهدى ان شكا احد الى الآلهة من اعتداء قوى عليه » (٢) .

وكتب حاكم لاقليم اسيوط يقول :

« كانت عندى غلال وافرة فلما حلت بالبلاد المجاعة ، وزعت منها على المدينة مكاييل مكاييل ، وسمحت لكل انسان بأن يأتى ليأخذ غلالا من عندى وأعطيت الزوجة والأرملة والولد ، وأعفيت الأهالى من جميع الضرائب المتأخرة عليهم والتى كان آبائى قد سجلوها فى دفاترهم » (٣) .

وكتب حاكم لاقليم ادفو يسمى بيبى نيفرقصة حياته فذكر أن أباه أرسله الى بلاط الملك بيبى الأول ليتربى فيه مع ابناء حكام الأقاليم ثم عينه الملكمرنرع (هو احد ملوك الأسرة السادسة) أمينا لمحصولات الوجه القبلى ثم مديرا للمعابد فى أقليم أدفو . وبعد ذلك أخذ بيبى نيفر يصف أعماله فى مناصبه وسلوكه فى حياته الشخصية فقال :

« من منتجات هذا الأقليم (إقليم ادفو) أطعمت الجائع ، وكسوت العارى ، ووزعت أقداح اللبن . ومن غلال الأوقاف الأبدية (٤) . اعطيت الجائع واصلحت شأن كل رجلوجدته عائشا من غلال غيره وجهزت للدفن كل ميت ليس له ولد .. وقد انقذت الفقير من يد الغنى وأصلحت بين الأخوة المتنازعين » (٥) .

كل هذا فى عهد الأسرتين الخامسة والسادسة . فنطوى الآن هذا العهد وننتقل الى عهد الأسرة الثانية عشرة (من سنة ٢٠٠٠ الى سنة ١٧٨٨ قبلالميلاد) .

ففى عصر هذه الأسرة وفى عهد الملك أمنمحت الأول كان حاكم الاقليم السادس عشر (حيث توجد الآن قبور بنى حسن فى مديرية المنيا) اميرا يسمى امينى . وقد حدثنا هذا الحاكم فقال : إنه كان قائدا لجيش هذا الأقليم ، ثم قائدا لحملة حاربت فى النوبة ، ثم لما عاد عين حاكما للأقليم . وحينئذ اخذ يحدثنا بسيرته فى محكوميه فقال :

« بينما كان الاقليم كله فى حركة دائبة تدر الخير العميم ، وبينما كان زمام السلطة فى يدى، لم اعتد علىبنت منبنات الشعب ، ولم اضطهد ارملة ، ولم أرد زارعا ، ولم أحبس راعيا ، ولم يقع قط ان اجبرت عمالا على أن يتركوا عمل سيدهم ليعملوا عندى .

---

(١) ص ٦٨ من الترجمة الفرنسية لكتاب برستيد :
(A History of Egypt.)

(٢) المصدر السابق جزء أول ص ٦٧ من الترجمة الفرنسية

(٣) المصدر السابق ص ١٦٢ .

(٤) الأوقاف الابدية هى الأملاك التى كانت محبوسة على المعابد والآلهة وغير ذلك من الاغراض الدينية

(٥) كتاب (Le Nil et la Civilisation Egyptienne) ص ٢٤٦ .

« لم يوجد فى زمنى بائس ولا جائع . وقد كنت فى سنى الجدب أحرث جميع أرض الاقليم الى حدوده الجنوبية والشمالية وأحرص على أن أجعل أهله يعيشون ، وأسعى فى ايجاد العيش لهم حتى لم يوجد جائع .

« وقد أعطيت الأرملة كما أعطيت المرأة المتزوجة . ولم أحاب كبيرا لأظلم صغيرا فى كل ما أعطيته . وفى السنين التى كان النيل يأتى فيها كبيرا (أى عالى الفيضان) فيحمل للناس المحصولات والغنى ، لم أطالب بالمتأخرات من الضرائب » (١) .

وعند هذا الحد من نقل الشواهد نقف ، لأن ما نقلناه منها يكفى للغرض الذى نرمى اليه . وبحسبنا أن نقول ان هناك عشرات من أمثال مانقلناه هنا يستطيع من يشاء أن يطلبها فى مصادرها .

* * *

لم نقصد من هذه الشواهد أن نقول ان المجتمع المصرى كان فى العصور التى كتبت فيه مجتمع فضيلة كله ، بل لم نقصد أن هذه الشواهد نفسها خالية من الرغبة فى الزهو والتمدح ـ لم نقصد هذا وليس يخطر فى بالنا إلا أن المجتمع المصرى كان كغيره من المجتمعات يعرف الفضيلة والرذيلة ، ويعرف العدل والظلم ، ويعرف البغى والتقوى . ولكن الذى نقصده ، والذى لم يبق فيه ريب بعد هذه الشواهد هو أن المجتمع المصرى كان يدين بعقيدة الحساب بعد الموت ، ويدين بأن من وراء هذا الحساب ثوابا وعقابا . وكان يتأثر بهذه العقيدة الى حد بعيد ، وفى ذلك يقول برستيد :

« إن هذا الفهم لقواعد السلوك يبلغ من السمو حدا بعيدا ، وهو أول ابراز للفكرة القائلة بأن مصيرنا فى الحياة الأخرى متوقف كله على اعمالنا فى الحياة الدنيا ... ومجموع هذا النظام القائم على الحساب بعد الموت يستحق أن ينوه به لأنه يسبق بألف سنة كل فكرة من هذا النوع عند اية أمة من الأمم الأخرى . فقد كان البابليون والاسرائيليون (٢) فى الوقت الذى اهتدى فيه المصريون الى هذه العقيدة ، ينزلون جميع الأموات فى مكان مظلم لا تفريق فيه بين من أحسنوا ومن أساءوا » (٣)

* * *

وننتقل بعد ذلك الى جانب آخر من جوانب هذا البحث ، وهو مصير الميت بعد محاسبته على اعماله فى الدنيا .

لقد ظهر أن هذا المصير إما أن يكون الثواب أو العقاب . فعلى أية صورة من الصور كان المصريون يفهمون الثواب ، وعلى أية صورة أخرى كانوا يفهمون العقاب ؟

تقول نصوص الأهرام ان الثواب هو الصعود الى السماء بعد رحلة جمية المخاطر ، للاقامة فيها مع الآلهة ، أو للاقامة مع الاله رع فى سفينته . وهؤلاء الذين يثابون بالاقامة فى السماء يسمون « المجدين » أو « السعداء » . والمكان الذى يقيمون فيه من السماء هو جانبها الشرقى أو جانبها الشرقى البحرى ، لأن المصريين كانوا قد لاحظوا فى هذين الجانبين نجوما ثابتة ، فأطلقوا عليها اسم النجوم الخالدة ، وجعلوا عندها مكان النعيم الخالد للذين يصعدون الى السماء .

ولم تكتف نصوص الأهرام بهذا الاجمال فى تصوير دار النعيم ، بل مضت الى التفصيل فذكرت أن المجدين يقيمون فى جزر فى السماء فيها حقل يسمى « حقل الطعام » . ومن هذا الحقل يتناول المجدون اطعمة شهية مختلفة تتجدد ولا تنفد . وهناك حقل آخر يسمى « حقل يارو » (٤) ، وشجرة جميز عالية تسمي « شجرة الحياة » يجلس اليها الآلهة ويأكلون منها ، هم والمجدون .

وليس هذا كله ما فى النعيم السماوى ، بل فيه الى جانب ذلك أن السماء (نوت) والثعبان الذى يحمى الشمس يعطيان الصاعد الى السماء حين وصوله اليها ،

(١) المصدر السابق ص ٢٧٨ . وكتاب :
(A. History of Egypt.)
لبرستيد ص ١٦٣ من الترجمة الفرنسية مع اختلاف فى كلمات قليلة .

(٢) لعله يقصد أجداد الاسرائيليين .
(٣) المصدر السابق ص ١٧٦ .
(٤) يقول ارمان فى ص ٢٥١ من كتابه :
(La Réligion des Egyptiens)
ان كلمة « يارو » معناها فى اللغة المصرية نبات الخيزران ، ويرى علماء آخرون أن هذا الحقل يسمى « حقل يالو » .

ثدييهما ليرضع منهما، فمتى رضع عاد صبيا .

وهو يأكل الخبز مع الآلهة ويشرب الخمر . وصحته تزداد تحسنا على مر الأيام ، فهى اليوم احسن منها امس ، وتكون غدا احسن منها اليوم .

هذا موجز ما ذكرته نصوص الأهرام عن النعيم الذى يثاب به المحسنون فى الدنيا . أما كتاب الموتى فيذكر من مظاهر الثواب أن الميت يجلس فى قاعة امام اوزريس ، ويخرج الى حقل يارو ، ويأكل خبزا وفطائر ، ويكون له حقل من القمح والشعير يبلغ علو النبات فيه سبعة اذرع ، وخدام حوريس يحصدون له هذا الزرع ليأكل منه . وله أن يدخل العالم السفلى ويخرج منه . وله أن يقيم فى حقل يارو أو فى حقل الطعام ، وفيهما يكون ممجداً يزرع ويحصد ، وتكون له نساء يتمتع بهن ، ويعمل كل ماكان يعمله على الأرض .

وقد ترك بعض المصريين كتابات عبروا فيها عما يتمنونه من انواع السعادة فى الحياة الأخرى فقال احدهم ، ويسمى « ناخت ــ مين » فى لوحة محفوظة فى متحف اللوفر ، إنه يتمنى أن يدخل قبره ويخرج منه ، وأن يشرب كل يوم من ماء بحيرة كانت له ، وأن يطير روحه فوق الأشجار التى زرعها ، وأن يستنشق النسيم العليل تحت شجر الجميز الذى زرعه ، وأن يأكل من ثمر هذا الشجر ، وأن يكون له فم يتكلم ، وأن يصعد إلى السماء وينزل الى الأرض من غير أن يقف فى سبيله عائق ، والا تسجن روحه ، وأن يكون من المكرمين الممدوحين ، وأن يحرث ارضه فى حقل يارو ، وأن يصل إلى حقل الطعام ، وأن يأتيه الخدم بأنواع الخبز والشراب وجميع المأكولات التى يأكل منها رب الأبدية ، وأن يأكل من اللحم الذى على مائدة الاله العظيم .

وكتب أقارب رجل يسمى « با ــ هيرى » كان اميرا لمدينة الكاب يتمنون له فى الحياة الأخرى :

« أن تكون له يد طولى على الخبز والماء والهواء ، وأن يتحول كما يريد إلى عنقاء (١) أو قطاة أو باشق أو مالك الحزين ... وأن يتكلم فمه ، وتمشى قدماه ، وتتحرك يداه ، ... وأن يكون قلبه قريبا منه ، وأن يصعد الى السماء » .

وفى تمنيات اخرى يتمنى الميت أن تكون له حقول وقطعان وعبيد من الرجال والنساء ، وأن يبعث فى الحياة الأخرى شابا موفور القوة والصحة .

هذه بالاجمال هى الصورة ، أو الصور ، التى كان المصريون يتصورون بها دار الثواب ، اى الجنة .

ويلاحظ أنها تميل فى كثير من جوانبها إلى جعل الجنة على مثال السعادة التى يتمناها المصرى لنفسه فى الدنيا . فحقل الطعام ذو الأطعمة الشهية التى تتجدد ولا تنفد ، وشجرة الجميز التى تسمى شجرة الحياة ، والخبز ، والفطائر ، وحقل القمح والشعير الذى يبلغ علو النبات فيه سبعة أذرع ، هذه كلها صور متفرعة من الحياة المصرية . ولم يكتف « ناخت ــ مين » بهذا ، فجعل يتمنى أن يجد فى الآخرة كل ماكان له فى الدنيا من شجر وثمر وبحيرة وحقل وخبز وشراب . يضاف إلى هذا كله أن تكون للميت نساء يتمتع بهن وأن يبعث شابا وأن يكون دائما فى صحة جيدة . ولا نحتاج أن نقول إن كثيرا من هذه الصور لايزال باقيا الى اليوم .

أما العقاب فقد تقدم أن من صوره وحشا له راس تمساح وجسم أسد يلتهم المذنب ، ونارا يلقى المذنب فيها . وهناك صورة اخرى هى أن يبقى المذنب فى قبره فريسة للجوع والعطش ، محروما من رؤية الشمس . وفى بعض الأحيان يكون مع القضاة الاثنين والأربعين الذين يجلسون مع أوزريس فى محكمته سيوف يضربون بها المذنبين (٢) .

وتدل قصة ساتنى وولده التى اشرنا اليها من قبل على أنه كانت توجد صور غير هذه ايضا للعذاب ، منها تعذيب الميت تعذيبا دائما بتركيز محور باب على عينه ، وهذا الباب يفتح ويقفل ، والميت يصيح من الألم كلما فتح أو اقفل . ومنها تعليق

(١) المراد بالعنقاء طير خرافى كانت الأساطير تزعم أنه يعيش مئات من السنين .

(٢) سبقت الاشارة الى هذه السيوف فى خطاب الميت للقضاة فى هذا الكتاب .

طعام فوق رءوس المذبين ، وهؤلاء المذبون يقفزون ليحاولوا الوصول إليه ، فكلما قفزوا بعد الطعام عنهم .

ونصوص الأهرام ونصوص كتاب الموتى صريحة فى أن النعيم الذى ينعم به المستحقون للثواب فى الجنة هو نعيم خالد . فلسائل أن يسأل : وهل العذاب الذى يعذب به المذنبون خالد أيضا ؟

والجواب على هذا أن قصة ساتنى وولده تقول إن الميت يصيح من الألم كلما أقفل الباب أو فتح على عينه . فمن البديهى أن استمرار الميت على الشعور بالألم يجب أن يفرض معه أن عينه تتجدد بعد كل دورة للباب أو دورات .

واستمرار العذاب مفهوم بسهولة فى حالة الميت الذى يترك فريسة للجوع والعطش محروما من رؤية الشمس ، ومفهوم فى حالة الميت الذى يعلق الطعام فوق رأسه فكلما قفز ليتناوله بعد عنه . أما الحالات التى تحتاج إلى شىء من الوضوح من هذه الناحية فهى حالة الميت الذى يلتهمه الوحش ، والميت الذى يلقى فى النار ، والميت الذى يضربه القضاة بالسيوف . وعندى أن العذاب فى هذه الحالات يجب أن يكون متجددا بعد الذى رأيناه فى النص على خلود النعيم فى الجنة ثم النص على تجدد العذاب فى كثير من الحالات .

***

وهنا نقف لحظة لنشرف على هذا المجهود الجبار الذى بذله المصريون فى القول بخلود الروح ، وبالثواب والعقاب بعد الموت ، فلا يسعنا إلا أن نعترف بأنه مجهود جبار خطا بالانسان خطوة واسعة فى سبيل تهذيب النفس ، ووضع المعاملات والأخلاق على أساس من التقوى والخوف من الله ، فى وقت كان الانسان فيه لايزال قريبا من الحياة الوحشية .

نعم هو مجهود جبار ، والعلماء الأجانب كلهم يعترفون به ، ويقدرون فضل مصر فيه . ولكن هل كان ممكنا أن يسلم هذا المجهود من نقص يعلق به إلى أن يمحصه الزمن فيسقط ويبقى الجوهر سليما ؟ ليس من سنن الأشياء أن تخلص الحقائق الكبيرة للانسان من غير أن يتعثر فى سبيل البحث عنها ، بل التعثر هو السنة الطبيعية ، وقد جرت هذه السنة على المصريين ، فقام فيهم قوم يقولون إن الصيغ السحرية تستطيع أن تجنب الميت جميع المخاوف التى يستهدف لها بعد مماته ، وتستطيع أن تؤتيه الحكم بالبراءة من محكمة أوزريس مهما تكن ذنوبه ، وتستطيع أخيرا أن تعطيه النعيم الخالد ولو كان لايستحقه . وكانت الأمم كلها فى ذلك الوقت تؤمن بالسحر وتكاد تراه فى كل شىء . وكانت تجعل للساحر قدرة على تسخير الآلهة لارادته .

وكانت الصيغ السحرية التى من هذا النوع قليلة فى نصوص الاهرام ، فصارت كثيرة فى كتاب الموتى ، وصارت النسخ التى توضع مع الأموات فى هذا الكتاب كثيرة أيضا ، فدل ذلك على أن تجارة هذا النوع من السحر راجت .

ولا نزاع فى أن هذا السحر الذى يسحر الآلهة ، ويعطى الميت حكما بالبراءة لا يستحقه ، ونعيما خالدا لا يستحقه ، معطل للقوة التهذيبية التى لعقيدة الحساب بعد الموت . ولكن هل عطلها فى الواقع ، فأفسد الايمان الدينى ، وأتلف الأخلاق ، وأباح لكل أحد أن يرتكب ما استطاع من المعاصى والآثام ؟

علينا أن نسمع فى ذلك مايقوله المصريون أنفسهم ، فقولهم هو الجواب الفصل .

كان من ملوك الأسرة التاسعة ملك عاقل حكيم ، أراد أن يترك لابنه الملك « مرى — كا — رع » وصية ، فكتب فيها يقول :

« ليس لأحد على الأرض أن يقتل ، ولا أن يعمل بما يخالف العدل ، لانه سيؤدى حسابا عن أعماله » .

ثم استمر فقال :

« إن القضاة المقدسين الذين يحاكمون الميت لايتسامحون فى تطبيق الشريعة ، فويل حينئذ للميت من متهميه » .

والقضاة المقدسون هنا ، هم قضاة محكمة أوزريس . والملك يقول إنهم لايتسامحون ، ثم يقول فويل حينئذ للميت من متهميه . فهذا صريح فى أن

القضاة المقدسين لايتأثرون بالسحر ، ولا يعرفون غير الحق والعدل يقيمون عليهما الحساب ».

ثم استمر الملك فقال :

« لاتفتر بامتداد السنين ، فان حياة الانسان على الأرض ليست فى نظر القضاة المقدسين سوى لحظة قصيرة . سينشر الانسان حين وصوله الى الشاطىء الثانى (١) ، وستكون أعماله مجتمعة بجانبه . إنها الأبدية هناك لاشك فيها . فمجنون من يحتقرها . أما الذى يأتى بغير ذنوب فسيحيا فيها كما يحيا الآلهة » .

وهذا قوى الدلالة فى المعنى الذى نريده . واستمر الملك ايضا فقال :

« إن الحياة على الأرض تمضى على عجل ... وامتلاك الألوف من الرجال لا يميز مالكهم . فمن اتقى وعاش عيشة الفضيلة كان نصيبه الخلود فى الحياة الأخرى . من جاز الحساب أمام أوزريس مضى إلى الحياة الأخرى ، أما من تساهل مع نفسه فى الحياة الدنيا فلا مفر له من التدمير » (٢) .

ثم انظر ماذا قال أيضا . قال :

« إن الفضيلة التى يتحلى بها الرجل العادل أفضل فى عين الله من الثور الذى يذبحه الرجل الشرير قربانا له . على انه ينبغى مع ذلك للرجل أن يفعل ماينفع روحه فى الحياة الأخرى، فيقدم القرابين لله . فان الله يعرف من يفعل له شيئا » (٣) .

وفى هذا كله لايظهر أثر للسحر يمكن التعويل عليه وقت الحساب . وإنما المعول عليه هو عمل الانسان على الأرض . فالتقوى والفضيلة ينجيان الميت ، والشر والفساد يهلكانه ، وآلهة الحساب لاينخدعون ولا يظلمون .

وكتب « با ـ هيرى » أمير مدينة الكاب الذى من ذكره ، فرجا أن يصل إلى النعيم الخالد فى الحياة الأخرى ، ولكنه لم يبن رجاءه هذا على الصيغ السحرية ، بل على أعماله الطيبة وحدها ، ثم قال :

« متى وضعت فى الميزان فسأخرج منه كاملا بغير نقص .. إننى لم أكذب قط على أحد. وقد عرفت الله الذى هو فى قلوب الناس (٤) . نعم عرفته وخشيته ومزت الخير من الشر ».

وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة كتب حكيم يسمى « بيكى » يعظ الناس فقال :

« اجعلوا مسرتكم فى خدمة معات (إلهة الحق والعدل) كل يوم . إن معات لايصنع منها طعام ، ولكن الاله سيد أبيدوس (يريد أوزريس) يتغذى بها كل يوم . فان أنتم فعلتم هذا فكنتم دائما فى أعمالكم على حق وعدل فسيعود عليكم ذلك بالنفع ، فتجتازون الحياة الدنيا بقلوب راضية مغتبطة وتذهبون الى الغرب الجميل (٥) ، حيث تكون لأرواحكم الحرية فى أن تدخل أو تخرج أو تتريض مع الآلهة الخالدة » .

فهذا الحكيم لم يقل اعتمدوا على الصيغ السحرية تنالوا النعيم فى الحياة الأخرى ، بل قال اعتمدوا على أن تكون أعمالكم مطابقة للحق والعدل فى كل يوم . وظاهر أن قوله . « اجعلوا مسرتكم فى خدمة معات » تعبير مجازى معناه اجعلوا مسرتكم فى أن تكون أعمالكم مطابقة للحق والعدل . وقوله إن سيد أبيدوس يتغذى بالالهة معات هو ايضا تعبير مجازى

(١) الشاطىء الثانى هو تعبير كان المصريون يريدون منه الحياة الأخرى .

(٢) هذا النص ، الى هنا ، مترجم من ص ٢٩٧ من كتاب مورى (Le Nil et la Civilisation Egyptienne)

(٣) هذا النص مترجم من ص ١٩٢ من كتاب ارمان (La Religion des Egyptiens.)

(٤) قوله « عرفت الله الذى هو فى قلوب الناس » يلفت النظر ، لان معناه أن الله ليس الصنم الذى يعبد فى المعابد ، وانما هو روح شائع فى قلوب الناس كما هو شائع فى كل شىء . ويرى بعض العلماء ان با ـ هيرى يريد بذلك الضمير الانسانى ، ويقولون ان هذا أول تعبير من هذا النوع . وقد يكون قولهم هذا صحيحا، ولكن قد يكون صحيحا أيضا أن با ـ هيرى يريد مايحسه الرجل الصالح فى قلبه من حب الله وتقواه والخوف من غضبه .

(٥) تقدم أن المراد بالغرب الحياة الاخرى . اما المراد بالغرب الجميل فهو نعيم الجنة .

معناه أن الحق والعدل عنصران من عناصر أوزوريس وان أوزوريس يطالب الناس بأن يكون هذان العنصران أساس سلوكهما فى الحياة .

وفى العصور الأخيرة للمدنية المصرية كتب واحد من الأعيان على قبره يقول :

« قلب الانسان هو إلهه . وقلبى راض عما فعلته حينما كان فى جسمى . فلأكن مثل الاله » (١) .

وقصة ساتنى وولده ليس فيها أن أحدا من الأموات حصل على الثواب بقوة الصيغ السحرية ، وإنما فيها أن كل ميت أثيب أو عوقب على حسب أعماله فى الأرض .

والكتابات التى ذكرناها فى الصفحتين ١٠٥ و١٠٦ ، وهى كتابات موزعة بين عصور الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة ، تضاف الى الكتابات المماثلة لها هنا فتؤدى كلها معنى واحدا هو أنه يكون من المجازفة أن يقال إن الصيغ السحرية عطلت القوة التهذيبية التى لعقيدة الحساب ، وربما كان الأصح أن يقال إن هذه الصيغ لم تؤثر الا فى النفوس التى يجعلها ميلها الى الشر مستعدة لهذا التأثير . وهذه النفوس موجودة فى كل زمان ومكان ، وتصديق السحر موجود فى زماننا هذا .

* * *

والآن نسأل ماذا عرفت المدنيات القديمة ، فى غير مصر ، من عقيدة خلود الروح والحساب بعد الموت ؟

ونبدأ بالمدينة الكلدانية ثم نثنى بالمدنية اليونانية .

فأما المدنية الكلدانية فقد تقدم أن برستيد عرض لمركزها ومركز مصر من عقيدة الحساب فقال :

« إن هذا الفهم (أى فهم مصر) لقواعد السلوك يبلغ من السمو حدا بعيدا . وهو أول إبراز للفكرة القائلة بأن مصيرنا فى الحياة الأخرى متوقف كله على أعمالنا فى الحياة الدنيا ... ومجموع هذا النظام القائم على الحساب بعد الموت يستحق أن ينوه به ، لانه يسبق بألف سنة كل فكرة من هذا النوع عند أية أمة من الأمم الأخرى . فقد كان البابليون (أى الكلدانيون) والاسرائيليون ، فى الوقت الذى اهتدى فيه المصريون الى هذه العقيدة ، ينزلون جميع الأموات فى مكان مظلم لا تفريق فيه بين من أحسنوا ومن أساءوا » .

وهذا صحيح فان الروح عند الكلدانيين كان ينتقل الى مكان مظلم يسمى « أرالو » موجود تحت الأرض فى رأى البعض منهم ، وموجود فى الجانب الشرقى من الكون فى رأى البعض الآخر (٢) . وفى هذا المكان تتولى الالهة « ألات » محاكمة الأموات . وفى ذلك يقول ماسبيرو :

« لم يكن للخير أو الشر الذى فعله الميت فى حياته قيمة كبيرة فى تقدير اعماله . وإنما كان التقدير كله لما أظهره الانسان على الأرض من التعلق بالآلهة عامة ، وبالالهة « الات » خاصة ، بتقديم قرابين الذبائح والهدايا وتقديم أسباب الغنى للمعابد » .

وبذلك لايكون هذا الحساب حسابا على أعمال الانسان فى الدنيا ، بل على تقديم الهدايا للمعبودات والمعابد ، أى للكهنة الذين لابد أن يكونوا هم الذين وضعوا هذه العقيدة لنفعهم .

* * *

وأما المدنية اليونانية فيحسن قبل الخوض فى موقفها من عقيدة الحساب ألا ننسى أن بين نشوء

---

(١) ص ٤٧٦ من كتاب (Le Nil et la Civ. Eg.) لورى .

وظاهر أن المراد بقوله « قلب الانسان هو الهه . وقلبى راض عما فعلته حينما كان فى جسمى » أن قلب الانسان هو قاضيه المقدس الذى يحاكمه فى الحياة الاخرى . لانه متى كان القلب محل الرضا وعدم الرضا عن الاعمال فى الحياة الدنيا ، فقوله أن هذا القلب هو اله الانسان ينصرف الى أن القلب هو القاضى الذى يتولى المحاكمة فى الاخرة .

أما قوله « فلأكن مثل الاله » فقد يكون المراد به أن أعماله الصالحة فى الحياة الدنيا تجعله يطمع فى أن يكون مثل الاله فى الحياة الاخرى عملا بالعقيدة التى كانت تقول ان الرجل الصالح الذى يصدر الحكم ببراءته أمام محكمة الحساب يصير مثل الاله اوزوريس . أو قد يكون المراد أن اتصاله بالاله اتصالا صوفيا يجعله مثله . وهذا المعنى هو الذى عبر عنه الحلاج فى قوله « أنا الله » يريد أنه إمتزج بالله فصار منه .

(٢) ص ٦٣٠ كتاب ماسبيرو :
Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient Classique

هذه العقيدة فى مصر وبين نشــوء المدنية اليونانية أكثر من ألفى سنة على أساس التاريخ القصير . أما ألف السنة التى قال برستيد إن العقيدة وجــدت بعدها فى بلاد غير مصر فليس المراد بها اليونان وإنما المراد بها بلاد شرقية أخرى .

وأول مظهر من مظاهر المدنية اليونانية نلمح فيه أثر العقيدة هو أوذيسة هومير (١) ، وذلك أن عوليس ينزل الى الجحيم وحينئذ يقص فيقول :

« رأيت مينوس جالسا والصولجان الذهب فى يده ، وهــو يقضى بين الأمــوات ، وهؤلاء مجتمعون حــوله يعرضــون قضاياهم عليــه جالسين أو واقفين فى دور « الهاديس » (٢) ذات الأبواب الواسعة » (٣) .

ومينوس الذى يذكره هنا هومير على لسان عوليس كان ملكا قديما من ملوك جزيرة كريت ، وكان اليونانيون يزعمون فى ذلك الوقت أنه يجلس على عرش الحكم فى الجحيم ومعه أخواه أيباك وردامانت .

---

(١) هومير من أقدم وأكبر الشعراء اليونانيين . وقد عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد . وتعزى اليه قصتان شعريتان احداهما تسمى الاوذيســة والثانية تسمى الالياذة . وتعزى اليه أيضــا قصائد أخرى منها واحدة عنوانها « طيبة » ولكنها ضاعت .

وفى وجود هومر خلاف بين الباحثين فى تاريخه لان كثيرا منهم يقولون انه لم يوجد وان القصائد التى عزيت اليه هى أغان جمعت ونسبت اليه .

ويتلخص موضوع الاوذيسة فى ان عوليس ملك مقاطعة فى اليونان القديمة كانت تسمى ايتاك اشترك فى حرب طروادة ، ثم لمــا انتهت هــذه الحرب لم يعد الى مملكته بل نزل فى جزيرة كالبسو واحب المعبودة التى كانت فيها . غير أنه كان يشتاق الى مملكته ففر من الجزيرة لكى يعود اليها فألقته عاصفة على سواحل جزيرة أخرى . وبعد بضع سنين وحوادث كثيرة استطاع أن يعود الى بلده فى زى متسول .

وفى خلال ذلك كانت امرأة عوليس ، واسمها بنيلوب ، قد انتظرت عودة زوجها فلما طالت غيبته تقدم لها أربعة يطلبون يدها ويلحون عليها فى أن تختار واحدا منهم . وكان تليماك بن عوليس قد خرج يبحث عن أبيه فطاف فى جزر كثيرة ثم عاد الى ايتاك وقابل أباه وهو فى زى متسول فعرفه واتفق الاثنان على أن يبقيا متنكرين ليقفا على حقيقة مافعلته بنيلوب فى غيابهما . وأخيرا انتقم عوليس من الاربعة الذين كانوا يطلبون الزواج من بنيلوب بأن قتلهم ثم أظهر نفسه هو وتليماك فعرفتهما بنيلوب .

(٢) الهاديس هى دار الأمــوات أو دار الجحيم فى الاســاطير اليونانية . وبعضهم يطلق هذا الاسم على ملك دار الأموات .

(٣) الجزء الحادى عشر من الأوذيسة ، والأبيــات ٥٦٧ و٥٦٨ و٥٦٩ و٥٧٠

وهنا ملاحظات :

أولها : أن عوليس ينزل الى الجحيم فى قصة هومير ، وساتنى وولده ينزلان الى الجحيم فى القصة المصرية .

وثانيها : أن مينوس يقبض بيده على صولجان من الذهب فى جحيم هومير . وأوزريس يقبض بيده على صولجان فى العقيدة المصرية .

وثالثها : أن الأموات يعرضون قضاياهم على مينوس فى جحيم هومير . والأموات يناديهم المنادون لعرض قضاياهم على أوزريس فى القصة المصرية .

ورابعها : أن الأموات واقفون أو جالسون فى دور الهاديس ذات الأبواب الواسعة . والأموات واقفون أو جالسون فى سبع قاعات فى القصة المصرية .

فجحيم هومير هذه هى بعينها الجحيم المصرية ، ولكن مع فارقين أحدهما فى الشكل والثانى فى الجوهر . فأما فى الشكل فالأموات فى جحيم هومير يعرضــون قضاياهم على مينوس بأنفسهم وبغير أن يكون لهذا العرض نظام . بينما الجحيم المصرية فيهــا منادون ينادون القضايا واحدة بعد أخرى . فالأمر فى الأولى فوضى وفى الثانية منظم . وفارق آخر فى الشكل هو أن فى الجحيم المصرية ميزانا يصدر الحكم تبعا لنتيجته ، وليس فى جحيم هومير سوى مينوس يقضى بإرادته .

وأما الفارق فى الجوهر فهو أن هومير يقول : إن مينوس « يقضى بين الأموات » وإن هؤلاء الأموات « يعرضون عليه قضاياهم » . وهذا معناه فى رأى مورى (٤) ــ وهو مصيب فيه ــ أن القضايا منازعات بين الأموات بعد الموت كالمنازعات التى تكون بين الاحياء ، وليست حسابا يؤديه الأموات عن أعمالهم فى الحياة .

إذن ليست جحيم هومير دار حساب عن أعمال الناس فى الحياة ، بل هى دار حساب عن مشاجرات ومنازعات بعد الموت . وإذن تفقد جحيم هومير كل القيمة التهذيبية التى للجحيم المصرية . وإذن يحق لنــا أن نقرر هنا أن هومير أراد أن يقتبس قصــة ســاتنى وولده المصرية ومحكمة أوزريس المصرية ، فقصر لأنه اقتبس بعض الشكل وفاته كل الجوهر .

---

(٤) كتــاب (Rois et Dieux d'Egypte) ص ١٢٥

ولكن هلّ وقف هومير عند هذا الحد ؟

كلا ، لانه ضمن الياذته (١) : شيئا من الفكرة المصرية ، غير انه قصر فى هذه المرة ايضا ، فأخذ بعض الشكل وفاته كل الجوهر .

وذلك انه يحدثنا فى إلياذته بأن الاله ذفس (وهو كبير الآلهة عند اليونانيين) يريد أن يقضى فى مصير إحدى المعارك بين اليونانيين واهل طروادة فيضع حظ الاولين فى كفة ميزان وحظ الآخرين فى الكفة الاخرى ، ثم يأخذ الميزان من منتصفه ويرفعه فتهبط كفة اليونانيين الى الارض وتعلو كفة الطرواديين الى السماء (٢) ، فيكون هذا قضاء للأولين بالنصر وعلى الآخرين بالهزيمة .

ثم يحدثنا هومير ايضا بأن ذفس يقضى مثل هذا القضاء نفسه وبهذه الطريقة نفسها فى معركة حاسمة بين اشيل وهكتور (٣) فتعلو كفة اشيل فينتصر على هكتور ويقتله .

فالاله اليونانى ذفس ينصب هنا ميزانا للقضاء كالميزان الذى ينصبه الاله المصرى أوزريس . ولكن هذا الشبه قائم فى الشكل فقط ، اما فى الجوهر فان اوزريس ينصب ميزانه ليزن به حسنات الميت وسيئاته فى الحياة ثم ليثيبه أو يعذبه تبعا لنتيجة الميزان ، بينما ذفس يزن بميزانه حظوظ المتعاركين فى المعارك . فالميزان المصرى له كل معناه التهذيبى ، اما الميزان اليونانى فليس فيه هذا المعنى .

وما نحب هنا أن ننتحل شيئا ليس لنا فندعى اننا اصحاب هذه المفاضلة بين الميزان المصرى والميزان اليونانى ، بل نحن بالعكس نرد الحق إلى صاحبه فنقول : إن أول من لاحظها هو العالم دى ويت (De Witte) (٤) فى سنة ١٨٤٥ ، ثم أيده فيها بعد ذلك مورى فى سنة ١٩٢٥ . وهذا نص ماقاله دى ويت :

« ليس فى إلياذة هومير شىء يدل على أن الفرض من الميزان يتعلق بالحياة الأخرى ، أى بالعقاب والثواب اللذين ينتظران الانسان فيها ... وإنما الفرض الوحيد من الميزان هو القضاء فى النهاية التى تنتهى بها معركة ... فوزن الحظوظ والأرواح لايراد منه على هذا سوى خلاف مادى ... والكفة الراجحة هى التى تعين صاحب الحظ الفائز » .

وهذا كله صحيح ، وهو يدل كما قلنا على أن هومير لما اراد أن يقتبس الميزان المصرى بعد الفى سنة اخذ الشكل وفاته الجوهر .

❊ ❊ ❊

وتمضى بعد هومير عدة اجيال حتى نصل إلى الشاعر اليونانى بندار (Pindare) فى اوائل القرن الخامس قبل الميلاد — وهومن شعراء الطبقة الأولى — فنسمعه يقول فى قصيدته الأولمبية الثانية :

« سيجد العظماء فى الأرض قاضيا فى الجحيم ، فالذين ارتكبوا منهم اعمالا محرمة تحاكمهم الالهة أنانكى » .

فهنا ظهرت لأول مرة فى الآداب اليونانية فكرة محاسبة الأموات على أعمالهم فى الحياة ، ولكنها تظهر مبهمة كما يلاحظ العالم الالمانى روهل (Ruhl) لأن الشاعر بندار لا يقول لنا كيف تجرى المحاسبة ولا على اية قاعدة تجرى .

وكان من الضرورى للمدنية اليونانية ، وقد خطت هذه الخطوة فى اقتباس الفكرة المصرية ، أن تخطو

---

(١) الالياذة هى قصة شعرية قص فيها هومير ما وقع من الحوادث فى حرب شنها اليونانيون على مدينة طروادة . وهى مدينة قديمة كانت على سواحل آسيا الصغرى .

(٢) الالياذة — الجزء التاسع منها — الابيات من ٦٩ الى ٧٤ .

(٣) اشيل هو قائد يونانى يعتبر اعظم ابطال الالياذة . وتروى هذه الالياذة انه نازل هكتور اعظم قائد طروادى فى أثناء حصار طروادة فقتله ولكن قائدا طرواديا آخر اسمه بارى رماه بسهم مسموم فأصابه فى عقب قدمه .

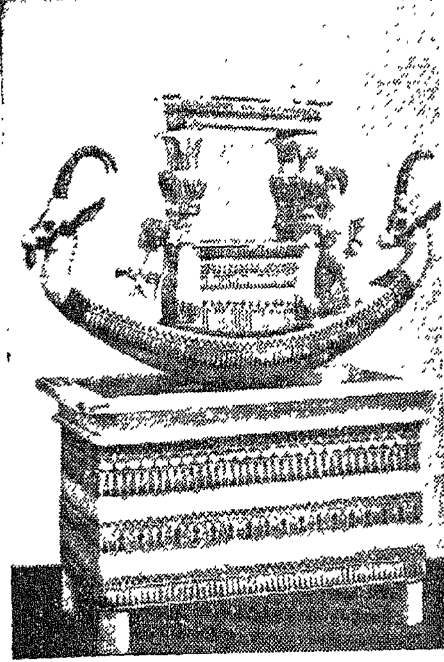
وهذا القضاء بين اشيل وهكتور بواسطة الميزان مذكور فى الجزء العاشر من الالياذة فى الأبيات من ٢٠٩ الى ٢١٣ .

(٤) هو عالم بلجيكى اشتهر بميله الى دراسة الآثار القديمة والآثار المصرية خاصة وله فيها رسائل ومؤلفات وقد توفى سنة ١٨٨٦ .



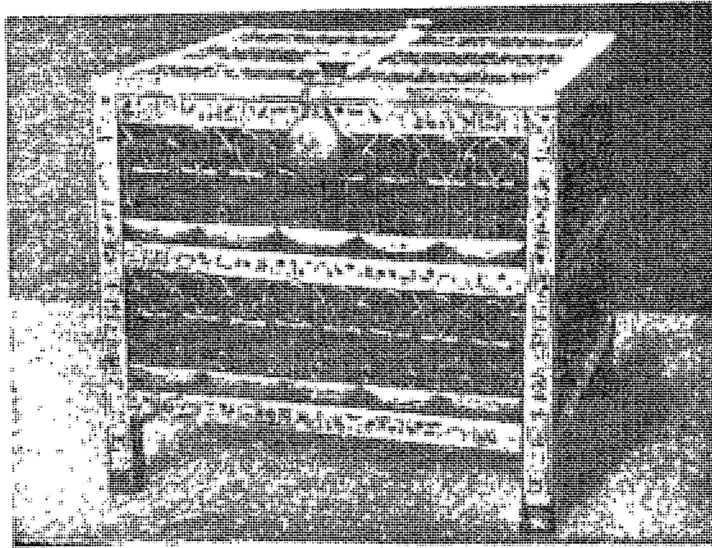
سوار من الذهب

وقد رصع بجعران من حجر اللازورد(Lapis - Lazuli)



تمثال مصغر لسفينة

وقد صنع ـ هو وقاعدته ـ من الجص . أما قرون الوعل فهى قرون طبيعية . ويحرس الخزانة التي تقلها السفينة قزم يزين رأسه شعر مستعار .



صندوق للمجوهرات

مصنوع من الخشب ومزين بالعاج . وقد قسم داخله تسعة أقسام .

الخطوة المكملة لها ، وهذا ما فعله بعد ذلك الفيلسوف افلاطون (١) .

كتب أفلاطون كتابه الذى جعل عنوانه « مدح سقراط » فذكر فيه أن فى الجحيم قضاة يحكمون بالعدل هم « مينوس ورادامانت وإيباك وتريبوليتيم وجميع أنصاف الآلهة الذين كانوا فى حياتهم عادلين » ، ثم عاد إلى هذه الجحيم وقضاتها فى كتابة « جورجياس » (٢) ففصلها تفصيلا ننقله هنا عن موري (٣) .

قال افلاطون :

« حينما كان الحكم لساتورن (أى زحل) ، وفى السنين الأولى من حكم جوبتير (أى المشترى) كانت محاكمة الناس تجرى وهم أحياء ، وعلى يد قضاة أحياء ، فكان هؤلاء القضاة يقضون فى مصائر الناس فى اليوم الذى يموتون فيه . وكان فى هذه الأحكام كثير من الخطأ فذهب بلوتون (هو ابن ساتورن وملك الجحيم) وحكام الجزائر السعيدة (هى الجنة عند اليونانيين) إلى جوبتير وقالوا إن القضاة يبعثون إليهم برجال لايستحقون الثواب الذى يكتب لهم ولا العقاب الذى ينزل بهم » .

فقال جوبتير :

« سأمنع هذا الظلم . إن السبب فى الأخطاء التى تقع اليوم فى الأحكام هو أن محاكمتهم تتم وهم غير مجردين من ملابسهم (المراد بالملابس هنا مايلبسه الروح وفى مقدمته الجسم) لأنهم يحاكمون وهم احياء فينشأ من ذلك أن يكون كثيرون ممن فسدت ازواحهم لابسين اجساما جميلة من النبل والغنى ... ثم يتقدم جمهور من الشهود يشهد لهم فينخدع القضاة . ثم إن هؤلاء القضاة انفسهم يحكمون وهم غير مجردين من ملابسهم ، وبينما كل كتلة اجسامهم قائمة امام ارواحهم ... فمنذ اليوم اريد أن تكون محاكمة الناس وهم عرايا مجردون من كل مايحيط بهم ، ولهذا أريد أن تكون بعد موتهم . ويجب أيضا أن يكون القاضى قد ترك كل هذه العدة فى الأرض كى يكون حكمه عادلا .

« لقد جاءنى خبر هذا الظلم فامرت ثلاثةمن أبنائى بأن يتولوا القضاء : اثنين منهم لآسيا وهما مينوس ورادامانت ، والثالث لأوربا وهوإيباك . فمتى ماتوا فسيصدرون أحكامهم فى المرج فى المكان الذىتنتهى إليه ثلاثة طرق : احدها يؤدى إلى الجزائر السعيدة ، والثانى إلى قاع الجحيم وسيتولى ردامانت محاكمة أهل آسيا . وسيتولى إيباك محاكمة اهل أوربا . وسأجعل لمينوس سلطة الفصل نهائيا فى الحالات التى يرتبك فيها واحد منهما » .

ثم يقول أفلاطون :

« فاذا جاء الأموات أمام قاضيهم دعاهم رداماانت إلى القرب منه ، ثم فحص روح كل واحد منهم من غير أن يعرف لمن هى ... فاذا وجدها مملوءة فسادا وخبثا وكانت قد عاشت بعيدا عن الحقيقة ، بعث بها إلى السجن لتتلقى فيه العقاب الذى تستحقه ... » .

ثم يقول أفلاطون :

« إن الذين تكون ذنوبهم مما يمكن التكفير عنه ، يكفرون عن ذنوبهم بالآلام . أما الذين ارتكبوا أعظم الجرائم فلا تطهير لهم . وحينئذ يكون عقابهم الذى لا فائدة لهم منه عبرة لغيرهم .

---

(١) من المحقق أن افلاطون زار مصر واقام فيها زمنا غير قصير كان يتردد فيه على مدارسها وكهنتها . وقد روى أن هؤلاء الكهنة قالوا من اليونانيين فى ذلك الوقت : « أيها الناس . انكم لستم سوى أطفال ، وليس بينكم شيوخ » . والتعبير هنا مجازى يعنى انكم اطفال فى المعرفة وليس بينكم شيوخ فيها .

راجع فى ذلك ص ٤٩ من مقدمة الجزء الأول من كتاب (Histoire de la Nation Eg.) بقلم هانوتو احد اعضاء الاكاديمية الفرنسية . وهذا الجزء من الكتاب مطبوع فى سنة ١٩٣١ .

وسيأتى فيما بعد أن كلا من ديودور الصقلى وهيرودوت اثبت فى كتبه وجود افلاطون فى مصر وتردده الكثير على أستاذ مصرى فى معبد هليوبوليس .

(٢) كتاب « جورجياس » هو كتاب جعله أفلاطون محاورات بين باحث يونانى كان يسمى جورجياس وبين سقراط وفلاسفة آخرين .

(٣) كتاب (Rois et Dieux d'Egypte) ص ١٢٦ ومايليها .

ثم يقول :

« ورادامانت يرسل المحكوم عليهم إلى قاع الجحيم بعد أن يسمهم بمبسم تبعا لقابليتهم أو عدم قابليتهم للتطهير ، أما الروح الذى يرى أنه عاش فى الطهر وفى الحقيقة فانه يبتهج به ويرسله إلى الجزائر السعيدة » .

ويقول أفلاطون بعد ذلك :

«إن أيباك يفعل فى الذين يحاكمهم كما يفعل رادامانت . ثم يقول إن كل قاض من هؤلاء القضاة الثلاثة يمسك فى يده صولجانا » .

***

بهذا صور أفلاطون عقيدة الحساب بعد الموت ، والناظر فى ماكتبه يرى أنه استبقى الآلهة الثلاثة الذين ذكرهم هومير وهم مينوس وايباك ورادامانت ، ولكن هؤلاء الذين كانوا عند هومر يقضون بين الأموات فى منازعات تجد بينهم بعد الموت ، صاروا يحاسبون الأموات على أعمالهم فى الحياة كما تفعل الآلهة المصرية أوزريس وتوت وانوبيس .

ولهذا الحساب عند أفلاطون نتيجةمن نتائج ثلاث : الأولى أن يثاب الميت بارساله إلى الجزائر السعيدة ، والثانية أن يعذب فى قاع الجحيم إلى الأبد إن كانت ذنوبه كبيرة ، والثالثة أن يعذب إلى وقت ليكفر عن ذنوبه إن كانت مما يمكن التكفير عنه . وهذه النتائج الثلاث هى بعينها نتائج الحساب فى العقيدة المصرية .

والقضاة عند أفلاطون يمسك كل واحد منهم صولجانا . وأوزريس يقضى وفى يده دائما صولجان .

فعقيدة الحساب عند المصريين هى إذن عقيدة الحساب عند افلاطون . وأفلاطون يكمل بذلك مابداه هومير فقصر فيه . ولكن يلاحظ مع هذا أن افلاطون لم يذكر ميزانا ولا وزنا فى دار حسابه ، بينما الميزان والوزن عنصران بارزان فى دار الحساب المصرية . فان قلنا إن أفلاطون يكمل ما بداه هومير — وهذا هو الراجح — فالميزان والوزن مذكوران عند هومير ، وإن قلنا إنه لا يكمل فهو حينئذ يترك للالهة أن يحاسبوا الأموات تبعا لما يرونه هم عدلا لاتبعا لميزان العدل أى للعدل المطلق .

***

من هذا نخرج بأن فكرة المصريين فى دار الحساب وفى العقاب والثواب ، ظهرت بعد الفى سنة عند اليونانيين على يد هومير ، بيد انها ظهرت حينئذ ناقصة مقتصرة على الشكل دون الجوهر ، ثم جاء بندار فسد شيئا من هذا النقص ، ثم جاء افلاطون الذى لاشك فى انه تعلم فى مصر فسد ما كان باقيا من النقص . وكان من الضرورى أن يستبقى افلاطون الآلهة اليونانية فاستبقاها ، وكان من الضرورى أيضا أن يصبغ الفكرة بصبغة الأساطير اليونانية فصبغها بها . ولكن الفكرة بقيت مع ذلك مصرية تطل من ثنايا صبغتها اليونانية .

وما أقول هذا وحدى ، ولا أقول به من عندى ، بل يقوله معى ثلاثة من كبار العلماء الذين تفرغوا لدرس العلوم والآثار اليونانية والمصرية ، وقد ذكرت أسماءهم من قبل وهم روهل الالمانى ، ودى ويت البلجيكى ، وموري الفرنسى .

ولك أن تقول ، إن شئت ، إن المدنية اليونانية اهتدت من تلقاء نفسها إلى الفكرة كما اهتدت اليها من تلقاء نفسها المدنية المصرية ، فليس الأمر امر نقل وإنما هو امر اهتداء إلى فكرة سليمة يقوم عليها صلاح العالم . لك أن تقول هذا ، فان قلته فلا تنس اولا أن اليونانيين فى عهد هومير وعهد بندار وعهد افلاطون كانوا على اوثق اتصال بمصر ، ولا تنس ثانيا ان أفلاطون اقام فى مصر زمنا واتصل بمدارسها ومعابدها ثم لاتنس أخيرا أن اقتباس المدنية اليونانية من المدنية المصرية هو حقيقة يراها العلماء الآن فى جميع مابقى من آثار الفن والصناعة وهندسة البناء فى المدنيتين .

وليكن الأمر مع ذلك بعيدا عن النقل ، وليكن اهتداء إلى فكرة واحدة ، فان من الفضل لمصر انها كانت أول بلاد عرفت هذه الفكرة فى العالم كله ، وان الف سنة يجب أن تمضى على وجودها فى مصر كى يمكن أن نجد شيئا منها فى بلاد أخرى كما يقول برستيد .

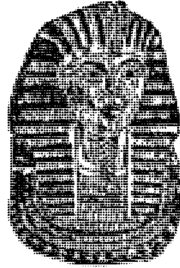
ومن الفضل لمصر أيضا ان فكرتها هذه عمت كل الأمم المحيطة بها ، حتى قصة ساتنى وولده فى نزولهما إلى دار الحساب عمت أكثر الآداب ، فهى فى الآداب

اليونانية يصورهاهومير فى نزول عوليس إلى الجحيم، وهى فى الآدابالرومانيةيصورهاهوراس (Horace) وفرجيـــل (Virgile) ، وهى فى الآداب العربيـــة يصورها أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران ، وهى فى الآداب الايطاليـــة يصـــورها دانتى الجييرى Danti Alégiere) فى الكوميديا المقدسة ، وهى فى الآداب الفرنسية يصورها فنلون(Fenelon)فى قصةتليماك، وقس على هذا آداب كثير من الأمم .

ولهذا ، ولغيره ، حـــق للعـــالم الأمريكى هـــنرى برستيد أن يقول : « إن عقيدة الحساب تثبت أن مصر أول بلد فى العالم استيقظ فيه ضمير الانسان » .

وحق للعالم المؤرخ لافيس ، العضو فى الأكاديمية الفرنسية ، أن يمهد لتاريخ اليونان فيقول « إن اليونان التى سنعرض فى الصفحات التالية لتاريخها المجيد ، تعلمت كثيرا من مصر . إن مصر كانت المعلمة الأولى للانسانية (١) .

(١) كتاب (Histoire de France) ص ١٩ تأليف (E. Lavisse)



المدنية اليونانية وأثر المدنية المصرية فيها

اقتباسات هومير من الأساطير والآداب المصرية

كتبت فى « البلاغ الأسبوعى » فى ١١ مارس سنة ١٩٢٧ الاحظ أن المدنية العربية نقلت إلى العالم كثيرا من علوم المدنية اليونانية نقل صراحة وأمانة ، فعزت كل رأى إلى صاحبه ولم تعز لنفسها الا الذى زادته على هذه الآراء ، حتى كانت الفلسفة اليونانية لاتعرف فى أوربا فى العصور الوسطى وفى أوائل العصر الذى يسمى فى أوربا عصر النهضة (Renaissance) إلا فى الكتب العربية ، ولم تدرس فى كتبها اليونانية إلا بعد ذلك . وكتب ابن رشد التى ترجم فيها ماترجمه من مؤلفات ارسطو ، هى التى حملها بعض تلاميذه إلى أوربا بعد أن نكبه المنصور ، فنقلت منها الى اللاتينية ، ومنها عرف الأوربيون فى ابتداء نهضتهم أرسطو وآراءه ، ثم استمروا يدرسون فيها هذه الآراء إلى أن اهتدوا بعد زمن الى كتب ارسطو فى لغته اليونانية .

ولكن المدنية اليونانية جاءت تالية للمدنية المصرية ، وأنت مع ذلك تمر بكل ما الفه علماؤها فلا تجد ذكرا لعلوم أو آداب مصرية ، ولا لعلماء أو أدباء مصريين . اللهم إلا ماكتبه هيكاتى دى ميلى وهيرودوت وأمثالهما من المؤرخين والسائحين الذين زاروا مصر كما زاروا غيرها من البلاد ، فكتبوا عنها كما كتبوا عن غيرها من الناحية الوصفية . ولسنا ننكر أن ما كتبه هؤلاء الرحالون كان ولا يزال ثمينا ، ولكنهم كتبوه كما قلنا وصفا لما شاهدوه وسمعوه ، لا نقلا لعلوم ولا ذكرا لعلماء . وكتب الرحلات والتواريخ غير كتب العلم والأدب .

كتبت ذلك فى مارس سنة ١٩٢٧ ، والآن وقد مضت ثلاث عشرة سنة قرات فيها ماقراته من الكتب ، وتوفرت على ماتيسر لى أن أتوفر عليه من البحث ، لا أرى مايحملنى على نقض ملاحظتى هذه أو تعديلها، بل أرى بالعكس أن الأدلة كلها تنهض على صحتها .

فقارىء العلوم والآداب اليونانية لايجد فيها ذكرا لعلوم أو آراء مقتبسة من مصر ، ولا يقف فيها على أسماء العلماء مصريين ولا على نتاج كان لهم فى علم أو فن أو أدب (١) ، مع أن قارىء العلوم والآداب العربية لا يكاد يمر بها حتى يجد أسماء صولون وسقراط وأبقراط وأفلاطون وفيثاغورس وأرسطو وعشرين أو ثلاثين غيرهم — كل منهم برأيه ونتاج ذهنه ، وكثير منهم بكتبه معربة كلها أو تكاد . وقد نشأ من ذلك اعتقادان : أولهما أن المدنية المصرية لم تنتج مايستحق أن يذكر ، والثانى أن المدنية اليونانية ابتكرت كل علومها وكل فلسفتها ،وكل آرائها فى الحياة والاجتماع ونظام الحكم ، وأبتكرت كل دياناتها وآدابها ، حتى ليقال إن الفكر الانسانى يبدأ منها ، وإن كل ماسبقها لم يكن سوى فوضى فكرية كفوضى الطفولة يجب أن تسقط من الحساب .

والعلماء والكتاب اليونانيون انفسهم لايمارون فى هذا بل يقولونه ، وهم يسمون كل من عداهم من الشعوب « البربر » (٢) ، لايستثنون المصريين ولا الكلدانيين ولا الفنيقيين ولا الفرس ولا غيرهم من أصحاب المدنيات التى سبقتهم . ومن ألطف مايذكر هنا أن المصريين القدماء كانوا يسمون من عداهم من الشعوب « البربر » لأنهم حينما ازدهرت مدنيتهم منذ أكثر من ٥ آلاف سنة على عهد الملك منا لم يجدوا حولهم إلا شعوبا يطلق عليها هذا الاسم بحق . اما

(١) يمكن أن يستثنى من ذلك كتاب واحد هو كتاب « ايزيس وأوزوريس » الذى وضعه الكاتب اليونانى بلوطرك(Plutarque) شرح فيه عبادة ايزيس وأوزوريس لانها كانت فى ذلك الوقت قد انتقلت الى اليونان ولبست ثوبا يونانيا . ولكن هذا الاستثناء منصب على عبادة دينية ، أما العلوم والآداب فليس فى الكتب اليونانية شىء منها .

(٢) كتاب (Causeries d'Egypte) لماسبيرو — ص ٦١ من الطبعة الرابعة .

اليونانيون فقد جاءت مدنيتهم بعد ذلك بنحو ٣ آلاف سنة كانت قد وجدت فيها مدنيات عدة .

وقد سرى الاعتقاد بأن المدنية اليونانية ابتكرت كل دياناتها وآدابها وفلسفتها ، إلى كل الذين أغرموا بدرس هذه المدنية من جميع الأمم . فصارت الكلمة المتفق عليها بين هؤلاء المغرمين ان المدنية اليونانية لم تقتبس علما ولا فنا ولا أدبا من اية مدنية سبقتها، مع أن التاريخ الصادق يحدثنا بأن المصريين وصلوا إلى اليونان فى زمن الأسرة الثامنة عشرة ، أى قبل نشوء المدنية اليونانية بنحو الف سنة . وهذا التاريخ نفسه يحدثنا بأن اليونانيين اتصلوا بعد ذلك بمصر وانكبوا عليها ، حتى كانت لهم فيها منطقة خاصة بهم فى شمال الدلتا عامرة بالمدن (١) ، وحتى كانوا يقولون إن هذه المنطقة امتداد لليونان ، وإن مصر الحقيقية لاتبتدىء من سواحل الدلتا ، بل من مدينة سايس (حيث توجد الآن صا الحجر بمديرية الغربية)،وحتى كان الجيش المصرى فى زمن الفراعنة : بساماتيك الأول وأبريس وأمازيس وبساماتيك الثالث مؤلفا من فرق مصرية وفرق مستأجرة يونانية وغير يونانية ، على رأس بعضها قواد يونانيون (٢) .

بهذا كله يحدثنا التاريخ الصادق ، كما يحدثنا بأن اليونانيين كانوا ينظرون إلى مصر ودياناتها بعين الدهشة والاكبار ، ويرون فى مدارسها ينابيع للحكمة والعرفان ،ويجدون من الخير لهم ولبلادهم أن يربطوا معبوداتهم بمعبوداتها ،وأساطيرهم بأساطيرها ، وأن يحتذوا فى هذه وتلك مثالها (٣) .

وكثير من فلاسفة اليونان وشعرائها وكتابها الذين

---

(١) نذكر من هذه المدن مدينة نوكراتيس ومدينة انتيللا ومدينة اركندروبولبس . وقد ذكر هيرودوت هذه المدن الثلاث . والاولى اشهرها وكانت واقعة على الفرع الكانوبى من فروع النيل القديمة ، حيث توجد الآن قرية كوم جعيف جنوبى دمنهور بمديرية البحيرة . أما المدينتان الاخريان فلم يعين مكانهما بعد . وكان الفراعنة حينما ضعفت شوكتهم قد أباحوا لليونانيين سكنى هذه المنطقة وخصوهم فيها بامتيازات تجارية تجعل تجارة مصر مع جميع البلاد الواقعة على البحر الابيض المتوسط احتكارا لهم.

وقد قال هيرودوت فى ذلك فى الفقرة ١٧٨ من كتابه :

« كان أمازيس يحب اليونانيين ، فأعطى بعضا منهم دلائل على رعايته لهم . نذكر من هذه الدلائل أنه أعطى الذين يفدون عليها منهم بقصد الاقامة مدينة نوكراتيس ليقيموا فيها . أما الذين لم يكونوا يقصدون الاقامة ، بل كانوا يجيئون لقصد التجارة ، فقد أعطاهم أماكن ينشئون فيها مذابح ومعابد لآلهتهم . وكان أعظم هذه المعابد وأشهرها وأعمرها بالناس يسمى هلنيون . وقد اشتركت فى الأموال اللازمة لبنائه مدن يونانية عدة ... » .

وهنا ذكر هيرودوت أسماء هذه المدن وقال : ان أمازيس سمح لها بتأليف شرطة يونانية كانت تراقب أسواق التجارة وتؤدى عمل الشرطة فى مدينة نوكراتيس وتقضى بين التجار . ثم قال :

« وكانت نوكراتيس الميناء الوحيد المفتوح للتجارة البحرية . ولم يكن فى مصر ميناء آخر له هذه الميزة . فكان الواصل من البحر الأبيض الى مصر ، اذا وصل بسفينته الى مصب فرع من فروع النيل غير الفرع الكانوبى (الذى تقع عليه نوكراتيس) طولب بأن يحلف أنه لم يصل اليه باختياره . وبعد أن يحلف يكون عليه أن يتجه بسفينته الى المصب الكانوبى . فاذا كانت الرياح تجعل هذه الرحلة مستحيلة فعليه أن ينقل محمول سفينته على مراكب مصرية تدور بهذا المحمول حول ساحل الدلتا حتى تصل الى المصب الكانوبى ومنه الى نوكراتيس . وكان هذا من الامتيازات التى أعطيت لهذه المدينة » .

(٢) كان وجود هذه الفرق المستأجرة نكبة على مصر ، لأن الفرق المصرية والشعب المصرى ثارا عدة ثورات بسبب وجود الاجانب فى الجيش والامتيازات التى كانت تتمتع بها الفرق اليونانية والمدن اليونانية . ثم ان بعض القواد اليونانيين خانوا مصر . ومنهم القائد فانيس الذى كان قائدا للجيش المصرى فى عهد بساماتيك الثالث ، ثم لما علم أن جيش قمبيز قادم لغزو مصر فر اليه وقابله فى سوريا وانضم اليه . وكان قمبيز واقفا موقف الارتباك أمام صحراء سيناء فشجعه فانيس ودله على الوسائل التى يجتاز بها الصحراء واستأجر له رؤساء البدو من سكانها يمدون جيشه بالماء والجمال . وكان لفانيس أولاد لايزالون فى مصر فلما علم المصريون بخيانة أبيهم ذبحوا هؤلاء الاولاد على مرأى منه فى ميدان القتال . ثم فتح قمبيز مصر . وقد ذكر هيرودوت هذه القصة مفصلة .

(٣) اثبت عالم من العلماء المتخصصين فى درس المدنية اليونانية يسمى فوكار (M. Paul. Faucart) فى كتابه المسمى :
(Recherches sur l'origine et la nature des mystères d'Eleusis) ـ والمطبوع فى سنة ١٨٩٥ ـ اثبت هذا العالم أن عبادة ايلوزيس التى كانت منتشرة فى اليونان منقولة من عبادة ايزيس واوزريس المصرية فى طقوسها وتقاليدها ورموزها .

ومعروف أن كبير الآلهة فى الاساطير اليونانية كان يسمى ذفس (Zeus) . فهذه الكلمة معناها فى اللغة اليونانية « الذى يخفى نفسه » ، وهذا هو بعينه معنى كلمة أمون التى كانت تطلق على كبير الآلهة فى طيبة . وقد ذكر ذلك الفيلسوف والمؤرخ اليونانى بلوطرك (Plutarque) فى الفقرة ٩ من كتابه الذى وضعه باسم « ايزيس واوزريس » ، وترجمه الى الفرنسية (Mario Meunier) ، وطبعه فى سنة ١٩٢٤ ، وهذه الترجمة هى آخر ترجمة لهذا الكتاب ، وهى التى اعتمدت عليها هنا .

وقد قال بلوطرك فى الفقرة التى أشرنا اليها : ان كلمة أمون معناها فى اللغة المصرية « الذى يخفى نفسه » وان هذا هو بعينه معنى كلمة ذفس التى اختارها اليونانيون لكبير آلهتهم .

ومعروف أن توت هو الاله الذى يعزو المصريون اليه أنه علمهم الكتابة والعلوم والفنون . وقد قاس اليونانيون على هذا فجعلوا فى أساطيرهم الها يسمى هرمس ملهم الكتابة والعلوم والفنون . فتوت المصرى هو هرمس اليونانى .

ظهروا حين نشوء المدنية اليونانية ، والذين ظهروا حينما كانت هذه المدنية فى أوجها ، زاروا مصر وتلقوا العلم فى مدارس مصر . وقد يحسن أن نذكر هنا بعضاً منهم معتمدين فى ذلك على المصادر اليونانية القديمة التى لايمكن أن تتهم بمحاباتها مصر .

فديودور الصقلى (١) يقول :

« يؤكد الكهنة المصريون ، استناداً إلى كتبهم المقدسة ، أنهم شاهدوا فى بلادهم أورفى (٢) ، وموزى (٣) ، وميلامپوس (٤) ، وديدال (٥) ، ثم الشاعر هومير ، وليكورج الاسبارطى (٦) ، وصولون الأثينى (٧) ، وأفلاطون (٨) الفيلسوف . ويذكر الكهنة المصريون ايضا فيثاغورس (٩) ، ابن جزيرة ساموس ، وأيدوكس (١٠) الرياضى ، وديموكريت (١١) ، ابن مدينة أبدير ، وأينوبيد (١٢) ، ابن جزيرة صاقز » (١٣) .

ذلك ماقاله ديودور الصقلى ، أما بلوطرك (١٤) فانه بعد أن بين ، كما تقدم ، فى الفقرة التاسعة من كتابه

= وهناك اقتباسات دينية أخرى .

ويقول هيرودوت فى الفقرة ٥٠ من كتابه :

« ونكاد جميع الشخصيات المقدسة فى اليونان ان تكون ماخوذة من مصر . نعم ان بحوثى الخاصة دلتنى على أن هناك شخصيات مقدسة اخذتها اليونان من البلاد المتبربرة ، ولكنى ارى ان أكثر الشخصيات ماخوذة من مصر خاصة . فانه فيما عدا بوزيدون ، وديوسكور ، اللذين اشرنا اليهما فيما مضى ، وفيما عدا هيرا وهستيا وتميس وشيميت وتربيد ، فأن جميع الشخصيات المقدسة اليونانية موجودة فى مصر » .

ثم عاد هيرودوت فأكد هذا المعنى مرة أخرى فى الفقرة العاشرة قائلا :

« لقد تلقى اليونانيون من المصريين العادات التى اشرنا اليها ، كما تلقوا منهم عادات أخرى سنتكلم عنها فيما بعد » .

(١) (Diodore de Cicile) هو مؤرخ يونانى قديم زار مصر بين سنة ٦٠ وسنة ٥٧ ق م ووضع عنها كتابا وصفيا .

(٢) (Orphée) كان ابنا لملك مقاطعة يونانية تسمى تراس . وهو أشهر موسيقى يونانى . وقد زار مصر وأقام فيها زمنا . وتقول الأساطير اليونانية ان أنغامه كانت تستوقف الوحوش تحت قدميه ، وان ثعبانا لدغ زوجه فى ليلة زفافها اليه فماتت ، فنزل الى الجحيم وفتن آلهتها بأنغامه فردت زوجه اليه واشترطت عليه الا ينظر الى الخلف الا بعد أن يخرج من مملكة الظلام ، فخالف أورفى هذا الشرط ونظر الى الخلف ليرى زوجه فعوقب بأن فقد الأحساس ثم مزق .

(٣) (Musée) شاعر وموسيقى يونانى قديم يعتبر تلميذا للموسيقى أورفى الذى تقدم ذكره . وهناك شاعر يونانى آخر يسمى بهذا الاسم عاش فى القرن السادس قبل الميلاد .

(٤) (Mélampos) طبيب يونانى اشتهر بالطب والسحر وعاش فى العصر الذى يعرف فى تاريخ اليونان بعصر الآلهة والأبطال الخرافيين . وقد كتب عنه هومير الشاعر المعروف فقال انه تعلم بعض العقائد الدينية المصرية وانه هو الذى أدخل عبادة باكشوس اله الخمر فى اليونان .

(٥) (Dédale) مهندس بناء يونانى زار مصر وأقام فيها زمنا . وقد اشتهر فى اليونان بأنه هو الذى بنى اللابيرنت أو قصر التيه فى جزيرة كريت على مثال القصر الذى عرف بمثل هذا الاسم للملك أمنمحت الثالث فى اللاهون . وتقول الأساطير اليونانية ان قصر التيه فى كريت بنى ليسجن فيه وحش نصفه الأعلى ثور ونصفه الأسفل رجل ، ولكن كان الذى أمر ملك كريت بسجنه فيه هو ديدال نفسه . وحينئذ صنع ديدال لنفسه جناحين من الشمع وطار بهما فأنقذ نفسه .

(٦) (Lycurgue) هو مشرع القوانين لمدينة اسبارطة فى اليونان القديمة . وقد عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد .

(٧) (Solon) هو واضع القوانين لمدينة أثينا القديمة . وقد عاش بين سنة ٦٤٠ وسنة ٥٥٨ ق م .

(٨) هو خليفة الفيلسوف سقراط . ولكنه اشتهر بعد ذلك بفلسفته الخاصة . وقد ذكرنا فيما تقدم أنه زار مصر وكان يتردد على كهنة هليوبوليس ، وأنه روى أن هؤلاء الكهنة ذكروا له مواطنيه اليونانيين فقالوا :

« أيها الناس . أنكم لستم سوى أطفال . وليس بينكم شيوخ » .

(٩) (Pythagore) فيلسوف ورياضى يونانى مشهور . عاش فى القرن السادس قبل الميلاد . ويؤكد كثير من العلماء انه أقام فى مصر حوالى عشرين سنة كان فيها يتردد على مدارسها . وهو القائل بكروية الأرض ، وقد عالج أن يفهم نظام الكون فقال انه على شكل كرة فى مركزها النار ، وأن أجراما عشرة تتحرك حول هذه النار أولها الأرض ثم القمر ثم الشمس ثم الخمسة المتحيرة (أى الكواكب السيارة) ثم النجوم الثوابت . وقال : ان جميع هذه الاجرام تدور حول النار المركزية . فلو أنك وضعت فى هذا النظام الشمس بدل النار لوجدت فكرة كوبرنيخ التى تعد من أعظم كشوف العصور الحاضرة .

(١٠) (Eudoxe) فلكى يونانى عاش بين سنة ٤٠٩ وسنة ٣٥٦ ق م .

(١١) (Democrite d'Abdére) هو فيلسوف يونانى عاش فى القرن الخامس ق م . وهو معروف فى الكتب العربية باسم ديموقراطس . وهو صاحب نظرية الجزء الذى لايتجزأ أو الجوهر الفرد .

وأبدير التى هو من أهلها مدينة كانت من مدن مملكة تراس واقعة على بحر ايجة .

(١٢) (Enopide de Chis) عالم يونانى قديم

(١٣) راجع فى هذا الموضوع ايضا كتاب (J. A. Faure) عن أتصال الفلاسفة اليونانيين قبل سقراط بمصر . وهو مطبوع بباريس فى سنة ١٩٢٣ .

(١٤) (Plutarque) كاتب وفيلسوف يونانى زار مصر فى نحو سنة ١٢٠ بعد الميلاد . ومن كتبه المشهورة كتابه عن عبادة « ايزيس وأوزيريس » .=

« إيزيس وأوزريس » أن كلمة ذفس اليونانية تتفق في معناها مع كلمة أمون المصرية ، قال في الفقرة العاشرة :

« وهذا مايؤكده أعظم اليونانيين المتنورين ، وهم صولون ، وتاليس (١) ، وأفلاطون ، وأيدوكس ، وفيثاغورس . ويؤكده أيضا ، على قول بعضهم ، ليكورج نفسه . وذلك أن هؤلاء اليونانيين المتنورين كانوا قد زاروا مصر وعاشوا فيها على أوثق اتصال بكهنتها . فمن ذلك أنه يقال إن أيدوكس تلقى العلم على يد شونوفيس المفيسى (Chonophis de Memphis) ، وإن صولون(٢) تلقاه على يد سونشيس (Sonchis) في سايس (صالحجر) ، وإن فيثاغورس اتصل باينو فيس (Enuphis) في هليوبوليس(٣) ، وكان فيثاغورس خاصة عظيم الاعجاب بالاساتذة المصريين الذين كانوا هم أيضا يعجبون به ، فحاول أن يقلد طريقتهم في كتاباتهم الرمزية وتعاليمهم السرية ، فأحاط نظرياته بالالغاز . وفي الواقع إنه لايوجد أى فارق بين النصوص الهيروغليفية المصرية والكثير من التعاليم الفيثاغورية » .

ثم مضى بلوطرك يدلل على هذا التشابه ، فذكر أمثلة عديدة من تعاليم فيثاغورس وما يشابهها من التعاليم المصرية .

* * *

فهؤلاء هم مشرعون وفلاسفة ورياضيون وشعراء وموسيقيون يونانيون تلقوا علومهم في مصر ، ومنهم اثنان كان لهما الفضل الأكبر في وضع الحجارة الأولى لبناء المدنية اليونانية وهما المشرعان ليكورج وصولون، ومنهم أيضا الشاعر الكبير هومير ، وثلاثة من كبار الفلاسفة الذين ظهروا حينما كانت المدنية اليونانية في أوجها وهم افلاطون وديموكريت وفيثاغورس . ولم يقتصر الأمر على المشرعين والشعراء والفلاسفة، بل شمل ـ كما رأيت ـ اطباء وبنائين وفلكيين ورياضيين وموسيقيين ، وبالاجمال كل العناصر التي تقوم بها المدنية . فلا ريب إذن في أن اليونانيين اتصلوا بمصر حين نشوء مدنيتهم وبعد نشوئها اتصال اقامة وتعلم ، ولكن العلماء اليونانيين لم يحملوا الى العالم شيئا من علوم مصر ، كما حمل العرب علوم اليونان الى أوربا .

يضاف الى ذلك أن مدرسة الاسكندرية التي انشأها البطالسة اخرجت علماء يونانيين كثيرين . وقد كان هؤلاء العلماء محتكين بمصر بطبيعة إقامتهم في الاسكندرية ، ومع ذلك لم يرد أحد منهم أن يحمل الى العالم في كتبه شيئا من العلوم المصرية والآداب المصرية . نعم إن مصر كانت قد دب فيها سوس الانحطاط إذ ذاك ، وان الوهن كان قد خيم على مدارسها القديمة ، ولكن هذه المدارس كانت معذلك لاتزال موجودة ، وإذا نحن فرضنا أنها كانت قد انحطت إلى حد أنها لم تكن تستحق أن يؤخذ منها شيء فقد كانت الكتب المصرية موجودة ، وليس يمكن عقلا ولا عملا أن تنهض مدرسة جامعة كمدرسة الاسكندرية على أساس علمي صحيح إلا اذا كان من مهمتها أن تضم الى دراساتها الحديثة ماسبقها من الدراسات القديمة ، ولا سيما دراسات مدنية عاشت اكثر من ثلاثة آلاف سنة ، كالمدنية المصرية . نعم لايمكن هذا ، ولا محل لتصوره ، ولكن العلماء السكندريين لم يروا أن يقولوا لنا شيئا عن علوم كانت لمصر ، ونظريات كانت لمصر ، وآداب كانت لمصر .

وقد يقال هنا إن مكتبة الاسكندرية أحرقت ، ولو انها بقيت لوجد العالم فيها كثيرا من علوم مصر وآدابها ، وهذا عذر قد يكون صحيحا ، ولكن من

---

(١) (Thalès) فيلسوف يوناني عاش بين سنة ٦٤٠ وسنة ٥٤٨ ق م .

(٢) تكلم هيرودوت في الفقرة ١٧٧ من الرخاء الذي تمتعت به مصر في عهد الملك أمازيس ثم قال :

« وامازيس هو الذي فرض على المصريين قانونا يقضي على كل واحد منهم بأن يبين لحاكم الاقليم الذي هو فيه الوسائل التي يعيش منها ، فمن خالف أو لم يثبت أنه يعيش من موارد شريفة عوقب بالموت . وقد نقل صولون الاثيني هذا القانون من مصر وسنه في اثينا . وأهل اثينا يحافظون عليه ويعتبرونه قانونا اخلاقيا كاملا » .

وقد علق مترجم هيرودوت (Ph. E. Legrand) على ذلك في ص ٣٧ من مقدمة الترجمة فقال : أن القانون المصري لم يكن الغرض منه اثبات الموارد الشريفة ، بل كان الغرض منه الاحصاء لاجل جباية الضرائب .

(٣) هذه أسماء ثلاثة أساتذة مصريين تلقى العلم عليهم ثلاثة من كبار الفلاسفة اليونانيين . والذي يقرر ذلك هو بلوطراك الكاتب والفيلسوف اليوناني .

الصحيح أيضا أن علماء الاسكندرية هؤلاء نشروا كتبا تعد بالعشرات فى العالم المتحضر إذ ذاك ، وقد بقيت كتبهم هذه الى اليوم ، وليس فى واحد منها ذكر لعلوم مصرية ولا لآداب مصرية ، كلا ولم يقل واحد منهم إنه اقتبس فكرة معينة من المدارس المصرية والكتب المصرية أو المدنية المصرية وبنى عليها نظرية له الفضل فيها (١) .

***

وقد كان من نتيجة هـذا الصمت عن علوم مصر وآدابهـا ، انه لمـا دمرت الغزوات والحرائق الكتب المصرية ، وضاعت اللغة بانقراض عارفيها ، اسـدل حجاب كثيف على كل مايسمى علما مصريا . ولولا أنه كانت توجد آثار مادية كالأهرام والمعابد والمسـلات وقبـور الملوك تنطق بعظمة ذلك العلم لما فطن إليـه احد . بل لعل الذين وجهوا همهم الى كشف اللغـة المصرية وقراءة خطوطها الهيروغليفيـة والديموطيقية والهيراطيقية ، ماكانوا يعنون بها ويكشفون غطاءها ، وإذن كانت تبقى مصر القديمة غارقة فى ظلمات الماضى، وتبقى علومها غارقة معها فى هذه الظلمات الى الأبد .

***

اتصل اليونانيون بمصر وتعلموا فيها ولـكنهم لم يذكروهافيما كتبوه ، فهلهم معذلك اقتبسوا منها ؟

إن العقل يجيب على هذا فيقول ان الاقتباس فى هذه الحالة امر لا مفر منه ، لأن المدنيـات المختلفة ليست سوى حلقات متتالية فى سلسلة واحدة هى سلسلة الانسانية . فكل مدنية تصـوغ نفسها من المدنيات التى سبقتها ثم مما تزيده عليها ، وبهـذا يتحقق تقدم الانسان وتقدم العمران .

هذا هو جواب العقل ، فمـا هو جواب الواقع ؟

جواب الواقع هو بعينه جواب العقل ، فقد عرف منذ مائتى سنة او اكثر ان التصوير اليونانى والنقش اليونانى والأعمدة اليونانية هى اقتباس من التصوير المصرى والنقش المصرى والأعمدة المصرية مـع شىء من التنويع .

(١) لانرى ان نسرد هنـا اسماء علماء الاسـكندرية ونظرياتهم العلمية والكتب التي نشروها لان ذلك يخرجنا من موضوعنا الذى نحن فيه .

وعرف أيضا أن كثيرا من المصنوعات اليونانية هى بعينها المصنوعات المصرية لم يدخل عليها إلا تهذيب قضى به اختلاف البيئة واختلاف الزمن .

عرف هذا منذ مائتى سنة أو اكثر لان التصوير والنقش والأعمدة والمصنوعات فى مصر وفى اليونان ، كانت فى متناول كل من يريد أن يدرسها وأن يوازن واحدة منها بالأخرى . أما العلوم والآداب والديانات المصرية فكانت إلى زمن قريب مجهولة ، ولهذا كانت موازنتهـا بمثيلاتها اليونانية مسـتحيلة . ولا يزال اكثرهـا مجهولا إلى اليـوم لأن ماعرف لايزيد على جوانب من الديانات لايزال فى بعضها غموض ، ثم طرف صغير من الآداب ممثل فى بضع قصصواناشيد واشعار . أما العلوم ، وخاصة العلوم الفلسفية ، فلم يعرف بعد شىء منها .

ولهذا كان السؤال الذى تساءل فيه البـاحثون منذ اربعين سنة ، اى منذ شـاعت ترجمة أوراق البردى المصرية هو : « هـل فى الآداب والديانات اليونانية اثر من الآداب والديانات المصرية ؟ وهـل هذا الأثر واضح بحيث يمكن تعيينه أو هو مبهم غير واضح ؟ » . وسنمر نحن هنا بشىء مما وقف عليه الباحثون . وسنخص بالذكر شاعر اليونان الـكبير هومير صاحب الأوذيسة والالياذة .

***

من الذين تفرغوا لدراسة الآداب اليونانية وعرفوا بحبها والاعجـاب بها عالم فرنسى هو فيكتور بيرار (Victor Berard) . ويهمنى هنا أن يكون بيرار هذا من المتفرغين للآداب اليونانية والمعروفين بحبهـا لانه إذا شهد بأن بعض هذه الآداب مقتبس ، أو اكثر من مقتبس ، من الآداب المصرية ، فشهادته لاترمى بالتحيز لمصر .

وقد درس بيرار إلياذة هومير وأوذيسته فوضـع فيهما الشروح والمصنفات . وهومير هو اعظم شاعر يونانى ، ومنزلته فى الآداب اليونانيـة أعظم من منزلة امرىء القيس فى الآداب العربية ، وإن كان كل منهما يختلف عن الآخر منزعا وتفكيرا .

وبما أننا سنعرض هنا للأوذيسة وما دخل فيهـا

من الآداب المصرية ، يحسن أن نقول قبل ذلك ماهى الأوذيسة .

فالأوذيسة هى قصة شعرية موضوعها أن البطل اليونانى عوليس أمير مقاطعة يونانية تسمى إيتاك اشترك مع غيره من الأمراء اليونانيين فى محاصرة مدينة طروادة (على ساحل آسيا الصغرى) ، ثم لم يعد الى إمارته فخرج ابنه تليماك يبحث عنه فذهب الى مدينة اسبارطة وسأل فيها الملك منلاس عن أبيه. وفى أثناء ذلك كان عوليس فى جزيرة الالهة كاليبسو واقعا فى حبها ، ثم تحرك فيه الشوق الى بلده ففر من الجزيرة ، فهبت عليه فى البحر عاصفة فأغرقت مركبه وألقته الأمواج على شاطىء جزيرة شيرى (١) ، وعلى أرض فيها تسمى أرض فياسى. وفى هذه الأرض، قابل نوزيكا ابنة الملك السبنوس فساعدته وقربته من أبيها . وقص عوليس على الملك الأهوال التى وقعت له فى بحار كثيرة ركبها وجزائر عدة التجأ إليها . ثم عاد عوليس الى بلده ايتاك فتنكر فى زى متسول وقابل ابنه تليماك الذى كان قد عاد هو أيضا من اسبارطه . وكانت امرأة عوليس ، وهى تسمى بنيلوب ، قد بقيت وفية له طول غيابه ، ولكن كان اربعة من الأمراء قد تقدموا إليها ليخطبها كل واحد منهم لنفسه فظهر لهم عوليس وقتلهم هو وابنه تليماك ثم ظهر لامرأته وعاد الى عرش إمارته .

تلك هى قصة الأوذيسة وهى مقسمة الى أربعة وعشرين كتابا أو جزءا . وما من لغة فى أوربا الا وقد نقلت إليها .

وقد نقلت الى اللغة الفرنسية من زمن طويل ، ولكن العلماء الفرنسيين مازالوا يضعون لها ترجمات جديدة ، وما زالوا يدرسونها دراسات جديدة ، ومن هؤلاء فيكتور بيرار الذى تقدم ذكره ، درسها مرة ثم ترجمها ودرسها مرة ثانية هى التى طبعها حديثا فى سنة ١٩٢٥ . وقد أتيح له أن اطلع على قصص وأشعار مصرية كان ماسبيرو وغيره من علماء المصرولوجيا قد نشروها فدهش إذ رأى فى الأوذيسة آثارا من تلك القصص والأشعار ، فعكف على موازنة إحداهما بالأخرى ، فكانت النتيجة التى خرج بها أن

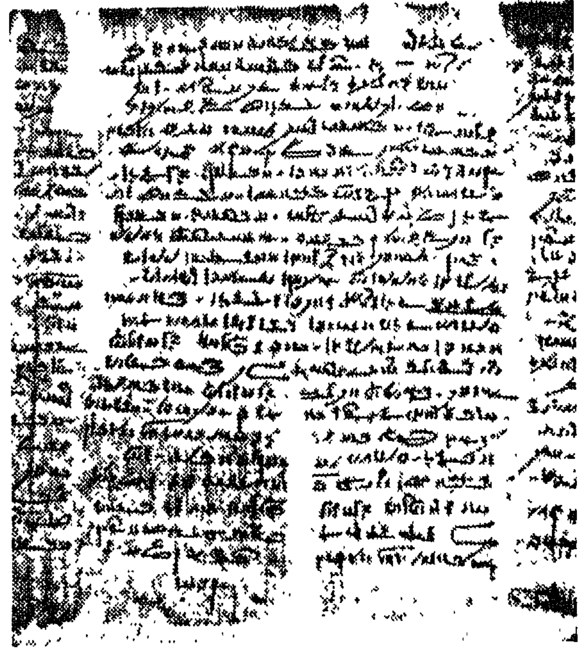
(١) هى جزيرة خرافية تخيلها هومير .

الاقتباس واضح لايصح أن يختلف فيه اثنان ، وأن الشاعر اليونانى هومير أخذ بعض ما فى قصته من الكتاب المصريين .

***

ولكى يقف القارىء على طرف من هذا الاقتباس ، أو قل هذا النقل ، نذكر أن مما اشتملت عليه قصة الأوذيسة حديثا طويلا يدور بين تليماك والملك منلاس، وفى هذا الحديث يقص الملك منلاس أن الآلهة غضبوا عليه فى ماضيه فحجزوه مع رفقاء له عشرين يوما فى جزيرة على سواحل مصر تسمى فاروس ، ثم ظهرت له ابنة شيخ من شيوخ البحر ونبى من أنبياء مصر يسمى « بروتى » فقالت إن أباها يخرج من الأمواج كل يوم ثم يمضى الى مغارة فى الجزيرة فيتمدد فيها ثم تنام حوله كلاب بحر تخرج هى ايضا من الأمواج. فالوسيلة التى يستطيع بها منلاس أن يخرج من الجزيرة هى ان يفاجىء « بروتى » ساعة نومه ويشد عليه بقوة ، وحينئذ يحاول « بروتى » أن يتخلص فيتحول الى كل نوع من أنواع الحيوانات الزاحفة على الأرض ثم إلى ماء ، ثم إلى نار ، فاذا بقى منلاس قابضا عليه ولم يدعه يفلت فسيعود الى شكله الانسانى ثم يكلمه ، فعلى منلاس حينئذ أن يسأله بأى وسيلة يخلص من الجزيرة .

وبعد ذلك غابت البنت بين الأمواج ثم ظهرت ومعها جلود أربعة من كلاب البحر فلبسها منلاس وثلاثة من رفقائه الأشداء وكمنوا كذلك الى ان ظهر « بروتى » وعرض كلابه ومن بينها منلاس ورفقاؤه دون أن يفطن اليهم . ثم نام فهجم عليه منلاس ورفقاؤه وشدوا عليه بأيديهم فتحول الى أسد ثم الى تنين ثم الى خنزير كبير ثم الى ماء ثم الى شجرة، ثم لما استنفد كل سحره على غير جدوى تكلم فسأله منلاس ، فعلم منه أن ذفس ، كبير الآلهة ، غاضب عليه لأنه لم يقرب له ضحايا قبل ركوبه البحر ، وأنه لن يرضى عنه ولن يأمر الرياح بالاعتدال له إلا اذا قرب له الضحايا . ثم أخبره « بروتى » بكثير من اخبار أصدقائه وبلاده . ثم قال : إن القدر لم يكتب له أن يموت فى مدينة أرجوس التى فيها حقوله بل ستقوده الآلهة الى الأليزيه (الأليزيه كانت فى الاساطير اليونانية



الخط الديموطيقى المصرى

دار النعيم التى يقيم فيها الصالحون) فى آخر الأرض عند الاله رادامانت (١) ، حيث الحياة أهنأ ما تكون وحيث لايوجد ثلج ولا برد قارس ولا مطر ، وحيث لاتوجد عواصف بل توجد ريح الشمال . وبعد ذلك القى « بروتى » بنفسه بين الأمواج فغاب فيها ».

فهذه القصة التى قصها الملك منلاس على تليماك ، علق عليها فيكتور بيرار فقال فى الصفحات ٩٥و٩٦و٩٧ والصفحات التى تليها (٢) ، ما ملخصه أنها قبل كل شىء تشبه فى مجموعها القصص المصرية التى جمعها ماسبيرو فى كتابه « القصص الشعبية فى مصر القديمة » (٣) ، وهى قصص ترجع الى ٥٠٠ أو ٨٠٠ سنة على الأقل قبل عصر هومير .

ثم إن شيخ البحر يسحر نفسه أسدا وخنزيرا وماء ونارا مقدسة ، والسحر على هذا الشكل تفيض به القصص المصرية .

ثم إن من الحيوانات التى يتحول شيخ البحر اليها الخنزير الكبير ، والخنزير الكبير تسمية كانت شائعة عند المصريين وكانوا يريدون منها خنزير النهر أو عجل النهر .

ثم إن جميع حوادث هذه القصة وأسماء أشخاصها موجودة فى القصص المصرية بما فيها القبض على « بروتى » وخيانة بنته له .

ثم إن اسم « بروتى » هو اسم فرعون كما أثبته ماسبيرو فى تحليله العلمى ».

ثم إن المصريين كانوا يحبون القصص التى تتكلم فيها الحيوانات .

ثم إن دار النعيم أو (الأليزيه) الموصوفة هنا هى دار مصرية ولا يمكن أن تكون دارا يونانية . إذ مصر هى التى ينطبق عليها أنها لا ثلج فيها ولا مطر ، وان البرد فيها غير قارس ، أما اليونان فالمطر فيها غزير ، والبرد قارس ، وفيها ثلج فى بعض الأحيان ، وريح الشمال التى يقول هومير إنها تهب على دار النعيم لاتدع شكا فى أن الدار مصرية لا يونانية ، لأن هذه الريح تهب فى مصر من الشمال فتكون عليلة تستروحها النفوس ، أما فى اليونان فان هذه الريح نفسها تكون فى شكل عواصف . والمصريون يحبون هذه الريح واليونانيون يخشونها . أما الاله رادامانت الذى يقاد اليه منلاس فى دار النعيم فهو إله المصريين أوزريس على عرشه فى الحياة الأخرى ».

❊ ❊ ❊

هذه هى شهادة فيكتور بيرار ، ونحب نحن أن نكون منصفين فنقول إن الاقتباس هنا يظهر فى صورة إدخال حوادث مصرية وأشخاص مصريين يتخيلهم هومير فى ثنايا قصة الأوذيسة ، ولا يظهر فى صورة اقتباس قصة معينة . وهذا الذى فعله هنا هومير يفعله كل الشعراء وكل الكتاب فلا يؤخذ عليهم انهم يحكمون المحاكاة بل الذى يؤخذ عليهم هو انهم يقصرون فى المحاكاة ».

فما لم يظهر فى المستقبل أن فى الآداب المصرية قصة معينة كهذه التى قصها منلاس عن وجوده فى جزيرة فاروس ، فليس لقائل أن يقول إن هومير سطا فى هذه القصة على شىء من تلك الآداب . ولكن يقال من ناحية أخرى إن موضوع البحث ليس أن يكون

(١) ردامانت هو فى الأساطير اليونانية احد ابناء ذفس .

(٢) كتاب (L'Odyssée — Traduction nouvelle) جزء اول طبعة سنة ١٩٢٥ .

(٣) (Les contes populaires de l'Egypte Ancienne)

هومير قد سطا أو لم يسطُ على الآداب المصرية ، بل أن يكون لهذه الآداب أثر ظاهر فى شعر هومير . فمن هذه الناحية تكون شهادة فيكتور بيرار سليمة ويكون الأثر المطلوب قائما فى تلك المحاكاة .

* * *

والآن ننتقل الى شهادة أخرى ليس الأمر فيها أمر محاكاة لحوادث مصرية يدخلها هومير فى شعره ، بل الأمر فيها أمر قصة مصرية معينة أغار عليها هومير وادخلها فى الأوذيسة بعد أن حاول أن يلبسها ثوبا يونانيا ، فبقى الثوب شفافا تطل القصة المصرية من ثناياه ، بموضوعها وسياقها ونصوصها .

هذه الشهادة الثانية هى شهادة عالم من علماء المصرولوجيا فى روسيا هو الأستاذ جولنيشيف (M. W. Golénicheff) ، ويؤيده فيها عالم فرنسى هو الأستاذ مورى .

فقد حدث من بضع سنين أن ترجم جولنيشيف ملفا من أوراق البردى المصرية المحفوظة فى إحدى



الخط الهيروغليفى المصرى أو الخط المقدس (قطعة من كتاب الموتى)

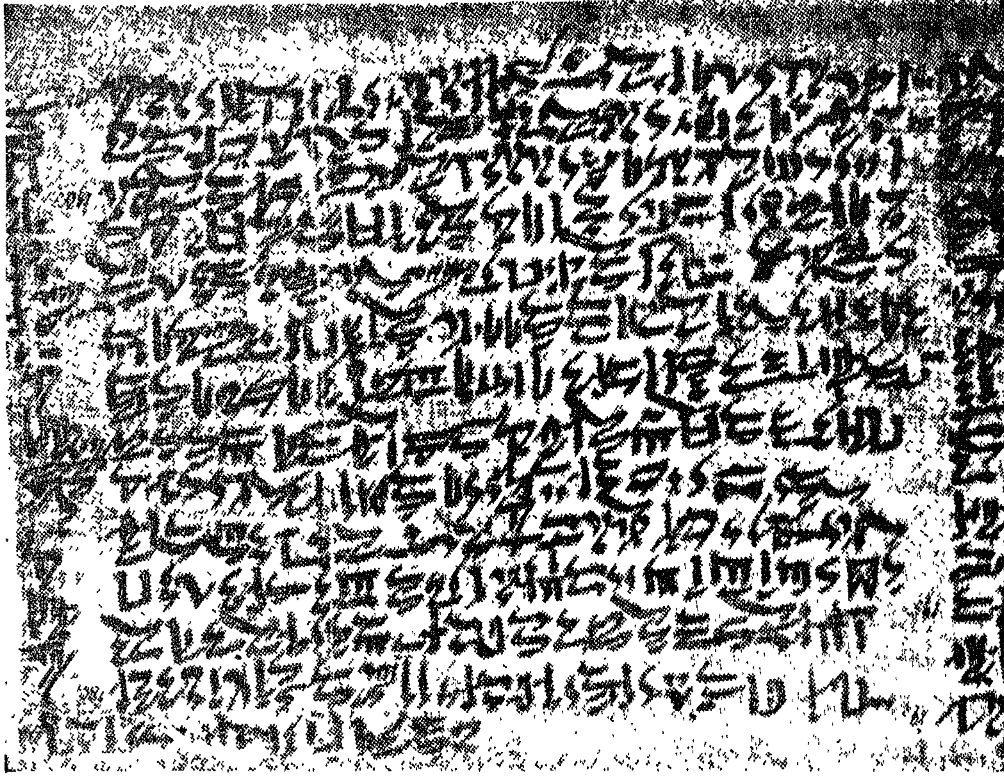
مكتبات بتروغراد (العاصمة القديمة لروسيا) ، وهو ملف مكتوب بالخط الهيراطيقى فى زمن الأسرة الثانية عشرة (١٨٠٠ سنة قبل الميلاد) فاذا به قصة مصرية فى بعض فصولها أن سائحا مصريا ركب البحر ثم غرقت مركبه وقذفت به الأمواج الى جزيرة خرافية ، ثم إذا بهذا الفصل موجود فى الأوذيسة ، لا بمعناه فحسب ، بل بسياقه ، وبكل مافيه من الأوصاف ، وبالكثير مما فيه من التعبيرات .

ولم يكد جولنيشيف يقف على هذه الحقيقة حتى أذاعها فى رسالة ذكر فيها نصوص ورقة البردى ، وذكر الى جانبها النصوص المماثلة لها من الأوذيسة . فوصلت هذه الرسالة الى مورى فى باريس فدرس ملف البردى الذى ترجمه جولنيشيف وكتب فى كتابه (Rois et Dieux d'Egypte) المطبوع فى سنة ١٩٢٥ ، فى صفحة ٢٤٠ والصفحات التى تليها يؤيد ما أثبته جولنيشيف ويزيد عليه . ولا يتسع المقام هنا لسرد كل ماكتبه هذان العالمان فى موازنة النصوص المصرية بنصوص الأوذيسة فنكتفى بأن ننقل طرفا من هذه الموازنة .

الموضوع فى القصة المصرية هو كما قلنا غرق سفينة لسائح مصرى ، وفى الأوذيسة غرق سفينة عوليس والد تليماك الذى مر ذكره . فالكاتب المصرى يقول فى قصته على لسان بطله :

« ركبت البحر فى سفينة طولها ١٥٠ ذراعا وعرضها ٤٠ ذراعا ومعى ١٥٠ رجلا من أفضل البحارة فى مصر . وكان هؤلاء البحارة قد عرفوا السماء وعرفوا الأرض ، وكان فى قلوبهم من البأس أكثر مما فى قلوب الأسود . ثم كانوا إلى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالأعصار قبل ثورانه . وبينما نحن فى البحر هبت علينا العاصفة فجأة . وكنا قريبين من الأرض ، فدفعت بنا الرياح نحوها وأثارت أمواجا كانت ترتفع إلى ثمانية أذرع . ورأيت على مقربة منى قطعة من الخشب فألقيت بنفسى عليها وركبتها . ومات كل الذين بقوا فى السفينة ولم ينج منهم أحد .

« وقذف بى الموج إلى جزيرة فقضيت فيها



الخط الهيراطيقى المصرى
صفحة من ورقة بردى محفوظة فى متحف برلين

ثلاثة أيام لا رفيق لى فيها غير قلبى . ونمت فى غابة تشبه المخبأ فكان ظلها يحيط بى . ثم مددت ساقى (١) أبحث عن شيء أضعه فى فمى . فوجدت تينا وعنبا وكل انواع الكراث الجميلة وبذورا وشماما هو من الكثرة كأنما يصنع صنعا . ووجدت اسماكا وطيورا . وبالاجمال لم يكن شيء إلا وهو فى ذلك المكان . فأكلت حتى شبعت ، ثم وضعت على الأرض بعض ما كانت يداى تمتلئان به ، ثم حفرت حفرة واشعلت نارا وجعلت الفى فيها مما هنالك ، قربانا يصل بواسطتها إلى الآلهة » .

هكذا كتب الكاتب المصرى قصته ، وسنعرب هنا ماكتبه مورى عقدا للموازنة بينه وبين ماكتبه هومير فى قصته عن عوليس . ونكتفى بأن يكون نصيبنا التعريب حتى لايكون مصرى هو الذى يعقد الموازنة ويؤدى الشهادة فيها للكاتب المصرى بل يكون الذى يعقد المقارنة ويؤدى الشهادة عالما فرنسيا . قال هذا العالم بعد أن أورد النص الذى ذكرناه :

« والآن فلننقل إلى عوليس . بعد ان ترك عوليس جزيرة كاليبسو وركب السفينة وحده فبقى فى البحر ثمانية عشر يوما لم يحدث فيها حادث ثم طلعت لعينه جبال فياسى بغاباتها . وحينئذ أثار ذفس (تقدم أنه كبير الآلهة فى الأساطير اليونانية) العاصفة فارتمت على عوليس موجة عالية فكسرت سفينته وفرقت أخشابها . قال هومير : « وحينئذ ركب عوليس قطعة من الخشب وقادها كما يقود الانسان جوادا » . واستمر عوليس عائما فى هذه الحالة ثلاثة أيام بلياليها . قال هومير : « ولم يكن عوليس ينفك فى أثناء ذلك عن أن يتناقش مع قلبه » . وقال أيضا : « وأخيرا جاءت موجة كبيرة ودفعت به نحو الشاطىء الوعر » .

(١) المراد بقوله « مددت ساقى » أنه جعل يمشى .

وانتهى عوليس بأن وصل إلى هذا الشاطئ ثم استطاع بعناية الآلهة أن يلتجىء إلى غابة . قال هومير : « وصنع عوليس لنفسه تحت شجرتين صغيرتين مأوى يأمن فيه من الرياح والمطر والشمس » . ثم نام « تخبئه أوراق الأشجار » . ويمضي هومير بعد ذلك فى الأوذيسة فيجعل عوليس يصف النباتات الرائعة التى تغطى أرض فياسى المباركة . يقول هومير : « فى هذه الأرض أشجار كبيرة باسقة بعضها يثمر الكمثرى والرمان وبعضها يثمر البرتقال الجميل والتين اللذيذ والزيتون الأخضر والعنب الناضج » .

« أما القربان الذى قدمه السائح المصرى للالهة بواسطة النار فهو غير موجود فى هذا المكان من قصة عوليس ، ولكن الاستاذ جولنيشيف لاحظ أن هومير نقله إلى مكان آخر من قصة عوليس نفسها هو المكان الذى يتحدث فيه عن مقام عوليس عند الوحش بوليفيم (١) ، وذلك أن عوليس ورفقاءه يشعلون حينئذ نارا ليقدموا بواسطتها قربانا للالهة بعد أن طعموا من الجبن الذى وجدوه فى مغارة الوحش » .

ذلك ما كتبه مورى ، وقبل أن نمضى فى موازنات أخرى يحسن أن نقول نحن كلمة فى إبراز وجوه الاتفاق بين ماكتبه هومير وما كتبه الكاتب المصرى :

(فأولا) إن العاصفة تهب على السفينة فى القصتين .

(وثانيا) إن عوليس يركب قطعة من الخشب كالتى يركبها السائح المصرى .

(وثالثا) إن السائح المصرى قذفت به موجة إلى الجزيرة ، وعوليس دفعت به موجة إلى شاطىء الجزيرة .

(ورابعا) إن الكاتب المصرى عبر عن وحدة بطله فى الجزيرة وحديثه مع نفسه حينما صعد إليها بأنه لم يكن له رفيق فيها غير قلبه . فقال هومير إن عوليس حينما كان على قطعة الخشب كان يتناقش مع قلبه .

(وخامسا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله بقى فى الجزيرة ثلاثة أيام وحيدا . فقال هومير إن عوليس بقى على قطعة الخشب ثلاثة أيام بلياليها

(وسادسا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله التجأ إلى غابة فى الجزيرة تشبه المخبأ . فقال هومير إن عوليس التجأ إلى غابة وصنع لنفسه تحت شجرتين مأوى يأمن فيه من الرياح والمطر والشمس .

(وسابعا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله نام فى الغابة التى التجأ إليها وإن ظلها كان يحيط به . فقال هومير إن عوليس نام فى المأوى الذى صنعه لنفسه وإن أوراق الاشجار كانت تخبئه .

(وثامنا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله بحث بعد ذلك فوجد أنواعا كبيرة من النباتات والفاكهة والبذور . فقال هومير إن عوليس بحث بعد ذلك فوجد كثيرا من الأشجار والفاكهة .

(وتاسعا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله أراد أن يشكر الآلهة فأشعل نارا وجعل يلقى فيها قربانا تتكفل النار بايصاله إليها . فقال هومير فى مكان آخر من قصته ، وفى حديثه عن عوليس نفسه : إن عوليس ورفقاءه أشعلوا نارا وقدموا بواسطتها قربانا للآلهة .

تلك هى أوجه الاتفاق فيما كتبه الكاتب المصرى وما كتبه هومير . وهو اتفاق يكاد يكون فى التعبيرات .

* * *

ولم تنته الموازنة بعد لأنها طويلة وهى كلها على هذا المنال فلنستمر .

(١) بوليفيم هو فى الاساطير اليونانية ابن نبتون اله البحر وهو فى صورة وحش ذى عين واحدة . وفى الاساطير اليونانية وحوش كثيرة على هذا الشكل تسمى سيكلوب واكبرها واشدها هو بوليفيم .

يذكر الكاتب المصرى أن بطله أو سائحه نام ، ثم يقول على لسانه :

« ولم أشعر بعد ذلك إلا وقد سمعت دويا كدوى الرعد ، فاستيقظت وكشفت عن وجهى فرأيت ثعبانا هائلا يتقدم نحوى ...

ثم قال لى هـذا الثعبان : « من أتى بك ، من أتى بك ؟ أيها الصغير من أتى بك ؟ » . ثم وضعنى فى فمه ونقلنى إلى المكان الذى كان يقيم فيه ...

ثم قال لى مرة أخرى : « من أتى بك ، من أتى بك ؟ أيها الصغير من أتى بك إلى هـذه الجزيرة التى تغوص شواطئها فى الأمواج ؟ »

فيجيب السائح على هذه الأسئلة فيقص قصة سفينته وغرقها كما رأينا .

***

وهنا نرجع إلى عوليس ، وهنا أيضا نعرب الموازنة كما كتبها مورى . قال :

« إن الذين يستقبلون عوليس فى أرض فياسى هم نوزيكا وأبوها الملك السينوس ورعيته ، أى انهم اناس لا وحوش . ولهذا لا يوجد دوى رعد فى قدومهم إليه . ولكن هومير لم يفته هذا الرعد فى الفصل الخاص ببوليفيم لأن هذا الوحش يأتى ويأتى معه دوى كدوى الرعد إلى المغارة التى التجأ إليها عوليس . وقد قال جولنيشيف إن هـذا الموضوع من القصة المصرية انتقل فى شعر هومير إلى مكان آخر . وهو مصيب فى ملاحظته هذه . ويقول جولنيشيف أيضا : إن فى شعر هومير شيئا يستوقف النظر هو أن السائح فى القصة المصرية يكشف عن وجهه حينما يستيقظ لكى ينظر ، فرفقاء عوليس النائمون على رمال الشاطىء يكشفون هم أيضا عن وجوههم حينما يستيقظون من نومهم على نداء سيدهم . وتلى ذلك مشابهة أخرى هى جلسة السائح المصرى متربعا بالقرب من النار لتقديم القربان وجلسة عوليس متربعا بالقرب من موقد الملك السينوس .

« وهذا الملك ينهض عوليس بيده من جانب الموقد ليجلسه على عرش براق ، والثعبان فى القصة المصرية ينهض السائح من جانب الموقد ويجلسه فى المكان الذى يقيم فيه . ويضيف جولنيشيف إلى كل هذا أن عوليس يسأل فى أرض فياسى مرتين كما يسأل السائح فى القصة المصرية مرتين ، وذلك أن الملكة أريتى تسأل عوليس : « من أنت ، ومن أين تأتى ؟ » وبعد هذا يسأله الملك السينوس مثل هذا السؤال . وحينئذ يأخذ عوليس فى أن يقص كما يقص السائح المصرى الأهوال التى وقعت له » .

***

ونعود مرة ثالثة إلى القصة المصرية . إن الثعبان يعطف على السائح ويتفاءل له فيقول :

« لاتخف شيئا ، لاتخف شيئا أيها الصغير ، ولا تدع الحزن ينتشر علىوجهك . لقد وصلت إلى ، لأنه كتب لك أن تعيش وأن تصل إلى هذه الجزيرة السعيدة ... ... ستقيم هنا شهرا بعد شهر ، إلى أن تمضى أربعة أشهر ، ثم تأتى سفينة فيها بحارة عرفتهم ، وستسافر معهم . وستموت فىمدينتك ... ... ستضم إلى صدرك أولادك ، وستعانق امراتك ، وسترى دارك ، وذلك خير من كل شيء . ستصل إلى بلادكوستكون فيهابين إخوانك » .

فبكلمات مثل هذه الكلمات يستقبل عوليس فى فياسى . وذلك أن نوزيكا تقوله له .

« إن ذفس هو الذى كتب عليك ما ألمّ فيه . فيجب أن تتحمله » .

ثم تقول له إن جميع الأغراب والفقراء قريبون من ذفس ، وان ذفس سيرده الى بلاده . وحينئذ يتمنى عوليس أن يجد امرأته فى داره فى صحة جيدة ، وأن يجد أصدقاءه فى صحة جيدة أيضا . فتدعو له نوزيكا ويدعو له أبوها السينوس بأن ينعم برؤية امراته وأولاده وأصدقائه وداره فى بلده . وهذا كله شبيه بما فى القصة المصرية ، لايكاديختلف عنه إلا فى بعض الألفاظ .

***

ونعود الى القصة المصرية مرة رابعة .

يملك الفرح السائح المصرى حين يسمع من الثعبان أنه سيعود الى بلاده ، وسيرى أولاده وامرأته وداره ، فيقول له :

« سأصف أرواحك لفرعون ، وسأخبره بمجدك ، وسأجلب لك زيوتا مقدسة وطيبا مما يقدم لكل إله . . . وسأحضر لك سفنا مملوءة بكنوز من مصر كما يفعل الناس لاله» .

فعوليس ايضا يشكر السينوس فيدعو له بمجد لايفنى بالقرب من ذفس ثم يسكر نوزيكا فيؤلى على نفسه أن « يدعو لها كما يدعو لآلهة » .

* * *

ونعود مرة خامسة .

يجيب الثعبان فيقول للسائح المصرى :

« إننى ملك بلاد بونت (١) ، فبعد أن تفارق هذا المكان لن ترى هذه الجزيرة ابدا لأنها ستتحول إلى أمواج » .

ثم يتحدث السائح عن الجزيرة فيقول إنها « أرض بعيدة لم يعرفها الناس » .

كذلك اهل فياسى يقيمون فى جزيرة شيرى « بعيدا من الناس المتمدينين » .

وتتحدث نوزيكا عن هذه الجزيرة فتقول : « إنها فى أطراف الأرض ، فى وسط البحر المضطرب ، بعيدة من الناس » .

والثعبان فى القصة المصرية يقول إنه « ملك بلاد بونت » ، اى انه وهو فى الجزيرة التى يحادث فيها السائح المصرى لايقيم فى بلاده التى هو ملك عليها بل يقيم فى جزيرة بعيدة منها . واهل فياسى فى القصة الهوميرية ليسوا من اهل جزيرة شيرى التى يستقبلون فيها عوليس بل هم من أهل هيبريا .

والجزيرة فى القصة المصرية تختفى بين الأمواج بعد سفر السائح المصرى منها ، وجزيرة شيرى فى القصة الهوميرية تصيبها التدمير بعد سفر عوليس منها ، لأن الاله بوزيدون ينتقم من الفياسيين فيغطيهم ويغطى أرضهم بصخرة .

وملك الجزيرة فى القصة المصرية ، اى الثعبان ، ينبىء السائح بمصير الجزيرة بعد سفره منها . وملك الجزيرة أيضا فى القصة الهوميرية ، وهو السينوس ، يخبر عوليس بمصير الجزيرة بعد سفره منها .

* * *

ومرة سادسة .

حينما يسافر السائح المصرى من الجزيرة التى هو فيها يودعه الثعبان بهذه التمنيات :

« صحة جيدة ، صحة جيدة أيها الصغير حتى تصل إلى دارك . سترى أولادك ، وليكن اسمك مذكورا بالخير فى مدينتك » .

ثم يعطيه هدايا . وبعد ذلك يتجه السائح إلى الساحل ، ويشكر الثعبان ، ثم يركب السفينة .

وعوليس حينما يسافر، يتمنى له الملك السينوس الصحة ويعطيه هو والفياسيون هدايا ، وحينئذ يشكرهم عوليس ويحييهم .

* * *

ومرة سابعة .

تصل السفينة بالسائح المصرى الى وطنه فتجنح ويرتطم مقدمها بالساحل . كذلك سفينة الفياسيين تجنح وترتطم حتى يكون نصفها على الساحل ونصفها الآخر فى الماء .

ويدخل السائح المصرى على فرعون فى شكل رجل « رأى اشياء كثيرة ومرت به محن كثيرة » .

وعوليس يقول :

« أنا الذى مرت به كثير من المحن فى محاربته للرجال والأمواج . انا الذى راى المدن وعرف طبائع كثير من الناس وتألم فى قلبه من آلام عدة عاناها فى البحر » .

وفرعون يقول للسائح المصرى :

« كن خادما بصيرا فطنا » .

(١) بلاد بونت هى البلاد التى كان المصريون يجلبون منها الطيب والنباتات ذات الرائحة الزكية . وبعض الباحثين يرجح ان المقصود بها بلاد الصومال .

وعوليس يقول مثل هذه الكلمة أيضا .

***

ونقف عند هذا الحد من الموازنة . ونحسب أن في ما تقدم كفاية للقول بأن في أوذيسة هومير اثرا واسعا من القصة المصرية التى اشتملت عليها ورقة البردى رقم ١١٥ فى مكتبة بتروغراد . بل نحسب أن هنالك اكثر من الأثر الواسع يراه كل من ينظر فى فكرة القصتين وفى صياغتهما . ولسنا نحكم بهذا وحدنا بل يحكم به معنا العالمان جولنيشيف وموري . وإليك ماكتبه هذا الأخير فى صفحة ٢٤٩ من كتابه الذى مر ذكره بعد أن عرض وجوه الموازنة بأوسع مما عرضناها هنا . قال :

« من كل هذه الموازنات التى ابرزها جولنيشيف بدقة تامة ، يتضح لى ، كما اتضح له ، أن « هنالك فى الواقع أكثر من مشابهة عرضية بين القصة المصرية وقصة عوليس عند الفياسيين » (١) ، وليس ذلك مقتصرا على الجزئيات التى يمكن أن توجد على انفراد فى كل قصة يدور الكلام فيها على سائح ينجو من الغرق . بل المجموع يدل أيضا على أن الفكرة فى القصتين واحدة » .

وهذه الورقة التى ترجمها جولنيشيف هى واحدة من عشرات من أوراق البردى التى بقيت بعد خمسة آلاف سنة تقلبت على مصر بالخير تارة وبالشقاء تارة فأمكن أن تنجو من التدمير . فانظر أى اثر كنا نجده لمصر فى الآداب والعلوم اليونانية لو أن آداب مصر وعلومها بقيت ، ولو أن المكتبات التى ثبت أن مصر كانت تعمر بها منذ الأسرة السادسة (أى منذ خمسة آلاف سنة) بقيت ولم تعد عليها عوادى البلى والنهب والحريق .

***

وننظر الآن فى اقتباس آخر اقتبسه هومير من أسطورة إيزيس وأوزريس المصرية .

(١) هذه الجملة التى تبتدىء بكلمة « هنالك » وتنتهى بكلمة « الفياسيين » وضعت بين اقواس للدلالة على انها مقتبسة بنصها مما كتبه جولنيشيف .

تتلخص الأسطورة المصرية فى أن سيت قتل أخاه أوزريس والقى فى النيل بالصندوق الذى يحتوى جثته ، فعام الصندوق من النيل الى البحر الأبيض المتوسط ، ثم وصل الى ثغر ببلوس (جبيل) على سواحل سوريا . ووقفت به الأمواج عند جذع شجرة أثل ، فنمت هذه الشجرة حتى طوت الصندوق فى جوفها . ورآها بعد ذلك ملك المدينة فأعجبته ، وأمر فنزعت من الأرض وأقيم جذعها عمودا لقصره . وعلمت إيزيس بذلك كله فجاءت الى ببلوس وجلست بالقرب من ينبوع ماء تبكى ، ثم مرت بها جوار هن فى خدمة الملكة ، فحيتهن برفق ، وعرضت عليهن أن تضفر شعورهن وأن تمسح اجسامهن بمثل الرائحة الزكية التى تفوح من جسمها .

فلما فعلت وعاد الجوارى سألتهن الملكة فأنبأنها بنبأ المرأة التى ضفرت شعورهن وطيبتهن ، فاستقدمتها الملكة وجعلتها مربية لطفلها .

وهنا نعرب ما كتبه بلوطرك تكملة لسياق الأسطورة ، قال (٢) :

« وكانت إيزيس كلما أرادت ارضاع الطفل وضعت له أصبعه فى فمه . فاذا جاء الليل أشعلت النار فيما يحتويه جسمه من عناصر الفناء . ويقال إنها كانت فى بعض الأحيان تتشكل فى شكل قطاة وتطير حول العمود الذى فيه صندوق أوزريس صائحة ناشجة . فراقبتها الملكة ذات ليلة . فلما رأتها تلقى بطفلها فى النار ، صاحت وانتشلته ، فحرمته بذلك من نعمة الخلود . وحينئذ كشفت إيزيس عن نفسها فى صورة إلهة وطلبت أن تأخذ العمود . ثم نزعته بغير عناء ، وقطعته حتى ظهرت قطعة الخشب التى فيها الصندوق ، فغطتها بنسيج رقيق من الكتان ، وطيبتها برائحة زكية ... الخ » .

فهذا الجانب من الأسطورة المصرية أخذه هومير ونقله فى شعره الى الأسطورة اليونانية التى وضعت

(٢) الفقرة ١٦ ، والصفحة ٦٥ من كتاب (Isis et Osiris) ترجمة (Mario Meunier) الطبعة السابعة .

لالهة يونانية تسمى « ديميتر » (١) ، فقال : إن هذه الالهة لما علمت بخطف بنتها كورى « حز الألم فى قلبها ، ومزقت بيديها الشرائط التى تمسك شعرها، والقت على نفسها رداء أسود » .

والأسطورة المصرية تقول : إن إيزيس لما علمت بقتل اوزريس « قطعت خصلة من شعرها ولبست ثوب حداد » وجعلت « تجول فى كل مكان فريسة لأعظم ما يمكن من الحزن » (٢) .

فقد يقال إن شبهة الاقتباس فى هذا التشابه ضعيفة لانه من الطبيعى أن تحزن ديميتر وتلبس لباس الحداد حينما تعلم بخطف بنتها كما حزنت إيزيس ولبست لباس الحداد حينما علمت بقتل زوجها . وقد يكون من الطبيعى ايضا ان تمزق إحداهما شرائط شعرها كما قطعت الأخرى خصلة من شعرها . ولكن أنظر ماذا قال هومير بعد ذلك(٣) .

قال إن ديميتر تعبت فى البحث عن بنتها ، فوقفت فى قصر ملك يسمى كليوس لتستريح ، فاستدعتها زوجة هذا الملك وعهدت اليها أن تقوم على تربية طفلها ، فنما هذا الطفل بين يدى مربيته هذه الجديدة « كأنه إله من غير أن يرضع لبنا أو يأكل خبزا » وكانت ديميتر تدهن جسمه بالعنبر وتمسكه بين يديها وتنفخ عليها انفاسها برفق ، فاذا جن الليل خبأته فى النار وهو كالجذوة ، وراقبتها أم الطفل فرأتها ذات مرة وهى تضعه فى النار فذعرت وانتزعته ، وبذلك حرمته ، على غير علم منها ، نعمة الخلود ، لأن النار التى كان يوضع فيها كل ليلة كانت هى التى تطهره من عناصر الفناء وتجعله بعد ذلك خالدا (٤) .

فمن هو الذى يقرأ هذا الذى كتبه هومير فى أسطورة ديميتر اليونانية ولا يرى فيه أثر الاقتباس من أسطورة إيزيس المصرية . فديميتر دعيت لتكون مربية لطفل الملكة ، كما دعيت إيزيس لتكون مربية لطفل الملكة . والطفل فى يد ديميتر لايتغذى باللبن ولا بالخبز ، كالطفل فى يد إيزيس كلما أرادت ارضاعه وضعت له إصبعه فى فمه . وديميتر تدهن للطفل جسمه بالعنبر ، كما دهنت إيزيس جوارى الملكة وشعورهن بالطيب . وأهم من هذا كله وأقوى أن ديميتر تضع الطفل فى النار بقصد أن تحرق ما فى جسمه من عناصر الفناء فيصير خالدا ، وإيزيس تفعل فى الطفل ذلك بعينه وللقصد عينه . وأم الطفل فى الأسطورتين تراقب المربية فتراها وهى تضعه فى النار فتنزعج وتنتزعه ، فتحرمه بذلك على غير علم منها نعمة الخلود .

لا جرم أن القصتين متشابهتان فى هذا الجانب منهما ، بحيث لايقبل العقل الا أن تكون واحدة منهما قد اقتبست من الأخرى ، ولما كانت الأسطورة المصرية أقدم من شعر هومير بقرون وقرون ، فلا نزاع فى أن هومير هو الذى اقتبس .

* * *

وقد تظن أن هذا الذى عرضناه عليك هنا هو كل ماوجده العلماء من أثر مصر فى شعر هومير ، فكلا ، واعلم إذن أن مورى وجد هذا الأثر أيضا فى إلياذته (٥) ، فعقد له فصلا خاصا من صفحة ٢٥١ الى صفحة ٢٧٣ من كتابه (Rois et Dieux d' Egypte) اثبت فيه أن كثيرا مما فى الألياذة مقتبس من قصص مصرية أو رسوم مصرية ، بكل ما فيها من الحوادث والتفصيلات والأوصاف ، كما رأينا فى قصة عوليس . واعلم ايضا أن عالما آخر يسمى هلبيج (Helbig) بحث هذا البحث نفسه ، وانتهى الى هذه النتيجة نفسها . ومن أراد فليرجع إليهما .

* * *

ولمصر اثر آخر فى المدلية اليونانية أثبته البحث فى

(١) (Déméter) هى من اكبر الالهة فى اليونان القديمة . وكانت تمثل الارض ، والقوى الطبيعية ، وتعتبر الهة للزراعة ، وحامية للزواج . وتلخيص اسطورتها ان لها بنتا تسمى كورى خطفها هاديس فجعلت تجوب الارض بحثا عنها ، فلما وصلت الى ارض فى اليونان تسمى ايلوزيس رحب بها ملكها فعلمته الزراعة ، وصارت هذه الارض مركزا لعبادتها .

(٢) الفقرة ٦٠ من كتاب (Isis et Osiris) الذى مر ذكره

(٣) ص ٦٠ من المصدر السابق .

(٤) راجع فى ذلك تعليق ماريو مونى (Mario Meunier) على الفقرة ١٦ ص ٦٥ من كتاب (Isis et Osiris) .

(٥) الالياذة هى مجموعة من الشعر قص فيها هومير حوادث حرب اليونانيين لمدينة طروادة ، وهى والأوذيسة تعتبران أرقى الشعر اليونانى القديم .

السنين الأخيرة أيضا وهو أوضح وأعم وأعمق بكثير مما وجدناه فى شعر هومير . وهذا الأثر الذى نريده هو ما اقتبسته ، أو قل ما نقلته الأساطير والديانات اليونانية من الأساطير والديانات المصرية . وقد أشرنا الى هذا من قبل فلا يفوتنا هنا أن عالما من عشاق المدنية اليونانية هو بول فوكار(Paul Foucart)(١) أثبت أن مايعرف فى الديانات اليونانية باسم « عبادة إيلوزيس » (Eleusis) (٢) ، ليس سوى عبادة إيزيس المصرية لابسة ثوبا يونانيا . وقد أقره على ذلك وأيده فيه ماسبيرو فى بحث عقده فى كتابه (Causeries d'Egypte) فى الصفحات من ٥٩ إلى ٦٩ .

ولا يفوتنا أيضا أن هذين العالمين أثبتا أن الاله اليونانى ديونيسوز (Dionysos) ليس سوى الاله المصرى أوزريس لابسا ثوبا يونانيا .

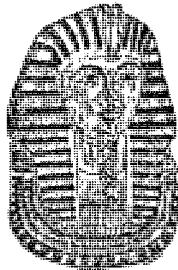
***

فأثر مصر فى المدنية اليونانية يتضح إذن على ضوء البحث العلمى شاملا كل مناحيها . وهو لم يكن معروفا الى سنين ولكنه الآن يبدو كلما ترجم العلماء أوراق بردى مصرية ، وكلما تعمقوا فى موازنة آثار مصر بآثار اليونان. ولهذا أخذ يتزعزع الاعتقاد القديم القائل بأن المدنية اليونانية أول عهد الانسان بالتفكير العلمى وأن المدنيات التى سبقتها لم تكن سوى فوضى فكرية لا تستحق أن يحسب لها حساب . ونقول « أخذ يتزعزع » ولا نقول انهدم ، لأنه لا يزال قائما ولا يزال قويا ، ولكن التصدع أخذ يدب فيه . ومن أعجب الأشياء أن عشاق المدنية اليونانية القديمة هم الذين يخرج منهم أمثال فبكتور بيرار وفوكار ، فيظهرون ما فى ذلك الاعتقاد من الزيف ، ويشهدون بالفضل السابغ لمصر على المدنية اليونانية .

وليس يمكن أن يحكم العقل والمنطق بغير هذا ، ونحن نعرف كما قلنا أن كثيرا من علماء اليونان تعلموا فى مصر ، وأن اليونانيين اختلطوا فى مستهل مدنيتهم بالمصريين حتى كانت لهم فى مصر المدن اليونانية وكان الجيش المصرى بعضه مصريا وبعضه يونانيا مأجورا . ليس يمكن أن يحكم العقل والمنطق بغير هذا ، وها هو ذا البحث العلمى يكشفه الآن يوما فيوما ، أفلا يكون مما يلفت النظر بعد ذلك أن يقرأ الانسان العلوم والآداب اليونانية فلا يجد فيها صدى لعلوم وآداب مصرية ، ولا ذكرا لعلماء وكتاب مصريين ... !!

(١) يصف معجم لاروس العالم فوكار بأنه عالم فرنسى من المحبين للمدنية اليونانية والمشتغلين بالآثار القديمة ، وقد ولد فى باريس فى سنة ١٨٣٦ .

(٢) هى عبادة كان طلابها يتلقونها فى معبد بالقرب من أثينا ، وكانت لها مواسم تحتفل بها فيها اليونان كلها .



قصة الغريق

بعد أن اشرنا فى البحث السابق إلى « قصة الغريق » المصرية وما اقتبسه هومير منها ، يحسن أن ننشر هنا ترجمة عربية لهذه القصة .

كان الذى عثر على هذه القصة هو الأستاذ جولنيشيف(١) المصرولوجى الروسى كما تقدم . وقد عثر عليها فى محفوظات الدير الامبراطورى فى بتروغراد فى سنة ١٨٨٠ . ولم يعرف أحد إلى الآن كيف وصلت إلى هذا الدير ، ولكنها وجدت فى محفوظاته فى ملف من البردى لم يكن قد فتح ، فلما فتحه جولنيشيف وجده مكتوبا بالخط الديموطيقى المصرى فترجمه إلى اللغة الفرنسية ، وأذاع خبره فى مؤتمر عقد للمستشرقين فى برلين سنة ١٨٨١ ، ثم طبع الترجمة ونشرها من غير أن ينشر النص الديموطيقى . وفى سنة ١٨٩١ عاد فترجمه مرة ثانية ، إلى اللغة الفرنسية أيضا ، ولكنه فى هذه المرة نشر الترجمة الجديدة ونشر معها النص الديموطيقى .

وهذه القصة هى إحدى القصص القليلة التى وجدت سليمة وكاملة . ويرى العلماء فى اللغة المصرية القديمة أنها وضعت فى عهد الأسرة الثانية عشرة .

وقد أخذ مورى بالترجمة الثانية التى وضعها جولنيشيف . وكان ماسبيرو قد أخذ بها هو أيضا فنقلها فى الطبعتين الأوليين من كتابه « القصص الشعبية لمصر القديمة »

(Les Contes Populaires de l'Anciens Egyptiens)

ولكنه لما طبع الطبعة الثالثة من كتابه هذا ، كان قد قرأ النص الديموطيقى الذى نشره جولنيشيف فوضع ترجمة نشرها فيه . وهى لا تختلف عن ترجمة جولنيشيف إلا فى مواضع قليلة والفاظ قليلة .

وهذه هى القصة :

قال الخادم الماهر :

ليطب قلبك يا رئيسي ، فقد وصلنا إلى الوطن ، وأخذ الرجال المطرقة ، ودقوا الوتد ، وجعلوا مؤخر السفينة حيال الشاطىء ، وهتفوا ، وصلوا للآلهة ، واخذوا يتعانقون . .

وقد عاد بحارتنا فى صحة جيدة ، ولم ينقص منا جندى واحد .

لقد وصلنا فى رحلتنا إلى آخر بلاد واوات (٢) ومررنا بسانمويت (٣) وعدنا الآن فى سلام ، ووصلنا إلى وطننا .

الق لى سمعك يا رئيسى ، فلست رجل حيلة . اغسل جسمك ، وصب الماء على أصابعك ، وصل ، ثم أفض بما فى قلبك للملك . واحرص على رباطة جأشك حينما تتكلم ، فانه إن كان لسان الرجل منقذه فقد يكون كلامه قاضيا عليه بأن يغطى وجهه (٤)

افعل ما يرشدك إليه قلبك ، وليكن ما تقوله أداة سلام لك .

سأقص عليك بالحق ما وقع لى أنا نفسى . كنت قاصدا إلى مناجم الملك فركبت البحر فى سفينة طولها مائة وخمسون ذراعا وعرضها أربعون ذراعا (٥) ومعى

(١) (M. Woldemar Golénicheff)

(٢) يقول ماسبيرو ان بلاد واوات هى التى كانت واقعة فيما وراء الشلال الثانى من بلاد النوبة .

(٣) سانمويت اسم يطلق على جزيرة فى النيل تسمى الآن بيجه ، وهى واقعة أمام جزيرة فيله عند الشلال الاول .

(٤) كانت العادة جارية بتغطية وجه المجرم المحكوم عليه بالعقاب، فالكاتب يريد أن يقول ان كلام الرجل قد يجعله من المجرمين الذين يقضى عليهم بتغطية وجوههم .

(٥) ان كان المقصود بالذراع هنا الذراع الملكى فطوله ٥٢ سم ، ويكون طول السفينة حوالى ٧٨ مترا وعرضها ٢١ مترا . ويرى ماسبيرو ان هذين القياسين مبالغ فيهما لان السفن التى ارسلتها الملكة حتشبسوت الى بلاد بونت لم يكن طول الواحدة منها يتجاوز ٢٢ مترا ، ولم يكن عدد الرجال فى كل واحدة منها يزيد على ٥٠ رجلا . ويظهر ان هذه المبالغة فى حجم السفينة وفى عدد رجالها مقصودة لان الامر امر قصة خرافية يجب ان يصاحبها التهويل .

مائة وخمسون من نخبة البحارة فى مصر . وكان هؤلاء البحارة قد عرفوا السماء ، وعرفوا الأرض ، وكان فى قلوبهم من البأس أكثر مما فى قلوب الأسود. ثم كانوا إلى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالاعصار قبل ثورانه (١) . وبينما نحن فى البحر هبت علينا العاصفة فجأة ، وكنا قريبين من الأرض فدفعت بنا الرياح نحوها ، وأثارت أمواجا كانت ترتفع إلى ثمانية أذرع . ورأيت على مقربة منى قطعة من الخشب فألقيت بنفسى عليها وركبتها . ومات كل الذين بقوا فى السفينة ولم ينج منهم أحد .

وقذفت بى موجة إلى جزيرة(٢) ، فقضيت فيها ثلاثة أيام لا رفيق لى فيها غير قلبى . ونمت فى غابة تشبه المخبأ فكان ظلها يحيط بى . ثم مددت ساقى أبحث عن شىء أضعه فى فمى فوجدت تينا ، وعنبا ، وكل أنواع الكراث الجميلة ، وبذورا ، وشماما هو من الكثرة حتى لكأنما يصنع صنعا (٣) ، ووجدت أسماكا وطيورا . وبالاجمال لم يكن شىء إلا وهو فى ذلك المكان . فأكلت حتى شبعت ، ثم وضعت على الأرض بعض ما كانت يداى تمتلئان به ، ثم حفرت حفرة وأشعلت نارا ، وجعلت القى فى النار مما هنالك ، قربانا يصل بواسطتها إلى الآلهة .

ولم أشعر بعد ذلك إلا وقد سمعت دويا كدوى الرعد ، فكشفت عن وجهى ، فرأيت ثعبانا هائلا يتقدم نحوى(٤) ، طوله ثلاثون ذراعا ، ولحيته يزيد طولها على ذراعين (٥) ، وجسمه مرصع بالذهب ، ولونه كلون اللازورد . ثم وقف هذا الثعبان أمامى ، وفتح فمه فى وجهى ، بينما كنت قد انطرحت على بطنى ، ثم تكلم فقال :

«من أتى بك ؟ من أتى بك ؟ أيها الصغير (٦) من أتى بك ؟ إن أنت تأخرت عن أن تقول لى من أتى بك إلى هذه الجزيرة فسأعرفك من أنت (٧) . فاما أن ألقيك فى النار فتختفى فيها ، أو تقول لى ما لم أسمعه ولم أعرفه قبل رؤيتك » .

ثم حملنى فى فمه ، ونقلنى إلى المكان الذى يقيم فيه ، من غير أن يصيبنى أذى . وكذلك انتقلت سليما معافى لم ينقص منى شىء .

ثم قال لى مرة أخرى :

« من أتى بك ؟ من أتى بك ؟ أيها الصغير من أتى بك إلى هذه الجزيرة التى تغوص شواطئها فى الأمواج ؟ » .

وكنت إذ ذاك منبطحا على بطنى ويداى مرسلتان أمامه فأجبته قائلا :

« أردت السفر إلى المناجم بأمر من الملك فركبت سفينة طولها مائة وخمسون ذراعا وعرضها أربعون ذراعا ، ومعى فيها مائة وخمسون من نخبة البحارة فى مصر . وكان هؤلاء البحارة قد عرفوا السماء وعرفوا الأرض ، وكان فى قلوبهم من البأس أكثر مما فى قلوب الأسود . ثم كانوا إلى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالاعصار قبل ثورانه. وكان كل واحد منهم أقوى من أخيه قلبا وذراعا . ولم يكن بينهم جبان . وبينما نحن فى البحر هبت علينا العاصفة

---

(١) فى الترجمة التى وضعها ماسبيرو : « وكان هؤلاء البحارة قد تنبأوا بأن لا عاصفة ولا نكبة » بدل « ثم كانوا الى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالاعصار قبل ثورانه » .

(٢) فى ترجمة ماسبيرو : « ولكن العاصفة هبت ونحن فى البحر ، وقبل أن ندرك الأرض . ثم اشتدت الريح فأثارت موجة ارتفعت الى ثمانية أذرع ، فنزعت لوحا من الخشب ، وهلك كل الذين كانوا فى السفينة . أما أنا فانى وصلت الى جزيرة بعد أن دفعتنى موجة اليها » .

(٣) كلمات « هو من الكثرة حتى لكأنما يصنع صنعا » ليست موجودة فى ترجمة ماسبيرو ، وانما الموجود فى مكانها « شماما من كل نوع » .

(٤) يلاحظ هنا أن هذا الثعبان لم يظهر الا بعد أن احرق السائح القربان فى النار ، مع أن السائح كان قد مكث قبل ذلك ثلاثة أيام . فكأنما احراق القربان هو الذى دعا الثعبان الى الظهور، مثل ذلك كمثل الاعمال السحرية التى لابد فيها من احراق البخور لأجل الاتصال بالقوى الخفية . وفى ترجمة ماسبيرو :

« ولم أشعر بعد ذلك الا وقد سمعت دويا ، فقلت فى نفسى = « هو ذا دوى موجة من أمواج البحر » ثم خفقت الاشجار ، وارتجت الأرض ، فكشفت عن وجهى فرأيت ثعبانا يتقدم نحوى » .

وقول السائح « كشفت من وجهى » معناه انه لم يدع شيئا يحجب نظره الى الأمام . أو لعل السائح كان قد غطى وجهه قبل ذلك ، ولكن ليس فى سياق القصة ما يدل على انه كان قد فعل .

(٥) كان من المألوف عند المصريين أن يجعلوا للآلهة لحى ، وأن يرسموا الملوك بلحى مستعارة متى أرادوا تصويرهم فى صورة الآلهة . فالمفهوم من قول السائح هنا ان الثعبان ذو لحية يزيد طولها على ذراعين أن هذا الثعبان اله .

(٦) فى ترجمة ماسبيرو توجد كلمة «التابع» بدل كلمة «الصغير»

(٧) علق ماسبيرو على هذه الجملة فقال انها تتردد كثيرا فى النصوص المصرية القديمة ، وأن المراد بها « سأعرفك عجزك من مقاومة قدرتى » . ونقول نحن ان هذا التعبير لا يزال مستعملا فى مصر بهذا المعنى الى اليوم .

نجاة ، وكنا قريبين من الأرض فدفعت بنا الرياح نحوها وأثارت أمواجا كانت ترتفع إلى ثمانية أذرع . ورأيت على مقربة منى قطعة من الخشب فألقيت بنفسى عليها وركبتها . ومات كل الذين بقوا فى السفينة ولم ينج منهم أحد . وقد انقضت على ثلاثة أيام ، والآن هأنذا قريب منك ، وأنا الذى دفعتنى موجة إلى هذه الجزيرة » .

فقال الثعبان :

« لا تخف شيئا ، لا تخف شيئا أيها الصغير ، ولا تدع الحزن ينتشر على وجهك . لقد وصلت إلى لأنه كتب لك أن تصل إلى هذه الجزيرة السعيدة(١) التى فيها كل شىء ، والتى هى مملوءة بالأشياء الطيبة . ستقيم هنا شهرا بعد شهر إلى أن تمضى أربعة أشهر ، ثم تأتى سفينة فيها بحارة عرفتهم ، وستسافر معهم ، وستموت فى مدينتك .

« إن مما يوجب ارتياحى أن أطلع رجلا عانى الآلام مثلك على ما هنا . فسأخبرك إذن بما فى هذه الجزيرة لا أنقص منه ولا أزيد .

« إننى أعيش فى هذه الجزيرة بين أخوتى وأبنائى . وعددنا خمسة وسبعون ثعبانا . وعدا ذلك توجد فتاة جاءتنى من طريق السحر ، وذلك أن نجمة سقطت ، فخرج منها الذين كانوا فى نارها ، وظهرت الفتاة من غير أن أكون مع الكائنات التى خرجت من النار أو بينها ، وإلا فلو أننى كنت مع هذه الكائنات أو بينها لمت . وقد وجدت الفتاة بعد ذلك ميتة وحدها(٢) .

« وبعد ، فأقول لك إنك إن كنت شجاعا ، وكان قلبك قويا فستضم إلى صدرك أولادك ، وستعانق امرأتك ، وسترى دارك ، وذلك خير من كل شىء . ستصل إلى بلادك ، وستكون فيها بين إخوانك » .

وحينئذ انبطحت أرضا على بطنى وقلت :

« دونك الآن ما أريد أن أفضى به إليك . سأصف أرواحك (٣) لفرعون ، وسأخبره بمجدك ، وسأجلب لك زيوتا مقدسة ، وطيبا ، ودهانا ، وصندوقا لذخائرك المقدسة ، وبخورا للمعابد مما يعجب كل إله . وسأقص على فرعون ما أتيح لى أن أراه هنا ، وسيعبدك الناس فى مدينتك بمحضر أعيان الأرض جميعا (٤) . وسأذبح لك ثيرانا ثم أحرقها فى النار . وسأخنق لك طيورا (٥) . وسأحضر لك سفنا مملوءة بكنوز من مصر ، كما يفعل الناس لإله محب لهم فى بلاد بعيدة لا يعرفونها » .

فضحك منى ومن كلامى ، ثم قال لى :

« ليس عندك مر كثير (٦) ، وكل لديك بخور . أما أنا فانى ملك بلاد بونت ، وعندى مر . والشىء القليل وحده فى هذه الجزيرة هو الزيت المقدس (٧) . على أنك متى فارقت هذه الجزيرة فلن تراها لأنها ستتحول إلى أمواج » .

فلما جاءت السفينة ، كما كان الثعبان قد أخبرنى ، صعدت فوق شجرة عالية وجعلت أرقب الذين فيها . ثم ذهبت إلى الثعبان وأبلغته الخبر فوجدته يعرفه ، وحينئذ قال لى :

---

(١) فى ترجمة ماسبيرو أن هذه الجزيرة تسمى « جزيرة الأرواح السعيدة » .

(٢) يعلق ماسبيرو على حكاية هذه النجمة فيرجح أن المقصود بها شهاب من الشهب التى تظهر فى الجو أو صاعقة . ويقول إن هذه هى الاشارة الوحيدة التى وجدت فى النصوص القديمة لمثل هذا المعنى .

ويقول ماسبيرو أيضا : ان النص الديموطيقى مبهم فى هذه النقطة وان جولنيشيف ترجمه على أن الفتاة ميتة لأن نار الشهاب أو الصاعقة احرقتها . ولكنه هو ـ أى ماسبيرو ـ يرى أن النص معناه أن الفتاة حية وان الثعبان لا يعرف كيف ولدت ، وقد رأى هذا الثعبان الشهاب حينما سقط ثم رأى النار التى اضطرمت بعد سقوطه فلم يقترب منها بل انتظر حتى خمدت ثم اقترب فوجد الفتاة بين الجثث من غير أن يعرف كيف جاءت .

(٣) كانت الأساطير تقول أن لكل اله سبعة أرواح .

(٤) المراد بالأرض جميعا مصر . ويلوح أن المراد بقوله « وسيعبدك الناس فى مدينتك » أن السائح يعد الثعبان بأن تكون له عبادة فى مصر ومدينة يعبد فيها كما كان رع يعبد فى هليوبوليس وبتاح فى ممفيس وتوت فى الأشمونين وامون فى طيبة ... الخ .

(٥) المراد بقوله « وسأخنق لك طيورا » انه سيقدم له قرابين من الطيور .

(٦) معروف أن نبات المر اذا احرق نشر رائحة زكية . وقد كان المصريون يجلبونه من بلاد بونت (التى يقال انها بلادالصومال كما يقال انها جنوب بلاد العرب) ليقدموا منه هدايا للآلهة .

(٧) ترجم ماسبيرو « الزيت المقدس » على انه «طيب التهليل» وقال انه يسمى « هاكاتو » ولم يعرف العلماء شيئا عن تركيبه ولكنهم يعرفون أنه واحد من زيوت سبعة كانت تقدم للآلهة ، وفى الحفلات الجنائزية .

« صحة جيدة ، صحة جيدة أيها الصغير حتى تصل إلى دارك . سترى أولادك . وليكن اسمك مذكورا بالخير فى مدينتك . تلك هى أمانى لك » .

فانبطحت على بطنى امامه ، وأرسلت يدى ، فأعطانى من الهدايا مرا ، وزيتا مقدسا ، ودهانا ، وصندوقا ، وفلفلا ، ومسحوقا ، وكحلا ، وسروا ، وبخورا ، وذيول حيتان ، وأنياب فيلة ، وكلابا سلوقية ، وقرودا ، وغير ذلك من كل ماهو ثمين(١) . فحملت هذه الهدايا إلى السفينة ، ثم انبطحت على بطنى وعبدت الثعبان ، فقال لى :

« ستصل إلى بلدك بعد شهرين ، وستضم أولادك إلى صدرك ، وبعد ذلك تمضى إلى قبرك لتجدد شبابك (٢) .

فسرت إلى الشاطىء حيث السفينة ، ودعوت الجنود الذين فيها ، وصليت على الشاطىء لسيد الجزيرة وللذين يقيمون فيها .

ولما عدنا إلى مدينة الملك جنحت السفينة وارتطم مقدمها بالساحل . ووصلنا إلى قصر الملك فى الشهر الثانى ، كما كان الثعبان قد تنبأ . فمثلت امام الملك وقدمت له الهدايا التى جلبتها من الجزيرة ، فشكرنى امام اعيان الأرض جميعا . ثم ادخلت خدمة الملك وصرت متصلا بكبار حاشيته .

والآن فخفض نظرك لى ، فقد عدت إلى ارض مصر ، بعد أن رأيت أشياء كثيرة ، ومرت بى محن كثيرة . اصغ إلى فان الاصغاء نافع . لقد قال لى فرعون « كن خادما بصيرا فطنا يا صديقى » ، فمن هو الذى يسقى الطير فى بكور اليوم الذى ينوى أن يذبحه فيه » (٣)

انتهت القصة من بدايتها إلى نهايتها كما وجدت مكتوبة . والذى كتبها هو الكاتب « أمونى ـ أماناوو » ذو الأصابع الماهرة ، له الحياة والصحة والقوة .

***

هذه هى قصة الغريق ، ويفهم من مقدمتها أنها رفعت من مرؤوس إلى رئيسه . ويقول الكاتب : « ليطب قلبك يا رئيسى فقد وصلنا إلى الوطن » ثم يقول : « أغسل جسمك ، وصب الماء على أصابعك ، وصل ، ثم افض بما فى قلبك للملك . واحرص على رباطة جأشك حينما تتكلم ، فانه إن كان لسان الرجل منقذه فقد يكون قاضيا عليه بأن يغطى وجهه » . فهل يفهم من ذلك أن الرئيس الذى رفعت إليه القصة كان مع مرؤوسه فى الرحلة التى يشير إليها فى قوله : « لقد وصلنا فى رحلتنا إلى آخر بلاد واوات ومررنا بسانموت وعدنا الآن فى سلام ؟ » أو هذا الرئيس لم يكن فى الرحلة ثم لما عاد المرؤوس وجب ان يقدم إليه تقريرا عما فعله ، كما يقدم الآن كل قائد بحرى تقريرا إلى وزير البحرية عن رحلة أمر بها فاداها وعاد منها ؟

ليس فى القصة جواب على هذا . وكل ما يفهم من المقدمة أن الرئيس الذى قدمت القصة إليه كان عليه أن يقابل الملك ، وان يتحدث إليه فى امر قد تكون فيه مؤاخذة له ، ولذلك يوصيه الكاتب بان يتطهر ويتشجع ويحرص على اجتناب الزلل فى الكلام . ويضيف الكاتب الى ذلك فى ختام قصته كلمة يطمئنه بها ، وهى قوله « لقد قال لى فرعون ، كن خادما بصيرا فطنا ياصديقى . فمن هو الذى يسقى الطير فى بكور اليوم الذى ينوى أن يذبحه فيه » .

أما القصة نفسها فهى من القصص الشعبية ، ومن الطبيعى أن تظهر فيها صور من الأساطير والعادات الدينية القديمة ، لأنها بغير ذلك تكون غريبة عن زمانها

(١) علق ماسبيرو على هذه الأنواع من الهدايا فقال انها هى بعينها التى جلبتها من بلاد بونت الحملة البحرية التى ارسلتها بعد ذلك الملكة حتشبسوت ، بحيث لا يوجد بين هذه وتلك الا اختلاف قليل .

(٢) الظاهر أن قوله « تمضى الى قبرك لتجدد شبابك » محمول على أن المصريين كانوا يعتقدون أن الموت ليس فناء للأنسان ، وانما هو انتقال من حياة الى أخرى . وكانوا يعتقدون أيضا أن الرجل الصالح يبعث فى الحياة الاخرى شابا . وقد تقدم هذا كله فى البحث الخاص بعقيدة الحساب بعد الموت .

(٣) علق ماسبيرو على قول الكاتب « فمن هو الذى يسقى الطير فى بكور اليوم الذى ينوى أن يذبحه فيه » فقال ان هذه ـ الجملة تقع فى الأذن كما يقع المثل فلعلها كانت مثلا مصريا . اما معناها فهو أن الرجل الذى يسقى طيره فى بكور النهار يدل بذلك على أنه لاينوى أن يذبحه فى هذا النهار نفسه ، واذن يكون للطير الذى سقى أن يطمئن فى نهاره كما يكون لكل رجل ناله خير من سيد قادر أن يطمئن الى هذا الخير والا يتوقع من ورائه شرا عاجلا من هذا السيد نفسه .

وبيئتها . ولكن من الخطأ أن يظن أنها وضعت للتعبير عن فكرة دينية معينة .

وقد كانت عامة المصريين تقبل على هذا النوع من القصص ، كما تقبل عليه الآن . ولذلك وجد فى قصص عدة ، بعضها يقص سياحات فى سوريا (١) ، وبعضها يقص رحلات فى البحر الأبيض المتوسط (٢)، وبعضها يقص رحلات فى النوبة (٣) ، ثم قصتنا هذه تقص رحلة فى البحر الأحمر .

وقبل أن تعرف هذه القصص كان الاعتقاد عاما بأن المصريين القدماء كانوا يكرهون ركوب البحر والخروج من بلادهم ، وكان الكتاب اليونانيون والرومانيون هم الذين أنشأوا هذا الاعتقاد ، لأنهم ادعوا هذه الدعوى ثم غالوا فيها فزعموا أن المصريين كانوا يستأجرون بحارة فينيقيين لسفنهم كلما أرادوا أن تشق سفينة لهم عرض البحر أو أن يقاتلوا اعداء لهم فى البحر . فلما عرفت هذه القصص ، كان فيها وفى النقوش التى وجدت فى المعابد ، تكذيب كاف لتلك الدعوى . إذ السائح الغريق هنا مصرى ، والأبطال فى قصص الرحلات الأخرى مصريون جميعا ، وهم يقصون حوادث لايختلف اثنان فى أنها مصرية ، بروحها وأساطيرها وما تشتمل عليه من العادات والتقاليد .

وقد كان عجيبا حقا أن تقع مصر على البحر الأبيض من ناحية والبحر الأحمر من ناحية أخرى ، ثم يكره أهلها ركوب الماء . وكان عجيبا أيضا أن تستهدف مصر لغزوات جيرانها الطامعين فى خيراتها ، فى مدى اربعة آلاف سنة أو تزيد ، ثم يجهل اهلها بلاد هؤلاء الجيران . نعم كان هذا عجيبا ، ولكن الكتاب اليونانيين والرومانيين قالوه ، واكدوه ، الى أن كذبتهم النقوش التى فكت رموزها ثم جاءت القصص فهدمت زعمهم من أساسه ودلت على أن الرحلات فى البحار وفى البلاد المجاورة كانت بعض ماشغف به المصريون .

* * *

(١) منها قصة « سينوهيت » (سنوحى) التى وقعت حوادثها فى زمن الاسرة الثانية عشرة .

(٢) منها قصة « اونامونو » ورحلته الى ببلوس .

(٣) منها قصص مختلفة لأمراء ايلفنتين ورحلاتهم فى النوبة .

وتنتهى القصة بالعبارة الآتية :

« انتهت القصة من بدايتها الى نهايتها كما وجدت مكتوبة . والذى كتبها هو الكاتب « امونى ـ اماناوو » ذو الأصابع الماهرة ، له الحياه والصحة والقوة » .

فهل « امونى ـ اماناوو » هذا هو واضع القصة، او هو نساخ وجدها مكتوبة فنسخها ؟

إن قوله « كما وجدت مكتوبة » قد يشير الى انه ليس سوى نساخ ، ولكن قوله « والذى كتبها هو امونى ـ اماناوو » قد يكون معناه أن هذا الأخير هو الذى وضعها وان النساخ شخص آخر لم يذكر اسمه .

* * *

والقصة ساذجة كما رايت ، ولعلها كانت فى لغتها الأصلية تكسب قوة من حسن انتقاء الألفاظ والبراعة فى التعبير . ولكن هذه القوة تضيع كلها فى الترجمة ، وخاصة إذا كان المترجم قصة وضعت منذ اربعة آلاف سنة ، لعصر غير عصرنا ، وبيئة غير بيئتنا ، وتقاليد غير تقاليدنا ، وعقلية غير عقليتنا . إذ مما لاشك فيه أن العصر والبيئة والتقاليد والعقلية تضفى على الكتابة قوة خاصة تبقى ببقائها ، فاذا زالت ، صارت الكتابة ، التى كانت تشبه الشجرة الحية المورقة ذات الزهر اليانع ، كأنها خشب جاف لا ورق فيه ولا زهر ولا حياة .

وللكاتب مع ذلك عذر فى سذاجة قصته ، هو انه كان يكتب فى وقت كان العقل الانسانى فيه يخطو خطواته الأولى فى سبيل التفتح ، ومن الظلم أن يطلب من كاتب هذا شأنه أن يكون ككاتب يكتب فى وقتنا هذا .

على أن الفكرة الأساسية فى القصة ، وهى الرحلة فى البحر ثم الاشراف على الغرق ، ثم النجاة إلى جزيرة أو أرض ذات عجائب ، ثم العودة إلى الوطن بعد مكابدة هذه العجائب ، نقول إن هذه الفكرة انتقلت بعد ذلك إلى الأدب العربى على يد كاتب مصرى ، كان هو الذى وضع قصة « السندباد

البحرى » فى قصص « الف ليلة وليلة » . فمصرىّ إذن هو الذى وضع فى الأدب المصرى القديم « قصة الفريق » ، ومصرى أيضا هو الذى وضع بعد ذلك فى الأدب العربى قصة « السندباد البحرى » .

ولم تقف الفكرة عند هذين الأدبين ، بل انتقلت إلى الأدب الانجليزى ، فى قصص نعـــرف باسم « روبنصون كروزو » (١) .

* * *

ويلاحظ فى اسلوب الكاتب المصرى أنه قص قصة السفر والاشراف على الغـــرق والنجاة الى الجزيرة ، ثم لما طلب الثعبان من السائح أن يخبـره من أين جاء وكيف جاء ، وشرع هذا السائح يجيب ، قص القصة نفسها ، بالفاظها ، مرة ثانية فقال :

« أردت السفر الى المناجم بأمر من الملك ، فركبت سفينة طولها مائة وخمسون ذراعا ، وعرضهـــا اربعون ذراعا ، ومعى فيها مائة وخمسون من نخبة البحارة فى مصر . وكان هؤلاء البحارة قد عرفوا السـمـاء ، وعرفوا الأرض ... الخ » .

وهذا هو بعينه ولفظه ما كان قد قصه من قبل، لا يختلف عنه إلا فى كلمات قليلة . وكان أولى لو أنه استغنى عن هذا التكرار المبتذل بجملة موجزة يقول فيها : إنه اجاب الثعبان فأخبره بكل ما كان من امره . غير أن هذا التكرار الذى يراه كتاب اليوم مبتذلا ، كان سائغا منذ اربعة آلاف عام . وقد استعمل أكثر من مرة فى قصة « الملك خوفو والسحرة » (٢) ، وفى قصص أخرى . ولم يكن هذا الأسلوب مستعملا فى مصر وحدها ، بل كان مستعملا فى غيرها من البلاد أيضا ، وقد جاءت التوراة بعد « قصـــة الغريق » بأكثر من الف سـنة فلم يستطع الذين كتبوها أن يتخلصوا من اسلوب التكرار ، ونسوق هنــا امثـلة تدل عليه .

ففى الاصحاح الســادس عشر من « ســـفر القضاة » حكاية عن شمشون ودليلة ، ما يأتى :

« وكان بعـــد ذلك أنه (شمشون) أحب امرأة فى وادى سورق تسمى دليلة . فصعد إليها اقطاب الفلسطينيين وقالوا لها : تملقيه وانظرى بماذا قوته العظيمة ، وبماذا نتمكن منه لكى نوثقه لاذلاله ... فقالت دليلة لشمشون : أخبرنى بماذا قوتك العظيمـة ، وبماذا توثق لاذلالك ؟ » .

فهنا كررت على لسان دليـلة لشمشون نفس الألفاظ التى قالها أقطاب الفلسطينيين لدليلة . ثم استمر كاتب السفر فقال :

« فقال لها شمشون : إذا أوثقونى بسبعة أوتار طرية لم تجف أضعف وأصير كواحد من الناس . فأصعد لها أقطاب الفلسطينيين سبعة أوتار طرية لم تجف فأوثقته بها والكمين لابث عندها فى الحجرة . فقالت له : الفلسطينيون عليك ياشمشون . فقطع الأوتار ... فقـالت دليلة لشمشون : قد ختلتنى وكلمتنى بالكذب، فأخبرنى الآن بماذا توثق ؟ فقال لها : إذا أوثقونى بحبال جديدة لم تستعمل أضعف وأصـير كواحد من الناس . فأخذت دليلة حبالا جديدة وأوثقته بها ، وقالت له : الفلسطينيون عليك ياشمشون . والكمين لابث فى الحجرة . فقطعها عن ذراعيه كخيط . فقالت له دليلة : حتى الآن ختلتنى وكلمتنى بالكذب ، فأخبرنى بماذا توثق ؟ فقال لها : اذا ضفرت سبع خصل رأسى مـع السدى فمكنتها بالوتد وقالت له : الفلسطينيون عليك ياشمشون . فانتبه من نومه وقلع وتد النسج والسدى . فقالت : كيف تقول أحبك وقلبـك ليس معى . هو ذا ثلاث مرات قد ختلتنى ولم تخبرنى بمـاذا قوتك العظيمـة ... الخ » .

ففى هذه الأسطر القليلة من القصة كرر شمشون غير مرة قوله « أضعف واصير كواحد من الناس » . وكررت دليلة غير مرة أيضا قولهـــا « قد ختلتنى وكلمتنى بالكذب ، فأخبرنى بماذا توثق » ، ثم قولها « بماذا قوتك العظيمة » ، ثم قولها « الفلسطينيون عليك ياشمشون » .

(١) (Robinson Crusoe)

(٢) موضـوع هذه القصـة ان الملك خوفو دعا أولاده وطلب ان يقص عليه كل واحد منهم اعجب ماعرفه او سمع به من أعمال السحر والحكمة ، فأجابوا وقصوا اشياء كثيرة .

وفى الاصحاح الخامس من سفر أستير ما يأتى :

« وفى اليوم الثالث لبست أستير ثيابا ملكية ... والملك جالس على كرسى ملكه فى بيت الملك مقابل داخل البيت . فلما رأى الملك أستير الملكة واقفة فى الدار نالت نعمة فى عينيه . فمد الملك لاستير قضيب الذهب بيده ، فدنت أستير ولمست رأس القضيب . فقال لها الملك : ما لك يا أستير الملكة ما هى طلبتك . إلى نصف المملكة تعطى لك ؟ فقالت أستير : إن حسن عند الملك فليأت الملك وهامان إلى الوليمة التى عملتها له . فقال الملك : اسرعوا بهامان . ليفعل كلام أستير . فأتى الملك وهامان إلى الوليمة التى عملتها أستير . فقال الملك لأستير عند شرب الخمر : ما هو سؤلك فيعطى لك وما هى طلبتك . إلى نصف المملكة تقضى ؟ فأجابت أستير وقالت : إن سؤلى وطلبتى إن وجدت نعمة فى عينى الملك وإذا حسن عند الملك أن يعطى سؤلى وتقضى طلبتى أن يأتى الملك وهامان إلى الوليمة التى أعملها لهما ، وغدا افعل حسب أمر الملك » .

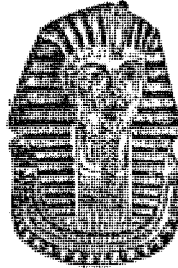
ففى هذه الأسطر من تكرار الألفاظ ما يستطيع القارىء أن يتبينه بسهولة .

وفى الاصحاح السابع من هذا السفر نفسه ما يأتى :

« فجاء الملك وهامان ليشربا عند أستير الملكة . فقال الملك لاستير فى اليوم الثانى أيضا عند شرب الخمر : ما هو سؤلك يا أستير فيعطى لك ، وما هى طلبتك . ولو إلى نصف المملكة تقضى ؟ فأجابت أستير الملكة وقالت : إن كنت قد وجدت نعمة فى عينيك أيها الملك وإذا حسن عند الملك ، فلتعط لى نفسى بسؤلى وشعبى بطلبتى ... الخ » .

وهنا أيضا تكرار لنفس الالفاظ التى مرت فى الاصحاح الخامس . وقصص التوراة مشحونة بكثير من هذا النوع من التكرار .

والذى يوازن أسلوب الكاتب المصرى فى التكرار بأسلوب التوراة ، يحكم للأول بأنه لم يلجأ إلى التكرار إلا فى موضع واحد من قصته بينما أسلوب التوراة يكثر منه فى كثير من المواضع حتى لتكاد كلمات بعينها تتكرر كلما مضت أسطر تعد على الأصابع .



رسائل سياسية وغير سياسية
في عهد الأسرة الثامنة عشرة

في سنة ١٨٧٧ كان جماعة من أهالى قرية الحاج قنديل يحفرون فى تل العمارنة ، او قرية بنى عامر، ليبحثوا عن طوب وحجارة لمساكنهم . وكان أهل هذه القرية وأهل القرى المجاورة لها قد ألفوا من ازمنة بعيدة أن يلتمسوا فى تل العمارنة هذا مايريدونه من سماد لحقولهم وأدوات لمبانيهم . فبينما كان اصحابنا هؤلاء يهدمون جدارا سميكا وينقضونه حجرا حجرا اذا بفؤوسهم تعثر فى جوانبه على قوالب من الطوب سليمة ، فتناول واحد منهم قالبا ونظفه من التراب المتراكم عليه ، فما أشد مادهش اذ رأى عليه نقوشا تملأ جانبيه وتنتظمها صفوف لا عوج فيها ولا انقطاع . فعرض الأمر على زملائه فنظفوا هم أيضا قوالب أخرى فظهر لهم فيها مثل ماظهر لزميلهم من النقوش ، وظهر الى جانب ذلك أن من الطوب ماهو أسود ومنه ماهو أصفر ومنه ماهو احمر . فلم يبق لديهم شك فى أنهم عثروا على لقية من اللقى الأثرية التى يزدحم بها جوف الأرض فى مصر . فعادوا يحفرون ، ولكن بحذر واحتياط فى هذه المرة ، فوجدوا حفرتين عميقتين صفت فيهما قوالب من ذلك الطوب الملون المنقوش ، وكانت حميرهم تنتظرهم فلم يحملوا عليها مواد البناء التى جاءوا فى طلبها ، بل حملوا تلك القوالب وعادوا الى قريتهم غانمين فرحين .

ولم تمض على ذلك أيام حتى كانت هذه القوالب قد انتقلت من ايدى أصحابنا هؤلاء الى ايدى تجار الآثار فى أخميم والأقصر والقاهرة . ثم وصل خبرها الى مدير مصلحة الآثار المصرية حينذاك مسيو جريبو والى مدير المدرسة الفرنسية فى القاهرة مسيو نورمان، فاشتريا بعضا منها وأخذا يفحصان النقوش التى عليها ، فلم يستطيعا قراءتها ولكنهما ادركا أنها تشبه الخط المسمارى ، خط الكتابة البابلية القديمة ولم يفهما كيف يمكن أن يوجد مستودع لكتابات بهذا الخط فى مصر . ثم أرسلا ما اشترياه من الطوب إلى عالمين خبيرين بالخط المسمارى هما الأستاذ اوبير فى باريس والاستاذ سايس فى لندن ، فلم يجد هذان العالمان مناصا من القول بأن الكتابة بابلية .

ولكن الخبر لم يكد يذاع حتى قوبل بالدهشة فى جميع الدوائر العلمية ، ثم تحولت الدهشة إلى ريبة ، والريبة الى سخرية وإنكار ، وخرج العلماء من هذا كله بأن قالوا : إن مازحا غشاشا أراد أن يضحك منهم ومن الناس كافة فصنع الطوب ونقش عليه مانقش ثم وضعه فى تل العمارنة ليداعب به الفلاحين المصريين أولا ، وتجار العاديات المصرية ثانيا ، والعلماء أخيرا .

وهكذا أنكر العلماء طوب تل العمارنة ، وانكروا أن يوجد طوب بابلى فى مصر على صورة من الصور .

ولكن قوالب هذا الطوب كانت كثيرة ، وقد اخذت كثرتها هذه تظهر شيئا فشيئا ، فلم يكن بد من أن يبدو غريبا أن يكون ذلك المازح الغشاش الذى نقش الطوب ودفنه فى خرائب تل العمارنة كلف نفسه كل هذه المشقة لغير غرض سوى الغش والمزاح .

وعندئذ اخذ الشك يعلق بذلك الانكار . ثم ازداد الشك حينما قيل : إن قوالب الطوب ليست خمسين او ستين بل قد يبلغ عددها بضعة الوف (سيأتى أن عددها الصحيح كان ستمائة تلف منها فى أيدى العلماء ثلثمائة) . وحينئذ اشترت متاحف مصر ولندن وبرلين وفينا قليلا منها ، واشترى بقيتها طبيب كان معروفا فى الاسكندرية يسمى دانينوس باشا وجامع آثار قديمة كان يسمى جراف . وعرف متحف برلين قيمة هذه القوالب ، وعلم أن جراف ودانينوس باشا لايكرهان أن يبيعا مالديهما فاشتراه منهما . وأكب العلماء على قوالب الطوب يحاولون قراءة مافيها ، ففى أبريل سنة ١٨٨٨ قرأ سايس

الذى تقدم ذكره أسماء لملوك بابليين وحكام سوريين.
وقفى على أثره عالم ألمانى من كبار العلماء فى المصرولوجيا هو ادولف إرمان الذى ذكرناه فى بحوث سابقة فقرأ اسم الفرعون أمينوفيس الثالث والفرعون أمينوفيس الرابع مكتوبين بالخط المسمارى . ثم تضافر أربعة من العلماء هم الأستاذ أبيل (١) ،والأستاذ ونكلير (٢) فى برلين ، والأستاذ بيزولد (٣) ، والأستاذ بودج (٤) فى لندن ، على طبع صورة النقوش التى على الطوب وإذاعتها فى جميع الدوائر العلمية لتكون فى متناول كل من يعرف شيئا من الخط المسمارى.
واستطاع عالم فرنسى بعد ذلك هو الاستاذ هاليفى(٥) ، أن يضع ترجمة لمجموعة كبيرة من هذه النقوش باللغة الفرنسية ، فكانت ترجمة يتخللها النقص فى مواضع ، والخطأ فى مواضع ، ولكنها كانت أول محاولة أعطت فكرة عامة عن القوالب وما فيها . وحينئذ عرف أن هذه القوالب تحوى رسائل سياسية بين فراعنة مصر من جانب وملوك بابل وآسيا الصغرى وحكام سوريا من جانب آخر ، ووضح فى الوقت نفسه أن هذه الرسائل أقدم مكاتبات سياسية يعرفها العالم ، وأن فيها من البيانات ما يكشف عن العلاقات التى كانت بين مصر وجيرانها فى عهد الأسرة الثامنة عشرة اى فى حدود الف وخمسمائة سنة قبل الميلاد ، فهى لهذا تعد فى الطبقة الأولى بين الوثائق التاريخية .

* * *

والآن يحسن بنا ، قبل المضى الى الأمام فى درس هذه الرسائل السياسية ، أن نقول ما هو تل العمارنة الذى وجد فيه ذلك الطوب .

فتل العمارنة هو اسم يطلق على خرائب تقوم بالقرب منها الآن قرية صغيرة تسمى قرية بنى عامر على الشاطىء الشرقى من النيل فى الطرف الشمالى من مديرية أسيوط بين ملوى وديروط . وهذه الخرائب هى بقايا مدينة قديمة كان الملك أمينوفيس

(١) (Abel) .
(٢) (Winckler) .
(٣) (Bezold) .
(٤) (Budge) .
(٥) (Halévy) .

الرابع قد أسسها وسماها « خوتاتون » — أى أفق قرص الشمس — وانتقل من طيبة إليها وجعلها عاصمة الامبراطورية المصرية (١) ، بعد أن ثار على عبادة المعبود أمون وأقفل معابده وشتت كهنته ودعا إلى عبادة « أتون » — اى قرص الشمس — وسمى نفسه « ايخون أتون » ، أى « قرص الشمس مغتبط » ، ويسميه كثير من كتاب التاريخ المصرى « اخناتون » على سبيل التخفيف .

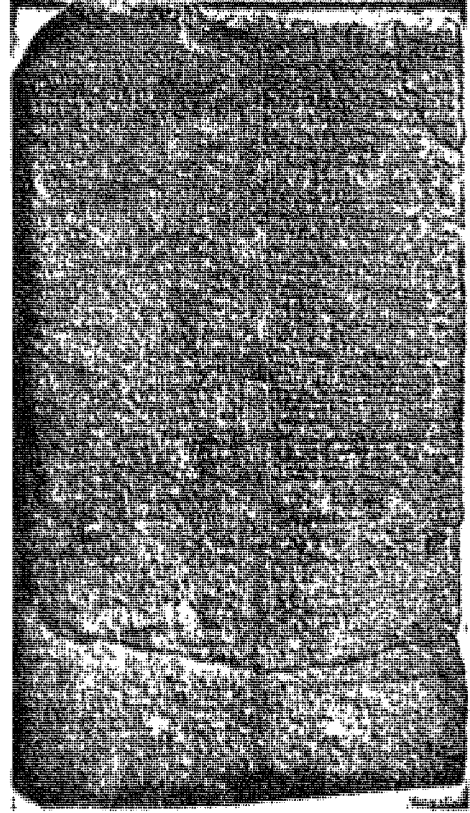
وليس المقام هنا مقام شرح هذه الثورة والأسباب التى دعت إليها . وانما يكفى أن نقول انها أول ثورة كبيرة على الكهنة وعلى المعتقدات الدينية التى كانت فاشية فى ذلك الوقت ، وإن من أكبر الأسباب التى حملت امينوفيس الرابع عليها رؤيته نفوذ الكهنة يطغى على نفوذ الفراعنة ورؤيته الأموال التى تجبى للكهنة باسم المعابد والمعبودات تطغى على الأموال التى تجبى لخزانة الدولة . ويضاف الى ذلك أن صيرورة مصر امبراطورية يمتد حكمها الى شعوب مختلفة فى النوبة والسودان من ناحية ، وفى فلسطين وسوريا وسواحل الفرات وآسيا الصغرى من ناحية ثانية ، وفى الجزر المنتشرة فى الجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط من ناحية ثالثة . هذه الامبراطورية لا يلائمها أن تتعدد فيها المعتقدات الدينية وتتعدد المعبودات ، بل الذى يلائمها ويوحد هواها جميعا هو أن يكون لها معتقد دينى واحد ومعبود واحد ، ولم يكن هذا المعبود فى نظر امينوفيس الرابع غير الشمس لأنها ترسل النور والحرارة والحياة الى جميع انحاء

(١) كانت مصر فى ذلك العهد امبراطورية تمتد من الشلال الرابع فى السودان الى ماوراء الفرات والى المنطقة التى تعرف الآن باسم لواء الاسكندرونة فى آسيا الصغرى ، ثم الى أرخبيل ايجيه فى البحر الابيض المتوسط . وقد وجدت فى بعض القصور فى جزيرة كريت وفى بلاد اليونان أختام باسم الملكة تى يى والدة أمينوفيس الرابع وزوجة أبيه الملك أمينوفيس الثالث ، ففتح ذلك بابا للقول بأن حكم مصر امتد فى ذلك العهد الى كريت والى سواحل اليونان ، ولكن هذا القول لا يزال محتاجا الى ادلة اخرى وان يكن من المؤكد أن نفوذ مصر الادبى والتجارى كان شائعا اذ ذاك فى كريت وفى اليونان .
وهذه البلاد التى ذكرناها هناهى التى كانت مصر تحكمها حكما مباشرا ، وعدا ذلك كانت توجد بلاد أخرى فى آسيا الصغرى ترتبط مع مصر بمعاهدات تشبه معاهدات الحماية .



الامبراطورية المصرية فى آسيا

يجمع العلماء على أن الامبراطورية التى أنشأتها مصر فى عهد الأسرة الثامنة عشرة هى أولى الامبراطوريات فى العالم كله . وكانت تمتد من الشلال الرابع فى النوبة ، أو من خلفه بقليل ، الى ما وراء نهر الفرات . وكانت تدخل تحت حمايتها مملكةالازيا ومملكة ميتانى ومملكة نحارينا . ثم كانت مملكة اشوريا ومملكة كاردنياش (أو مملكة الكلدان) تعيشان فى ظل الصداقة معها وتقديم الهدايا لفرعون . ثم كانت هـذه الامبراطورية تبسط جناحها على الجزر المنتشرة فى الجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط الذى كان يسمى البحر الأخضر الكبير . وكانت مملكة خيتاس ، واهلها هم الذين تسميهم التوراة الحيثيين ، هى التى عقدت مع رمسيس الثانى معاهدة صـداقة وتحالف بعد حرب طويلة . وتبين الخريطة الجزء الأسيوى من الامبراطورية المصرية ، وهذا الجزء هو الذى تبادل ملوكه وحكامه رسائل تل العمارنة مع أمينوفيس الثالث وأمينوفيس الرابع ».



رسالة من رسائل تل العمارنة . وهى تحتوى على تفصيلات مهر الأميرة تادوخيبا بنت دوشراتا ملك ميتانى وقد تزوجها الملك أمينوفيس الثالث

العالم ، فهى لهذا جديرة بأن تكون معبودا للشعوب جميعا .

ولما أنشأ أمينوفيس الرابع أو أخناتون مدينة خوتاتون ونقل اليها عاصمة الملك ، أنشأ فيها القصور والمعابد . ثم انتقل اليها معه رجال الدولة فبنوا فيها هم أيضا قصورا لأنفسهم ، ولم تمض سنوات تعد على الأصابع حتى صارت خوتاتون تضارع طيبة فى عظمتها وجمالها . وكانت فى طيبة دار تحفظ فيها المراسلات الخارجية فبنيت فى خوتاتون دار لهذا الغرض ملحقة بقصر الملك ونقلت إليها المراسلات التى كانت محفوظة فى طيبة .

وهذه الدار هى بعينها التى أدى الاتفاق بمعاول الفلاحين من أهالى قرية الحاج قنديل الى أن تعمل فيها فى سنة ١٨٧٧ ، وذلك الجدار السميك الذى عثر به أولئك الفلاحون وجعلوا ينقضونه حجرا حجرا ليأخذوا منه مايصلح لمبانيهم ، لم يكن شيئا سوى سور قصر الملك محيطا بالقصر وبالدار ، وذلك الطوب الذى عثروا عليه وأدركوا بغريزتهم أنه لقية اثرية لم يكن شيئا غير كتب كبها ملوك بابل وآسيا الصغرى وحكام سوريا وفلسطين الى فراعنة مصر .

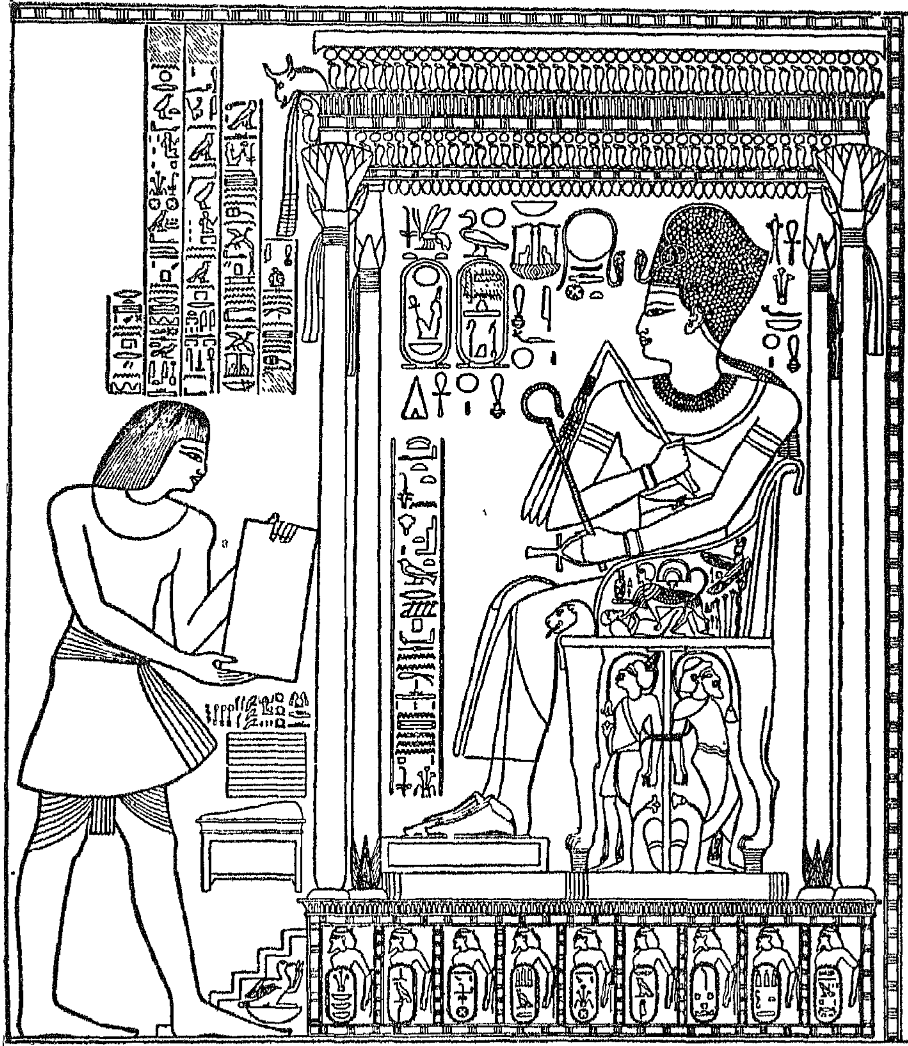
وبعبارة أخرى ان المنطقة التى وجد فيها الطوب كانت دارا مخصصة لمحفوظات وزارة الخارجية المصرية . وسيأتى أن الرسائل التى اشتمل عليها هذا الطوب دلت على أنه كان لهذه الدار موظفون يتولون إدارتها وتنظيم الرسائل فيها بحيث يسهل عليهم الرجوع الى مايريدون الرجوع اليه فيها . وكان من هؤلاء الموظفين مترجمون يعرفون اللغة البابلية وخطها المسمارى ، ومترجمون آخرون يعرفون لغات أخرى ليكونوا جميعا مستعدين لترجمة أية رسالة تتلقاها وزارة الخارجية المصرية وللاجابة عليها .

ومتى عرفنا هذا لايسعنا إلا أن نأسف لأن الطوب الموجود الآن — وهو كما قلنا موزع بين متاحف مصر وبرلين ولندن وباريس وفينا — ليس سوى نصف الطوب الذى عثر عليه الفلاحون فى تل العمارنة . أما نصفه الآخر فقد هلك فى أيدى العلماء حينما كانوا يرفضون أن يعترفوا له بقيمة أثرية وكانوا يقولون إنه تزوير مزور ومزح مازح . فقد كان عدد القوالب التى وجدها الفلاحون يقرب من ستمائة فلم يبق منها غير ما يقرب من ثلاثمائة . والله وحده يعلم أية خسارة خسرها التاريخ بهلاك هذه القوالب . والله وحده يعلم أيضا أية فائدة كان التاريخ يستفيدها لو أن محفوظات وزارة الخارجية الفرعونية وجدت سليمة كلها ولم تعد عليها عوادى الندمى منذ هجرت مدينة خوتاتون أى منذ ٣٤ قرنا .

* * *

ترجم علماء اللغة البابلية القديمة جميع الرسائل التى احتواها طوب تل العمارنة فبان فى الحال أنها ليست رسائل متفرقة بغير نظام ولا تتابع . بل هى رسائل متتابعة كانت منظمة فى مستودعها على أساس هذا التتابع . فمنها ٦ رسائل من ملك بابل و٩ من

من آيات الصانع المصري



الملك أمينوفيس الثالث

الملك أمينوفيس الثالث جالسا على عرشه ، وفى يده الصولجان والسوط وقد تقدم له وزيره ببيان الجزيات التى جاءت من بلاد كوش (النوبة) ونحارينا وبلاد أسيوية أخرى خاضعة لمصر . ويلاحظ أن العرش الذى يجلس عليه أمينوفيس الثالث مرسوم على جانبه أسيران أسيويان مشدودان بحبل ، وفى أسفل قاعدته تسعة أسرى أسيويين شد كل منهم إلى حبل خلفه وكتب اسم بلده على صدره .

وتشير امثال هذه الرسوم إلى البلاد التى كانت تحكمها مصر فى آسيا والتى كانت تؤدى الجزية لأمينوفيس الثالث .

ملك الازيا(١)، و٤ من ملك ميتانى(٢)، و٤٦ من حاكم من حكام سوريا يسمى ريب أدى(٣)، ونحو مائة رسالة أخرى من حاكم لمدينة أورشليم (القدس الآن) يسمى أرادهيبا (٤) ،وحاكم لمدينة فى سوريا يسمى أزيرو (٥)، ومن غيرهما من الحكام فى سوريا وفلسطين . وهذه الرسائل كلها موجهة الى فرعونين اثنين هما : أمينو فيس الثالث وأمينو فيس الرابع . ويقدر العلماء المدة التى كتبت فيها هذه الرسائل بخمس عشرة سنة أو عشرين سنة (٦) .

ويرى من هذا البيان أن ملوك بابل وملوك آسيا الصغرى وحكام سوريا وفلسطين ، كانوا فى ذلك الوقت يكاتبون فراعنة مصر بالخط المسمارى البابلى لا بالخط المصرى . وأنهم كانوا جميعا يستخدمون فى كتابتهم قوالب الطوب لا الورق الذى كان المصريون يكتبون عليه . ومعنى هذا أن الرسول الذى كان كل واحد من اولئك الملوك والحكام يرسله برسالة الى مصر كان يسير بحمولة من الطوب ثقيلة ولكنه متى عاد بالجواب بعد ذلك لم يكن يحمل إلا ورقة مطوية فى قمطر .

ويحسن بنا هنا أن نقول إن مملكة بابل كانت قد غزت سوريا قبل أن تغزوها مصر بأجيال . ولهذا انتشرت فيها العادات البابلية واللغة البابلية والخط البابلى ، فلما غزاها المصريون بعد ذلك — أى بعد طرد الهكسوس — اكتفوا بأن تخضع لهم وأن تؤدى لهم الجزية ، ولم يحاولوا أن يفرضوا عليها لغتهم ولا عاداتهم ولا تقاليدهم ولا ملابسهم ، بل تركوا لأهلها وللممالك المجاورة لهم أن يأخذوا من حضارتهم مايريدون ويتركوا مايريدون . وبعبارة أخرى إنهم تركوا حضارتهم تؤثر فيهم وفى غيرهم تأثيرها الطبيعى من غير ان يحملوهم على اقتباسها كرها . وقد أثرت فيهم هذه الحضارة مع الزمن تأثيرا عميقا ، ولكنها فى الوقت الذى كتبت فيه الرسائل التى نحن فى صددها هنا لم تكن قد حملتهم بعد على استبدال الكتابة المصرية بالكتابة البابلية ، واستبدال الكتابة على الورق بالكتابة على الطوب ، على الرغم مما فى ذلك من اليسر والسهولة .

وإنما اقتبست شعوب سوريا وآسيا الصغرى الكتابة على ورق البردى المصرى بعد ذلك بنحو مائة وعشرين سنة ، أى فى عهد رمسيس الثالث مؤسس الأسرة العشرين .

وكل من يقرأ تواريخ الأمم التى عاصرت الحضارة المصرية فى نشأتها ، أو التى ظهرت بعد دخول المدنية المصرية فى سن الشيخوخة ، ثم يزن مسلك هذه الأمم مع الشعوب المغلوبة لها بمسلك المصريين هذا مع الشعوب المغلوبة لهم ، لايسعه إلا أن يعترف بأن الحكم المصرى كان حكم سياسة ولين بينما كان حكم الأمم الأخرى حكم قسوة تبلغ حد الوحشية . فالأشوريون مثلا — وهم لم يظهر لهم سلطان الا بعد دخول الحضارة المصرية فى سن الشيخوخة — لم يكونوا يعدون للأسرى فى الحرب غير القتل مع التمثيل ، وكان من المألوف عندهم أن يعلقوا الأسرى عشرات عشرات فى خوازيق فى ميدان القتال على مرأى من أعدائهم ليوقعوا الرعب فى قلوبهم ، فى حين كان المصريون يمتنعون عن قتل الاسير (٧) ، ولم يعرف عنهم أنهم قتلوا أسرى الا فى

---

(١) الازيا (Alasya) هى مملكة كانت توجد فى المنطقة الشمالية بين الساحل ونهر أورونت ،وهو يسمى الآن نهر العاصى.

(٢) ميتانى (Mitanni) هى مملكة كانت واقعة فى شمالى مملكة الازيا وهى فى المنطقة التى يوجد فيها الآن لواء الاسكندرونة.

(٣) (Rib-Addi)

(٤) (Arad-Hiba)

(٥) (Aziro)

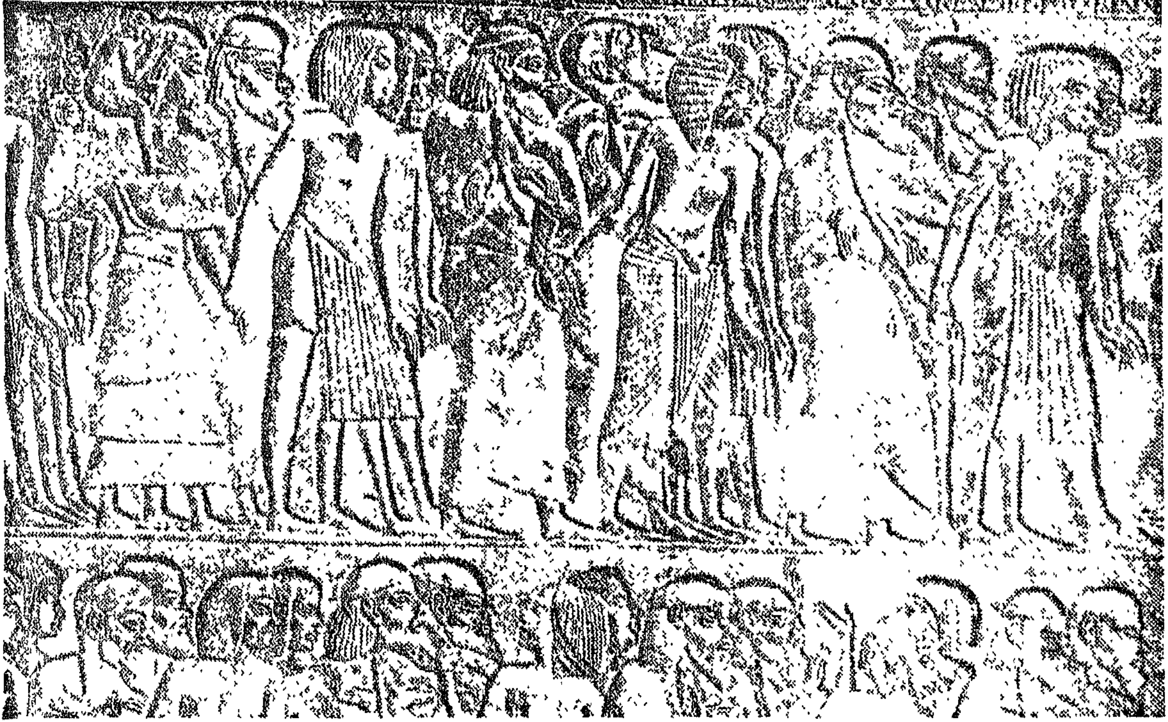
(٦) كتاب (Causeries d'Egypte) لماسبيرو ص ٣ .

(٧) كتب فى هذا الموضوع جول باييه (Jules Baillet) فى كتابه « النظام الفرعونى فى علاقاته بتطور التهذيب النفسى فى مصر » .

(Le Régime Pharaonique dans ses rapports avec l'évolution de la Morale en Egypte.)

فى ص ١٥٩ و ١٦٠ و ١٧٠ من الجزء الاول ، لذكر أن العرف كان جاريا عند الشعوب كلها بأن للمنتصر أن يذبح الاسرى وينهب اموالهم ، بل كان جاريا بأن له أن يتصرف كما يشاء فى أرواح اهالى البلاد المغزوة وأموالهم . ولم يخرج على هذا العرف الا المصريون ، لانهم امتازوا وحدهم — ولا سيما بعد تقدم مدنيتهم — بمعاملة الاسرى واهالى المدن المغزوة معاملة اذا قيست بالعرف الذى كان جاريا كان فيها كثير من الرأفة والرفق . فهم لم يحرقوا المدن المغزوة ، ولم يسلموا رجالها ونساءها واطفالها للسيف ، كما كان غيرهم يفعلون . كلا ، ولم يذبحوا الاسرى ، ولم يمثلوا بهم ، بل كان كل الذى فعلوه أن ساقوا هؤلاء الاسرى الى مصر واستخدموهم ، كما كانوا يستخدمون العمال المصريين فى أعمال البناء والصناعة والمناجم وأشباهها .

قال باييه : « لم يعرف من المصريين انهم استخدموا التعذيب



اسرى أسيويون فى مصر . وهم يعرفون بلحاهم وملابسهم الثقيلة . وفى مؤخرتهم أسيرة سورية تحمل طفلها على كتفها وهم موثقو الايدى ، ويقودهم مصريون . وفى الصف الأدنى أسرى اسيويون أيضا .

= أو التفنن فى القسوة فى معاملة المغلوبين فى الحروب ، كما كانت تفعل الشعوب الاسيوية. فليس فى تاريخهم شىء عن الاسرى الذين يغرزون غرزا فى الخوازيق وهم أحياء ، ولا عن سمل عيونهم ، ولا عن كسر أنوفهم، ولا عن صلم آذانهم، ولا عن قطع شفاههم وألسنتهم وأرجلهم وأيديهم ، كلا ، ولا عن قتل النساء والأطفال أو حرقهم ، ولا عن سلخ جلود الملوك والرؤساء وهم أحياء ، ولا عن صلبهم ، ولا عن ربطهم وهم أحياء بين ألواح من الخشب ثم شقهم بالمنشار».

وقد صدق بابيه فليس فى تاريخ المصريين شىء من هذا ، ولكنك تقرأ تاريخ أشور نازيرابال ، وسالامانازار الثالث ، وتجلافالازار الثالث ، وسارجون ، وسناخريب ، وأشور بانابال ، من ملوك أشور ، فتجد الكثير من هذه الفظائع فى معاملتهم الاسرى والمغلوبين فى الحرب .

ولقد قلنا ان المصريين قتلوا بعض الأسرى فى حالات قليلة . فمن أبرز هذه الحالات أن الملك أمينوفيس الثانى أسر كثيرا من أمراء سوريا (٥٠٠ أمير و٢٤٠ امرأة من نسائهم على مايقول برستيد ص ٣٣٤ من الترجمة الفرنسية) الذين كانوا قد ثاروا عليه بعد موت أبيه تحوتمس الثالث ، فعاد بهم الى مصر ، وعلق سبعة منهم فى مقدم سفينته حين وصوله الى طيبة ، ثم قتل ستة من هؤلاء السبعة أمام المعبود آمون فى معبد الكرنك ، وعلق رءوسهم وأيديهم على جدران المعبد ، ثم أرسل بالسابع الى مدينة ناباتا (عاصمة النوبة) فجرى عليه فيها مثل ما جرى على زملائه .

وقد علق بابيه على هذا الحادث فقال (ص ١٦٩ من كتابه الذى مر ذكره) يجب أن يلاحظ أن هؤلاء الامراء السبعة كانوا أسيويين ، وأن العادة كانت جارية فى آسيا بقتل الأسرى ، بل بما هو أشنع من قتلهم .

ثم قال بابيه : على أن العلماء ليسوا متفقين جميعا على قراءة النص الخاص بهذا الموضوع ، لأن منهم من يقرأه بما يفهم منه أن أمينوفيس الثانى لم يعلق الأمراء فى سفينته أحياء ، بل علق جثثهم التى كان رجاله قد التقطوها من ميدان القتال . فهو اذن لم يذبحهم وانما قطع رءوس جثثهم وعلقها على جدران الكرنك .

ومن هذا الرأى أيضا ارثر ويجل (Arthur Weigall) فى كتابه « تاريخ مصر » ص ١٢٧ من الترجمة الفرنسية التى مر ذكرها . وهنا يضع ويجل موازنة تلفت النظر فيقول : ان التوراة تقص علينا فى الاصحاح الحادى والعشرين من سفر صموئيل الثانى قصة سبعة من الأمراء سلمهم الملك داود للجبعونيين ، فقتلوهم وصلبوهم قربانا لله كى تذهب بقتلهم مجاعة كانت فاشية ويحل محلها الرخاء . وقال ويجل " ان هذا كان بعد عهد أمينوفيس الثانى بأكثر من ٤٠٠ سنة » .

ونذكر نحن هنا نص ماقالته التوراة فى ذلك . قالت :

« وكان جوع فى أيام داود ثلاث سنين سنة بعد سنة ، فطلب داود وجه الرب فقال الرب هو لأجل شاول ، ولاجل بيت الدماء لانه قتل الجبعونيين ، فدعا الملك الجبعونيين وقال لهم .... ماذا أفعل لكم ؟ وبماذا اكفر ؟ فتباركوا نصيب الرب... فقالوا للملك: الرجل الذى أفنانا والذى تآمر علينا ليبيدنا لكيلا نقيم فى كل تخوم اسرائيل ، فلنعط سبعة رجال من بنيه فنصلبهم للرب فى جبعة شاول مختار الرب . فقال الملك : انا أعطى ... فأخذ الملك ابنى رصفة ... وبنى ميكال ابنة شاول الخمسة ... وسلمهم الى يد الجبعونيين فصلبوهم على الجبل أمام الرب فسقط السبعة معا وقتلوا فى أيام الحصاد فى أولها فى ابتداء حصاد الشعير ... وبعد ذلك استجاب الله من أجل الارض » .

ويقول ويجل فى هذه الموازنة : ان أمينوفيس قتل السبعة الامراء فى نفس هذه المنطقة التى كان فيها الجبعونيون ، ثم حمل جثتهم الى مصر . ويستمر ويجل بعد ذلك فيقول :

« أن مصر لم تكن تعرف ذبح الآدميين قربانا للآلهة . ولكن هذا النوع من القربان كان معروفا فى سوريا وبلاد اخرى ، فاذا صح أن الامراء السبعة الذين جاء ذكرهم فى عهد أمينوفيس الثانى قد ذبحوا قربانا دينيا فيجب أن نرى فى ذلك مثلا من أمثلة تأثير سوريا فى الروح المصرى » .

حالات قليلة ، ولم يعرف قط انهم استعملوا في القتل خوازيق أو اى نوع آخر من أنواع التعذيب والتمثيل .

وقد يقال هنا إن جدران المعابد المصرية تزدحم بصور الملوك المصريين والأسرى راكعون أمامهم ، وهم قابضون على رءوسهم متأهبون لضربهم ، فنقول جوابا على ذلك إن هذا التصوير لم يكن المراد منه قتل الأسرى قربانا للمعبودات ، ولا التمثيل بهم على نحو ماكان الأشوريون يفعلون ، بل كان المراد منه التحدث بما فعله هؤلاء الملوك من قهر اعدائهم وإخضاعهم لسلطانهم . وهذا شيء ، وقتل الأسرى والتمثيل بهم شيء آخر .

* * *

والآن نأخذ في درس تلك الرسائل ، فنبدأ بالقاء نظرة عامة عليها ثم نشفع هذه النظرة بتعريب بعض منها .

وجدت على أحد قوالب الطوب كلمات « مكان المحفوظات من القصر الملكى » . ووجدت في إحدى الرسائل كلمة يطلب كاتبها من فرعون مصر أن يرجع إلى الرسائل المحفوظة في مكاتبه . فهاتان الاشارتان دليل قاطع على أن المستودع الذى وجدت فيه قوالب الطوب كان دارا لمحفوظات وزارة الخارجية المصرية .

ووجد على هامش من هوامش أحد القوالب ، تأشير بالخط المصرى مؤداه أن دار المحفوظات هذه كانت في طيبة ، ثم لما هجرها الملك امينوفيس وطلق عبادة المعبود أمون ، وانشأ مدينة خوتاتون ونقل إليها عاصمة الملك ودوائر الحكومة ، نقل إليها أيضا المحفوظات السياسية وجعل مقرها في دار داخلة في قصره في العاصمة الجديدة .

ووجد في أحد القوالب خاتم منقوش باسم « تيتو ــ نو ، رجل ، شاماس ــ نيكى » فها هنا رجلان احدهما « تيتو ــ نو » ، والثانى « شاماس ــ نيكى » والثانى رجل الأول ، أى تابع له (١) . ويرى العلماء ان الاسم الأول مصرى لأنه يشبه الاسماء المصرية من جميع الوجوه ، والثانى بابلى لأنه يشبه الاسماء البابلية من جميع الوجوه (٢) .

وعثر فلندرز بترى حينما نقب في تل العمارنة في سنة ١٨٩١ على اسم آخر مكتوب بالحبر على قطعة من الحجر باللغة المصرية هكذا : « الكاتب الملكى رع ابيبنى » . ويظن بترى ، ويؤيده العلماء في ظنه ، ان هذا الكاتب الملكى كان مديرا لدار المحفوظات أو كان على الاقل رئيسا لادارة من الادارات في دار المحفوظات ، وأن «شاماس ــ نيكى» ومساعده «تيتو ــ نو » كانا مرءوسين له .

وعثر بترى أيضا على بقايا طوب مكتوب ، فلما درسها ودرسها معه العلماء في اللغة البابلية ، اذا هى معجم وضع ليتعلم فيه من يريد تعلم اللغة البابلية والخط المسمارى من المصريين ، أو لعل هذا المعجم وضع ليرجع اليه الموظفون المصريون في وزارة الخارجية كلما اشكلت عليهم كلمة . ووجدت على هامش قطعة من قطع هذا الطوب الكلمات الآتية «بأمر ملك مصر» ، فالمعنى المتبادر الى الذهن من ذلك أن ملك مصر هو الذى أمر بوضع المعجم .

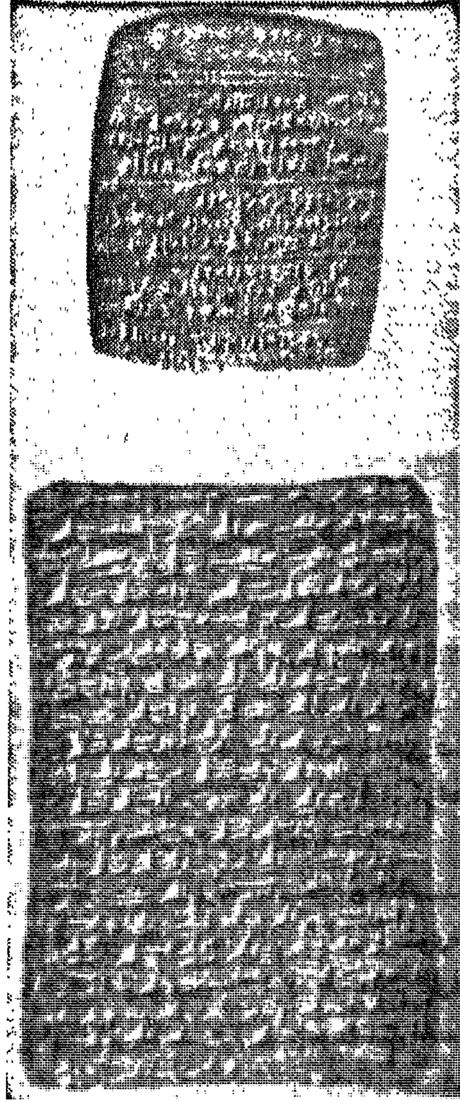
وقوالب الطوب التى فيها هذا المعجم ينقسم سطحها الى ثلاث خانات عمودية متساوية : الأولى فيها الكلمة باللغة المصرية ، والثانية فيها امامها الكلمة باللغة البابلية ، والثالثة فيها أيضا نطق الكلمة في اللغة البابلية مكتوبا باللغة المصرية . ثم تتوالى الكلمات في الخانات الثلاث على هذا النظام .

ويقول هنا بترى إن هذا المعجم يدل على ان ملك مصر لم يكن يكتفى من الموظفين المصريين بأن يترجموا له الكلمات البابلية ، بل كان يطلب منهم فوق ذلك أن يحذقوا هذه اللغة في نطقها وفى جميع خصائصها .

ويظهر أن ملوك مصر كانوا في بعض الأوقات يحبون أن يعرف ملوك آسيا أن في استطاعتهم ان يردوا عليهم بلغتهم ، ولهذا وجد كتاب طويل كتبه امينوفيس الثالث باللغة البابلية والخط المسمارى

(١) هكذا في الاصل . وهناك تناقض لم يستقم لنا معه فهم أى الرجلين كان تابعا للآخر ، ولو ان الأرجح أن المصرى كان تابعا او مساعدا للبابلى ، كما يفهم من الفقرة التالية . فاذا صح هذا ، فانه يقوم دليلا على أن الدولة ــ في ذلك العهد ــ لم تكن ترى ضيرا في ان يكون الموظف المصرى مساعدا لموظف غير مصرى اذا استدعت حاجة العمل ذلك .

(٢) كتاب (Au Temps des Pharaons) ص ٥٤


رسالتان مرقومتان بالخط المسمارى

على قوالب من الطوب يرد به على كتاب جاءه من ملك بابل .

* * *

وتنقسم رسائل تل العمارنة إلى قسمين : أولهما قسم الرسائل الواردة من ملوك مستقلين ولكنهم مرتبطون مع مصر بروابط التحالف أو روابط الصداقة ، وهى روابط يختفى خلفها فى كثير من الأحيان معنى الحماية . وأصحاب هذه الرسائل هم ملوك كاردونياش (١) واشور (٢) وميتانى ونحارينا .

(١) (Kardounyash) هو الاسم الذى كانت تعرف به مملكة بابل فى ذلك الوقت .

(٢) اشور مملكة كانت على نهر الدجلة .

والثانى قسم الرسائل الواردة من حكام البلاد التى كانت تحكمها مصر حكما مباشرا فى فلسطين وسوريا . وبعضها وارد من مدن فى سورياكانت متمتعة بالحكم (الذاتى) وكان نظام الحكم فيها جمهوريا .

ومن هذا التقسيم يتضح ، كما يقول مورى ، أن سياسة الحماية المستترة بستار المحالفة ليست اختراع العصر الحديث ، بل هى سياسة كان المصريون يعرفونها ويجرون عليها فى علاقاتهم مع بعض الأمم المجاورة لهم . ونضيف نحن أنه يتضح من هذا التقسيم أيضا ، كما يتضح من الرسائل التى سيأتى تعريبها ، أن نظام الحكم الذاتى ونظام الحكم الجمهورى اللذين يعتقد كثير من الباحثين أنهما ابتداع المدنية اليونانية ، ليسا من ابتداع هذه المدنية ، وإنما هما نظامان عرفهما المصريون وطبقوهما على بعض المدن الخاضعة لحكمهم فى سوريا ، قبل أن توجد المدنية اليونانية بنحو ٨٠٠ سنة .

ونأخذ الآن فى درس رسائل القسم الأول وتعريب بعض منها . والمصادر التى اعتمدنا عليها فى ترجمة الرسائل كلها هى :

(أولا) مجموعات من مجلة (Journal Asiatique) فى سنى ١٨٩١ و١٨٩٢ و١٨٩٣ و١٨٩٤ و ١٨٩٩ .

(ثانيا) كتاب (Au Temps des Pharaons) لمورى من ص ٤٩ إلى ص ٨٧ .

(ثالثا) الترجمة الفرنسية لكتاب :
(A History of Egypt)
لبرستيد من ص ٣٩٠ إلى ص ٤٠٠ .

* * *

(١)

كتب ملك الازيا :

« إلى ملك مصر ، واخى ، اقول : أنا ملك الازيا ، اخوك ، صحتى جيدة ، وإنى ابعث بأفضل تحياتى إليك ، وإلى اقاربك ، وإلى خادماتك ، والى ابنائك ، والى زوجاتك ، وابعث أيضا بتهنئاتى لك على عرباتك العديدة (٣) ،

(٣) المقصود بالعربات هنا العربات الحربية وكانت ذات شهرة واسعة .





قطعتان من أرض قصر الملك أمينوفيس الثالث والملكة تى يى فى طيبة ، وهما تمثلان طيرا من الأوز بين أزهار اللوتس

وخيولك ، كما أبعث بتمنياتى لبلادك مصر » .

وكتب ملك ميتانى :

« إلى امينوفيس ، ملك مصر العظيم ، وأخى ، وصهرى الذى أحبه ويحبنى أقول : أنا دوشراتا ملك ميتانى العظيم ، وأخوك ، وحموك الذى يحبك . صحتى جيدة ، وإنى ابعث بتحياتى إليك أنت أخى وصهرى ، والى أقاربك وزوجاتك وأبنائك ورجالك » .

ومن هذا الكتاب ، ومن كلمة « حموك » التى فيه يعرف أن امينوفيس الثالث والد أمينوفيس الرابع ، الذى وجه إليه هذا الكتاب ، كان قد تزوج من بنت دوشراتا ملك ميتانى .

وكتب ملك اشور :

« إلى امينوفيس الرابع أخى أقول : أنا اشورو باليت ، ملك اشور ، وأخوك الملك ، أدعو بالسلام لك ، ولأقاربك ، ولبلادك » .

ويلاحظ فى هذه الكتب الثلاثة انها مكتوبة باسلوب واحد ، وألفاظ تكاد تكون واحدة على الرغم من أن أصحابها مختلفون ، وأنها كتبت فى أوقات مختلفة وبلاد مختلفة . ففيها كلها تلقيب بالأخوة وإخبار بصحة الملك صاحب الكتاب ، ثم إهداء تحيات أو دعوات إلى ملك مصر وأقاربه وزوجاته وأبنائه . ويزيد ملك الازيا فيهدى التحيات إلى خادماته .

وهذه الوحدة فى الاسلوب بين كتب مختلفة من ملوك مختلفين تدل على أنه كانت توجد فى ذلك الوقت قواعد وتقاليد معينة لمكاتبات الملوك ، وأن هذه القواعد والتقاليد كانت تراعى بدقة ، وهى تسمى فى العرف الحديث «بروتوكولا» ، وان كانت قواعد اليوم وتقاليده غير قواعد الأمس وتقاليده .

ويؤيد وجود هذه القواعد والتقاليد فى المكاتبات أن من بين رسائل تل العمارنة صورة رسالة كتبها الملك امينوفيس الثالث الى ملك كاردونياش فجرى فيها على الأسلوب نفسه والنسق نفسه .

ولا يفوتنا بعد ذلك أن نوجه النظر إلى أن هؤلاء الملوك جميعا كانوا شرقيين ، وأنهم مع ذلك كانت تقاليدهم فى المكاتبات تسمح لهم ، أو تقضى عليهم ، بأن يبعث كل واحد منهم بتحياته إلى زوجات الملك الذى يكتب إليه . وقد لا يلفت النظر كثيرا أن يبعث الملك دوشراتا بتحياته إلى زوجات الملك امينوفيس الثالث بسبب المصاهرة التى كانت بين الاثنين ، ثم لأن بنت الملك دوشراتا كانت إحدى الزوجات اللواتى يذكرهن فى كتابه . ولكن الذى يلفت النظر حقا هو أن ملك الازيا يهدى هو الآخر ، تحياته إلى زوجات ملك مصر ، وهذا لايكون إلا إذا قلنا إن «البروتوكول» كان يسمح بهذه التحيات .

ولا حاجة لأن نقول بعد ذلك إن هذا النوع من

« البروتوكول » اختفى من الشرق وانتقل إلى الغرب .

(٢)

وكتب الملك بورناربورياش ملك كاردونياش إلى ملك مصر ، فابتدأ بديباجة كالتى رأيناها فى الكتب السابقة ثم قال :

« لقد انحرفت صحتى منذ اليوم الذى جاء فيه رسول أخى . ولم يشجعني أخى فى طول المدة التى بقيت صحتى فيها منحرفة . ولهذا استأت من اخى وقلت : الم يسمع أخى أننى مريض . لماذا لم يبعث لى رسولا ولم يظهر اهتماما بى .

« وقد أجاب رسول أخى على ذلك بقوله : إن مصر ليست قريبة لكى يسمع أخوك بمرضك ويرسل إليك رسولا يستعلم أخبارك .

« وفى الواقع اننى استفهمت بعد ذلك من رسولى ، فقال لى : « إنها رحلة طويلة جدا » . فمنذ سمعت ذلك لم يبق فى نفسى استياء من أخى » .

ففى هذه الرسالة نرى ملك بابل يتحرق شوقا الى كلمة طيبة تأتيه فى مرضه من ملك مصر ، ولا يكاد يصبر على هذا الشوق إلا بعد أن يعلم ان الشقة بين البلدين بعيدة ، وأن ملك مصر معذور لهذا السبب إذا هو لم يرسل اليه يستعلم أخباره .

وفى هذه الرسالة نوع من الجهل يستوقف النظر هو أن ملك بابل لم يكن يعرف بعد ما بين بلاده ومصر إلا بعد أن سأل فى ذلك رسول مصر ثم رسوله .

وأسلوب الكتابة فى هذا يلفت النظر لأنه يكرر كلمة « أخى » ست مرات فى سبعة أسطر فهو يشبه أسلوب التوارة الذى أشرنا إليه فى تعليقنا على « قصة الغريق » .

(٣)

وكتب دوشراتا ملك ميتانى الذى تقدم ذكره إلى امينوفيس الرابع يصف له الحزن الذى استولى عليه حينما جاءه الخبر بوفاة أمينوفيس الثالث فقال :

« حينما أشرف والدك على الموت ... فى ذلك اليوم بكيت وسقطت مريضا وأشرفت على الموت ... ولكنى علمت بعد ذلك بأن أكبر انجال الملك أمينوفيس والملكة تى يى جلس على العرش ... وقد قلت حينئذ ان أمينوفيس لم يمت ... » .

هذا الكتاب مبتور لم توجد منه غير الكلمات التى عربناها هنا ولكن الباقى منه كاف للدلالة على المعنى المقصود منه .

والقارىء يذكر من غير شك أن دوشراتا كان حما الملك امينوفيس الثالث . فهو هنا يعبر عن الحزن الذى استولى عليه حينما بلغه موت زوج ابنته .

ويذكر الملك دوشراتا فى كتابه هذا الملكة تى يى زوجة أمينوفيس الثالث ، وأمر هذه الملكة مشهور فى كتب التاريخ لأنها كانت ذات نفوذ كبير على زوجها وكان لها أثر ظاهر فى سياسة الامبراطورية المصرية . وقد ذهب بعض العلماء الى انها بنت الملك دوشراتا التى تزوج بها أمينوفيس الثالث ، وانها لذلك تكون سورية الأصل . وبنوا على هذا زعما آخر هو أن الثورة الدينية التى ثارها أمينوفيس الرابع على عبادة أمون كانت بتأثير أمه تى يى فى نفسه ، وإذن تكون هذه الثورة راجعة فى كثير منها الى عوامل سورية .

ولكن ماسبيرو أثبت من مومياء الملكة تى يى (١) ، ومن تابوتها ، ومن النقوش التى وجدت عليه ، ثم من قبر والد هذه الملكة ، ان هذا القول خطأ ، وأن تى يى مصرية ، لم تكن من الدم الملكى بل كانت من عامة الشعب ، فأحبها الملك وجعلها زوجته الأولى ، وهى أم أمينوفيس الرابع .

وقول دوشراتا « إن أمينوفيس لم يمت » لأنه يحيا فى ابنه ، هو من الأقوال التى ما زالت الى وقتنا هذا متداولة بين الكتاب .

(٤)

هذا الكتاب الذى نعرض له هنا لم يعرف كاتبه لأن ديباجته مبتورة ولكن الباقى منه ذو اهمية

---

(١) كتاب (Causeries d'Egypte) ص ١٤٨

سـياسية . وهو موجه الى امينوفيس الرابع . وهذا نصه :

« ... والآن يامليكى وقد جلست على عرش أبيك فلنتبادل ، انا وانت ، الصـداقة الدائمة كما كنت اتبادل مع أبيك الهدايا . فاقبل هذه الأمنية التى كنت قد وجهتها الى ابيك ،ولنعمل معا على تحقيقها بيننا » .

فكاتب هذا الكتاب لابد أن يكون واحدا من ملوك البلاد المستقلة ، لا واحـدا من حكام سوريا ، لانه يطلب تبادل الصداقة . ولكنه مع ذلك يخاطب ملك مصر بقوله « يامليكى » رغبة منه فى استمالة قلبه. وهو يلح فى تبادل الصداقة والهدايا ، ويسمى هذا التبادل « امنية » له . لأن صداقة مصر كانت فى ذلك الوقت اعز امنية يسعى إليها الملوك .

ويغلب على الظن أن صاحب هذا الكتاب هو ملك بابل لأن فى الكتب الآتية كتبا منه تتفق مع هـذا الكتاب فى معناه .

(٥)

بهذا الكتاب الذى نعرض له الآن ندخل فى صميم المكاتبات السياسية ، ونرى كيف كان كل من ملك



قطعة من سقف غرفة فى قصر الملك امينوفيس الثالث والملكة تى بى فى طيبة

بابل وملك اشور يتنافسان فى اكتساب عطف مصر والتحالف معها .

كتب بورنا بورياش ملك بابل الذى تقدم ذكره الى الملك امينوفيس الرابع فقال بعد الديباجة :

« حينما كان والدى كوريجالزو حيا أرسل اليه ملك كنعان رسولا قال له : « هيا فلندخل مدينة كارميشات ، ولنحارب فرعون معا » . فبعث إليه أبى يقول : «لا تفكر فى الاتفاق معى. فان كنت تريد معاداة ملك مصر فابحث لك عن حليف غيرى . أما أنا فانى لا أسير فى هذا ولا ادمر بلاد ملك مصر لأنه حليفى » . وهكذا رفض والدى أن يصغى الى ملك كنعان حبا فيك .

« والآن فان ملك أشور تابع لى . ولست فى حاجة لأن أقول لمـاذا هو يطلب صداقتك . فان كنت تحبنى فلا تعقد معه معاهدة واطرده بعيدا جدا » .

وإذن كان ملك اشور وملك بابل يتسابقان الى التحالف مع ملك مصر لأن كلا منهما كان يرى فيه أمانا لنفسه وعضدا لبلاده . ولم يكن ذلك فى عهد الملك بورنابورياش فقط ، بل كان فى عهـد أبيـه من قبله أيضـا ، وكان ابوه هـذا يقول لمن يدعوه الى معاداة ملك مصر : « ابحث لك عن حليف غيرى » .

ولعل القارىء يرى من فحوى هذا الكتاب مايؤيد الظن الذى ذهبنا إليه اذ رجحنا ان يكون الـكتاب السابق الذى لم يعرف صاحبه صـادرا من ملك بابل .

وبعد هذا لا بد من سؤال وهو : ماذا فعل ملك مصر فى هاتين اليدين اللتين مدتا إليه من ملك اشور وملك بابل ؟

إن من حسن الحظ ان فى استطاعتنا أن نجيب على هذا السؤال لأن ماعثر عليه من محفوظات وزارة الخارجية المصرية يسمح لنا بالجواب .

والجواب أن امينوفيس الرابع ــ أو اخناتون ــ حالف كلا من الملكين ، ولم يقبل أن يكون لواحـد منهما على الآخر ، وقد رضى الملكان بذلك .

من آيات الصانع المصري



تمثال نصفي للملكة نفرتيتي

وهذا التمثال موجود فى متحف القاهرة وهو غير التمثال الذى فتن به « هتلر » وكان يحتفظ به فوق مكتبه . والملكة نفرتيتي هي زوج أمينوفيس الرابع أو أخناتون .

(٦)

إلى هنا رأينا كيف كانت تكتب ديباجة الرسائل بين الملوك ، ثم رأينا نوعا من هذه الرسائل دل على أن ملوك البلاد المجاورة للامبراطورية المصرية كانوا يحرصون على أن ينالوا شرف الارتباط برباط المحالفة أو الصداقة مع ملك هذه الامبراطورية .

فالآن نخوض فى نوع آخر من الرسائل خاص بمصاهرة ملك مصر لأولئك الملوك ، وما كان لهذه المصاهرة من التأثير فى العلاقات السياسية .

كانت هذه المصاهرة تعتبر متممة لمعاهدات التحالف ، فكان ملك مصر يرى ان زواجه من بنت الملك المجاور له او من اخته - وفى بعض الأوقات منهما معا - ضمان على ان هذا الملك لايخرج عليه . وكان هذا الملك يرى من ناحيته ان هذا الزواج نفسه ضمان له على أن يبقى متمتعا برعاية ملك مصر . ولهذين السببين نجد ذكر المصاهرة يتردد فى كثير من رسائل تل العمارنة .

وقد رأينا فيما تقدم أن الملك امينوفيس الثالث صاهر الملك دوشراتا ملك ميتانى بأن تزوج بنته واخته ، فنضيف هنا الى ذلك ان زواج هذه الاخت لم يكن سهلا على مايظهر لأن امينوفيس الثالث طلبها ست مرات حتى اعطيت له . ولسنا نعرف ايهما هى التى تزوجها قبل الأخرى .

وكما تزوج أمينوفيس الثالث اخت ملك ميتانى وبنته ، تزوج اخت الملك « كالينابسن » ملك بابل فى عهده ، ثم طلب أن يتزوج بنته وكانت تسمى « زوهارتى » فتردد ابوها ودارت فى ذلك رسائل عدة .

وليست هذه الرسائل موجودة كلها ولكن ما هو موجود منها يدل على باقيها . فقد وجدت رسالة من امينوفيس الثالث الى « كاليناسن » يقول فيها :

« ... اطلعت على الأقوال التى بعثت بها إلى . انك تقول لى : كيف تطلب بنتى للزواج منك على حين أن اختى التى أعطاك إياها والدى لاتزال عندك ، وما من احد رآها بعد أن زوجت



اسرى نوبيون فى مصر فى عهد الأسرة الثامنة عشرة

منك ، فليس معروفا هل هى الآن حية أم ماتت » .

وهناك رسالة من « كاليناسن » يرد بها على امينوفيس فيذكره بأنه كان قد ارسل رسولا يرى هل اخته لاتزال حية ام ماتت ، فأمر امينوفيس بادخاله قصره ، فأدخل الى حيث نساء القصر مجتمعات وقيل له « هاهى سيدتك بين هؤلاء » فلم يميز الرسول واحدة منهن ولم يعرف من هى سيدته .

وعلى هذه الرسالة اجاب أمينوفيس الثالث فقال :

« إنك لم ترسل رسولا كفؤا عرف اختك من قبل وحادثها ليمكن أن يعرفها الآن ويتحدث معها . بل الرسل الذين جاءوا من عندك كانوا من طبقة وضيعة . ويكفى أن أضرب لك مثلا رسولك « زاجارا » الذى هو راعى ماشية قليلة . وليس بين رسلك واحد كان قد اقترب من ابيك » .

فرد كاليناسن فقال :

« إنها اية امرأة من بنات النبلاء هى التى رآها رسلى عندك . إذ من يقول لهم انها أختى » .

فرد أمينوفيس فقال :

« هب أن اختك ماتت فلماذا اخفى موتها منك ؟ » .

هذا ما فى رسائل تل العمارنة عن زواج أمينوفيس الثالث . أما مافيها عن زواج ابنه أمينوفيس الرابع فهو أن أمينوفيس هذا طلب الأميرة « تادوخيبا » إحدى بنات الملك دوشراتا ، أى نفس الملك الذى كان أبوه قد تزوج من أخته ومن إحدى بناته ، فأجاب دوشراتا على عجل يقول :

« تطلب ابنتى ؟ إننى أعطيك اياها » .

ولم يكن أمينوفيس الرابع قد تولى الملك حينما طلب هذا الطلب ، بل كان لايزال أميرا وكان ابوه لا يزال حيا . والذى حمل هذا الطلب من مصر الى مملكة ميتانى هو سفير مصرى يسمى « مانى » وحمل معه هدايا وكتابا من أمينوفيس الثالث يقول فيه :

« إن ما أبعث به اليك الآن من الهدايا ليس شيئا ... فان أنت أعطيت الفتاة التى أطلبها فسأبعث إليك بهدايا أكثر » .

وبعد أن قابل دوشراتا هذا السفير وقبل الهدايا التى حملها اليه ، كتب الى أمينوفيس الرابع يقول :

« إن صداقة متينة تربطنى بوالدك ، فالآن ستكون محبتى لك ، أنت ولده ، أمتن » .

وفى إحدى الرسائل ــ أو بعبارة اخرى فى أحد



قطعة من ارض القصر الذى بناه لنفسه الملك اخناتون (أمينوفيس الرابع) فى مدينة أخيتاتون (تل العمارنة)

قوالب الطوب المحفوظة الآن فى متحف برلين ــ بيان طويل بمهر الأميرة « تادوخيبا » هذه التى تزوجها أمينوفيس الرابع .

ويظهر أن دوشراتا كان يطمع فى هدايا جمة من وراء هذا الزواج ، وأنه لم يكتف بما جاءه منها ، ولهذا جعل يشكو فى إحدى رسائله من أن الهدايا التى وعد بها لم تصل إليه .

(٧)

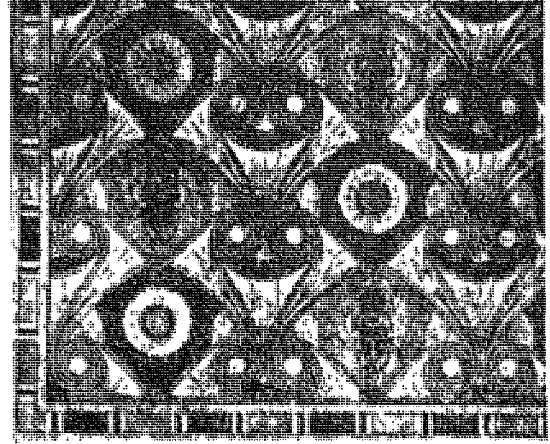
وكانت الأميرة التى يتزوجها ملك مصر تخرج من بلادها فى جمع كبير ، بل فى جموع كبيرة ، من النساء والخدم . وكان هؤلاء النساء والخدم يرافقونها الى مصر ويقيمون معها حاشية لها مدة من الزمن . فقد وجد منقوشا على جعران من عهد أمينوفيس الثالث أن ٣١٧ امرأة رافقن « كيلاجيبا أميرة ميتانى » التى تزوجها أمينوفيس الثالث .

وقد مر أن أمينوفيس الثالث تزوج اخت الملك دوشراتا وبنته ، فالأميرة كيلاجيبا هذه هى إحدى هاتين الزوجتين .

وكان من العادات المألوفة فى ذلك الوقت أن تصنع جعارين باسم عروس الملك كلما تزوج . وكان نساء الأغنياء يتخذن من هذه الجعارين حليا لهن . ولهذا وجدت جعارين باسم الملكة تى يى حينما تزوجها أمينوفيس الثالث . ووجدت جعارين باسم كيلاجيبا التى تقدم ذكرها . ووجدت جعارين باسم غيرهما .

وليتصور القارىء بعد ذلك ٣١٧ امرأة قادمات مع كل عروس من بنات الملوك المجاورين لمصر تزف الى فرعون . وإذا كان عدد القادمات من النساء ٣١٧ فكم يكون عدد القادمين من الرجال والغلمان لخدمتها وخدمتهن جميعا ! ؟ . وإذن ليتصور القارىء كيف يكون القصر أو تكون القصور التى يجب أن يقيم فيها هؤلاء الجموع مع أميرتهم !

وليس ريب فى أن أكثر هؤلاء النساء والرجال كانوا يعودون الى بلادهم بعد أن يحضروا حفلة الزفاف وبعد أن يقيموا بالقرب من أميرتهم وقتا ما ، ولكن



سقف قبر لرجل من الكبراء يسمى راميس بالقرب من طيبة
(الاسرة الثامنة عشرة)

ليس ريب أيضا فى أن بعضا منهم كانوا يستوطنون مصر معها .

* * *

رأينا فراعنة يتزوجون بنات الملوك المجاورين لهم وأخواتهم ، فهل كان هؤلاء الملوك يتزوجون من بنات الفراعنة وقريباتهم ليتم التبادل بين الفريقين ، ام لم يكن هذا التبادل موجودا ؟ .

هذا السؤال تجيب عليه رسالة كتبها ملك بابل الى امينوفيس الثالث وفيها يقول :

« حينما طلبت يد ابنتك ارسلت إلى تقول : « لم يحدث قط أن أعطيت بنت ملك مصر الى أجنبى » (١) ،فلما بلغتنى هذه الكلمات ارسلت إليك أقول : « اذا أنت بعثت بها الى وأنت آسف فخير عندى الا تبعث بها » . إنك لاتنظر الى بعين العطف الأخوى ، وانت تعلم مع ذلك انك

(١) النص الفرنسى الذى لدينا لهذه الفقرة من هذا الكتاب هو :

(Jamais la fille du roi d'Egypte n'a été donné à personne.)

وتعريبها الحرفى هو :

« لم يحدث قط أن اعطيت بنت ملك مصر الى احد » .

ولكننا وجدنا كلمتى « الى أحد » هنا لاتدلان على المقصود ، اذ بنات ملوك مصر كن يتزوجن فى مصر ، فالقول بأنهن لم يعطين قط الى احد هو قول لايمكن أن يكون مرادا للملك امينوفيس الثالث . وانما المراد أنهن لم يعطين لأحد من الاجانب . وسياق الرسالة كلها يجعل هذا المراد متعينا . واغلب الظن ان هنا خطأ فى الترجمة من اللغة البابلية .

حينما كاشفتنى برغبتك فى ان تعقد بينى وبينك رباط زواج ، أجبتك الى ماتريد ، واظهرت فى ذلك كل الطيبة التى يكنها أخ لأخيه . والآن يا أخى ، وقد كاشفتك برغبتى فى رباط زواج بينى وبينك ، لماذا تأبى بنتك على ؟ لماذا ترفض أن تعطيها لى ؟ لو أننى كنت قد رفضت إجابتك الى رغبتك لكان الرفض من جانبك الآن مفهوما . ولكن بناتى كن رهن أمرك ، وأنا لم أرفض لك طلبا» .

وقد علق الأستاذ مورى على هذه الرسالة فقال : إن الفراعنة كانوا يأبون بناتهم وأخواتهم على حلفائهم ملوك آسيا ، لأنهم كانوا يرون أن بنات «الدم المقدس» ارفع من أن يهبطن إلى مضاجع هؤلاء الملوك .

* * *

ومما يظهر ظهورا جليا فى رسائل تل العمارنة أن الملوك المجاورين للامبراطورية المصرية كانوا يلحون على فرعون فى طلب هدايا من الذهب فيقولون مثلا : « ان الذهب عند ملك مصر كثير كتراب الأرض » . من عندك ... لقد كان ابوك يرسل إلى أبى كثيرا من الذهب ... فيجب أن ترسل لى مثل ماكان أبوك يرسل إلى أبى » .

وكان من الأقوال الشائعة فى الممالك الأسيوية إذ ذاك « أن الذهب عند ملك مصر كثير كتراب الأرض » .

ومن الكتب التى كتبها الملك بورنابورياش إلى امينوفيس الرابع كتاب يقول فيه :

« جاء الرسول الذى بعثت به إلى ومعه



سيدات مصريات فى حفلة . وترى المائدة وعليها أصناف المأكولات ، وفتاة تقدم لاحدى السيدات اناء صغيرا فيه شراب، واحدى السيدات تلتفت الى جارتها وتقدم لها زهرا ذا رائحة زكية . (هذه اللوحة موجودة فى المتحف البريطانى بلندن)

عشرون وزنة من ذهب غير نقى ، فلما وضعت فى البوتقة لم يخرج منها سوى خمس وزنات من ذهب نقى » .

ويظهر الملك بورنابورياش الـمه من ذلك ، ويطلب إرسـال ذهب آخر . وفى كتـاب آخر يقول الملك بورنابورياش :

« إن سبائك الذهب التى لم يفحصها اخى قبل إرسالها الى ، بعثت بها لتذاب فى البوتقة فردوها إلى ولم يقبلوها » .

وفى كثير من كتب الملك دوشراتا ، ملك ميتانى ، يتردد أيضا الالحاح فى طلب الذهب من ملك مصر .

* * *

إلى هنـا فرغنا من الرسـائل الخاصـة بالملوك المجاورين للأمبراطورية المصرية ، فنأخذ الآن فى درس الرسائل الخاصة بحكام فلسطين وسوريا .

كانت فلسطين وسوريا فى الوقت الذى كتبت فيه رسائل تل العمارنة جزءا من الامبراطورية المصرية . ولم تكونا ولاية واحدة أو ولايتين ، بل كانتا ولايات عدة يحكم كل ولاية منها حاكم مولى من قبل فرعون فهو يحكم باسمه ويدفع له الجزية . وكان هذا الحاكم يسمى « خازانو » . ويذهب بعض العلمـاء الذين كتبوا فى هذا الموضوع إلى أن حملة هـذا الاسم لم يكونوا مصريين بل كان الفراعنة يختارونهم من الأسر القديمة ذات النفوذ فى البلاد التى هم حكام عليها ، وكثيرا ماكان الفراعنـة يفتحون المدن فيبقـدم لهم حكامها بالطاعة والولاء فيقرونهم فى حكوماتهم .

ولكن الفراعنة كانوا يطلبون من هؤلاء الحكام أن يرسلوا ابناءهم إلى طيبة ليتعلموا فيهـا ثم ليكون وجودهم فى الحاشية الفرعونية ضمانا ـ الىحد مـا ـ على ولاء آبائهم . فاذا توفى هؤلاء الآباء خلفهم أبناؤهم الذين تربوا فى الحاشية الفرعونية . وعلى هؤلاء أن يرسلوا إلى مصر أبناءهم ليتربوا مثل تربيتهم .

وكان يوجد بجانب «الخازانو» مندوبون عن فرعون يراقبون سير الحكومات ويبلغون أوامر فرعون إليها. وهؤلاء المندوبون كانوا مصريين وكان اختصاص الواحد منهم يشـمل فى بعض الأوقات عـدة مـدن وعدة حكومات . وكان فرعون يشير إليهم فى رسائله فيقول إنهم « عيون الملك وآذانه فى البلاد الأجنبية » . وهذا تعبير لايزال مستعملا الى اليوم (١) .

وكان هؤلاء المنـدوبون مرهوبى الجانب حتى كان احد الحكام « الخازانو » يكتب الى فرعون فيقول :

« ليسأل مولاى الملك جميع مندوبيه يعرف الى أى حد أنا خادم له أمين » .

وكان غيره يكتب فيقول :

« ليسأل مولاى مندوبه يعرف هل ما أقوله صدق أم كذب » .

ولم تكن المدن كلها محكومة بهذا النوع من الحكم، بل كانت توجد مدن لها حكم من نوع آخر ، يشـبه الحكم الجمهورى (٢) ، ومن هذه المدن مدينة «أراد» ومدينة «تونيبو» ، ولهذا سيأتى أن أعيان كل واحدة من هاتين المدينتين كانوا يخاطبون فرعون ويعرضون عليه فى رسائلهم مايعرضونه من شئون مدينتهم .

ولمـا كان الحكم الجمهورى لايتحقق إلا بأن يكون هنـاك نوع من الاستقلال ، كانت كل واحـدة من هاتين المدينتين حاصلة فى عهد امينوفيس الثالث وأمينوفيس الرابع ـ أى فى العهد الذى كتبت فيه رسائل تل العمارنة ـ على مايسميه الانجليز الآن (Self government) أو الحكم الذاتى .

ولهذا قلنا فى ما تقدم إن المصريين عرفوا نظـام الحكم الجمهورى الذى يظن كثير من الناس أنه لم

---

(١) ذكر فى حجر محفوظ فى متحف اللوفر يسمى « حجر النتيف » اسم ضابط بالقصر الملكى كان مناديا فوصـف بأنه « لسان الملك » .

وفى احجار اخرى وصف اشخاص انفسهم بأنهم «عينا الملك» او « عينا الملك فى الارض كلها » او « عينا الملك اللتان تنفذان الى الاحشاء » .

ويقول المؤرخ اليـونانى كزينفـون (Xénéfon) : آن ملوك الفرس كانوا يوفدون ضباطا يجولون فى الولايات الواقعة تحت حكمهم ويراقبون اعمال الولاة فيها ، وان هؤلاء الضباط كانوا يسمون « عينا الملك وأذناه » .

وواضح أن المصريين هم اول من استعمل هـذا النوع من التعبير .

(٢) كتاب (Au temps des Pharaons) لمورى ص ٦١

يعرف قبلَ المدنية اليونانية . نعم إنهم طبقوه فى بلاد أجنبية ولم يطبقوه فى مصر ، ولكنهم عرفوه على كلِّ حال . وهم قد عرفوا أيضا نظام الحكم الذاتى الذى يظن كثيرون أنه من اختراع العصور الحديثة .

ولست أنا الذى أقول هذا فأؤدى به شهادة لوطنى ، بلْ يقوله قبلى مورى ، فى كتابه الذى أشير اليه فى هامش هذه الصفحة .

***

وأولُ مايبرز فى وسائل الحكام (أى الخازانو) هو إظهار العبودية فى الفاظ ومعان ليست مألوفة لأبناء العصور الحديثة . فواحد منهم يكتب :

« أنا خازانو مدينة ... خادمك ، وتراب قدميك ، والأرض التى تدوسها وخشب المقعد الذى تجلس عليه ، وكرسى قدميك (١) ، وحافر جوادك . إننى أتمرغ سبع مرات بطنا لظهر فى تراب قدمى الملك ، مولاى ، وشمس السماء » .

وحاكم آخر يكتب :

« أنا خادم الملك ، وكلب بيته . إننى احفظ البلد هنا لمولاى الملك » .

وحاكم ثالث يسمى نفسه «خادم جواد فرعون» .

فى مثل هذه الألفاظ كان كثير من الحكام يكتبون . فملك مصر ليس سيدا فقط بل هو إله وشمس ، والحاكم لايتقدم إليه بأقل من أن يكون تراب قدميه وحافر جياده والمتمرغ سبع مرات بطنا لظهر فى تراب قدميه .

ويحسن أن نقول هنا إن فرعون كان ملكا وسليلْ آلهة فى آن واحد ، وإن الشمس كانت احد الآلهة المصرية . فالمعبود رع هو الشمس ، والمعبود أمسون هو الشمس ، والمعبود أتون هو قرص الشمس . والفراعنة كانوا أبناء الدم الشمسى ، فليس مستغربا أن يخاطب الحاكم فرعون فيقول إنه إلهه وشمسه .

(١) المراد بكرسى القدمين هنا الكرسى الصغير الذى يوضع أمام الكرسى العادى ليضع الجالس قدميه عليه . ويرى من ذلك أن هذا النوع من الكراسى كان مستعملا فى مصر فى ذلك الوقت .

ويحسن أن نقول أيضا إن «بروتوكول» المقابلات لفرعون كان يجعل الناس طبقات . فمنهم من إذا أذن لهم بالدخول الى مجلسه كانت تحيتهم له أن يخروا الى الأرض أمامه . ومنهم من كانوا ينحنون انحناء الركوع . ومنهم من كانوا يكتفون بأن يحنوا رءوسهم . وكان اغلب حكام سوريا يندمجون فى الطبقتين الأولى والثانية .

***

ومن رسائل تل‌العمارنة رسالة كتبها حاكم صيدا فقال فيها :

« أخبر مولاى الملك أن عبدته التى جعلها وديعة فى يدى ، وهى مدينة صيدا ، هادئة . وحينما وصل الى الأمر الذى أرسله مولاى الملك امتلأ قلبى فرحا . وقد رفعت رأسى وفاض النور على وجهى وعينى حينما قدم أمر مولاى الملك . إن خادمك يبعث اليك مائة ثور ، ويبعث أيضا رقيقات . وهذا إخبار بذلك للملك مولاى وشمس السماء » .

فهذه الرسالة تدل على أن الجزية التى كان حكام سوريا يرسلونها إلى فرعون كانت تختلف باختلاف البلدان . فهى لبعض منها مصنوعات من المعادن الكريمة كما يرى فى كثير من النقوش التى على الآثار المصرية ، ولبعض آخر ثيران ورقيقات .

وكتب حاكم آخر فقال :

« أرسل إلى مولاى الملك ، وشمس السماء ، الرسول «هامايا» فهأنذا أقول : لقد أصغيت لأمر الملك بأعظم اهتمام . . . وقد سرت أنا وجنودى وعرباتى وإخوانى الى مقابلة رماته فى المكان الذى عينه الملك » .

فيؤخذ من هذا أنه كان على الحاكم واجب نحو كل رسول لفرعون يجتاز أرضه ، وهذا الواجب أن يرافقه فى أرضه بجنوده لأجل مساعدته ، إذا دعا الأمر إلى مساعدة .

أما إذا كان فرعون نفسه هو الذى يجتاز أرضا فى سوريا فان مايفعله حاكم هذه الأرض يظهر من الرسالة الآتية :

«حينما علمت أن الملك عائد بجنوده العديدين الى بلاده أرسلت الى جيشه العظيم كثيرا من الماشية وكما من الزيت» .

فاذا كان الحاكم فقيرا أو كانت بلاده فقيرة فانه يقدم مايقدر عليه ثم يعتذر فيقول :

« ليبعث مولاى الملك من يأخذ الزيت . فليس عندى خيول ولا عربات اسير بها الى مقابلة الملك ، وقد ارسلت ابنى الى بلاد مولاى الملك » .

ويلاحظ فى هذه الرسالة ، كما يلاحظ فى الرسائل الأخرى ، وكما يلاحظ فى رسائل ملوك بابل وأشور والازيا وميتانى التى مرت،أن أصحابها قلما يستعملون ضمير الغائب حينما يشيرون الى فرعون ، بل هم يكررون فى كل مناسبة كلمة «الملك» أو كلمتى «مولاى الملك» أو كلمة « اخى » .

* * *

وكانت الخصومات بين حكام سوريا قائمة قاعدة فكان بعضهم يعتدى على أراضى البعض الآخر ورجاله، وحينئذ كان كل من المعتدى والمعتدى عليه يسارع فيشكو الى فرعون ويطلب منه نجدة .

كتب أحدهم فقال :

« ليعلم مولاى الملك أن النهابين أثاروا هذه المدن ضدى ... إننى الآن اشبه طائرا فى فخ او فى قفص ... ليرسل لى مولاى رماة مصريين » .

ولم تكن النجدات التى يطلبها هؤلاء الحكام كثيرة ، فحاكم « مجدو » (١) يطلب راميين اثنين ، وحاكم «صور» (٢) يطلب عشرين ، وحاكم « ببلوس » يطلب أربعة ومعهم عشرون عربة . ولا تزيد اعظم نجدة طلبها واحد منهم على مائتين .

ويقول مورى هنا إن هذه الطلبات تدل على أن ملوك مصر لم تكن لهم فى سوريا حاميات مصرية . ويخالفه فى ذلك برستيد فيذكر انهم كانت لهم حاميات . وربما كان الصواب ان الحاميات كانت موجودة ولكنها لم تكن فى كل مدينة ولا عند كل حاكم ، بل كانت فى أماكن قليلة متباعدة ، فلم يكن من السهل أن يلجأ الحكام اليها كلما اختصموا ، وهم فى كل يوم يختصمون ، وكان من الضرورى مع ذلك ان يلجأوا الى فرعون لأن الحاميات لم يكن لها أن تنصر واحدا منهم على آخر بغير أمر منه . وفى بعض رسائل تل العمارنة ما يؤيد رأينا هذا .

وعلى كل حال فان الشواهد تدل على أن قلة الحاميات المصرية فى سوريا كانت نقطة من نقط الضعف فى الحكم المصرى ، وان هذه القلة كانت السبب فى احتياج الفراعنة الى سوق الجيوش من وقت الى وقت لاطفاء ثورة أو لرد هجوم على الحدود أو لغير ذلك من الأعمال الحربية .

* * *

والآن ننتقل الى ماساة تدل عليها رسائل تل العمارنة ، وهى انحلال الأطراف الأسيوية من الامبراطورية المصرية فى عهد أخناتون بسبب انصرافه الى ثورته الدينية ، وانقسام البلاد من جراء هذه الثورة .

حينما صعد امينوفيس الرابع الى العرش كانت مملكة فى آسيا الصغرى تسمى مملكة خيتاس ، أو مملكة الحيثيين ، قد امتد سلطانها بجانب الممالك المحالفة لمصر . ولكن ملك هذه المملكة - ويسمى « سبلل » - كان يسعى الى اكتساب صداقة مصر فأرسل إلى أمينوفيس الرابع حين توليه العرش رسالة يهنئه بها . ثم لما انتقل أمينوفيس الى عاصمته الجديدة أخيتاتون وسمى نفسه أخناتون ، أرسل اليه سبلل رسالة اخرى يسأله فيها لماذا قطع مراسلته .

فهذا السؤال من الملك سبلل يحملنا على الظن بأن اشتغال اخناتون بثورته الدينية لم يكن يدع له وقتا للاهتمام بعلاقاته مع الملوك .

وعلى اثر هذه الثورة او بعدها بقليل شرعت قبائل من الحيثيين تغير على الحدود السورية ، وشرع بعض حكام سوريا يتآمرون مع الحيثيين . وكان من هؤلاء الحكام حاكم لمدينة عمورية يسمى

(١) (Mageddo) (٢) (Tyr)

« عزيرو » ، فأغار باتفاقه مع الحيثيين على الأراضى المجاورة له وقتل ثلاثة من الحكام . ثم لما علم أن خبره وصل الى اخناتون أراد أن يخدعه فكتب اليه رسالة يتبرأ فيها من تهمة الخيانة ويؤكد أنه لايزال وفيا لفرعون ويعتذر بأنه لم يفعل غير أن دافع عن نفسه ويقول :

إن أعيان مدينة « سومورى » (١) هم الذين لم يتركونى فى سلام . فأنا لم أقترف وزرا فى حق مولاى » .

وفى رسائل تل العمارنة جواب على هذه الرسالة ليس من اخناتون بل من شخص آخر (لم يوجد اسمه) يبتدىء فى مخاطبة عزيرو بقوله :

« باسم الملك مولاك ، حاكم مدينة عمورية » .

ومن هذه الكلمات يرى أن أخناتون لم يجب بنفسه بل كلف شخصا من المقربين اليه أن يجيب باسمه ، ويرى أيضا أن هذا الجواب كتب من صورتين احداهما أرسلت الى عزيرو والثانية حفظت فى وزارة الخارجية الفرعونية وهى التى توجد الآن بين ايدينا .

وفى هذا الجواب يقول الكاتب :

« لاشك انك لست مع الملك مولاك . فان أردت أن تخضع للملك فستكون مكافأتك عند الملك عظيمة . أما اذا بقيت على ما أنت عليه فالعصيان فى قلبك وستموت أنت واهلك .

«اخضع للملك مولاى لتعيش ... إنى اقول لك : اترك قمة هذا الجبل (٢) وامضى الى مقابلة الملك مولاك ، أو ارسل ابنك الى الملك . اليس لك ابن يمكن ان يذهب اليه ؟ ... اعلم ان الملك قوى كالشمس فى السماء وأن جنوده وعرباته عديدة فى البلاد العالية والبلاد الواطئة (٣) ومن مشرق الشمس الى مغربها » .

وكان عزيرو ذا دهاء ومكر فلما تلقى هذا الجواب

(١) لم نجد لهذه المدينة (Soumoury) موقعا فى الخرائط القديمة التى بين ايدينا ولعلها سامراء .

(٢) يظهر من هذا أن عزيرو كان قد احتمى فى قمة جبل .

(٣) لعل المراد بالبلاد العالية الجبال وبالبلاد الواطئة السهول .



فتاتان مصريتان ترقصان وتضربان بعض الآلات الموسيقية فى حفلة بينما سيدة من سيدات الحفلة جالسة وفتاة تقدم لها شرابا

لم يرد عليه بالرفض بل كتب الى فرعون يقول إنه سيقدم اليه مع ابنه . ثم مضت أيام ولم يقدم ، فكتب يقول إنه قادم . ثم مضت أيام اخرى ولم يقدم ، فكتب يقول إنه تحرك للقدوم ، ولكنه أضاف الى ذلك أن الحيثيين يهاجمون مدينة « تونيبو » وتساءل من يدافع عنها فى غيابه . قال :

« إننى أنا وابنى خادمان وفيان للملك فسنسافر انا وابنى فى الحال .. ليكن مولاى الملك على ثقة من أننى أسارع الى إطاعة أوامره ولكن الملك كلفنى ان ادافع عن اراضيه وها هو ملك الحيثيين قد صار فى ارض نوخاسى وفى مدينة تونيبو .. إننى خائف على بلاد مولاى »

وبينما كان عزيرو يكتب هذا كان أعيان مدينة تونيبو يكتبون الى فرعون رسالة بعد رسالة مستصرخين مستغيثين ، لأن عزيرو يداهمهم ويضيق الخناق عليهم باتفاقه مع الحيتيين . قال هؤلاء الأعيان فى إحدى رسائلهم :

« الى مولانا ملك مصر . نحن أهل تونيبو عبيدك ندعو لك بالسعادة الكاملة ونسقط على قدميك ... مولانا : إن خادمتك مدينة تونيبو تقول : من هو الذى كان يستطيع فيما مضى أن ينهب تونيبو من غير أن يجازيه « مناخبيريا » (٤) يمثل ما فعل فيها .

(٤) يرجح برستيد أن يكون اسم « مناخبيريا » هذا لقبا لتحوتمس الثالث .

« إن آلهة سيدنا ملك مصر وتماثيله موجودة فى تونيبو . ليسأل مولانا فى ذلك من هم لديه من الشيوخ يعرف هل الذى نقوله هنا صحيح أولا .. اذا لم تدركنا جنود مولانا ملك مصر وعرباته قبل ضياع الوقت فان عزيرو يعاملنا كما عامل مدينة « نى » . وحينئذ لانبكى وحدنا بل يبكى ملك مصر معنا من جرائم عزيرو . لأن عزيرو سيدير يومئذ ذراعه ضد مولانا ومتى دخل مدينة سومورى فسيفعل بنا ما يشاء »

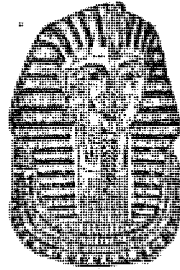
وفى رسالة أخرى قال اعيان تونيبو :

« من هو الذى ميز تونيبو ورفع قدرها ؟ أليس هو أمينوفيس الثالث ؟.. لقد أرسلنا من قبل عشرين رسالة الى مولانا الملك وبقى رسلنا عند مولانا ».

« والآن فان مدينتك تونيبو تبكى ، ودموعها تجرى ، وليس من ينصرنا ».

« لقد كتبنا عشرين رسالة الى مولانا ملك مصر ولم يأتنا رد واحد من عند مولانا » .

وسقطت مدينة تونيبو من غير أن يتحرك أخناتون لينجدها . وزحف عزيرو بعد ذلك على ببلوس مع الحيثيين ، فكتب حاكمها الى اخناتون رسالة بعد رسالة . وثار حكام آخرون ، وتحالفوا مع الحيثيين فدارت المعارك بين الحيتيين وهؤلاء المتآمرين من جانب ، ومع الحكام الباقين على الولاء لمصر من جانب آخر ، ففاز الأولون وانهزم الأخيرون وفقدت مصر كل أملاكها فى سوريا وأكثر أملاكها فى فلسطين دون أن ينهض أخناتون للدفاع عنها . ثم لما نهض بعد ضياع الفرصة لم يقدر مدى ماوقع فأرسل قوة صغيرة فلم تكد تظهر فى الميدان حتى انهزمت .



كتاب الشعب
٨٤

الإسلام
فى
المشارق والمغارب

دكتور جمال الدين الرمادى

مطابع الشعب
١٩٦٠



بدأ الاسلام فى بقاع مكرمة تقع فى الجانب الغربى من الجزيرة العربية ، ولكن هذه المنطقة الضيقة ما لبثت أن اتسعت ، وانتشر نورها حتى شمل الجزيرة العربية برمتها شمالا وجنوبا ، شرقا وغربا . ومن هذه الجزيرة انتقل الاسلام الى شتى الأقطار والأمصار فى العالم .

ففى آسيا شمل بلاد الشام والعراق وما اليهما فى الشمال ، ثم اتجه الى الشرق حتى عمّ ايران ، ومن الجزيرة العربية كذلك وغيرها من الأقطار الاسلامية حتى بلغ الهند والصين وأندونيسيا والملايو واليابان .

وفى أفريقيا شملت الدولة الاسلامية مصر والسودان والحبشة وغيرها ، كما شملت طرابلس وتونس والجزائر ومراكش وكثيرا من الأقطار فى شرق أفريقية وغربها .

وفى أوربا امتد الاسلام عبر جبل طارق فى أسبانيا حتى وصل الى جنوب فرنسا ، ثم الى البلقان وسواحل أوربا من طريق البوسفور والدردنيل وبحر مرمرة ، كما نفذ اليها من طريق سيبريا الغربية حين تدفقت الشعوب التركية والمغولية الاسلامية ، وسيطرت على الأناضول وحوض الفولجا وسهولها والطرف الجنوبى الشرقى من روسيا والسواحل الشمالية لبحر قزوين والبحر الأسود . وما لبث نور الاسلام أن عم أكثر جزر البحر الأبيض المتوسط ، وفى مقدمتها صقلية ومالطة وكريت وقبرص وردوس . وكذلك دخل الاسلام أمريكا الشمالية ، وأمريكا الجنوبية ، وانتشر فى شتى البقاع والأصقاع .

وسنتناول فى هذا البحث الاسلام فى مختلف القارات ، مبينين فضله على الحضارة الأوربية ، وأثر علماء الاسلام وفلاسفته وحكمائه وعباقرته فى الثقافة الغربية .

وجدير بالذكر أن الاسلام دين الحرية والاخاء والمساواة ، لا يعرف الظلم الى مبادئه سبيلا ، ولا الطغيان الى تعاليمه طريقا ... فهو دين السماحة وسجاحة الخلق وصفاء الطبع ونقاء الطوية ، ولم يكن حد السيف أو أسنة الرماح سببا لانتشاره فى يوم من الأيام فالرسول قد كتب الى مختلف الملوك والأقيال والأمراء يدعوهم الى الاسلام .

ويقال ان الكتاب الذى أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم الى هرقل كان كما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد بن عبد الله ورسوله الى هرقل

« السلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وان تتول ، فان اثم الأكارين (الأريوسيين) عليك » .

كما أرسل الرسول الى المقوقس عظيم القبط الكتاب التالى :

« أما بعد ، فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، فأسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين

« ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبـد الا الله ولا نشرك به شـيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

أما كتاب الرسـول صلى الله عليه وسلم الى كسرى ملك الفرس فقد جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس

« سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا اله الا الله . وأنى رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حيا . أسلم تسلم ، فان أبيت فعليك اثم المجوس » .

كما أرسـل الرسول الكريم الى النجاشى ملك الحبشة كتابا آخر ، سنفصله فى الحديث عن الاسلام فى الحبشة .

وهكذا تبين لنا أن الرسـول الكريم لم تكن يفـرض الاسـلام على الناس فرضـا ، انما كان يدعوهم بالتى هى أحسن ... بل انه — صلوات الله عليه — قاسى من أجل هذه الكتب التى أرسلها الى الملوك والأقيال ضروبا من الهوان ، وصنوفا من العذاب .

ومن ذلك أن كسرى فارس ثارت ثائرته ، واشتد ضيقه ، وعظم حنقه عندما تسلم كتاب الرسول ، وأرسل الى عامله على اليمن — وهو « باذان » — يأمره بأن ينهض لتأديب هذا الرجل ، وجاء فى الذارة « ابعث الى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به » :

وأرسـل « باذان » ، امتثـالا لأمر كسرى ، رسولين من قبله الى الرسول يدعوانه الى المثول بين يديه ، ووصل الرسولان الى الطائف ، وقابلا نفرا من قريش ، فسألاهم عن الرسول ، فأخبرهما أحدهم أنه بالمدينـة . واستبشر الجمع بما ينوى كسرى فارس صنعه ، ورفع أحدهم صوته قائلا : « أبشروا فقـد نصب له كسرى ملك الملـوك ، كفيتم الرجل » .

ومضى الرجلان يضربان فى فجاج الأرض حتى وصـلا الى الرسول الكريم فأخبراه أن كسرى يطلب مقـابلته ، ويرغب فى حضـوره . فصرفهما الرسول على أن يلتقى بهما فى الغـد ... وهبط الخبر من السماء على رسول الله المصطفى أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله .

وحان موعـد الرجلين ، فذهبا لمقابلة الرسول الكريم ... ولشـد ما كانت دهشـتهما عنـدما فاجأهما بمصرع كسرى بيد ابنـه شيرويه ، فطار لبهما وطاش عقلهمـا ، وكادا يصعقـان من هول المفاجأة ... وملك أحدهما أعصابه ، وقال موجها الخطاب الى النبى الكريم : « انا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ، أفنكتب هذا عنك ونخبر به الملك ؟ » . فأجاب النبى محمـد : « أخبراه ذلك عنى ، وقولا له ان دينى وسـلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى ... وقولا له انك ان أسلمت أعطيتك ما تحت يديك ، وملكتك على قومك من الأبناء » .

فرجع الرسولان الى باذان ، وأخبراه بما قصه عليهما الرسول . فاشتدت دهشة باذان ، وتملكه الذهول واستبد به العجب ، وقال : « والله ما هذا بكلام ملك ، وانى لأرى الرجل نبيا كمـا يقول . ولننظر فيما قال ، فلئن كان هذا حقـا فانه لنبى مرسل ، وان لم يكن فسنرى فيه رأينا » .

ولم تلبث الأيام أن جعلت الخـبر المسـموع حقيقة ملموسة ، تراها العين كما تسمعها الأذن ، ووافى باذان كتاب « شيرويه » وفيه يقول : « أما بعد ، فانى قد قتلت كسرى ، ولم أقتله الا غضـبا لفارس لما استحل من قتـل أشرافهم . فاذا جاءك

كتابى هذا فخــذ لى الطاعــة ممن قبلك ، وانظر الرجــل الذى كان كسرى كتب فيه اليك (يعنى الرسول عليه الصــلاة والسلام) فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه » . فلما انتهى كتاب شيرويه الى باذان قال : « ان هذا الرجل لرسول » . فأسلم وأسلم من كان معه من الفرس ببلاد اليمن .

وهكذا كان الرسول الكريم يرسل الكتب الى الملوك والأكاسرة والأقيال من أجل هــداية الناس ونشر الاســلام ، ولم تكن هذه الكتب وسائل عنف وارهاب ، أو ذرائع للبطش والتنكيل ... انما كان يدفع بالتى هى أحسن ، بل كان ــ كما أسلفنا القــول ــ يتحمل ألوانا من العسف والضــيق ، وضروبا من الوعيــد والتهديد من جانب هؤلاء القــوم .

وكان صلوات الله عليه يقابل هذا كله بصدر رحب ونفس راضية مرضية ، تستمرىء العذاب فى سبيل الاسلام ، وتتحمل الصعاب فى سبيل نشر الرسالة الربانية بين العالمين . وقد كان عليه الصلاة والسلام ينتصر على خصومه بما أوتى من طهارة نفس وصفاء قلب . وكان سبحانه وتعالى ينفث فيه سره ، فاذا العصىّ من الأمور سهل ، واذا القصى من الطلاب دان ، واذا الحق منتصر على الباطل ... ان الباطل كان زهوقا .

وتقول بعض الروايات العربية ان هرقل ملك الروم كان يميل الى الاسلام ، ومن ذلك ما رواه الطبرى فى الجزء الثالث من تاريخه ، من أنه لما وصل اليه كتاب الرسول ، وهو بالشام يريد العودة الى القسطنطينية ، جمع الروم وقال لهم :

« يامعشر الروم ، انى عارض عليــكم أمورا فانظروا فيما قد أردتها . قالوا : وما هى ؟ قال : تعلمون والله ان هذا الرجل لنبى مرسل . انا نجده فى كتابنا ، نعــرفه بصفته التى وصف لنا ، فهلم فلنتبعه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا . فقالوا : نحن نكون تحت يدى العرب ، ونحن أعظم الناس ملكا وأكثرهم رجالا وأفضلهم بلدا ؟ قال : فهلم فأعطه الجزية فى كل سنة أكسر عنى شوكته ، وأستريح من حربه بمال أعطيه اياه . قالوا : نحن نعطى العرب الذل والصغار بخراج يأخذونه منا ، ونحن أكثر الناس عددا وأعظمهم ملكا وأمنعهم بلدا ؟ لا والله لا نفعل هذا أبدا . قال : فهلم فلأصالحه على أن أعطيه أرض سورية ويدعنى وأرض الشام . فقالوا له : نحن نعطيه أرض سورية ، وقد عرفت أنها سرة الشام ؟ والله لا نفعل هذا أبدا ... فلما أبوا عليه قال : أما والله لترون أنكم قــد ظفرتم اذا امتنعتم منــه فى مدينتكم . ثم جلس على بغل له ، فانطلق حتى اذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام ثم قال : السلام عليكم أرض سورية تسليم الوداع . ثم ركض حتى دخل القسطنطينية » .

وقد تمشت هذه الكتب مع ما جاء فى القرآن الكريم من دعوة الى نشر الاســلام بين العالمين ، كقوله تعالى : « قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » ، وقوله : « وما أرسلناك الا كافة للنــاس بشــيرا ونذيرا ، ولكن أكثر النــاس لا يعلمون » . وقوله تعالى : « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا » .

والرسول ــ قبل هذا كله وبعد هذا كله ــ لم يجبر غير المسلمين على الاسلام اجبارا ، انما جعل لهم الخيار بين الاسلام أو دفع الجزية . وقد قال الله تعالى فى كتابه الكريم : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » . فأرست هذه الآية الكريمة أساس التزام عام شامل يقضى بتحرى العدالة المطلقة مع غير المسلمين على

وجه عام ، سواء كانوا أصدقاء أم أعداء ، من أهل الذمة أم من المحاربين .

وجاء فى آية أخرى « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . ومعنى هذا أن على المسلمين أن يلتزموا أدق قواعد العدالة والانسانية والاستقامة حتى فى قتالهم مع من يعتدون عليهم للقضاء على الاسلام نفسه .

ويروى أن النبى عند ما أرسل أحد جيوش المسلمين الى القتال قال : « انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ، ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا ، وأحسنوا ان الله يحب المحسنين » .

وفى حديث آخر نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قتل الكهنة والرهبان المتعبدين فى الأديرة والصوامع .

وبذلك تنحصر اباحة القتل فى رجال العدو القادرين الذين يدخلون بالفعل الى ميدان القتال ... والقتال نفسه لم يكن المسلمون ينفرون اليه الا تأمينا لدعوتهم ، أو درءا لخطر داهم أوشك أن يحيق بهم ، ويهدد مصالحهم ، ويكاد يعصف بحياتهم ، ويدمر بيوتهم ومساجدهم ... ومخافة أن يتمكن العدو منهم فيستبيح أموالهم ومحارمهم ، وينهب ديارهم ومنازلهم .

وعند ما وقع الرسول الكريم الصلح مع يهود ر أعطاهم صحائف التوراة معززة مكرمة ، مما ، على كرم خلاله وحسن سجاياه ، وتزوج من ـفية بنت حيى بن أخطب حفظا لكرامتهم ، استبقى اليهود فى الأرض ، وحقن دماءهم ، ؛عاملهم معاملة طيبة .

ويذكر صاحب تاريخ الخميس أن النبى كان يترحم على بعض اليهود مثل عبد الله بن أبى الذى بكى عليه اليهود ، ووقف النبى على قبره وعزى ابنه ، وألبسه قميصه . وقد قام المسلمون بأعمال دفنه ، وظل الرسول فى أثناء ذلك واقفا صامتا لا يتحرك من مكانه حتى امتلأ الضريح بالتراب وتوارت الجثة عن العيون ، وأخذ بنو قينقاع وغيرهم من اليهود ينثرون التراب على رءوسهم من شدة الحزن والألم كما يقول الواقدى .

وعندما بعث أبو بكر الصديق الجيوش لفتح الشام تحت امرة أسامة بن زيد ، عملا بوصية الرسول الكريم ، أمر الجند بتجنب السلب والمخادعة ونقض العهود والتمثيل بأحد ، وأوصاهم ألا يقتلوا طفلا أو شيخا فانيا أو امرأة ، وألا يجتثوا النخيل ولا يحرقوه ، ولا يحطموا أية شجرة مثمرة ، ولا يذبحوا شاة ولا بقرة ولا جملا الا لصد غائلة الجوع ، وأخبرهم أنهم سيجدون رهبانا يتعبدون فى أديرتهم ، وأمرهم أن يتركوهم وشأنهم ولا يمسوهم بسوء .

أما عمر بن الخطاب فقد منح اليهود حماية دينهم ، وأمنهم على حياتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم . فلا تهدم كنائسهم ، ولا تتخذ منها منازل ، ولا يمسها أحد بسوء ... وكل ما ورد فى هذا العهد مخفور باسم الله ورسوله وخلفائه والمسلمين عامة ، على شرط أن يدفع الناس الجزية بانتظام .

وعاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة فى جو من الحرية ، بلا تهديد ولا وعيد ... فجاء فى هذا العهد : « هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد نقباء أهل الحيرة ، ورضى بذلك أهل الحيرة وأمرهم به . عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل فى كل سنة جزاء على أيديهم فى الدنيا ، رهبانهم وقسسهم ، الا من كان منهم على غير ذى يد ، حبيسا عن الدنيا

تاركا لها ... وعلى المنعة ، وان لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم » .

ولم يكتف بذلك بل قال : « وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات ... ان كان غنيا فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته ، وعيل من بيت المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الاسلام ! » .

ويذكر التاريخ أن المسلمين كانوا يعوضون الناس عن الضرر الذي يلحقهم خطأ من المسلمين . ومثال ذلك أن ذميا جاء الى عمر بن الخطاب في أثناء فتوح الشام ، وشكا اليه أن بعض المسلمين قد قطعوا عنبا من كرومه دون اذن منه ، فخرج عمر من المعسكر فاذا به يرى مسلما خارجا من الكرم وقد حمل بعض العنب على درعه ، فصاح به في غضب وحدة : « وأنت أيضا قد شرعت ترتكب مثل هذه الحماقات ! » . فاعتذر الرجل بأنه لم يفعل ذلك الا لاشتداد جوعه ، فأمر عمر بأن يعوض الرجل عما فقد من عنبه حتى أرضاه !

وعندما شرع عمر بن الخطاب ينظم ادارة العراق عقب فتحها ، استدعى زعماء البلاد غير المسلمين الى المدينة ليستشيرهم ويستأنس بآرائهم . وجاء في المقريزي أنه كان يفعل كذلك فيما يتعلق بمصر . فاستشار المقوقس عظيم القبط في أمور شتى :

وعندما فتح عمر بن الخطاب الشام صالح أهل « ايلياء » ، وأمن أهلها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، وأعطاهم عهدا بذلك ، وهو المعروف بالعهدة العمرية ، وقد أوردها محمد بن جرير الطبري في تاريخه ، وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود ...

« وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص [1] ، فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيوتهم وصلبهم ، فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيوتهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض ، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع الى أهله ... وأنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم : وعلى مافي هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذى عليهم من الجزية » :

وقد كتب هذا العهد في العام الخامس عشر للهجرة ، وشهد عليه : خالد بن الوليد ، عمرو بن العاص ، عبد الرحمن بن عوف ، معاوية بن أبي سفيان :

وعندما انتشر نور الاسلام الى شتى الأقطار والأمصار ، كانت الشريعة الاسلامية كعادتها تكفل لغير المسلمين كافة الحقوق . فالاسلام لا يعرفه

(1) يتبين من هذا أن نشر الاسلام في ربوع الشرق كان من اهدافه الجوهرية تحرير أرض الشرق من عدوان أبناء الغرب .. من الروم واللصوص . فمن أبى المقام مواليا ، خرج وهو آمن على نفسه وماله . ومن أقام مواليا ، اقام وهو آمن .. وآية ولائه دفع الجزية ـ او الضريبة ـ التى لا يرى مواطن في دفعها غضاضة !

(كتاب الشعب)

التعصب ولا الظلم ، بل يفسح صدره للأقليات التى لا تدين به ، ويأمر برعايتها وحمايتها .

وتوسع معاوية (٤١ — ٦٠ للهجرة ، ٦٦١ — ٦٨٠ للميلاد) فى الحاق المسيحيين بخدمته ، وحذا حذوه أفراد كثيرون من البيت الأموى . وطالما شغل المسيحيون مناصب عالية فى بلاط الخليفة . ومثال ذلك : الشاعر الأخطل — وهو عربى نصرانى — كان شاعر البلاط الأموى ، وأبو القديس يوحنا الدمشقى ، مستشار الخليفة عبد الملك . كما كان فى خدمة الخليفة المعتصم أخوان مسيحيان : أحدهما يسمى « سلمويه » كان اليه الحل والربط فى كثير من أمور الدولة ، والثانى ابراهيم ، وكان يحفظ خاتم الخليفة ، وعهد اليه بخزانة بيوت الأموال فى البلاد .

واختار الخليفة عبد الملك عالما مسيحيا من مدينة الرها ، يدعى أثناس ، مؤدبا لأخيه عبد العزيز . وقد رافق أثناس تلميذه الى مصر عندما عين واليا عليها ، وجمع ثروة طائلة من الأموال ، وقيل « انه امتلك أربعة آلاف من العبيد ، كما ملك كثيرا من الدور والبساتين ، وكان الذهب عنده كأنه الحصى ، وكان أولاده يأخذون من كل جندى دينارا عند ما يتسلم راتبه » .

وفى عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ ، ٨٩٢ — ٩٠٢ م) كان عمر بن يوسف والى الأنبار مسيحيا . وقد وافق الخليفة على هذه الولاية ولم يجد فى ذلك غضاضة .

بل اننا نجد فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، الذى كان يكيل الضربات تلو الضربات للصليبيين ، وزيرا مسيحيا هو ابن مماتى ، وكان صلاح الدين الأيوبى لا يجد مانعا من الاستعانة بخبرته والاستفادة بجهوده ، والرجوع اليه فى كثير من الأمور .

وهذه الحقائق كلها تدل دلالة واضحة على أن الاسلام لم يضطهد فى وقت من الأوقات المسيحية أو اليهودية أو غيرهما من الأديان ... انما كان يرعى معتنقيها ، ويعاملهم باللين والرفق والعدل ، ولم يستخدم يوما وسائل العنف أو القسوة مع أصحاب المذاهب الأخرى ... بل على العكس من ذلك كان يستعين بهم فى كثير من الأمور والمهام ، ولم تكن هذه الأمور بسيطة أو طفيفة ، انما كانت أحيانا أمورا تتصل بالوزارة أو الولاية أو نحو ذلك من المناصب الكبرى فى الدولة .

ولم تكن الضريبة التى يدفعها المسيحيون أو أهل الذمة فى صورة « جزية » تعنى فرض سلطة القوى على الضعيف ، أو الظافر على الخاسر ، أو المنتصر على المخذول ... انما كانت تدفع مقابل الحماية التى كفلتها لهم سيوف المسلمين . ولما قدم أهل الحيرة هذه الجزية ذكروا صراحة عند تقديمها أنهم انما دفعوا الجزية على شريطة « أن يمنعونا هم وأميرهم البغى من المسلمين وغيرهم » . وكذلك سجل خالد فى المعاهدة التى أبرمها مع بعض أهالى المدن المجاورة للحيرة قوله : « فان منعاكم فلنا الجزية ، والا فلا » .

وقد حدث أن رفع هرقل راية العصيان ضد المسلمين ، ورغب فى الانقضاض عليهم وأخذهم بالغدر والخيانة . فلما علم أبو عبيدة قائد العرب بذلك ، كتب الى عمال المدن المفتوحة فى الشام يأمرهم برد ما جبى من الجزية فى المدن ، وكتب الى الناس يقول : « انما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع . وانكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم ، وانا لانقدر على ذلك . وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط ... وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم » . وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة ،

فدعا المسيحيون بالتبركة لرؤساء المسلمين وقالوا : « ردكم الله علينا ونصركم عليهم (أى على الروم) ، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا ، وأخـذوا كل شىء بقى لنا » .

وليس من شك فى أن هذه القصة التى رواها أبو يوسف فى كتاب الخراج ، تدل دلالة واضحة على أن المسـلمين لم يكونوا ينوون للمسيحيين أو غيرهم من الطوائف شرا ، ولم يكونوا ينهبون منهم أموالهم ، أو يستلبون منهم حقوقهم ... انما كانوا يفرضون الجزية عليهم حتى يدافعوا عنهم ، ويحموا جانبهم من غائلات المعتدى الأثيم ، ويقفوا لأعدائهم بالمرصـاد ... فكانوا يحصنون المـدن والثغور ، ويبنون القلاع والحصون ، ويرابطون فى عدتهم وسـلاحهم للدفاع عنهم ، وحماية حقوقهم بالنفس والنفيس .

والسيف لم يكن مصلتا على رأس أحـد من الناس ليكون مسلما ، ولم يكن المسلمون يلجأون الى وسائل التعذيب التى لجأ اليها المشركون لصرف الناس عن الاسلام ... لم يكن المسلمون يصنعون صنيع المشركين عندما أحضروا بلالا مؤذن الرسول وألقاه خلف الجمحى فى الرمضاء على وجهه وظهره فى وقدة الظهيرة ، ثم أمر بالصخرة الكبيرة فألقيت على صدره ووقف يتشفى فيه قائلا له : « هكـذا حتى تمـوت ، أو تكفر بمحمـد وتعبـد اللات والعـزى » . وكان ورقة بن نوفل يمر به وهـو يقـول : « أحد . أحد » ، فيقول ورقة : « أحد . أحد والله يا بلال » . ولم يزل على هذا العـذاب الأليم حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه .

ولم يصنع المسلمون بمخالفيهم فى الدين صنيع المشركين بعمار بن ياسر وأبويه ، اذ كانوا يخرجونهم الى الأسطح اذا حميت الرمضاء ويعذبونهم بحرها ، فيمر بهم الرسول فيقول : « صبرا آل ياسر ، موعدكم الجنـة » . ولما مات ياسر من العـذاب أغلظت امرأته سـمية القول لأبى جهل ، فطعنها بحربة قضت عليها ، فكانا أول شهيدين فى الاسلام ، ثم أمعن المشركون فى تعذيب ابنهما عمـار بالحر تارة ، وبوضع الصخرة على صـدره تارة ، ثم بالتغريق تارة أخرى .

ولم يكن المسلمون يفعلون مع المذاهب الأخرى ما فعلته قريش مع المسـلمين من أجل الايمـان بالأوثان ، وعبادة الأصنام ، والكفران بالواحـد القهار ... بل كانوا على النقيض من ذلك كما رأينا ، يتخذونهم اخوانا ، ويعاملونهم معاملة طيبة كريمة .

وكل هذه الحقائق تنهض أدلة ناصعة ، وحججا دامغة على أن الاسلام لم يكن فى فترة من الفترات دين عنف أو قسوة ، أو بغى وتسلط . حقـا كان لابد للمسلمين أن يعملوا على نشر الدعوة ، وحقا كان لابد لهم من حماية جانبهم ، وصيانة موقفهم والذود عن حياضهم ومن أجل ذلك قاموا ببعض الفتوح ، بيد أن هذه الفتوح كلها لم تكن للبطش والارهاب ، وانما كانت للهداية والايمان .

وجدير بالذكر أن الجزية التى كان يدفعها أهل الذمة فى هذه الفتوح كانت تعفيهم — فضلا عن النواحى سـالفة الذكر — من الخدمة العسكرية الاجبارية التى كانت فرضا واجبا على المسلمين الذين يؤدون فى الوقت نفسه فرض الزكاة من أموالهم . وهذا دليل قاطع على أن الاسـلام لم يحاب فريقا دون فريق وكانت الزكاة تنفق فى وجوه البر والخير وعلى الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، ولم يعف الاسلام قادرا من أدائها .

فالمسـلمون لم يبح لهم أن ينعموا ويغنموا فى الوقت الذى يتعذب فيه اخوان لهم . والمسلمون لم يبح لهم أن يسـعدوا ويهنأوا فى الوقت الذى يشقى فيه اخوان لهم ... لأن الاسلام دين التعاطف

والتآلف والأخوة والمودة والتراحم . وهذه الضريبة كان يدفعها أهل الذمة مساهمة فى توطيد أركان هذا الصرح العظيم ... صرح الانسانية التى ترغب فى بناء عزتها ومجدها على أسس من التضامن الاجتماعى ، والتواصل الروحى ، والترابط الأخوى بين الطوائف المختلفة دون ضن ولا بخل ، ودون تردد ولا احجام .

وهنا يجب أن نوضح أن الاسلام لم يهدف الى الاستعباد أو الاستعمار ، انما كان يهدف الى حماية الحقوق وصيانة الحريات ... فهو يحتم على المسلم أن يدافع عن الذمى ويحميه — ولو ببذل نفسه — من غير أن يتعرض الذمى لخطر ولا قتال ... ولا يكلف هذا الذمى سوى قليل من المال على هيئة جزية . وشتان بين ما يلجأ اليه الاستعمار فى العصر الحديث وما اتبعه الاسلام من نظم سوية وقوانين عادلة ... فالاستعمار فى العصر الحديث يعمد الى تجنيد أهل المستعمرات وتعريضهم للاخطار ، ويرغمهم على القتال دفاعا عن مستعمرى بلادهم .

الاستعمار الأوربى يضحى بالقادرين من أهل مستعمراته دفاعا عن نفسه ، وليبقى أهل المستعمرات خاضعين له . فهو يذلهم ويستعبدهم فى سبيل تفوقه وانتصاره ، وتحقيق أهدافه ، والوصول الى أغراضه . أما الاسلام فلم يكن ولن تكون فيه شىء من هذا ، فهو يسوى بين المحكومين والحاكمين فى الحقوق والواجبات ... لا يعرض أهل الذمة لخطر ولا لقتال ، ولكن بدفع عنهم الخطر ، ويبعد عنهم الأذى ، ولا يكلفهم الا دفع ضريبة ضئيلة ، مساهمة فى الاستعداد لدرء الخطر ، وسياسة أمور الدولة ، واقامة حدود الله بين الناس فى ظل المحبة والعدل والرحمة ... دون كبر ولا استعلاء ، ودون عجرفة ولا رياء ، ودون امتهان القوى للضعيف ، واحتقار الغنى للفقير .

وقد ظل الاسلام راسخا فى البلاد التى أخذته مأخذ العقيدة والايمان ، فآمنوا به بعد بحث طويل ، ونظر عميق ، وتأمل كثير ... ولكنه انحسر عن البلاد التى لم يأخذه أهلها مأخذ الجد . زد على ذلك أن قوى الشر قد تضافرت على محاربة الاسلام ، فما لبث أن انسحب من صقلية وايطاليا وأسبانيا ، بيد أنه ترك فيها حتى اليوم آثارا هيهات أن تمحوها الأيام .

وقد توغل الاسلام فى أوربا عن طريق صقلية والأندلس . وضرب المسلمون فى هذه البلاد المثل الأعلى للسماحة ونبل الخصال ، وعدم التعصب أو الانحياز . وقد ذكر الكونت «هنرى دى كاستر» فى كتابه « الاسلام : خواطر وسوانح » أن محاسنة المسلمين للمسيحيين زادت فى بلاد الأندلس حتى صار سكانها فى حالة أهنأ من التى كانوا عليها منذ أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم « القوط الغربيون » .

ويقول دوزى : « ان هذا الفتح لم تكن مضرا بالأندلس ، وما حصل من الاضطراب والهرج بعده لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة الاسلامية فى تلك البلاد . وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم ، وقلدوهم بعض الوظائف ، حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء ، وكثيرون منهم تولوا قيادة الجيوش . وتولد عن هذه السيادة الرحيمة أن انحاز عقلاء الأمة الأندلسية الى المسلمين ، وحصل بينهم زواج كثير . وكم من أندلسى بقى على دينه ، ولكنه أعجبته طلاوة التمدن العربى فتعلم اللغة العربية وآدابها ، وأصبح القسس يلومونهم على ترك ألحان الكنيسة والتعلق بأشعار الفاتحين ...

« وكانت حرية الأديان بالغة منتهاها ... لذلك لما اضطهدت أوربا الموسويين ، لجأوا الى

خلفاء الأندلس فى قرطبة ولما دخل الملك كارلوس الى سرقسطة أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين ... قال : ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية ما دخلوا بلادا الا وأعملوا السيف فى يهودها ومسلميها ، وذلك يؤيد أن اليهود انما وجدوا مجيرا وملجأ فى الاسلام ، فان كانت لهم بقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم » .

وقد تمكن الاسلام من التوغل فى أفريقيا لأنه لم يفرق بين الأبيض والأسود .. فالناس جميعا سواسية كأسنان المشط . ولم يتحرج المسلمون من الزواج من الزنجيات ،وانجبوا منهن عددا كبيرا من الأطفال المسلمين الذين لم يكادوا يبلغون سن الشباب حتى ازدادت حميتهم ، واشتد دفاعهم عن الاسلام . وذهب بعض الزنوج الى أن الاسلام دين السود ، وأن المسيحية هى دين البيض وقد جاءهم هذا الاعتقاد لأن الاسلام سهل لهم أمور العبادة ، ومكنهم من الوصول الى أرقى الدرجات .

وورد فى القرآن ما يفيد أن بعض الأنبياء كانوا سود الوجوه ، ومن ذلك موسى عليه السلام الذى جاء فى وصفه فى سورة طه « واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء » ، كما جاء فى سورة الأعراف « ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم » . وقد أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اسمعوا وأطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشى » .

وكان من نتيجة دخول الاسلام فى أفريقيا الاستوائية أن تهذبت نفوس الزنوج ، وامتنع المسلمون منهم عن أكل لحم البشر ، وارتدوا ما يستر عوراتهم ، والأهالى الذين لم يكونوا يغتسلون قط أقبلوا على التطهر والاغتسال ، وكان الوضوء من الأسباب الداعية الى نظافتهم ... زد على ذلك أن الشعور بالقيم الأخلاقية بدأ يتجسم ويتضح ، واختفت وسائل السلب والنهب التى كانت متفشية بين القبائل الزنجية ، وأصبح المسجد قبلة أنظار الزنوج يؤدون فيه فرائضهم ، ويصلون فيه صلواتهم الخمس فى جو يسوده الجلال والوقار .

وقد كتب « ميك » فى كتابه « قبائل نيجيريا الشمالية » يقول . « ان الاسلام لم يترك أثرا عميقا فى التركيب الجنسى لهذه الشعوب فحسب ، بل انه جاء بحضارة جديدة أتاحت للشعوب الزنجية طابعا حضاريا متميزا لا يزال واضحا حتى اليوم ، مؤثرا فى نظمهم السياسية والاجتماعية ... ذلك أن الاسلام حمل الحضارة الى القبائل المتبربرة ، وجعل من المجموعات الوثنية المنعزلة المتفرقة شعوبا ، وجعل تجارتها مع العالم الخارجى ميسورة فقد وسع آفاقهم ، ورفع من مستوى الحياة بحلق مستوى اجتماعى أرقى ، وخلع على أتباعه الكرامة والعزة واحترام الذات واحترام الآخرين . لقد أدخل الاسلام فن القراءة والكتابة ، وحرم الخمر وأكل لحوم البشر والأخذ بالثأر ، وغير ذلك من العادات الوحشية ، وأتاح للزنجى السودانى الفرصة لأن يصبح مواطنا حرا فى عالم حر » .

وليس من شك فى أن هذا الاعتراف الصريح الذى ذكره ميك فى كتابه ، يقف بجانب الاسلام فى دعوته أنه دين مبادىء تهوى اليها النفوس من كل جانب ، لا دين سيف مصلت على رقاب الضعفاء ليرغمهم على اعتناقه عنوة وقهرا .

أما الاسلام فى آسيا فقد توغل فى الصين والهند والملايو وأندونيسيا والفلبين وغيرها من البلاد الأسيوية ، وشعر أهل هذه البلاد — وكلهم من

الشعوب الصفراء — بأنهم لا يختلفون فى قليل أو كثير ولا يفترقون من قريب أو بعيد عن الشعوب البيضاء . وقد كان التعليم والاقناع وحدهما الوسيلة التى استخدمها الدعاة المسلمون فى نشر الاسلام . ولم يلبث الاسلام أن وجد تربة خصبة فى هذه البلاد .

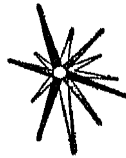
وقد شجع الخلجيون — وهم أسرة أسيوية عاشت فى القرن الثالث عشر للميلاد والربع الأول من القرن الرابع عشر — أهل آسيا على اعتناق الاسلام . وفى ذلك يقول الرحالة « ابن بطوطة » فى رحلته : « انهم قد سنوا عادة تقديم الشخص الذى دخل حديثا فى الاسلام الى السلطان الذى كان يكسوه كسوة حسنة ، ويعطيه قلادة وأساور من ذهب بحسب قدره ومنزلته » .

كما شجع الأمير شاه تغلق (١٣٥١ — ١٣٨٨ م) الهنود على اعتناق الاسلام ، وقال فى مذكراته : « لقد شجعت رعاياى الكفار على اعتقاد دين النبى ، وأعلنت لهم أن كل شخص يترك هذه العقيدة ويصبح مسلما نعفى من الجزية أو ضريبة الرأس . ولما تقدم هذا النبأ بمسامع الناس ، تقدم الهندوس زرافات ووحدانا ، وسمح لهم بأن ينالوا شرف الاسلام ، ومن ثم أخذوا ينثالون من كل حدب وصوب . ولما اعتنقوا الاسلام أعفوا من الجزية ، ومنحوا الهدايا ومظاهر التكريم » .

وهكذا كان للأمراء والحكام دور كبير فى نشر الاسلام بين الرعية . زد على ذلك أن كثيرا من النفوس تفتحت لعقائد الاسلام الشريفة ، وعرفت مزاياه الكثيرة ، واستجابت لدعوة الداعين اليه ، فنعمت بما كفله للمسلمين من حقوق رفيعة .

فالمسألة لم تكن مسألة هزيمة ولا اندحار ، انما كانت مسألة استمالة واقتناع أولا وقبل كل شيء ... ذلك أن السيف لو استطاع أن يترك أثرا فان أثره لا يلبث أن يندمل أو يسلم الى الهلاك . والدين الذى يتوارثه الناس كابرا عن كابر ، وجيلا بعد جيل ، لابد أنه متغلغل فى القلوب ، مستقر فى النفوس ، وأنه يسرى فى الصدور مسرى الدماء فى العروق . وقد استقر الاسلام فى آسيا وغيرها من القارات عشرات القرون ، ولو كان السيف وسيلته لاختفى باختفاء السيف ، ولزال بزوال السلطان .

فالدليل على أنه عقيدة وايمان أنه استمر هذه المئات من السنين دون أن يعتريه ضمور ولا اضمحلال ، ودون أن يدركه فتور ولا خور ، أو تزعزعه أى قوة وتطوح به ... بل على النقيض من ذلك نجد فى الهند والصين وأندونيسيا وغيرها من البلاد الأسيوية مسلمين يتمسكون بالعقائد الاسلامية تمسكا شديدا ، ويعانون المشاق والمتاعب من أجل السفر الى بيت الله الحرام وتأدية فريضة الحج . وهم لا يعبأون بما يتجشمونه من صعاب ، وما يكابدونه من آلام ، لأنهم يعتقدون كغيرهم من المسلمين فى الثواب والعقاب ، ويؤمنون بان فى أداء هذه الفريضة ثوابا عظيما وأجرا جزيلا .



الإســـلام فى آســـيا

الإسلام فى المملكة العربية السعودية

العربية السعودية منبع الاسلام ، ومهد العرب . وقد شعت من ربوعها الرسالة الربانية التى حملها الرسول الكريم محمــد الأمين ، صــلوات الله وسلامه عليه .

وقد كان أهل الجاهلية — قبيل الاسلام — يدعون أنهم على دين ابراهيم الخليل ، وهو الدين الحنيف الذى دعاهم اليه اسـماعيل ... بيد أنهم كانوا يحيدون عن تعاليم هذا الدين ، وينغمسون فى عبادة الأصنام ، ولا يحافظون من الدين القديم الا على بعض المراســم والمناسك — مثل الحج والطواف والسعى — أما فيما عدا ذلك فكانوا يحرصون على عبادة الأوثان . وقد نصبوا على الكعبة أصــنامهم ، وعلقوا عليهــا قصــائدهم أو معلقاتهم .

وكانت اليهودية منتشرة فى الجزيرة العربية — ولا سيما فى يثرب وخيبر وفدك وتيماء — كمــا انتشرت الديانة النصرانية التى وفدت الى الجزيرة العربية عن طريق الحبشة ، وطريق الرومان . فلما جاء الاســلام ، وانبثق نور الهــداية ، حمــل الرسول الكريم الدعوة ، وظل يكافح فى سبيلها دون كلال ولا ملال ... لايقعده ارهاب ، ولايثنيه تعذيب أو يفت فى عضده تنكيل ... بل صابر وثابر على حمل هذه الرسالة الربانية ، حتى تمكن من أن ينتقل بالدعوة من السر الى العلن ، ومن جماعة محــدودة من أهله وأقاربه الى جــزيرة العرب كلها ، ثم الى شتى الأقطار والأمصار فى العالمين .

وقد توالى على الجزيرة العربية حكم الخلفاء الراشــدين : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ابن أبى طالب . ولما قامت الدولة الأموية اتخذت دمشق عاصمة لها ، فانتقل بذلك المركز السياسى من الحجاز الى الشام ، وأصبحت هــذه البلاد ولاية تابعة للخلافة ، بعد أن كانت مركزا تتبعه الولايات . وكان يتولى ادارتها من الأمويين أمراء ينفذهم الخلفاء من دمشق ... فطورا يجمع الأمير بين ولايتى مكة والمدينة ، وطورا يكون لــكل منهما أمير . وكذلك كانت حال الجهات الأخرى من هذه البلاد : فأحيانا تتبع الحجاز ، وأحيانا يتبع قسمها الشرقى العراق . وفيما عدا الفترة التى كان فيهــا الحجاز حكومة مستقلة أيام الحسين ابن على بن أبى طالب ، وعبد الله بن الزبير ... فان ادارة الأمويين للبلاد لم تتغير .

وحين انتقلت الخلافة الى العباســيين ، أسس المنصور مدينة بغداد ، وجعلها عاصمة لملكه . وقد اهتم العباسيون عامة بالحرمين الشريفين والأماكن الموصلة اليهما . أما الأنحاء الأخرى ، فانهم أهملوا شأنها ، وتركوها على حالتها البدوية الأولى .

وقد سقطت مكة فى أيدى القرامطة عام ٣١٧ للهجرة ، ونزع الحجر الأسود من مكانه فى البيت الحرام ، ونقل الى واحة القطيف ، ووضــع فى مسجد الضرار ، لــكى ينصرف الناس اليه عن مكة . والقرامطة شيعة ينتسبون الى شخص يسمى

حمدان بن قرمط ، يمانى الأصل ، غالى فى التشيع لأهل البيت ، ودعا الناس الى اتباع دعوة دينية ، سرعان ما انقلبت الى دعوة سياسية .

ولما زالت قوة القرامطة ، وأعيد الحجر الأسود الى مكة عام ٣٣٩ هـ ، أصبحت مكة خاضعة لحكم ملوك الطوائف . ولما استولى الفاطميون على مصر ، حاولوا أن يخضعوا أهل الحرمين لسلطانهم . ولكن أهل الحرمين امتنعوا عن قبول الحكم الفاطمى لصلة الفاطميين فى أفريقيا الشمالية بالقرامطة ، وفضلوا الحكم العباسى .

وقد قام الأيوبيون بدور كبير فى حماية الحجاج الى بيت الله . وكان الشريف الحسنى فى مكة ، والأمير الحسينى فى المدينة ، خاضعين لحكم الأيوبيين ... الا أنهما كانا يتصرفان فى أحوال أهل مكة والمدينة ، وفى شئون الحجاج ، على النحو الذى يروقهما .

أما المماليك فقد حاولوا تعمير الحرمين ، وأنشأوا بعض المدارس والتكايا ودور الاحسان . وخضع الحجاز بعد ذلك لسلطان آل عثمان . ثم نشبت الحرب بين آل الرشيد وآل السعود ، وانتهت بانتصار آل الرشيد وانسحاب السعوديين من نجد . غير أن هذا الانتصار كان وقتيا ، فلم يلبث أن انتصر آل السعود بعد ذلك . واضطر الملك حسين أن يتنازل عن العرش لابن السعود ، ثم نودى به فى ٢٢ من جمادى الآخرة ١٣٤٤ هـ (٨ يناير عام ١٩٢٦ م) ملكا على البلاد الحجازية . واحتفل بعد ذلك بتنصيبه ملكا على الحجاز ونجد ، فاتخذ جلالته القرآن الكريم دستورا لمملكته .

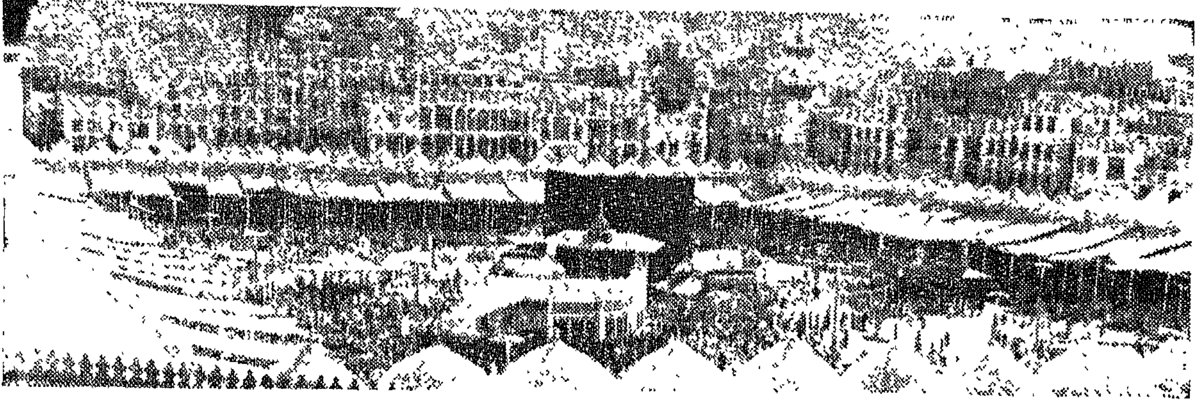
وبعد وفاة الملك عبد العزيز تولى على العربية السعودية الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود .

وينتشر فى السعودية العربية المذهب الوهابى . وهو يرجع الى مذهب أهل السنة والجماعة ، وصاحبه هو محمد بن عبد الوهاب المولود عام ١١١٥ هـ (١٧٠٣ م) ببلدة العيينية بالقرب من مدينة الرياض . والدعوة الوهابية تهدف الى التمسك بهدى السلف الصالح ، واقتفاء أثر الرسول الكريم والصحابة ، ونبذ الخرافات والبدع ، وحظر الاستعانة بغير الله ، ومنع التمسح بالقبور والتعبد عند مقامات الأولياء ... ولذلك يسمون المذهب الوهابى عقيدة السلف ، ويلقب الوهابيون أنفسهم سلفيين . وأكثر اعتمادهم فى الاجتهاد على الامام أحمد بن حنبل ، والامام بن تيمية وتلميذه بن القيم الجوزية .

ويحرص الوهابيون حرصا تاما على الاعتصام بأركان الدين وفروضه وقواعد الآداب ، كالصلاة والصوم وغير ذلك . ويحرمون اتخاذ الملابس الحريرية ، والتأنق فى الأطعمة ، وشرب الخمر والقهوة والأفيون والتبغ ... بل لقد عد بعض الوهابيين المبانى الدينية المزخرفة مما نهى عنه الاسلام ، فهدموا قبة الرسول فى المدينة المنورة ، ودمروا مآذن المساجد .

غير أن المذهب الوهابى تطور مع الزمن ، فأبرم الملك عبد العزيز آل سعود — وقد كان رحمه الله زعيم الوهابيين وامامهم — معاهدة صداقة ومودة مع الامام يحيى ملك اليمن — وهو زعيم الشيعة الزيدية — فى عام ١٩٣٤ م . وهذه المعاهدة تخالف تعاليم الوهابيين الأوائل ، الذين ينكرون أن يتقلد الحكم امام على غير مذهب أحد الأئمة الأربعة : مالك ، وأبى حنيفة ، والشافعى ، وابن حنبل .

ومن الأماكن المقدسة فى المملكة العربية السعودية : غار حراء ، وهو المكان الذى كان يتعبد فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، ومساحته



الكعبة الشريفة ... قبلة المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها

نحو ثلاثة أمتار فى مترين . والغار فى قمة جبل النور على يسار السالك الى عرفة ، وفيه نزل الوحى عليه صلى الله عليه وسلم أول مرة . ومنها جبل ثور فى الجنوب ، وفيه الغار الذى اختفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر ، حين قصد الهجرة الى المدينة ، ومساحته نحو مترين مربعين . ثم المعلا ، وهى مقبرة مكة خارج بابها الشرقى ، وفيها ضريح السيدة خديجة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو داخل قبة تجددت عام ١٢٩٨ هـ . وفى القبة مقصورة من خشب الجوز أقيمت على قبرها الشريف . ومن المزارات فى مكة أيضا : مسجد الجبة ، ومسجد الراية ، ومسجد الاجابة ، ومسجد البيعة ، ومسجد أبى بكر ، ومسجد عمر ، ومسجد بلال ، ومسجد انشقاق القمر ... وغيرها من المساجد والزوايا .

ويدرس فى الحرم الشريف بعض العلوم العربية والتفسير على الطريقة القديمة فى التعليم فى الأزهر .

وكان الحرم المكى أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حدوده القديمة من عهد ابراهيم عليه السلام . فلما كثر زوار المسلمين زاد فيه عمر وعثمان مساحة من الدور التى اشترياها حوله ، وزاد فيه عبد الله بن الزبير عندما بنى الكعبة ، وأقام ما كان تهدم فيه . وكذلك زاد فيه الوليد بن عبد الملك ، وهو أول من نقل اليه أساطين الرخام . ولما حج الخليفة محمد المهدى العباسى ، رأى أن البيت ليس فى وسط المسجد ، فاشترى كثيرا من البيوت المجاورة ، وزادها فى مساحة المسجد . وأدخل عليه كثيرا من التحسينات على مر العصور .

وللحرم المكى اثنان وعشرون بابا فى واجهاته الأربع ، بعضها ذو مدخل ، وبعضها ذو مدخلين أو ثلاثة أو خمسة ، ومجموع مداخلها تسعة وثلاثون مدخلا . وله ست منارات : منارة باب العمرة ، وهى من أعمال الخليفة المنصور العباسى فى عمارته للمسجد سنة مائة وثلاثين ، ومنارة باب السلام ، ومنارة باب على ، ومنارة الحزورة ، وهى من أعمال المهدى العباسى فى عمارته للمسجد سنة مائة وثمان وستين ، ومنارة باب الزيادة وهى من أعمال المعتضد العباسى سنة مائتين وأربع وثمانين ، ومنارة السلطان قايتباى . وقد حصلت فيها كلها ترميمات وزيادات .

وبالحرم سقائف على أعمدة من الرخام : الشمالية منها مصلى الامام الحنفى ، والغربية مصلى الامام المالكى ، والجنوبية للامام

الحنبلى أما الامام الشافعى فكان يصلى فى مقام ابراهيم . وللحرم صحن كبير غير مسقوف تقطعه مماش محجورة . والكعبة تتوسط صحن المسجد بميل الى الجنوب ، ويليهـا من الشرق مقـام ابراهيم . وفى جنـوبه الشرقى قبـة زمزم التى بناها أبو جعفر المنصـور فى سـنة مائة وخمس وأربعـين ، وفرش أرضهـا بالرخام ، وعمقهـا الرشيد . أما الشبكة التى على فوهتها فقد أمر بصنعها السلطان أحمد العثمانى .

والكعبة مربعة تقريبا ، ومبنية بالحجارة الزرقاء الصلبة . وهى ذات زوايا أربع حتى تتكسر عليها تيـارات الهـواء ، فلا يؤثر ضغط الرياح على كتلتهـا . ويسـمون زوايا البيت الخـارجية « الأركان » : فالشـمالى منها يسـمى الركن العـراقى ، والغربى يسمى الشامى ، لأنه متجه ناحية الشام . والقبلى يسمونه اليمانى لاتجاهه الى اليمن ، وفيه حجر يسمونه الحجر الأسعد . والشرقى يسـمونه الركن الأسود ، وهو حجر مصقول بيضى غير منتظم ، ولونه أسـود مشوب بحمرة ، وفيه نقط بيضـاء وتعاريج صفـراء ، وقطره نحو ثلاثين سنتيمترا .

أما الحرم المدنى — وهو مسجد النبى صلى الله عليه وسلم — فيقع فى وسط المدينة المنورة بميل الى الشرق . وهو لطيف الشـكل ، جميل المنظر ، على هيئة مسـتطيل متوسط ، طوله من الشمال الى الجنوب مائة وستة عشر مترا وربع متر ، وعرضه من الشرق الى الغرب ، من جهـة القبلة ، سـتة وثمانون مترا وخمسـة وثلاثون سنتيمترا ، ومن جهـة البـاب الشـامى سـتة وستون مترا .

والحرم المـدنى ينقسم قسـمين : المسجد ، والصحن . والمسجد يبتدىء من قبـلة عثمان ، وتعـلوه قباب مرتكزة على أقواس ، قامت على عمد من الصوان المكسو بطبقة من المرمر الموشى بمـاء الذهب . أما الصـحن — ويسـمونه الحصوة — فهو مستطيل الى الباب الشـامى ، ويحيط به من جهـاته الثلاث أروقة ثلاثة ، فيها أعمـدة تحمل أقواسا رفعت عليها قباب مرتفعة جـدا . وأعمـدة الحـرم الشريف — بما فيها الملتصقة بحوائطه — ثلاثمائة وسـبعة وعشرون عمـودا ، منها اثنان وعشرون داخل المقصـورة الشريفة .

والروضـة الشريفة فى غرب المقصورة ، وقد كتبت فيها ربعات قرآنية كثيرة . وفيها عدد كبير من المصاحف مختلفة أحجامها : بعضها مطبوع ، وبعضها مكتوب بخط جميـل . وكتب دينيـة موقوفة من الزوار . وفى غرب الروضة الشريفة القبلة ، وهى آية الآيات فى كمال بهجتها وجمال صنعتها . وغرب القبلة المنبر الشريف ، وهو من الرخام المنقوش بالذهب ، أرسله السلطان مراد الثالث العثمـانى هـدية الى الحـرم سنة ثمان وتسـعين وتسعمائة للهجرة ، فوضع فى مـكان المنبر الذى أحضره قايتباى ، وهو المكان الذى كان به منبر الرسول عليه الصلاة والسلام .

وفى المدينة وضواحيها مزارات أخرى كثيرة ، أشهرها : مسجد قباء ، ومسجد حمزه ، والبقيع . وفيها بيته عليه الصـلاة والسـلام ، وهو أكثر بساطة من مسكنه فى مكة .

وهكذا حفلت مكة والمدينة وضواحيهما بكثير من الأماكن المقدسة التى يؤمها الحجيج من كل فج عميق . وهى تحمـل بين جنباتهـا نفحـات الاسلام وعطره الفواح وأريجه الزكى العاطر . ومن هذه الديار المقدسة شع الاسلام ، وانبثق نور الهداية ، وانبلج شعاع الحق . وقد شاء الله أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

الاسلام فى الجمهورية العربية المتحدة

الاقليم الشمالى

فتح المسلمون الشام فى عهد أبى بكر الصديق ، وكان تابعا لحكم البيزنطيين . فقد دعا أبو بكر المقاتلين من جميع أجزاء الجزيرة العربية ، وكون منهم أربعة ألوية جعل على كل لواء أميرا . وكان اللواء الأول بقيادة أبى عبيدة بن الجراح ، وقد وجهه الى حمص ، وجعل مركز قيادته الجابية . واللواء الثانى بقيادة عمرو بن العاص ، وقد وجهه الى فلسطين . واللواء الثالث بقيادة يزيد بن أبى سفيان ، ووجهه الى دمشق . واللواء الرابع بقيادة شرحبيل بن حسنة ، ووجهه الى وادى الأردن ... وأمر أن يعاون بعضهم بعضا .

وفى الوقت الذى شتت فيه عمرو بن العاص جيوش البيزنطيين فى فلسطين ، كان جيش الشام قد استولى على بصرى ودمشق . وفى معركة اليرموك انتصر المسلمون على البيزنطيين ، فخضعت لهم بلاد سوريا كلها وقد زعم الروم أن اليرموك حصينة لا تقهر ، فذهبت أوهامهم أدراج الرياح .

ولما علم هرقل بانتصار المسلمين فى واقعة اليرموك — وكان ببيت المقدس — رأى أن بقاءه بها خطر عليه ، فأسرع بالرحيل الى حمص . ودام حصار المسلمين لدمشق سبعين يوما ، ولم تجد البيزنطيين منعة حصونها . وقد رأى أهل دمشق جيش المسلمين ينساب من بين الأدغال والحدائق كتيبة اثر كتيبة ، وعلى المقدمة عمرو بن العاص فى تسعة آلاف فارس ، ومن ورائهم كتائب المسلمين وقوادهم ، وعلى الساقة خالد بن الوليد .

وقد قامت دمشق بدور كبير فى سياسة الدولة الأموية ، اذ اتخذها معاوية قصبة لملكه عام ٤١ للهجرة (٦٦٠ م) ، وأنشأ فيها مسجدا كبيرا تم بناؤه فى عهد الوليد بن عبد الملك ، ويعد آية فى الروعة والجمال .

وقد كان المسجد قبل ذلك كاتدرائية تسمى كاتدرائية القديس يوحنا المعمدان ، ويعد الرابع فى الاسلام بعد مساجد مكة والمدينة والقدس . ولم يقتصر الوليد ، فى بناء هذا المسجد ، على استخدام أهل الخبرة من أبناء البلاد ... بل حشد صناعا وفنانين من الفرس والهنود ، وأرسل الى امبراطور الروم فى طلب مائة من الفنانين اليونانيين . وقد زين المسجد وأعالى جدرانه بالفسيفساء الملونة والرخام النادر ، وذهب بعضها ورصع بالأحجار الكريمة .

وبنى الوليد الى الجانب الشمالى من المسجد مئذنة استخدمت أيضا عثابة منارة ، وغدت نموذجا للمآذن فى سوريا وشمال أفريقيا ، ثم نقل طرازها الى الأندلس على يد عبد الرحمن الأول . وهذه المئذنة هى أقدم مئذنة اسلامية خالصة لا تزال قائمة . أما المئذنتان الأخريان فى الطرف الجنوبى ، فقد أقيمتا على برجين قديمين للكنيسة . ويقول الغزالى الفيلسوف انه اعتكف فى المئذنة الشمالية للتأمل والصلاة . وربما كان جامع دمشق أول مسجد ظهر فيه المحراب . وقد أحرق البناء عام ١٠٦٩ م ، ثم عام ١٤٠٠ م على يد تيمورلنك ، وكذلك عام ١٨٩٣ م .

وقد اهتم الوليد بن عبد الملك ببناء هذا المسجد الضخم لولعه الشديد بفن العمارة ... اذ أغرم غراما شديدا بهذا الفن ، فكان لا يدخر جهدا فى تشييد العمارات والمساجد ، واقامة الدور والقصور ، وحفر الآبار واصلاح الطرق ، حتى كان الناس فى

أيامه اذا تلاقوا فى الأسواق والمجالس تساءلوا عن العمارة ، وعن أى بناء شرع فيه خليفتهم ... كدأبهم فى التساؤل عن الخير والصلاة فى أيام عمر بن عبد العزيز ، وعن الطعام فى أيام سليمان بن عبد الملك ، وعن اللهو فى أيام الوليد بن يزيد .

وقد ذكر ابن جبير فى رحلته أنه ليس فى بلاد الاسلام كلها مثل هذا الجامع حسنا واتقانا وجمال رسم وتمام زخرفة وزينة .

وروى أن جملة ما أنفق على الجامع كان أربعمائة صندوق ، فى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار . وكان المتولى على النفقة عمر بن عبد العزيز قبل أن يلى الخلافة . وحملت وثائق الصرف ثمانية عشر بعيرا ، ولم ينظر اليها الوليد عندما قدمت اليه .

ويقول ياقوت الحموى : « انه استخدم ستمائة سلسلة من الذهب للقناديل والثريات ، وزين جدرانه بفصوص من الذهب والفسيفساء ممزوجة بأنواع من الأصباغ العجيبة تمثل أشكالا من الرسوم لم ير أبهج منها فى العيون ، وكتب فى حائط المسجد بالذهب على اللازورد « ربنا الله لا نعبد الا الله . أمر ببناء هذا المسجد ، وهدم الكنيسة التى كانت فيه ، عبد الله الوليد أمير المؤمنين فى ذى الحجة سنة سبع وثمانين » .

وبالمسجد ثلاث مقصورات ، بجوار احداها خزانة مغشاة بالنقوش ، فيها المصحف الكريم الذى وجهه عثمان بن عفان رضى الله عنه الى الشام ، وفيها خاتم من الفضة للوليد بن عبد الملك منقوش عليه « ياوليد انك ميت ومحاسب » ، وخاتم لأخيه سليمان كلماته « آمنت بالله مخلصا » .

وأشهر المقصورات فى المسجد ، المقصورة الصحابية . ويقول ابن أبى الفداء : « انها أول مقصورة صنعت فى الاسلام . وقد بناها معاوية بن أبى سفيان وقاية لنفسه من الخوارج أن يغتالوه فى أوقات الصلاة ، كما اغتالوا عليا عليه السلام » . فكان اذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف ... على حد تعبير « الفخرى فى الآداب السلطانية » .

وبالقرب من المقصورة الصحابية تابوت ، فوقه قنديل موقد أبدا فى الليل والنهار ، ويقال انه مشهد رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام .

ويقول ياقوت فى « معجم البلدان » عن هذا الجامع الفريد : « ان من اعجابه أنه لو عاش الانسان مائة سنة ، وكان يتأمله كل يوم ، لرأى فيه ما لم ير فى سائر الأيام من حسن الصناعة واختلافها » .

وهناك مسجد يقولون ان المسيح عليه السلام أوى الى مغارة بجانبه ، وفيه حجر انشق ولم ينفصل أحد الشقين عن الآخر ، بل بقيا متصلين كرمان مشقوق ... أما قرية « برزة » فيزعم بعض الناس أنها شهدت مولد الخليل ابراهيم عليه السلام ، كما توجد حجارة مصبوغة بشىء يشبه أن يكون أثر دم ، ويقولون انها الحجارة التى رض بها قابيل رأس أخيه هابيل ، ثم جره الى مغارة هناك يطلقون عليها « مغارة الدم » .

ودمشق من أجمل البقاع السورية ، وبها الغوطة الوارفة الظلال الساحرة الفاتنة ... حتى ان الرسول الكريم صلوات الله عليه قال عنها ، عند ما بلغها قادما من مكة المكرمة : « ان المؤمن لا يدخل الجنة مرتين » . وأبى أن يدخلها ، وقفل راجعا .

* * *

ولم تلبث الخلافة أن انتقلت الى بغداد . وبقيت دمشق بآثارها العظيمة شاهدة على مجدها القديم وعزها التليد ، وبقيت العروبة تنبض فى عروقها ،

وتتمشى فى أوصالها . وظلقت القبائل العربية منذ ذلك التاريخ ترتحل الى الشام ، وتحمل معها رسالة الاسلام ونور الدين حتى أضاء الاسلام فى جنبات البلاد ، وأصبح دين الغالبية من أبنـاء الاقليم السورى .

وفى الاقليم السـورى مدارس دينية لاعداد مدرسى الدين الاسلامى وقضاة المحاكم الشرعية وكتبتها ، وتشرف عليها ادارة الأوقاف . وبعض هذه المدارس ابتدائية ... غير أن هناك اثنتين أعلى مستوى : واحدة فى دمشق ، والأخرى فى حلب .

ومدرسة دمشق هى كلية الشريعة التى أنشأتها جامعة العلماء عام ١٩٤٢ ، وهى مقسمة أقساما ثلاثة : القسم الأول — ومدته ست سنوات — فى مستوى مدرسة ثانوية دينية لاعداد الكتبة للمحاكم الشرعية ومدرسى الدين للمدارس الأولية . والقسم الثانى — وهو أعلى ، ومدته أربع سنوات — لاعداد طبقة أرقى من كتبة المحـاكم الشرعيـة والوعاظ وصغار القضاة ، ومدرسى اللغة العربية والدين فى المدارس الثانوية . والقسم الثالث — وهو العالى — لاعداد كبار القضاة والمفتين . ويدير مدرسة دمشق مجلس مكون من القاضى الشرعى رئيسا ، والمفتى والنقيب — وهو العميد أو المسجل — ومديرى الأوقاف وممثلين من وزارة التربية والتعليم ومدير المدرسة وسكرتيرها . والتعليم فيها بالمجان ، وكذلك السكن والطعام لطلبة القسم الداخلى .

أما مدرسة حلب فهى الكلية الاسلامية ، وتتولى أمرها الجمعية الاسلامية ، وتحاول أن تقف على قدميها بازاء المدارس الأجنبية . وقد تمكنت جماعة من المواطنين المتصلين بملجأ الأيتام الاسلامى فى حلب من التأثير على سيدة ثرية من حلب ، فتبرعت لهم ببناء المدرسة على نفقتها فى ضواحى حلب عام ١٩٤٣ م . وتتبع المدرسـة مناهج الدراسـة فى المدارس الرسمية ، مع زيادة الحصص الخاصـة بالقرآن والدين ، وتقرير حصص اضافية لتكوين الخلق الاسلامى . وتمنح الحكومة المركزية والبلدية فى حلب المدرسة كثيرا من الاعانات . ولا يتوالى الأغنياء والأثرياء عن مدها بالمعـونة فى شتى المناسبات . ويبلغ عدد المدارس الاسلامية فى الاقليم السورى ثمانين مدرسة بعضها للبنـين وبعضها للبنات ، وبعضها مشترك للجنسين .

الاســلام فى فلسطـين

كان فتح فلسـطين فى أيام أبى بكر ، رضى الله عنه ، على يد عمرو بن العاص . وقد قال له أبو بكر وهو يسـلمه الراية : « قد وليتك هـذا الجيش (يعنى أهل مكة والطائف وهوازن وبنى كلاب) ، فانصرف الى أهل فلسطين ، وكاتب أبا عبيدة بن الجراح (وكان يتجه الى حمص) ، وأنجده اذا أرادك ، ولا تقطع أمرا الا بمشورته ... اتق الله فى سرك وعلانيتك ، واستحيه فى خلواتك ، فانه يراك فى عملك . وقد رأيت تقدمى لك على من هم أقدم منك سابقة ، وأقدم منك حرمة ... فكن من عمال الآخرة ، وأرد بعملك وجه الله ، واسلك طريق ايلياء حتى تنتهى الى أرض فلسطين ...

« واياك أن تكون وانيا عما ندبتك اليه ، واياك والوهن ، واياك أن تقول جعلنى ابن أبى قحافة فى نحر العدو ولا قوة لى به . واعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر ، فأكرمهم واعرف حقهم ، ولا تتطاول عليهم بسلطانك ، ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول انما ولانى أبو بكر لأنى خيرهم . واياك وخدائع النفس ، وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد من أمرك . والصلاة ثم الصلاة ، أذن بها اذا دخل وقتها ، واحذر من عدوك ، وأمر

أصحابك بالحرص ، ولتكن أنت بعد ذلك مطلعاً عليهم . وأطل الجلوس بالليل على أصحابك ، وافم بينهم ، واجلس معهم . واتق الله اذا لاقيت العدو ، وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك ...

« واذا وعظت فأوجز ، وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك . واذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر ، فيكون ذلك منك فخرا . وألزم أصحابك قراءة القرآن ، وانههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها ... فان ذلك يورث العداوة بينهم . وأعرض عن زهرة الدنيا حتى تلتقى بمن مضى من سلفك . وكن من الأئمة الممدوحين في القرآن ، اذ يقول الله تعالى : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » .

ثم قال لعمرو : « امض بارك الله فيك وفيهم » .

سار عمرو فى تسعة آلاف يريدون فلسطين . ومنذ ذلك الوقت انتشرت القبائل العربية فى أرض فلسطين وما جاورها ، وأقامت . واستوطن الشعب العربى هذه البقاع الى جانب القبائل العربية التى كانت تقيم بها منذ عصور سحيقة فى القدم .

وفى مدينة القدس (وهى تابعة الآن للأردن) ستة وثلاثون مسجدا ، عدا المسجد الأقصى ومسجد الصخرة ، تسعة وعشرون منها فى المدنة القديمة داخل السور ، وسبعة فى المدينة الجديدة .

وللمسجد الأقصى (ويسمى الحرم الشريف) عشرة أبواب مفتوحة ، وأربعة مغلقة . وفى ساحته عدة أسبلة أنشأها الملوك والمتولون على القدس ، وبه خمس وعشرون بئرا عذبة . ثمان منها فى صحن الصخرة ، وسبع عشرة فى فناء الأقصى . ويجتمع الناس للوضوء حول الحوض المسمى بالكأس ، أمام المسجد الأقصى وللحرم أربع مآذن عالية ، وبه أروقة أخرى فى الجهتين الغربية والشمالية ، ومكتبة ومتحف اسلامى .

أما مسجد الصخرة (ويطلق عليه الحرم أيضا) فقد بنى فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان عام ٧٢ للهجرة (٦٩١ م) ، ورصد لبنائه خراج مصر سبع سنين . وقد تبقى من المبالغ المخصصة لبنائه مائة ألف دينار ، فأمر بها عبد الملك جائزة للرجلين اللذين أشرفا على البناء — وهما رجاء بن حياة الكندى ، أحد علماء الاسلام من بيسان ، ويزيد ابن سلام من القدس — فرفضا قائلين : « نحن أولى أن نزيده من حلى نسائنا ، فضلا عن أموالنا ، فاصرفها فى أحب الأشياء اليك » . فأمر أن تسبك ذهبا ، وتفرغ على القبة والأبواب .

وفى عام ١٠٩٩ م حول الصليبيون المسجد الى كنيسة ، وبنوا عليه مذبحا . ولكن صلاح الدين الأيوبى عاد فأزال المعالم الصليبية ، وزين القبة ، وستر الجدران بالرخام ، وأقام السدنة لخدمة المسجد ، ووقف عليه دارا وأرضا . واهتم بعمارته من بعده ملوك بنى أيوب والمماليك والعثمانيون . ومن عمل المماليك صنع الأبواب ، واصلاحات القبة ، واقامة القناطر وعدد من المآذن وبعض الأسبلة . أما سلاطين بنى عثمان فقد جددوا عمارة الأبواب وصنعها ، ووضعوا القسم الأكبر من الرخام والبلاط الصينى فى الجدران ، كما ركبوا القاشانى البديع فى عدد من الطاقات وفى قبة السلسلة ، وأهدوا مجموعة كبيرة من السجاد العجمى والثريات الى مسجد الصخرة والمسجد الأقصى .

ويرجع تقديس المسلمين للصخرة الى صلتها الوثيقة بقصة الاسراء والمعراج . وهى تحت قبة المسجد مباشرة ، وطولها من الشمال الى الجنوب

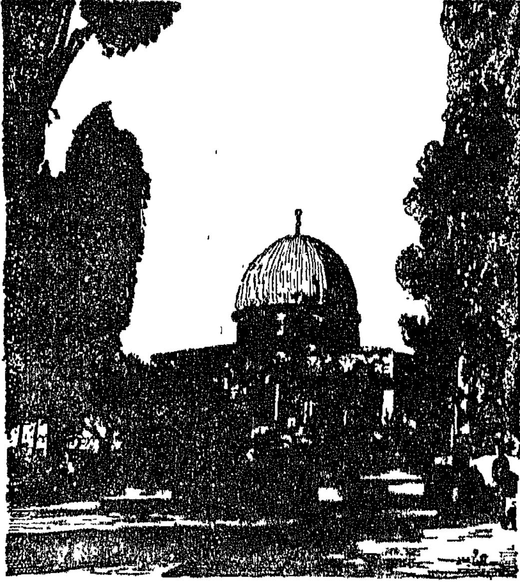
١٧٫٧٠ مترا ، وعرضها من الشرق الى الغـرب ١٣٫٥٠ مترا ، وارتفاعها يتراوح بين متر ومترين .

والمسجد الأقصى فى الجهـة الجنوبية من رقعة الحرم الشريف وقد شرع فى بنائه عبد الملك بن مروان الأموى ، وأتمه ابنه الوليد بن عبد الملك عام ٧٠٥ م وطوله ثمانون مترا ، وعرضه خمسة وخمسون مترا ويقوم الآن على ثلاثة وخمسين عمودا من الرخام ، وتسع وأربعين سارية مربعة . وكانت أبوابه زمن الأمويين موشاة بصـفائح من الذهب والفضـة ، ولكن أبا جعفر المنصور امر بنزعها وصرفها دنانير تنفق على المسجد وفى أوائل القرن الحادى عشر أصلحت بعض أجزائه ، وصنعت قبته وأبوابه الشمالية .

وقد طرأ على المسجد الأقصى خلل عام ١٩٢٧ م ، فساهمت الدول الاسلامية كلها فى تعميره ، وأقيمت له أعمدة جديدة على أساسات متينة من الخرسانة المسلحة وفى داخل المسجد الأقصى جامع مستطيل يسمونه « جامع عمر » ، وايوان كبير يسـمونه « مقام عزيز » ، وايوان صغير جميل فيه محراب زكريا عليه السلام .

وقد عانى هذا القطر الاسلامى — ولا يزال — صراعا مريرا بين العرب أصحاب البـلاد واليهود المغتصبين فى شتى مراحل التـاريخ ففى أثنـاء الحرب العالمية الأولى ، أحست بريطانيا أن شعور اليهود بدأ يتحول ضـدها ، فأرادت أن تكسب تأييدهم فأصـدرت فى ٢ من نوفمبر عام ١٩١٧ تصريحا سمى « وعد بلفور » تعهدت فيه بانشاء وطن قومى لليهود وقد سر اليهود بهذا الوعد ، وشرعوا يرسـمون الخطط ، ويدبرون المؤامرات لاجلاء العرب عن فلسطين ، وانشاء وطن قومى بها .

وكان من خطة اليهود العمل على ايجاد أكثرية يهـودية ساحقة بفلسطين من طريق الهجرة ،



قبة الصخرة بفلسطين التى يحج اليها عشرات الالاف من المسلمين

والاستيلاء على جميع الأراضى الصالحة بها ، وخنق العـرب خنقا ماديا .. حتى اذا أعيتهم الحيل ، اضطروا الى الانسحاب من فلسطين ، والرجوع الى بواديهم والضرب فى الصحراء .

وقد تتابعت الثورات فى البلاد العربية لاخراج اليهود من فلسطين ووقف الهجرة ، فأوفدت بريطانيا لجنة لدراسة القضية الفلسطينية عام ١٩٣٦ تسمى لجنة بيل ، وانتهت من مهمتها فى عام ١٩٣٧ بمشروع يقترح تقسيم فلسطين الى دولتين دولة عربية ، ودولة يهودية غير أن العرب رفضوا المشروع ، وعقدوا مؤتمرات عدة لاستنكاره .

ولما قامت الجامعة العربية فى عام ١٩٤٥ ، قرنت بميثاقها ملحقا خاصـا بفلسطين أجمعت فيه على اعتبارها دولة مستقلة لهـا الحق فى الانضمام الى الجامعة ، وان حالت دون ذلك ظروف قهرية فلما عزمت بريطانيا على انهاء انتدابها على فلسطين عقب الحرب العالمية الثانية ، أصدر مجلس جامعة الدول العربية فى ٩ من أكتوبر عام ١٩٤٧ قرارات مهمة أوصى فيهـا حكومات الدول العربيـة بأن تبادر

باتخاذ احتياطات عسكرية على حدود فلسطين ، كما أوصى كذلك بتقديم مساعدات مادية ومعنوية لعرب فلسطين .

وفى ٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٧ قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة تقسيم فلسطين الى دولتين : احداهما عربية ، والأخرى يهودية . وقد قضى هذا القرار الظالم ببقاء أقلية من العرب ، عددها ٣٣٧ ألف عربى ، فى منطقة اليهود ، مع أن معظم المقيمين فى الأقاليم الادارية العشرة التى خصصت لليهود من العرب ، ومساحة الأراضى فى كل من المنطقتين العربية واليهودية تكاد تكون متعادلة .

يضاف الى ذلك أن معظم الأراضى فى منطقة اليهود مملوكة للعرب ، ولا تزيد نسبة ملكية اليهود للأراضى فى أى بلد من بلدان فلسطين على ٣٩٪ . ولكن قرار الامم المتحدة خصص الأراضى الزراعية لليهود ، وأخصب الوديان لهم ، وكانت الصناعة أيضا من نصيب اليهود ... فمعظم مصانع صقل الماس والمنسوجات والكيماويات تقع فى أحيائهم ، وتديرها رءوس أموال يهودية .

ونشبت الحرب بين العرب واليهود فى نوفمبر عام ١٩٤٧ ، وسارعت الدول العربية ، وفى مقدمتها مصر بالتدخل ، وكاد الجيش المصرى — بالرغم من قلة ذخيرته ، وفساد أسلحته ، وعوامل التخاذل والخيانة من وراء ظهره — أن يحرز نصرا حاسما فى هذه الحرب ... لولا تآمر دول الغرب ، واسراعها بفرض هدنة على المتخاذلين من الساسة ، أفقدت الجيوش العربية ما أحرزته من نصر ، ومكنت العصابات الصهيونية من التسلح والاستعداد . وبعد مد وجزر أوقفت الحرب فى ٢٥ يناير عام ١٩٤٩ بهدنة عقدها المتنازعون فى « رودس » استجابة لنداء مجلس الأمن الدولى الذى صدر فى ١٦ نوفمبر عام ١٩٤٨ لبحث وسائل فض النزاع .

وقد ترتب على هذه المأساة الانسانية ، أن تشرد مليون من العرب ، بعد أن سلبوا أموالهم وديارهم وأرضهم ، ولجأوا الى الدول العربية المجاورة ، والى قطاع غزة فى كنف الجمهورية العربية المتحدة .

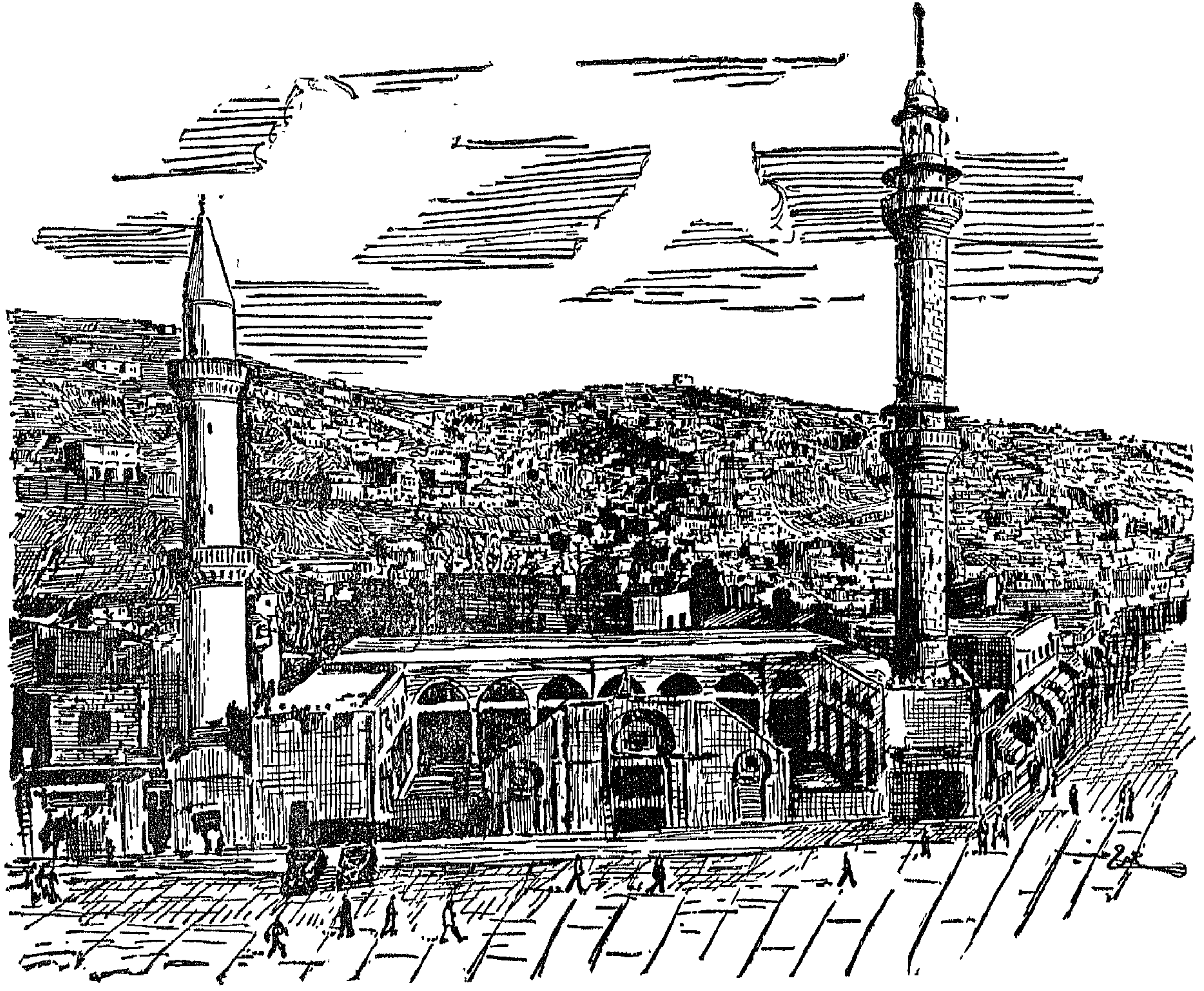
وقد اهتمت جامعة الدول العربية بمشكلة اللاجئين التى تفاقم خطرها ، فتعاونت مع لجنة التوفيق الدولية التى شكلت فى ١١ من ديسمبر عام ١٩٤٨ بناء على قرار مجلس الأمن الصادر فى ١٦ نوفمبر عام ١٩٤٨ ، وبالرغم من فشل هذه اللجنة فى مهمتها ، فقد قامت باتخاذ تدابير لترحيل عدد من اللاجئين ، كما قررت معونة بعضهم ماليا . وتكون لذلك مجلس أعلى لاغاثة اللاجئين .

ولئن كانت عوامل الفرقة والتخاذل ، ومواطأة الاستعمار قد مكنت الصهيونية من فلسطين فى عام ١٩٤٨ ... فان القومية العربية التى أيقظت روحها هذه المأساة الدامية ، وتحمل لواءها الجمهورية العربية المتحدة ، لن يهدأ لها بال حتى تعود فلسطين الى العرب ، ويعود العرب اليها ، وتنعم الأراضى المقدسة بالسلام والأمن .

الاسلام فى الأردن

يقع الأردن فى صميم الوطن العربى الكبير ، ويحده من الشمال الاقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة ، ومن الشرق العربية السعودية والعراق ، ومن الجنوب العقبة والعربية السعودية ، ومن الغرب الجزء المحتل من فلسطين .

وأقدم من سكنه من الشعوب الكنعانيون ما بين ٣٠٠٠ و ٢٥٠٠ قبل الميلاد ، ثم الأدوميون والعمونيون ... وكلهم نزحوا اليه من الجزيرة العربية . ثم خضعت البلاد لحكم المصريين والبابليين والآشوريين والكلدانيين والفرس ، واستولى



المسجد الحسينى فى عمان بالاردن

عليها بعدئذ اليونان والرومان . ثم جاء العرب فغمروها بعدلهم ، ونشروا فى ربوعها راية السلام ، وعمروها ... ولم تزل عامرة بهم الى ما شاء الله .

وقد استشهد فى أرض الأردن أول مسلم بسبب اسلامه ، وهو عروة بن عمرو الجذامى عامل الروم على عمان . وكان قد اعتنق الاسلام ، وأرسل الى النبى صلى الله عليه وسلم بغلا أشهب وفرسا وحمارا ، وأقمصة كتانية وعباءة حريرية ، هدية اليه . فاغتاظ الروم من هذا ، وشددوا الخناق عليه وقتلوه .

وعدد المسلمين فى الأردن ١٫١٤٢٫٠٠٠ نسمة من السكان البالغ عددهم ١٫٣٥٠٫٠٠٠ نسمة .

وقد ازداد عدد المسلمين فى الأردن بعد تقسيم فلسطين ، وضم جزء كبير من أراضيها اليه ، ومنها منطقة بيت المقدس التى تضم عددا كبيرا من المسلمين .

وقد تكونت الأردن بين عامى ١٩٢١ ، ١٩٢٣ م ، ولم يكن لها وجود قبل ذلك . وكان الأمير عبد الله (الملك عبد الله فيما بعد) قد تحرك من الحجاز شمالا — بعد اجلاء شقيقه فيصل الأول عن سوريا وفلسطين — بغية العمل على استرداد سوريا من الفرنسيين . ولكن ونستون تشرشل ،

وزير المستعمرات البريطانى فى ذلك الوقت ، تدخل فى الأمر — وكان الملك فيصل قد انتخب ملكا على العراق — واتخذت التدابير لعزل المنطقة المعروفة الآن باسم المملكة الأردنية الهاشمية عن فلسطين ، وتولى الأمير عبد الله حكمها .

وفى عام ١٩٢٨ م أبرم اتفاقية مع البريطانيين ترتب عليها انشاء مجلس تشريعى للبلاد لم يكن حرا فى آرائه ، لأن أصبح بريطانيا كانت تتدخل فى قراراته ... بيد أنه اعترف باستقلال الأردن فى معاهدة عام ١٩٤٦ م ، وترتب على ذلك أن أصبح عبد الله بن الحسين ملكا على المملكة الأردنية الهاشمية .

وقد اتجهت سياسة حكام الأردن الى مساندة الاستعمار الذى يعمل على هدم الأديان ، ومحاربة الاسلام ، وبث الفرقة بين الطوائف ... ووقف شعب الأردن من هذه السياسة موقف العداء ، وناهضها بكل ما يملك من قوة ، وثار لكرامته ثورات عاتية ... لأنه شعب يرغب فى الحرية ، وينشد الاستقلال والانطلاق مع تيار القومية العربية الذى لا يعرف التحزب لدين من الأديان ، أو الانتقاض على دين من الأديان ... فالدين لله ، والوطن للجميع .

الإسلام فى لبنان

تحد لبنان من الشمال والشرق سوريا ، ومن الجنوب فلسطين ، ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط . وقد هاجر الى لبنان كثير من القبائل العربية التى استوطنت الشام منذ العصور الاسلامية الأولى . واستولى عليه العرب عام ٦٣٥ م ، كما ضم صلاح الدين الأيوبى بيروت لسلطانه عام ١٠٨٧ . وقد حاولت قوات الفرنجة السيطرة على بيروت مرارا .

وفى عام ١٥١٠ ، وبعد انهزام المماليك أمام السلطان سليم الأول ، انتقلت بيروت الى أيدى العثمانيين . وقد جعل سلاطين آل عثمان حكم لبنان مناصفة بينهم وبين الأمراء المحليين ، ومن بينهم الأمير فخر الدين من عام ١٥٨٥ الى عام ١٦٢٥ . وانضم لبنان للحكم المصرى عام ١٨٢١ .

وبعد الحرب العالمية الأولى استولى على لبنان الحلفاء ، وظل يكافح للتخلص من الانتداب الأجنبى حتى تم له الاستقلال .

والمسلمون فى لبنان نحو نصف السكان ، ويتألفون من السنيين الذين يسكنون المدن الكبرى — كبيروت وطرابلس — ومن الشيعة الذين يسكنون البقاع ولبنان الجنوبى ، ومن الدروز الذين يسكن معظمهم المناطق الجبلية — كأقضية بعلبك وعالية والشوف — ومن العدويين الذين يسكنون قضاء عكار .

وقد عاش الشيخ محمد عبده فترة من حياته فى بيروت بعد أن نفى من مصر فى أعقاب الثورة العرابية . وخلال هذه الفترة اشتغل الأستاذ الامام بالتأليف تارة ، والتعليم تارة أخرى ، ونقل الى العربية رسالة « الرد على الدهريين » التى كتبها السيد جمال الدين الأفغانى باللغة الفارسية ، وشرح كتاب « نهج البلاغة » ، كما شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى . وكان يكتب المقالات فى صحف لبنان .

وقد أتاحت له هذه الفرصة أن يبين للبنانيين سماحة الاسلام ومبادئه النبيلة ، وأهدافه الشريفة ، ورسالته المثلى ... وفى ذلك يقول الأمير شكيب أرسلان : « كانت فائدة مقام الشيخ ببيروت عظيمة فانه ما لبث الا وقد أصبح منزله بصورة دائمة

تقريبا غاصا بالزائرين ، الذين كانوا يقصدون الى حضرته لمجرد الاستفادة من محاضراته ، والالتقاط من درره . وصار للناس ولوع به ... فكنت تراهم يحفظون من كلامه ، ويقلدونه فى لفظه ، ويتابعونه فى رأيه . وان كثيرا من الأفكار والمبادىء والألفاظ والجمل السائدة الآن فى بر الشام ، هى من بقايا آثار مجالس الشيخ محمد عبده ، لا شك فى ذلك » .

وتاريخ لبنان حافل بالجهاد ضد الاستعمار فى سبيل الحرية والاستقلال .

وقد اشترك لبنان فى توقيع ميثاق جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ . وكان من أول الداعين الى توثيق الصلات بين البلاد العربية . وعندما اعتدت القوات الاسرائيلية البريطانية الفرنسية على مصر ، ساد لبنان شعور السخط والثورة ، وتحولت بيروت وغيرها من المدن اللبنانية الى ثكنات عسكرية ، وانتشرت قوات الجيش فيها بسبب المظاهرات العنيفة المعادية للغرب ، وما صحب هذه المظاهرات من القاء القنابل والمتفجرات على بعض المنشآت الاستعمارية . ووقع انفجار شديد فى أنابيب البترول التابعة لشركة بترول العراق فى بلدة العبودية وغيرها .

والشعب اللبنانى متمسك بالقومية العربية فى اصرار وقوة ، عامل على صيانة حقوقه الطبيعية من أذناب الاستعمار ، وعلى أن تكون الحرية الفردية مكفولة للجميع .

وفى لبنان مدارس دينية يتعلم فيها الطلبة المسلمون . وأشهرها مدرسة المقاصد الخيرية فى بيروت ، وتديرها جمعية رجال الدين المسلمين ، ويرأسها أحد أثرياء بيروت . ولا يقتصر نشاط هذه الجمعية على ادارة المدارس ، ولكنها تتولى مشروعات خيرية أخرى . وتشرف على مدارسها لجنتان من لجان التربية : احداهما خاصة بمدارس بيروت ، والأخرى بالمدارس القروية .

ويبلغ دخل الجمعية السنوى ٣٤ ألف جنيه من الأوقاف التى وقفها الموسرون المسلمون على الجمعية ، ومن مصروفات التلاميذ . وتدير الجمعية كذلك مدرسة ثانوية للبنين ، وأخرى للبنات فى بيروت ... علاوة على أربع مدارس ابتدائية للبنين ، ومدرستين للبنات . ولها كذلك عدد من المدارس فى القرى المجاورة لبيروت والبقاع .

أما كلية المقاصد الاسلامية الخيرية ببيروت ، فقد أنشئت فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر تحت اشراف الحكومة العثمانية . ولم تلبث أن تقدمت الى الأمام بفضل جهود المسلمين فى لبنان ، وبفضل الأموال التى تبرع بها الأغنياء هناك لصالح هذه الكلية ... فتوسعت فى عمارتها وقبول عدد اكبر من الطلاب ، وآسست روضة أطفال يقبل فيها الأطفال فى سن الحضانة . وتقع مبانى الكلية فى الجزء الجنوبى من بيروت المجاور لغابة الصنوبر العظيمة . وتعنى الكلية عناية خاصة باللغات الأوربية — ولا سيما اللغتين الانجليزية والفرنسية — فتدرس اللغة الفرنسية منذ التعليم فى الروضة ، وتدرس اللغة الانجليزية من السنة الأولى الثانوية . وتهتم الكلية فضلا عن ذلك باللغة العربية باعتبارها لغة القرآن والدين .

وتوفد الحكومة المصرية بعض المدرسين للتدريس فى هذه الكلية ، كما يحضر الى القاهرة لفيف كبير من خريجى هذه الكلية لاستكمال الدراسة فى الجامعات المصرية للحصول على الدرجات الجامعية العليا .

وفى مدينة صيدا كلية المقاصد الاسلامية ، ولا تختلف مناهج الدراسة فيها عن مناهج الدراسة فى كلية المقاصد الاسلامية فى بيروت ،

مع أن الهيئة التى تشرف عليهــا غير الهيئة التى تشرف على كليــة المقاصد الاسلامية فى بيروت . ومدة الدراســة فى كلية صيدا ثلاث سنوات فى الروضة ، و ١١ سنة فى التعليم الثانوى ، بما فى ذلك قسما الفلسفة والرياضيات .

ولما كانت الكلية الاسلامية فى صيدا هى الوحيدة التى تجمع التعليم فى شتى مراحــله ، فقد التحق بها عــدد غير قليل من المسيحيين . ويقبل أبنــاء المعلمين فى نصفها الابتدائى بالمجان ، وفى القسم الثانوى بنصف المصروفات . ولهذه الكلية مكتبة تضم نحو آلفى مجــلد عربى وفرنسى ، وهى تعد الطــلاب لامتحان الشــانوية العامة . وقد اعترفت الجامعة المصرية بدبلومها .

وفى مدينة طرابلس بلبنان كلية التربية والتعليم ، وتعنى بالدراســات الاسلامية كذلك . وتتألف من روضــة أطفال مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ، ومدرســة ابتدائيــة مدة الدراســة فيها خمس سنوات ، ومدرسة ثانوية مدة الدراسة فيها خمس سنوات ، ومدرسة دينيه مدة الدراسه فيها أربع سنوات .

وتدير جمعية المقاصد الاسلامية مدرسة ابتدائية للبنات ، وأخرى للبنين فى الحى القديم من مدينة طرابلس . وتمثل هذه الكلية المعاهد التى يحاول المسلمون بوســاطتها تربيــة الجيل الناشىء تربية دينية ، وتغرس فى نفوس التلاميذ مبادىء القومية العربية .

ويدرس الطــلاب فى مدارس جمعيــة المقاصد الاســلامية القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والفقه الاسلامى ، والنحو والعروض ... وغير ذلك من العــلوم الاسلامية التى لابد أن يســتوعبها الطالب المسلم قبل تخرجه حتى يستفيد ويفيــد ، ويعكف على دراسة مذاهب الأئمة المسلمين وكتب التفسير ، كتفسير الزمخشرى وأبى حيان والقرطبى والطبرى ، وغيرهم من علمــاء التفســير ... كما يدرسون صحيحى البخــارى ومسلم ، ويهتمون بالأســانيد والرجال والعنعنة ... وما الى ذلك . ويدرسون السكاكى والقزوينى والجرجانى وغيرهم من أئمة البــلاغة ، ولا يغفلون عن دراسة الشعر العربى منــذ عصور الجاهلية الأولى حتى العصر الحديث .

الإســلام فى العراق

دخلت العروبة أرض العراق منذ القدم . وقد وجدت منــذ العصر الجاهلى امارة الحيرة التى ضمت قبــائل بنى ربيعة وبكر وقيس بن تغلب وعبــد القيس وغيرهم . وظلت الحيرة وثنية حتى فتحها سيف الله المسلول خالد بن الوليد ... فقد أرسل أبو بكر الصديق خالدا والمثنى بن حارثة لاخضاع القبائل الثائرة فى أطراف العراق ، ففتحا الحــيرة والأنبــار . ولكن سرعان ما شن الملك يزدجرد الثالث — آخر ملوك آل ساسان — حملة على المسلمين ، فارتدوا الى الصحراء .

ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة عزم على أن يقطع دابر الفتن فى العراق ، فجهز جيشــا لهــذا الغرض . ووقع الاختيار على البطل ســعد بن أبى وقاص . ولما قصد سعد القادسية على حافة البادية وحافة سواد العراق التقى برستم فى جيش يبلغ ثلاثين ألف مقاتل ، وكان جيش العرب يتراوح بين سبعة آلاف وثمانية آلاف . وكان الفرس يسخرون من نبل العرب ، ويشبهونها بالمغازل . وقد استطاع العرب أن يتوغلوا فى صميم العراق بعد انتصارهم على الفرس فى القادسية ، فاستولوا على جلولاء وغيرها من المدن . ووقعت المدائن عاصمة الفرس

فى يد العرب بعد حصار دام شهرين . وانهزم الفرس فى هذه الموقعة هزيمة منكرة . ومنذ ذلك التاريخ كثرت القبائل العربية فى العراق ، ولا يزال بعضهم من الصابئية أو اليزيديين أو البهائيين .

وقد كان العراق فى أوائل القرن العشرين ولاية تركية ، وعلى أثر اتفاق تم بين فرنسا وانجلترا فى ٢٤ أبريل عام ١٩٢٠ وضع العراق تحت انتداب بريطانيا .

ولم يذعن الشعب العراقى لسيطرة البريطانيين وأذنابهم من الحكام ، فقام بثورة كبيرة شملت العراق كله . وفى أغسطس ١٩٢١ أعلن فيصل ملكا على العراق .

وقد ظل العراق دولة ملكية حتى يوليو عام ١٩٥٨ ، حين قامت ثورة تموز ، وألغت الحكم الملكى ، وأعلنت الحكم الجمهورى فى البلاد .

ويبلغ عدد المسلمين فى العراق ٦٫٩٣٥٫٠٠٠ من السكان البالغ عددهم ٧٫٦٨٥٫٠٠٠ نسمة .

وفى العراق كثير من المساجد والجوامع والزوايا ، يحمل بعضها صبغة تاريخية عربية قديمة ومن أشهر المساجد : مسجد النجف الأشرف فى مدينة النجف ، ويضم مشهد الامام على . ويشاهد القادم الى البلدة من مسافة بعيدة قبابه المغطاة بصفائح الذهب والفضة تلمع فى ضوء الشمس .

الاسلام فى اليمن

اليمن أكثف أجزاء شبه الجزيرة العربية بالسكان ، وأخصبها تربة . وتسعة أعشار سكانه مسلمون ، والعشر من اليهود الذين يعيشون فى المدن ، ويعاملون معاملة خاصة . ويبلغ عدد المسلمين فى اليمن نحو ٥٫١٠٠٫٠٠٠ نسمة .

وكان على اليمن ، عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبان بن سعيد بن العاص على صنعاء وأعمالها ، ومعاذ بن جبل على الجند ، وزياد بن لبيد على حضرموت وأعمالها .

وكان معاذ بن جبل ينتقل الى مختلف المقاطعات ليعلم الناس القرآن ، ويفقههم فى الدين .

وفى خلافة على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — استخلف على اليمن عبيد الله بن العباس على صنعاء وأعمالها ، ولم يزل عبيد الله على صنعاء يحج بالناس الى آخر أيام على عليه السلام .

ولما توفى على بن أبى طالب ، وصار الأمر الى معاوية ، استعمل على اليمن عثمان بن عثمان الثقفى ، ولما استولى الحجاج على مكة استعمل على صنعاء أخاه محمد بن يوسف الثقفى . ولم يزل عاملا على صنعاء الى أن توفى بها عام ٨٦ للهجرة .

وتداول حكم اليمن خلفاء كثيرون الى أن صارت جزءا من الامبراطورية العثمانية ، ويدير دفة الحكم فيها وال من قبل الدولة العثمانية . وفى عام ١٩٠٣ أشعل الامام يحيى امام اليمن ثورة فى وجه الأتراك ، واستولى الثوار على صنعاء . وما كادت تعلن البيعة للامام يحيى بن الامام محمد حميد الدين عام ١٩٠٤ ، حتى أخذ يحارب الأتراك دون هوادة . وأرسلت اليه الدولة العثمانية حملات تأديبية بين الحين والحين ، ولكنها لم تستطع أن تخمد شوكته ، وأصبحت صنعاء مقبرة الأناضول .

وقد تمكن الامام يحيى من جمع شمل اليمن تحت لوائه ، واتخذ مدينة صنعاء عاصمة لحكمه . وهى المدينة التاريخية القديمة منذ أقدم العصور ، ومركز دولة حمير وما وليها من الدول . وهى تبعد عن عدن شمالا نحو ٥٥٠ كيلو مترا . وأقيمت هذه المدينة بين جبلى نقم وعصر ، ولها أربعة أبواب .

ولما تولى الامام أحمد حكم اليمن حقق كثيرا من النظم السياسية الرشيدة ، وحاول أن يسير بالأمة قدما الى الأمام ... ففى اليمن اليوم ستة وزراء لست وزارات ، وهى الداخلية والخارجية والدفاع والمواصلات والمعارف والصحة . وبها مديريتان للزراعة والمالية . والوزراء هم سيوف الاسلام الحسن واخوته . وهناك مجلس استشارى مؤلف من ٤٢ عضوا عدا الوزراء ، تعرض عليه الأمور قبل تنفيذها .

وفى اليمن الآن حوالى ٦٠٠ مدرسة أولية ، كما توجد مدارس ابتدائية فى جميع المدن . وهناك ثلاث مدارس ثانوية فى تعز وصنعاء والحديدة ، وتبلغ ميزانية اليمن حوالى ١٥ مليون جنيه .

واليمن احدى الدول الموقعة على ميثاق جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ ، وهى عضو فى الأمم المتحدة واتحاد الدول العربية . وقد أخذت تنشىء علاقات جديدة مع الدول المحبة للسلام ، وترغب فى مبدأ التعايش السلمى .

وفى صنعاء نحو ٩٧ مسجدا . وتستخدم المساجد جميعا فى غير أوقات الصلاة لتدريس العلوم الدينية . وقل أن يخلو حى فى اليمن من مسجد أو أكثر . وقد عمرت بعض هذه المساجد فى بعض العصور التاريخية ، فازدادت روعة . ولا يزال بعضها قائما حتى اليوم منذ ظهور الاسلام .

وينتشر الاسلام كذلك فى عدن ، وهى شبه جزيرة بركانية على الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية ، على مسافة ١٦٠ كيلو مترا الى الشرق من مضيق باب المندب . وقد حكم عدن ، منذ أبعد الحقب والأزمان ، ملوك من العرب . وكان المهاجرون العرب يقفون بقوافلهم عند شطآنها . وسكانها عرب نزحوا اليها من المناطق المجاورة ، ومعظمهم من المسلمين .

أما المحميات الغربية — وأهمها سلطنة لحج شمال عدن — فهى منطقة عربية صميمة منذ القدم ، ويحكمها سلطان عربى مسلم . وكذلك فى الصبيحة والحواشب والقطيب والعوالق ويافع والضالع والواحدى والعوازل — وهى المحميات التسع بما فيها لحج — ينتشر الاسلام ، وتتمشى العروبة فى أعراق أهلها . أما سكان المحميات الشرقية وحضرموت — ويبلغ عددهم ٣٠٠٫٠٠٠ نسمة — فمعظمهم من المسلمين . ويحاول الاستعمار أن يسيطر على هذه المحميات .

ويرأس المحميات الغربية سلطان لحج ، ويرأس المحميات الشرقية سلطان مكلا والشحر . ومن المنتظر أن يزدهر شأن الاسلام فى اليمن الجنوبى عقب التخلص من نير الاستعمار ، وتحرر هذه المحميات من ربقة السيطرة الأجنبية .

الاسلام فى عدن

تقع عدن فى الطرف الغربى للقارة الأسيوية ، على مدخل الخليج المسمى باسمها من ناحية المحيط الهندى . ومساحتها ثلثمائة وثلاثة آلاف متر مربع . وعدد سكانها يبلغ نحو ٧٥٣٫٠٠٠ نسمة ، وعدد المسلمين منهم ٧٢٥ ألف نسمة ، يتبعون المذاهب الأربعة المشهورة والمذهب الزيدى . وأصل أهل عدن من اليمن وحضرموت ، وفيها جاليات أوربية وباكستانية وهندية وصومالية وغيرها . وبها عدد من المساجد ، كمسجد العسقلانى الذى أعد للمصلين فوق سطحه سقيفة فسيحة تتسع لعدد عظيم ممن يؤمونه ، زودت بمكبرات الصوت وفرشت بالحصير ، وبها أجزاء القرآن والمصاحف وبعض الكتب الدينية .

وقد وصف المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم

فى معرفة الأقاليم » عدن فقال : « بلد جليل عامر آهل حصين ، دهليز الصين ، وفرضة اليمن ، وخزانة المغرب . معدن التجارات ، كثير القصور ، مبارك على من دخله ، مثر لمن سكنه ... مساجد حسان ، ومعايش واسعة » .

وفى عدن صهاريج كبيرة تعد من أجل الأعمال الهندسية فى العالم ، وتسع ثمانين مليون جالون من الماء . وتاريخ انشـائها غير معروف ، ويرجح أن يكون قبل الميلاد بخمسة أو عشرة قرون . وكانت هـذه الصهاريج مردومة ، ثم كشفت ورممت عام ١٢٧٢ للهجرة .

وليس من شك فى أن موقع عدن الجغرافى جعلها قبلة كثير من الطوائف المسلمة ، ومحطا لالتقاء كثير من الدعاة والمبشرين للدين الاسـلامى فى العصر الحديث .

الاسلام فى عُمان

تقع « عمان » فى الزاوية الجنوبية الشرقية من بلاد العرب . وعاصمتها « مسقط » ، وبينها وبين مكة أكثر من ألفى كيلو متر . ولها ميناء ترسو فيه السفن . وينقسم سكانها قسمين : البدو ، أو سكان الخيام ، وهم قوم رحل ينتجعون المرعى ، وينتمون فى الغالب الى العرب العدنانية . والحضر — ويقال لهم العمانيون — وهم خليط من العرب والعجم والهنود وغيرهم .

وأهل عمان على مذهب الأباضية المنسوب الى عبد الله بن أباض المرى ، نسبة الى المرية ، من أعمال طرابلس الغرب . وقد استولى عبد الله على أفريقيا الشمالية عام ١٥٢ هـ ، وادعى فيها الخلافة . وكانت عمان تابعة لحكم التبابعة ، وأسلمت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان الخوارج يلجأون اليها هربا من خلفاء بنى أمية والعباسيين .

وكان تجارها ينتقلون فى جزر المحيط الهندى ، مثل جاوة وسومطرة وغيرها من سواحل أفريقيا الشرقية ، ولا يزالون حتى اليوم يحبون الهجرة . ولكثرة احتكاكهم بأهالى تلك البـلاد انتشر فيهم الاسلام ، وقضى على الوثنية .

الاسلام فى قَطر

قطر شبه جزيرة يشرف من الشرق والشمال على الخليج العربى ، وتشرف سواحله الغربية على خليج البحرين ، وتتصل حدوده الجنوبية بشبه الجزيرة العربية عند الاحساء . وقطر منطقة عربية عريقة ، ويبلغ عدد سكانها نحو ١٠٠٫٠٠٠ نسمة ، معظمهم مسلمون . وبها عدد من المساجد والزوايا ، بناها العرب المهاجرون اليها من قلب الجزيرة العربيـة وأهل قطر الذين اعتنقوا الاسلام .

وقـد كانت قطر جزءا من بلاد البحرين ، ثم خضعت عام ١٨٧٢ لتركيا التى احتفظت بسيادتها عليها حتى عام ١٩١٥ م . وقد أبرمت بريطانيا معها معـاهدة عام ١٩١٦ ، ثم عام ١٩٣٤ م . وقطر فى العرف الدولى محمية صريحة ، الا أنها من الناحية الدينية تعد ربيبة العربية السعودية ، لأن سكانها يدينون بالمذهب الوهابى . وأمراؤها ينحدرون من قبيلة تميم النجدية .

وقد اكتشفت بعض آبار للبترول فى قطر ساعدت على نمو الثروة الاقتصادية فى البلاد . وفى ١٧ من مايو عام ١٩٣٥ م منـح حاكم قطـر شركة الزيت الانجليزية البريطانية امتيازا نالت بمقتضاه حقوقا بترولية منفردة فى بلاده لمدة ٧٥ عاما .

وكان من نتيجة هذه الاكتشافات أن ازدهرت الحياة الثقافية فى البلاد ، وارتفع مستوى المعيشة لبعض الطبقات ، ووجد مئات من التجار الأغنياء .

الإسلام فى البحرين

البحرين مجموعة من الجزر تقع فى شمال شبه جزيرة قطر ، فى مواجهة ساحل الاحساء . وأكبر هذه الجزر جزيرة البحرين ، وفيها معظم السكان . وفى الشمال الشرقى منها جزيرة المحرق . وأصل سكان البحرين من عمالقة قبائل طسم وجديس . وقد استولى عليها الفرس ، وصارت تابعة لحكم المناذرة ملوك الحيرة . ثم دخلت فى حوزة المسلمين فى السنة السادسة للهجرة ، ابان حكم العلاء الحضرمى على اقليم البحرين ثم استولى عليها البرتغاليون ، ثم الايرانيون ، ثم امام مسقط ، ثم الدولة العثمانية . ويحاول أن يسيطر عليها الانجليز .

وقد هاجرت بعض القبائل العربية الى البحرين منذ عصر الجاهلية الأولى ، طلبا للماء والزرع والاعتدال والظل ومن هاجر : عبد القيس بن ربيعة ، وبطون من بكر بن وائل ، وبطون من تميم ابن مرة وقد كان المندر بن ساوة بن بنى حنظلة ابن مالك بن زيد بن مناة بن تميم ، أمير هذه الجهة ، من قبل الفرس ، عند ظهور الاسلام .

وعند ما انتشر الاسلام دخلت اليمامة والبحرين فى دين الله الحنيف بيد أنه فى أثناء حركة الردة المشهورة ، ظهر أنصار لها فى اليمامة والبحرين ... بل لقد ظهر فيها من ادعى النبوة ولكن هذه الحركة لم تلبث أن أخمدت ، وأظهرت البحرين الولاء للاسلام فى عهد الخلفاء الراشدين ، وعهد بنى أمية وصدر من عهد العباسيين .

وفى عام ٢٨٣ هـ استطاع أحد الدعاة الفاطميين من القرامطة أن يستقل بالبحرين ، ويعمل على نشر دعوة الفاطميين فى هذه المنطقة . ثم تمكن أبو سعيد الجنابى من الاستيلاء على مدينة هجر بعد حصار دام سنتين ، واتخذ الأحساء عاصمة لدولة القرامطة الجديدة وكان أبو سعيد يطمع فى بسط سيادته على جزيرة العرب ، وفصلها عن الدولة العباسية ... مما أثار مخاوف الخليفة العباسى المعتضد ، فأرسل اليه حملة بقيادة العباس بن الغنوى ، غير أنه هزم هزيمة منكرة ، ووقع فى الأسر . وظل أبو سعيد يحكم البحرين حتى أول القرن الرابع للهجرة . ثم اغتاله خادم له عام ٣٠٢ هـ .

وأسس عبد الله بن على آل ابراهيم العيونى الامارة العيونية التى استمر حكمها فى البحرين مائتين وخمسين عاما ، وهزم القرامطة هزيمة منكرة . ثم انتزع الفرس الحكم من العرب ، وظلت كذلك فترة طويلة ... حتى جاء تيمورلنك واستولى عليها ، كما استولى عليها جنكيزخان ، ثم البرتغاليون ، وبقيت فى حوزتهم نحو أربعين عاما .

ثم أبرمت معاهدة بين الانجليز والسعوديين عام ١٩٢٧ م اعترفوا فيها بأن البحرين دولة مستقلة ذات روابط خاصة مع المملكة المتحدة .

ويبلغ عدد المسلمين فى البحرين ١٠٩١٠٠ نسمة من السكان البالغ عددهم ١٠٩٧٥٠ نسمة .

الإسلام فى الكويت

تقع امارة الكويت فى الزاوية الشمالية الغربية من الخليج العربى . ويشق ناحيتها الشرقية خليج صغير يمتد الى الغرب .

وتحيط الامارة بهذا الخليج الصغير على هيئة مثلث ، يتصل ضلعه الشمالى بالعراق ، وضلعه الجنوبى بالمملكة السعودية وتتبعها عدة جزر

صغيرة ، مثل سكان وفلكا وربا وكبر وأم المرادم والشيوخ .

وكان نقيم بهذه البقعة لفيف من البدو وبعض العرب الرحل ، وصيادى الأسماك ، فنشروا فيها الاسلام ثم نزل بها بعض القبائل المهاجرة من قطر وغيرها فيما بين أواخر القرن الحادى عشر للهجرة وأوائل القرن الثانى عشر . ولما كثر السكان كان من الضرورى أن يكون لهم حاكم يفض مشاكلهم ، وينظم أمورهم .. فاختاروا صباحا الأول — جد الأسرة الحاكمة الآن — حاكما عليهم وكان ذلك فى الفترة الواقعة بين عامى ١١١٠ و ١١٣٠ للهجرة .

والكويت اسم الامارة كلها وعاصمتها ، وهى المدينة الوحيدة فى الامارة . وفى أطرافها قرى صغيرة ، وعلى مسافة ٣٦ كيلو مترا منها نشأت مدينة « الأحمدى » عند منابع البترول . وهى مركز شركة النفط الكويتية ، ولها ميناء خاص بها اسمه « ميناء الأحمدى » ، تنتهى عنده أنابيب النفط الخام التى تصبه فى حاملات البترول لتنقله الى شتى أقطار العالم وبجوار ميناء الأحمدى سيفتتح قريبا ميناء آخر عند قرية الشعيبة حيث تنتهى أنابيب شركة البترول الأمريكيه المستقلة .

ومساحة الكويت نحو ١٥ ألف كيلو متر مربع (ستة آلاف ميل مربع) ، وأرضها صحراء قاحلة ، فاذا هطلت عليها أمطار غزيرة فى الشتاء ، اكتست فى الربيع حلة خضراء ، ونبتت فيها زهور مختلف ألوانها . ويفرح القوم بالغيث اذا جاءهم ، لأنه يزودهم بالماء يحفظونه فى البرك والصهاريج ، وينتفعون به فى أشهر القيظ ، وينبت العشب لماشيتهم . وأرضهم لا تجود عليهم بالماء العذب .

وقد قامت الحكومة أخيرا بمشروع عظيم لتقطير مياه البحر ، لتوفر للناس حاجتهم من الماء . ويزودهم هذا المشروع فى الوقت الحاضر بنصفه مليون جالون من الماء العذب كل يوم . وينتظر أن تزداد الكمية بعد اتمام هذا المشروع . ودرجة الحرارة عالية ، وقد تبلغ فى أشهر الصيف ثمانيا وأربعين درجة سنتجراد فى الظل ، وقد تهبط فى الشتاء الى درجة الصفر .

وتقع مدينة الكويت على الضفة الجنوبية لخليجها الصغير ، وهو من أحسن الموانىء الطبيعية فى المنطقة ، يصلح لرسو البواخر الكبيرة فى أكثر جهاته . وموقعها على البحر صير أهلها من رواد البحار ، ومن أمهر أهل الخليج فى صنع المراكب الصغيرة والكبيرة ، التى وصلوا بها فى أسفارهم التجارية الى الهند وشرقى افريقية . ولهم جاليات بالهند حتى يومنا هذا ، وصلات تجارية بمعظم البلدان المصدرة فى أمريكا وأوربا وآسيا .

والكويت متصلة بالعالم الخارجى من طريق البحر ، ومتصلة بالأقطار العربية من طريق البر ... تأتيها البواخر والطائرات والسيارات كل يوم من جميع أطراف العالم وهى تشبه أخواتها من المدن العربية التجارية ... كصيدا وصور وقرطاجنة والرقيم (بطرا) وتدمر ومكة فى تاريخنا القديم ، وكبيروت والعقبة وطنجة وعدن ودبى ومسقط فى تاريخنا الحديث .

ولقد عرف أهل الكويت العالم ، واشتغلوا بالتجارة واستخراج اللؤلؤ ، فأثروا قبل ظهور البترول فى أرضهم ... فهم تجار ، وثقافتهم تجارية . غير أنهم محتاجون الى مدارس تجاريه تعلم أبناءهم أساليب التجارة الحديثة ، والى مدارس صناعية لتعليمهم الحرف الصناعية والأساليب الفنية فى صنع

المراكب والعناية بآلاتها ، والتمهيد لانشاء أسطول تجارى فيها .

وسكان مدينة الكويت لا يزيدون على مائتى ألف نسمة فى الوقت الحاضر . وهم أصلا من أبناء الجزيرة العربية ، خرجوا منها — كما خرج اخوانهم وأجدادهم — الى الهلال الخصيب . وأمراؤهم من فروع قبيلة عنزة ، وهى القبيلة التى تنتمى اليها الأسرة المالكة فى نجد والبحرين من آل سعود وآل خليفة .

والكويت مدينة حديثة لا ذكر لها فى تاريخ العرب القديم ، ولكنها تقع فى منطقة تاريخية قريبة من موقع كاظمة التي ورد ذكرها فى حوادث الفتح العربى ، وعندها وقعت معركة بين العرب بقيادة خالد بن الوليد ، وبين الفرس بقيادة هرمز عام ١٢ للهجرة .

ولقد برزت الكويت فى ميدان السياسة العالمية مرتين : الأولى بمناسبة مشروع خط برلين — بغداد ، الذى أخذ امتيازه الألمان ، وأرادوا به اختراق الدولة العثمانية من الشمال الى الجنوب ، واستغلال المناطق الواقعة على جانبى هذا الخط الحديدى ... فضلا عن أن مد هذا الخط الى رأس كاظمة على خليج الكويت سيهيىء لبواخرهم التجارية ميناء كبيرا ، ولبوارجهم الحربية مرفأ طبيعيا أمينا ، يهددون منه الامبراطورية البريطانية فى الهند ... مما أدى الى تخوف انجلترا من هذا المشروع الذى كان من أهم أسباب نشوب الحرب العالمية الأولى .

وبرزت الكويت مرة ثانية عندما اكتشف البترول فيها قبيل الحرب العالمية الثانية ، وباشرت الشركة صاحبة الامتياز — وهى شركة انجليزية أمريكية — حفر بعض الآبار ، ثم سدتها عند قيام الحرب . وما ان انتهت الحرب حتى عادت الشركة صاحبة الامتياز وأخذت تحفر الآبار حتى بلغ عددها نحو ١٤٠ بئرا يتدفق منها النفط ، وينقل فى أنابيب ضخمة الى حاملات النفط الراسية فى ميناء الأحمدى ، على مسافة بضعة كيلو مترات .

وقد بلغت كمية ما يصدر من النفط كل يوم نحو مليون برميل . ويعادل الاحتياطى الثابت من النفط فى أرض الكويت نصف احتياطى نفط الولايات المتحدة الأمريكية . وبحسب الاتفاقية الجديدة بين شركة الزيت الكويتية وحكومة الكويت ، تقدر حصة حكومة الكويت من أرباح البترول بنحو ٥٣ مليون جنيه ، وهى نصف أرباح الشركة فى الوقت الحاضر .

وفى الكويت معهد دينى أنشىء منذ سنوات قليلة ، يتعلم فيه الطالب مع العلوم الدينية واللغوية كثيرا من العلوم المدنية واللغة الانجليزية ... فيدرس القرآن حفظا وتلاوة وأداء وتجويدا ، والسيرة النبوية ، وسيرة كبار الصحابة ، والتاريخ الاسلامى ، وتاريخ الكويت وبلاد العرب ، والتوحيد ، والدفاع عن العقيدة الاسلامية ، والتهذيب والتفسير وغريب القرآن ، والحديث وشرحه ومصطلحه ، والخطابة والدروس الدينية ، والشعائر والأذكار والأدعية المتصلة بالصلاة ، والفقه ، والنحو والصرف والبلاغة ، والأدب والجغرافيا ، والصحة ، والمنطق والحساب ، واللغة الانجليزية . وفى الكويت بعض المساجد كالمسجد الأحمدى ، وهو من أعظم المساجد فى الكويت .

وفى الكويت « جمعية الارشاد الاسلامية » ، وتعمل على اصلاح الفرد وربطه بأخيه برباط الأخوة عملا بقوله تعالى : « انما المؤمنون اخوة » . وتسعى الى ما يكفل سلامة الأمة من الانحلال الخلقى .

والجوامع التى تقام فيها صلاة الجمعة فى مدينة الكويت هى : مسجد « البـدر » الذى أسسه الحاج ناصر البـدر حوالى عام ١٨١٥ ، ومسجد هلال الموجود فى حى العوازم ، وقد أسسه عزران الدماج ، ومسجد آل خليفة ، وهو على شاطىء الخليج ، وينسب الى آل خليفة حكام البحرين ، ومسجد الساير القبلى ، ومسجد الساير الشرقى ، وهناك عدد آخر من المساجد تقام فيها الصلوات الخمس ، ولا تقام فيها صلاة الجمعة .

الاسلام فى تركيا

كانت تركيـا حتى عهـد قـريب أكبر الدول الاسلامية باعتبارها مقرا للخـلافة العثمانية ، ثم ألغيت فيها على يد كمال أتاتورك ، وصار الحكم فيها جمهوريا .

وفى مستهل القرن العشرين كانت تركيا تحاول تحقيق فكرة الجـامعة الاسلامية التى دعا اليهـا السيد جمال الدين الأفغانى ... اذ كان أول مسلم أدرك خطر السـيطرة الغربيـة المنتشرة فى الشرق الاسلامى ، وتمثل عواقبهـا اذا ما طال عهدها ، وامتدت حياتها ورسخت فى تربة الشرق . وأدرك شؤم المستقبل وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائبة الكبرى اذا لبث الشرق الاسلامى على حال مثل حاله التى كان عليها .

وقد تلقف السلطان عبد الحميد دعوة جمال الدين ، وبنى عليها سياسته فى تحقيق الجـامعة الاسلامية وتشييد أركانها . وظلت دعوة عبـد الحميد تسير سيرا متواليا مدة تقرب من ثلاثين عاما حتى خلع من الحكم ، ففتر سير الحركة فى مجراها الأول .

وفى أكتوبر عام ١٩٢٣ م جرت الانتخـاب فى تركيا فانتخب الغـازى مصطفى كمال حاكما عليها .

وفى مارس عام ١٩٢٤ م تقـدم كثيرون من النواب باقتراح لالغاء منصب الخلافة ، وكان على رأس المقترحين عالم من علماء الدين ، وقد انتهى الأمر باقرار القانون المقترح الذى ينص على مواد كثيرة منها : خلع الخليفة ، والغاء الخلافة لأنهـا مندمجة فى معنى الحكومة والجمهورية ومفهومهما ، وحرمان الخليفة المخلوع وأفراد العائلة العثمانية ، ذكورا واناثا ، هم وأصهارهم ، من الاقامة داخل حدود الجمهورية الى الأبد .

وتبع هذا القرار الغاء الوزارة الشرعية ووزارة الأوقاف ، كما تقرر أن يعين رئيس الأمور الدينية بقرار من رئيس الجمهورية ، بناء على اقتراح من رئيس الوزارة ... على أن تتبع رياسـة الأمور الدينية رياسة مجلس الوزراء ، وتكون ميزانيتها ملحقة بها ، وتكون ادارة جميع الجوامع والمساجد والزوايا الموجودة داخل بلاد الجمهورية باشراف رئيس الأمور الدينية ، وله الحق فى تعيين الأئمة والخطبـاء والوعاظ والمشـايخ والمؤذنين والقوام وسائر المستخدمين وعزلهم . كما تقرر أن يكون هو مرجع المفتين جميعـا . وتشكل هيئـة علمية استشـارية لمساعدته ، وهيئة أخـرى لتدقيـق المصاحف والمؤلفات العلمية الدينيـة ، وأن يكون الرئيس وأعضاء الهيئتين من أرباب الاختصاص فى العقائد والعلوم الاسلامية .

وقد كانت هـذه الخطوات وسيلة من وسائل حصر المسئوليات ، وتضييق نفوذ الدين فى تركيا ، مما مهد لأن تكون تركيا فيما بعد دولة « علمانية » ، أى ليس لها دين رسمى .

وترتب على ذلك أن اختفت حلقات المسـاجد التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت ... حتى انه كان فى ولاية قونية عام ١٣١٩ هـ ٦٦ مدرسة ، فيهـا ٣٦٦٦ طالبا ، هذه المدارس كانت تغذى مساجد

القرى والمدن والزوايا بالأئمة والخطباء والوعاظ والمرشدين والمشايخ ، فلم يحل عام ١٩٣٠ م الا وأغلقت كلية الالاهيات لاقفارها من الطلاب .

وأغلقت الزوايا والتكايا كلها فى بلاد الجمهورية — سواء أكانت وقفا أم ملكا فى تصرف مشايخها أم تأسست بصورة أخرى — وألغيت الطرق الصوفية جميعها بكل أنواعها ومظاهرها وألقابها ، وحظر قيامها حظرا باتا .

ومن القرارات التى صدرت فى هذه الآونة قرار وزارى يحدد وظيفة العلماء فى تركيا . وقد أدخل هذا القرار رئيس الأمور الدينية ، وأعضاء الهيئة الاستشارية فى رياسة الأمور الدينية ، والمفتين وكتبة الافتاء فى مراكز الولايات والأقضية ، والأئمة والخطباء والوعاظ ، ومعلمى القرى المعينين من قبل رياسة الأمور الدينية ... فى صف العلماء ، وجعل العلامة المميزة لزيهم عمامة بيضاء وجبة سوداء . أما لون عمامة أئمة الجيش وجببهم فتابع لمقتضى الشئون العسكرية . ولا يجبر هذا القرار العلماء على لبس زيهم الخاص خارج وظائفهم . والأصل أن يكون العلماء فى الدوائر الاسلامية مكشوفى الرءوس ، ومع ذلك فهم مخيرون بين كشفها أو لبس العمامة .

وقد تدخل الغازى مصطفى كمال فى القانون المدنى ، فجعل للحاكم حق منع زواج الزوجين المطلقين مدة سنة أو سنتين ، ويحظر على كل منهما التزوج قبل مضى المدة المحكوم بها ، وللحاكم تقصير المدة اذا كان المطلقان يريدان أن يعود كل منهما الى صاحبه . ولا يجوز لشخص أن يتزوج ثانية ما لم يثبت أن زواجه الأول قد زال بالموت أو الطلاق أو بحكم . كما جعل سن الرشد تبدأ بتمام السنة الثامنة عشرة ، والزواج يكسب المرء رشدا ، وسن الزواج هو تمام السابعة عشرة للرجل والسادسة عشرة للمرأة . وللحاكم حق الاذن باجازة الزواج ممن أتم الخامسة عشرة من الذكور والرابعة عشرة من الاناث اذا وجدت أسباب أليمة وخارقة .

وقرر الغازى لكل من الزوجين حق اتخاذ مسكن مستقل اذا تعرضت صحته أو شهرته أو عمله للخطر بسبب استمرار الحياة الزوجية فى مسكن واحد ، كما جعل لكل منهما الحق فى الاقامة منفردا اذا رفعت قضية طلاق أو فراق بينهما ما دامت القضية منظورة ..

وتدخل الغازى فى شئون الميراث ، فجعل أصحاب الحق الأصليين فى الميراث هم الفروع فقط ، وعلى أساس المساواة بين الذكر والأنثى ، وحق الابن المتوفى فى ميراث أبيه ينتقل الى فروعه . وفى ميدان العبادات جعل الخطباء يتلون الأدعية وفواتح الخطب وخواتيمها والنصوص بالعربية ، ثم يفسرون ويخاطبون الجمهور باللغة التركية التى تتغلب مفرداتها العربية على مفرداتها التركية ، ويفعل ما يشبه ذلك المدرسون فى المدارس حينما يقومون بتدريس القرآن الكريم أو الحديث النبوى الشريف .

أما الحج الى بيت الله الحرام فقد أصبح شبه ممنوع فى عهد الغازى مصطفى كمال ، وألغى لقب الحاج ضمن الألقاب التى ألغيت ، كما منع عرض الصور التقليدية للكعبة والمدينة ومكة ، وشدد فى عقاب من يطبعها أو يبيعها . وقلت منذ ذلك التاريخ الهجرة الى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج . ومن كان يذهب الى الأراضى المقدسة ، كان يذهب خفية أو متذرعا بأسباب مختلفة لأداء هذه الفريضة .

وأصدر مصطفى كمال فى أول يناير عام ١٩٢٩ ، قانونا بالغاء الحروف العربية ، واستخدام الحروف

اللاتينيـــة فى دوائر الدولة ومؤسساتها وجميـــع الشركات والمصـــارف والمؤسسات والجمعيات . أما ما هو موجـــود من سكة وأوراق وســـندات وأســـهم وتحـــويلات وطوابع وأوراق مدموغة ونقد ، فقـــد اعتبرها القـــانون صحيحة الى أن تعـــدل .

وليس من شـــك فى أن مصطفى كمال أخطأ فى اندفاعه وتهوره وتهجمـــه على الدين . وكان فى وسعه أن يعالج الموقف معالجة حسنة ، فلا يحطم القيم الدينيـــة التى توارثها المســـلمون جيلا بعد جيل ويعدل نظم الحياة الاجتماعية فى الصورة التى يراها دون أن يخـــرج عن اطار الاســـلام ، ويقوض ايمان المسلمين .

وعلى الرغم مما بذله مصطفى كمـــال لتحطيم كثير من القيم التى طالما حرص عليها المسلمون ، فلا يزال فى تركيا حتى اليوم كثيرون من المسلمين يتمسكون بأهـــداب دينهم تمســـكا شـــديدا ، ويحرصون على أداء فرائضه كاملة غير منقوصة .

والمساجد فى تركيـــا لا تزال غاصة بالمسلمين . وفى تركيا عـــدد كبير من المساجد يرجع تاريخها الى عصور قديمة . وفى الآستانة وحدها ما يزيد على ٤٨٠ جامعا ، منها ٨٩ كنيسة حولها العثمانيون الى مساجد ، وأشهرها جامع « أياصوفيا » على الهضبة الأولى من هضاب استانبول .

وجامع السليمانية ، الذى بناه السلطان سليمان القـــانونى ، يشـــغل معظم الهضبـــة الثالثة من استانبول ، وله ملحقـــات من المدارس والمنـــائر والتكايا والأضرحة والمكاتب والحمامات . وتم بناؤه عام ١٥٦٦ .

وجامع أبى أيوب من أشهر الجوامع فى تركيا ، ويسميه بعضهم جامع السلطان أيوب . وهذا خطأ



مسجد اياصوفيا فى تركيا

لأنه مقـــام أبى أيوب الأنصـــارى أحـــد كبـــار الصحابة .

والمشهور أن أبا أيوب جاء لفتح القسطنطينية مع يزيد بن معاوية عام ٥١ هـ ، فمات خارج سورها ، ودفن هنـــاك . وظل قبره مهملا حتى جاء الفتح العثمانى ، فبنى محمـــد الفاتح على قبره مقاما ، وشيد بجانبه جامعا ، وصـــار لا يتولى ســـلطان عثمانى الا تقلد ســـيف عثمان رســـميا فى جامع أبى أيوب .

وجامع السلطان أحمد الذى بناه عام ١٠٢٦ هـ يمتاز بجماله وزخرفه ، وقد قتل فيه الانكشارية ، وهو يمتاز عن بقية المساجد بكثرة مآذنه فانها ست مآذن ، وبقية المساجد لا تزيد مآذنها على أربع .

وعند باب جامع « نورى عثمانيـــة » مدخـــل يؤدى الى طلعة تنتهى بأعلى الجامع الى المقصورة التى كان يجلس فيهـــا السلاطين للصلاة . وقيل ان السلاطين كانوا يدخلون من هناك على خيولهم حتى يبلغوا الطبقة العليا فيترجلوا ويسيروا على أقدامهم الى المقصورة .

وهناك كثير من السبل كسبيل السلطان أحمد ، وهو بنـــاء مربع من الرخام الأبيض ، فوقه قبـــة مستديرة الأركان تستطيل حافاتها حوله فى غاية الزخرفه والاتقان ، وعلى جهاتها الأربع نقوش

مذهبة فى وسطها أشعار منقوشة بالذهب بخط جميل ، وهى قصيدة باللغة التركية آلفها شاعر السلطان .

وهكذا تعمر تركيا بالمساجد التاريخية التى يرجع تاريخ بنائها الى قرون بعيدة . ولا تزال آيات الذكر الحكيم تتلى بين جنباتها الفسيحة ، تشيع نفحات الايمان والتقوى ، وترفع لواء الاسلام ، وتقر كلمة المسلمين على الرغم مما فى مظاهر الحياة فى تركيا من انطلاق نحو مظاهر الحياة فى الغرب ، واندفاع متهور مع تيارها الحديث .

الاسلام فى إيران

عرف العرب الفرس قبل الاسلام ، وكانت التجارة تتردد بين بلاد فارس واليمن . فلما جاء الاسلام ، دارت بين العرب والفرس معركة القادسية . وتبعت القادسية معارك أخرى . وقد انحازت ديلم ، من جند الفرس ، الى المسلمين بعد القادسية ، وأسلم عدد كبير منهم . وأعطى العرب الفرس الذين قاتلوا معهم حظهم من الغنائم ، وكان عمر لايتوانى فى ذلك ... بل لقد أحسن العرب الى الفلاحين الذين لم يقاتلوا .

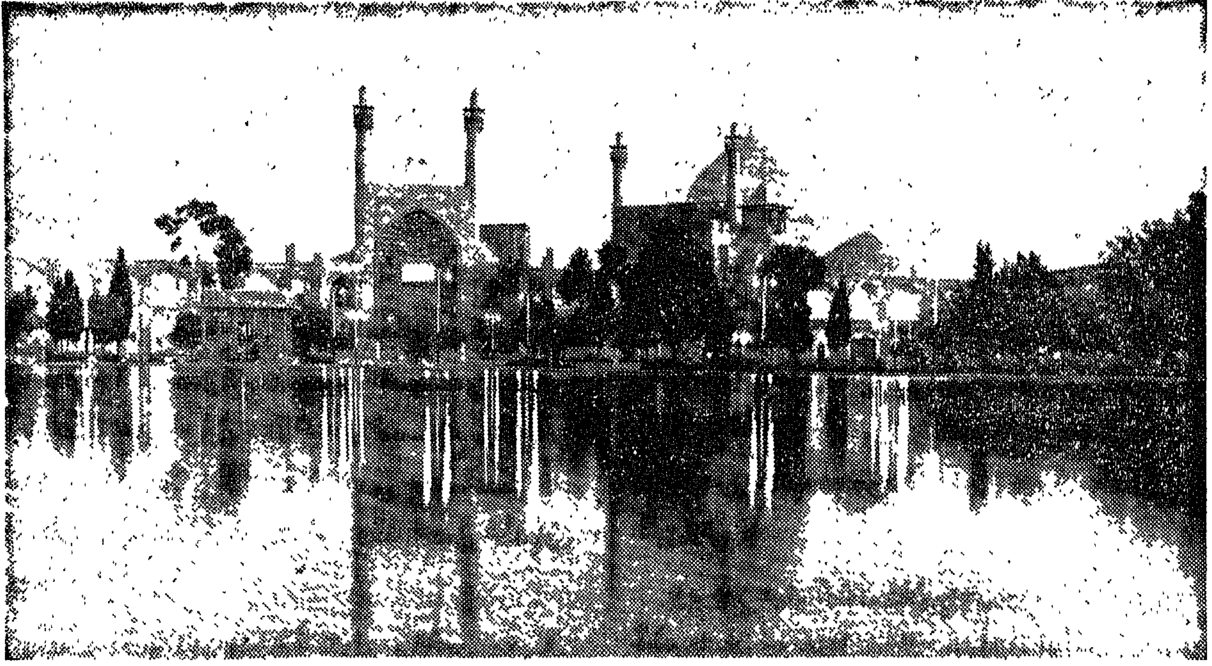
يقول الطبرى عن أهل فارس : « وتراجعوا الى بلدانهم وأموالهم على أفضل مما كانوا فى زمن الأكاسرة ، فكانوا كأنما هم فى ملكهم ... الا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل عليهم ، فاغتبطوا وغبطوا ، ودخل كثير من أتباع زرادشت فى الاسلام ، حتى شكا عامل خراسان الى عمر ابن عبد العزيز قلة الجزية ، فأرسل اليه يقول : ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ، ولم يبعثه جابيا » .

وقد رحب الفرس بالاسلام لأنه دين المساواة . ذلك أن المجتمع الايرانى كان ينوء بنظام الطبقات . ونصت كتبهم على ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين ، وطبقة رجال الحرب ، وطبقة الحراثين ، وقد ألحقت بعض الكتب طبقة أهل المهن بهم ، كما جعلتها كتب أخرى طبقة منفصلة قائمة بذاتها . وكان الانتقال من طبقة الى طبقة أمرا صعبا عسيرا .

وقد حببهم الى الاسلام ما توارد اليهم من أن النبى صلى الله عليه وسلم قرب اليه فارسيا اسمه سلمان ، وأنه يكثر من الحديث عن العتق ، وأن الاسلام دين يكفل الحرية ، ويكره الاستعباد والاستبداد . وقد سار أبو بكر الصديق على سنن رسول الله ومبادىء الاسلام فى معاملة الفرس . ولما جاء عمر الفاروق تساءل الفرس : كيف يعاملنا المسلمون ؟ فقيل لهم قال صحابى عن الرسول : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم — وقد سئل عن المجوس — يقول : « استنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

وقد روى لنا « الفخرى فى الآداب السلطانية » لابن طباطبا أن الخليفة عمر التمس النصح عند رجل من فارس ، كان قد عمل فترة من الزمن فى أحد الدواوين الحكومية ، عند ما أراد أن يهتدى الى طريقة يوزع بها غنائم الحرب التى كانت تتدفق على المسلمين . وقد أشار عليه الفارسى أن ينشىء ديوانا يسجل فيه الدخل والمصروفات ... فكان هذا الديوان هو البذرة التى انبثقت منها الأداة الحكومية .

وقد ساعدت هذه الأمور جميعا على أن يدخل الفرس فى دين الله أفواجا . غير أن معظمهم كانوا — ولا يزالون — يتمسكون بالمذهب الشيعى ، ويعتقدون بأحقية على بن أبى طالب فى الخلافة .



الجامع الكبير بمدينة اصفهان ، وهو من آثار احد الملوك الصفوية

وفى أواخر القرن الثامن للهجرة ، أسس الشاه اسماعيل الصفوى السلطنة الصفوية ، وجعل مذهب الشيعة المذهب الرسمى للشعب والمملكة الايرانية ... فنشط علماء ايران من الشيعة لنشر مذهبهم ، ودونوا الكتب والمؤلفات فى هذا الصدد . ومنذ ذلك التاريخ اتخذ المذهب الشيعى — فضلا عن الناحية الدينية — لونا جديدا مصطبغا بالسياسة الايرانية .

ويبذل أصحاب المذهب الشيعى جهودا كبيرة فى تعليم أبنائهم أصول الشيعة الامامية ... فالكتب المقررة للتدريس وتعليم الطلاب المذهب الشيعى ، هى الكتب التى ألفها أئمة علمائهم فى العصور السابقة . ولكن يتحتم على الطالب قبل دراستها أن يدرس الصرف والنحو والمعانى والبيان والمنطق واللغة والأدب .

ولا تشترط سن معينة لكى يبدأ الطلاب دراسة هذه الكتب ، وان كان معظمهم يبدأونها بعد سن البلوغ مباشرة . ولا يدفع الطلاب مصروفات مدرسية ، ولا يستحضرون غير الكتب المطلوبة ... بل لايتقاضى المعلمون أجرا لأنهم يعدون هذا العمل ثوابا عظيما . والمبانى التى تلقى فيها هذه الدروس تسمى مدارس تجاوزا ، وقد بناها كلها أغنياء الشيعة من الايرانيين فى كربلاء والنجف والكاظمية وسامرا ومشهد وطهران وأصفهان وشيراز وتبريز وغيرها من البلاد ، ووقفوا عليها الأوقاف لحفظها واصلاحها من العطب . وهى تضم غرفا صغيرة على نمط واحد لسكنى الطلاب ، وبعضهم يسكن فى هذه الغرف سكنى دائمة ، وبعضهم يدخلها مدة محددة ومن أجل الاستذكار .

* * *

ومما يذكر أن معانى القرآن لايمكن أن تكون مستقيمة عند الشيعة ، الا اذا كانت بتعليم الامام والشائه ... فهو المفسر للقرآن ، المبين لمعانيه . ويستخلص من مجموع أقوال الشيعة أنهم لايقبلون أحاديث العامة التى تتصل مباشرة

بالنبى ، بل لابد من توسط أحد من آل البيت ، وأنهم لايقبلون رواية غير الامامى الا اذا وجدت قرينة ترجح صدق روايته . ومن جملة القرائن وجود غير الامامى متوسطا بين راويين كلاهما امامى .

وقد تأثر الأدب الفارسى الحديث بالأدب الاسلامى ، وأخذ عن العرب معظم موضوعات الشعر والنثر ، وكل صور الشعر والنثر وأساليبهما من الوزن والقافية والسجع وأنواع البديع . ثم امتاز الأدب الفارسى بخصائصه فى الاسهاب والقصص وغير ذلك . وقد اتصل الأديان اتصالا وثيقا .

وكانت اللغة العربية لغة العلم والأدب منذ الفتح الاسلامى . فلما ترعرت الفارسية ، وصارت لغة علم وأدب ، كتب المنشئون بها فى كتاباتهم ، غير أنهم استخدموا البحور العربية فى الشعر مع بعض التعديلات .

ويوجد بايران الآن نحو ١٩٫٥٦٢٫٠٠٠ مسلم من السكان البالغ عددهم ١٩٫٨٩٦٫٠٠٠ نسمة . وأكثرهم على المذهب الشيعى ، ولذلك تقف ايران كتلة شيعية بين السنيين فى الأفغان والهند ، والسنيين فى العراق والشام ومصر ، حتى أوجدت لنفسها شخصية مستقلة فى العالم الاسلامى .

هذا وقد انتشر مذهب الاسماعيلية فى ايران منذ منتصف القرن الثامن عشر للميلاد ، وله أتباع كثيرون فى ايران والهند والباكستان وغيرها من البلاد .

ويوجد فى ايران كثير من الجوامع والمساجد ، ولعل أشهرها هو مسجد الشاه فى أصفهان ، يمتاز بفخامته وجمال تخطيطه وحسن زخارفه الداخلية .

الإسلام فى أفغانستان

تقع افغانستان بين الصين وكشمير شرقا ، وباكستان جنوبا ، وايران غربا ، وجمهوريات الاتحاد السوفيتى شمالا . ومساحتها نحو ٢٤٥ ألف ميل . والأفغانيون من أصل ايرانى تركى ، وامتزجوا بدماء هندية . ويظهر أن أول من ذكرهم فى التاريخ المدون العتبى فى كتابه « تاريخ اليمن » ، وكان من كتاب محمود الغزنوى ، وكذلك ذكرهم البيرونى .

ويرجع عهد أفغانستان بالاسلام والمسلمين الى أيام عثمان بن عفان ، ثالث الخلفاء الراشدين ، لما أرسل والى البصرة ، عبد الرحمن بن سمرة ، لفتح سجستان ، فحاصر « زارنج » ، وافتتحها (اسمها الآن زاهيدان) ، ولا تزال آثارها باقية الى الآن .

وفى أيام الخليفة معاوية بن أبى سفيان تم فتح هذه البلاد . وقد حاول عبيد الله بن أبى بكر عام ٧٩ للهجرة (٦٩٨ م) أن يفتح تلك الجهات ، ولكنه لم يفلح واضطر أن يفدى نفسه وجيشه بمبلغ من المال قدره ٧٠٠٫٠٠٠ درهم ، ثم أرسل الحجاج الثقفى عام ٨١ هـ (٧٠٠ م) حملة بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث ، ولكنها فشلت . وذكر اليعقوبى فى « مروج الذهب » أنه أرسلت فى عهد هارون الرشيد حملة أخرى الى مدينة كابل ، ولكنها استرجعت مرة أخرى .

ثم جاءت الدولة الغزنوية ، وظلت فى الحكم حتى دالت دولتهم . ثم استقل سنجر السلجوقى بالحكم ، وهزم السلطان علاء الدين ، وقيده فى أغلال من ذهب كان علاء الدين قد جهزها ليقيد بها سنجر عند أسره ... على أن سنجر نفسه وقع أسيرا فى يد الغز بعد عام . وانقضى بموته حكم

السلاجقة . وتكونت على أثر ذلك الدولة المغولية ، وتعاقبت ملوك وأسر على حكم الأفغانستان .

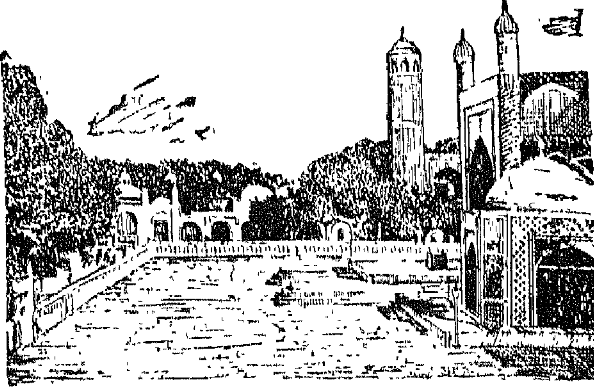
وقد كانت بين الأفغانيين والعرب روابط قديمة ، وهناك كلمات عربية استعيرت وعربت من الفلسفة الأرسطائية فى الأفغان : مثل الفردوس من « براديس » ، ومعناها ما وراء الدنيا ، وجهنم من « جهاندم » ومعناها ذيل العالم ، ومسجد من « مازكت » وتفسيرها رقعة مربعة للصلاة . وهناك كلمات أخرى مثل دولاب والديوان والدفتر والبرنامج وغيرها ، ذات أصول أفغانية .

وتحتوى اللغة العامية الأفغانية على ٣٠٪ من المفردات العربية ، واللغة الأفغانية الفصحى على ٦٠٪ من الكلمات العربية الخالصة الصافية ... بل ان الأفغانيين يحفظون كلمات عربية جميلة انقرض استعمالها فى البلاد العربية .

وقد نبغ من الأفغانيين علماء كثيرون نذكر منهم الامام الأعظم أبو حنيفة النعمان ، والامام أحمد ابن حنبل ، والمحدثين الجليلين البخارى والترمذى ، رضى الله عنهم أجمعين . كما ظهر الزمخشرى والسكاكى والتفتازانى وابن سينا والفارابى وجابر بن حيان وغيرهم .

وقد كان هناك شعب يسكن المنطقة الممتدة من شرق كابل وجنوبها الى « راولبندى » فى باكستان — وتسمى « جندهارا » — وكان هذا الشعب من أعرق الشعوب فى الفن والحضارة والصناعات ، وكان يدين بتعاليم بوذا ... الى أن جاء القائد العربى الكبير « أحنف بن قيس » وأدخلهم فى دين الله الحنيف .

وللعلماء المسلمين فى أفغانستان منزلة كريمة ، ومقام عظيم يروى السيد جمال الدين الأفغانى



جانب من مسجد وقبر رابع الخلفاء الراشدين سيدنا على كرم الله وجهه فى مدينة مزار شريف بافغانستان

فى كتابه « تتمة البيان فى تاريخ أفغان » أن لهم شأنا عظيما وسلطة روحانية تامة ، ونفوذ كلمة بين الأهالى ... يخشاهم الكبراء والعظماء والأمراء ، لأن قلوب العوام فى قبضتهم . ولهم أن يثيروا الشعب على أى أمير أو كبير متى شاءوا ... وكثيرون منهم يستنكفون من ملاقاة الأمراء ، ويستكبرون عن زيارة رجال الحكومة ، حتى أن أمير البلد لو زار أحدهم لا يرى من نفسه أن يتنازل لمقابلة زيارته بزيارة مثلها .

وفى موضع آخر من كتاب « تتمة البيان فى تاريخ الأفغان » يتعرض السيد جمال الدين الأفغانى الى الهوة السحيقة بين السنيين والشيعة ، والجفوة الشديدة القائمة بين الأسر فى الطائفتين ، فيقول : « ومما يحسن سرده هنا أن سنيا عرض التسنن (مذهب أهل السنة) على جارية منهم كانت عنده ، فأبت ، فعزرها وزجرها ، وألح عليها ، فاستشاطت غيظا وقالت : أهون على أن أكون كلبة ، ولا أكون سنية ! » .

ومن بعض عاداتهم أنهم يلقنون أمواتهم اثر دفنهم كلمات معناها « اذا جاءك ناكر ومنكر فلا تخف ، فان مولاك عليا سيحضر عندك ويطردهما عنك » . ومن عاداتهم كذلك أن أهل

الميت يشق كل منهم قلنسوته بعد دفنه ، ويتركها على قبره .

وكثيرا ما كان أهل « التركستان » يأسرون أشخاصا من السنيين ويجبرونهم بالضرب والكى على أن يعترفوا بالتشيع كى لا يمتنع أتقياء بخارى عن شرائهم . واتفق أن بعضا منهم أسر عالما من علماء السنة من نواحى « هرات » فكبله بالسلاسل خوف الهرب ، ومع ذلك كان اذا حضر وقت الصلاة أطلقه ليؤم الناس ، وكان بعد الصلاة يقيده ثانيا .

ولكن الغالبية العظمى من الأفغانيين سنيون ، وعلى مذهب الامام أبى حنيفة ، ولا يتساهلون — رجالا ونساء ، حضريين وبدويين — فى الصلاة ، ماعدا طائفة « نورى » فانهم متوغلون فى التشيع ، ولهم محاربات شديدة مع جيرانهم السنيين ، ولا يبالون بأداء فريضة الصلاة أو صوم شهر رمضان المبارك ، وانما يهتمون بأمر مأتم الحسين رضى الله عنه فى الأيام العشرة الأوائل من شهر المحرم ، ويضربون ظهورهم وأكتافهم بالسلاسل ، وهى مكشوفة .

ويعتقد الأفغانيون أنه لا يوجد الايمان الكامل ، والاسلام الخالص الا فى جنس الأفغان والعرب وبعض أرباب المناصب فى أفغانستان من الشيعة ، مما يدل على السماحة الدينية فى طبع أولى الأمر فيهم .

واللغة العربية تعلم الآن فى أفغانستان كلغة اصلية فى المدارس الرشدية والاعدادية (الكفاءة والثانوى) ، وفى مدرسة المعلمين الأولية . ولا يمكن نجاح طالب وانتقاله من سنة الى أخرى الا اذا جاز الحد المعين فى درجات النجاح فى مادة اللغة العربية التى يقدرونها تقديرا تاما ، لأنها لغة القرآن الكريم ، والحكومة الحاضرة تبذل عناية مشكورة فى الدعوة لتعليم اللغة العربية ، ويدل على ذلك انشاؤها مدرستين باسم « دار العلوم العربية » : احداهما فى مدينة كابل ، والأخرى فى مدينة « هرات » وتوجد مدرسة كذلك فى مدينة « قاندهار »

والأحكام بين الأفغانيين عامة تجرى غالبا وفق الشريعة الاسلامية ورجال القضاء يختارون عادة من مدرسة دار العلوم العربية ... وذلك لأن الفقه الاسلامى ، وكافة العلوم الدينية ، تدرس فى هذه المدرسة على نحو ما كانت عليه مدرسة القضاء الشرعى فى مصر وتقرأ كافة المواد العلمية فى المدارس باللغة العربية ، ولكن يمتحن فيها الطلاب باللغة الفارسية بسبب ضعف الطلاب فى المحادثات والانشاء باللغة العربية ، وقد تضاعف فى السنوات الأخيرة عدد المتكلمين باللغة العربية والمتقنين لعلومها المختلفة

ويحرص الأفغانيون المسلمون عادة — الا فئات متطرفة — على أداء فرائض الاسلام فى سعة صدر ، ورضاء نفس . ويبلغ عدد المسلمين فى أفغانستان ١١ر٠٨٥ر٠٠٠ من عدد السكان البالغ ١١ر٤٠٠ر٠٠٠ . وبها كثير من المساجد ، ومن أهمها المسجد الموجود فى « مزار شريف » .

وقد مر الاسلام فى أفغانستان بمحنة شديدة أيام حكم أمان الله خان ، فانه أصدر أمره بتعطيل المدارس ودور الحكومة يوم الخميس بدلا من يوم الجمعة ، وعطل بذلك أداء العبادات الدينية ، وخطب فى مجلس الأعيان ، وحث على التجديد ، ونبذ العادات القديمة .

وثار فى وجهه كثيرون من المسلمين ، وعلى رأسهم شيخ الطريقة المجددية — واسمه « بير صاحب »

— وكان رئيسا دينيا مطاعا له سلطان روحي تام على جميع أفغانستان فقتله أمان الله خان ، وأمر الجنود فأحاطت ببيته وحاصرته ، فازداد الناس هياجا . وازدادت الثورة حمية . ولم تلبث أن دارت الدوائر على أمان الله خان ، فهرب الى « قندهار » ، وهي مدينة تبعد عن كابل الى جهة الشمال نحو مائتي ميل .

واغتنم « باجا سقا » هذه الفرصة ، فكون جيشا من قطاع الطرق والخوارج ، وهجم على مدينة كابل ، ونصب نفسه حاكما على البلاد ... ومع أنه كان من اللصوص وتجار الدماء ، بيد أن الشعب الأفغاني قبله حاكما عليه ، لأنه كان يمقت كل المقت حكم أمان الله خان ، وظل في حكمه تسعة أشهر حتى أنقذ البلاد الملك محمد نادر خان . ولكن هذا الملك اغتيل عند حضوره الى الحفلة الرياضية للطلبة في كابل لتوزيع الجوائز عليهم يوم ٩ من نوفمبر عام ١٩٣٣ الساعة الثالثة بعد الظهر ، اذ ما كاد يصل الى الحفل حتى أطلق عليه الجاني من مسافة أمتار قليلة ثلاث رصاصات من مسدس كان يخفيه في ثيابه ، فساد الهرج والمرج ، وقبض على الجاني الذي كاد يمزقه الشعب ، ولكن الملك أسلم الروح بعد ساعة من اصابته .

ويظهر أن الجاني ارتكب هذه الجريمة لأنه عقد قرضا من الدول الأجنبية ، كما اشترى صفقات من الأسلحة من الخارج لدعم أركان الدولة بعد ما عاث فيها أمان الله خان فسادا ، فظنت بعض القبائل أنه يتآمر على مصلحة الشعب ، فدبرت مؤامرة لقتله . وتولى على اثر وفاته الأمير محمد ظاهر شاه العرش ، وهو ملك الأفغاني الحالي ..

الإسلام في الباكستان

في الرابع عشر من شهر أغسطس عام ١٩٤٧ ، ولدت باكستان باعلان نهاية الامبراطورية البريطانية في الهند ، وتقسيم شبه القارة الهندية الى دولتي الهند وباكستان وباكستان تتألف من قسمين نفصل بينهما نحو ١٢٠٠ ميل : يقع أحدهما في الشمال الغربي من جمهورية الهند ، ويسمى باكستان الغربية ، ويقع الثاني في الشمال الشرقي منها ، ويسمى باكستان الشرقية .

وباكستان الشرقية تتكون من اقليم شرقي البنغال ، وتبلغ مساحتها ٥٤٥٠١ ميل مربع ، وعدد سكانها ٤٢٠٦٣٠٠٠ نسمة ، وهي من أشد بقاع العالم ازدحاما بالسكان ، اذ يبلغ متوسط كثافة السكان في الميل المربع ٧٧٧ نسمة .

أما باكستان الغربية فتتكون من عدة ولايات منها البنجاب والسند وكشمير ، وتبلغ مساحتها ٣١٠٢٣٦ ميلا مربعا . وعدد سكانها ٣٣٧٧٩٠٠٠ نسمه فهي بذلك أقل سكانا وأقل كثافة في نسبة السكان للميل المربع من الباكستان الشرقيه .

و « باكستان » كلمه فارسية معناها ارض الطهر وهي ترمز الى المقاطعات الاسلامية في الهند فالباء من بنجاب ، والألف من الباتان ، والكاف من كشمير ، والسين من سند أما « ستان » فمعناها دولة

وقد دخل الأسلام الباكستان منذ القرن الأول للهجرة ، وكان لمحمد بن القاسم دور كبير في هذا الميدان ... فبعد أن فتح الاسلام ايران وأفغانستان أراد المسلمون فتح ما وراء السند ، فأرسلت الجيوش والأساطيل البحرية الى هذه

المناطق ، واستطاعت أن تنزل بمنطقة قرب كراتشى . وسرعان ما انتشرت الحضارة الاسلامية وثقافتها . وقد بقيت اللغة السندية الى اليوم زاخرة بالألفاظ العربية .

وحوالى عام ٧١٢ م — وحين بدأ القراصنة يتدخلون فى تجارة العرب فى البحر العربى — قام محمد بن القاسم ليعيد الى هذه الأرجاء سلامها وأمنها . ولما نجح القائد المسلم فى مهمته ، اتخذ أتباعه من قرية صغيرة قريبة من مصب نهر السند ، كانت مخصصة للصيد ، مقرا لهم . ويقال ان هذه القرية كانت محل « بامبور » التى تبعد اليوم عن كراتشى نحو ٤٠ ميلا . وبدأت الجماعة الصغيرة تتاجر مع أهالى وادى السند ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت كل هذه المنطقة خاضعة لنفوذ الاسلام .

وفى القرن العاشر للميلاد قدم محمود الغزنوى — وهو ملك أفغانى مسلم — عن طريق ممر خيبر . وعندئذ ولدت الدولة الاسلامية ، واتخذت لاهور مقرا لها ، وهى أول عاصمة اسلامية بالهند . ومن هناك تفرعت الدولة الاسلامية الى أجزاء أخرى فى شبه القارة . وقبل أن ينقضى القرن العاشر استطاع محمود الغزنوى أن يمد من رقعة الفتح الاسلامى حتى وصل الى البنغال .

وفى القرن الثانى عشر غزت البنغال الشرقية أسرة هندوكية متعصبة ، نزلت عليها من الجنوب ، وطبقت نظام الطبقات الهندوكى فى صرامة وشدة وتعصب . فلما جاء المسلمون ، وغلبوا هذه الأسرة الحاكمة ، وبشروا بدينهم ... استهوت دعوتهم المغلوبين على أمرهم ، ورأوا فى الدين الجديد مساواة لم يروها فى الديانة الهندوكية . فأقبلوا على اعتناقه ، وتحولوا من الهندوكية الى الاسلام . وكان للدعاة والتجار المسلمين الذين انحدروا الى تلك المناطق الغنية الفضل الأول فى نشر الدين الاسلامى فى أرجائها الواسعة ، وكان انتشار الاسلام فى البنغال الشرقية والملايو والصين على أيديهم .

وقبل بداية القرن الثامن عشر بلغت الدولة المغولية أوجها حينما كان « أورانجزيب » على رأس امبراطورية المغول . وبعد ذلك بدأت شركة الهند الشرقية تتدخل فى أمور البلاد ، وساعدها على ذلك ضعف الدولة الاسلامية . ومع أن البريطانيين جاءوا الى هذه البلاد بوصفهم تجارا ، بعد أن حصلوا على ميثاق للتجارة عام ١٨٦٠ ، فقد أصبحوا بمرور الوقت سادة هذه البلاد .

ولما ثار المسلمون والهنادكة على الانجليز انهزم الثوار ، وقضى على الدولة الاسلامية بالهند . وكان الانجليز يكنون عداء شديدا للمسلمين ، لأنهم كانوا المسيطرين على أزمة الأمور فى الهند .

ثم بدأت الحركات الاستقلالية بالهند . فتأسس حزب المؤتمر الهندى ، ثم حزب الرابطة الاسلامية . وقد دعا المؤتمر المسلمين الى عقد مؤتمر سنوى يضم ممثلى المسلمين من كافة الأقاليم الهندية المختلفة . فوضع بذلك الأساس الذى قامت عليه الرابطة الاسلامية التى قادت الحركة الاستقلالية لدولة باكستان .

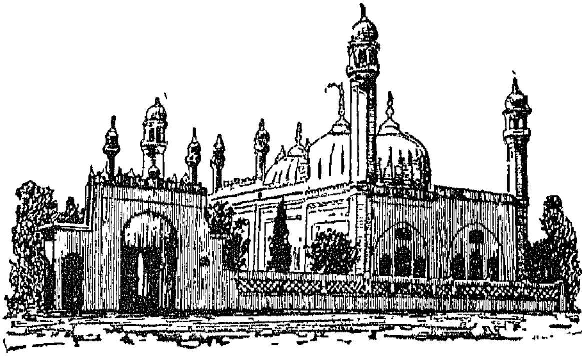
وقام السيد أحمد خان بدور كبير فى الدفاع عن المسلمين ، ونصب نفسه للدفاع عن شعب أعزل يرسف فى أغلال التأخر . ولم تلبث حركته هذه أن قويت ، وصار لها خطرها حين أسس المؤسسة التعليمية المشهورة « عليكرة » التى تخرج فيها قادة الرأى والفكر الذين كانت البلاد فى حاجة اليهم .

وفى عام ١٩٠٦ تكون حزب الرابطة الاسلامية ،

بعد انقضاء ثمانى سنوات على وفاة السيد أحمد خان ، فكان قيامه هو البداية الحقيقيه للحـركة القومية التى سار فيها مسلمو الهند ، ونفخ السيد أحمد خان فى جذوتها من قبل . وكان أول ما نادى الحزب به كفالة حقوق المسلمين ، وحماية حقوقهم السياسية والادارية

وأول من اعتنق فكرة وجوب انفصال المسلمين عن غيرهم ، وتكوينهم دولة اسلامية خاصة بهم ، هو « محمد اقبال » شـاعر النهضة الاسلامية . وقد ولد اقبال عام ١٨٧٣ وتوفى عام ١٩٣٨ ، وقرأ القرآن منذ أن كان صبيا ، وتشربت روحه بفيضه السنى . وقد أنكر التعصب ، وقال ان العصبية أكبر أعداء الاسلام ، وهى من اختراع ابليس . وقد تتلمذ على يد المستشرق الانجليزى الكبير « السير توماس أرنولد » ، كما رحل الى أوربا ، وحصل على الدكتوراه فى الفلسفة من سويسرا ، واشتغل بالسياسة ، وكان رئيسا للعصبة الاسلامية لجميع الهند ، والعضو العامل فى مؤتمر الله أباد التاريخى الذى نادى فيه بضرورة تكوين دولة اسلامية فى الهند هى « باكستان » .

ومما قاله اقبال فى مؤتمر الله أباد عام ١٩٣٠ : « أود أن أرى البنجاب وولاية الحدود الشمالية والغربية والسند وبلوخستـان دولة واحـدة مستقلة » . وهذه البلاد هى الآن قوام القسـم الغربى من باكستان حيث تستقر الحكومة المركزية . وقال فى صدد شرح هذا الرأى : « من الواضح أنه ليس من حل يؤدى الى اقامة نظام دستورى رصين فى الهند — حيث يتنوع المناخ ، وتختلف العناصر واللغـات ونظم الحيـاة — الا فى اقامة حكومات مستقلة تجمع سـكانها وحـدة اللغة والعنصر والتاريخ والدين وتشابه المصالح والمنافع الاقتصادية » . وقال فى الخطاب نفسه أيضـا :



مسجد الكلية الاسلامية بمدينة بشاور

« اننى لا أنصح المسلمين قط بقبـول أى نظـام لا يعترف لهم بكيانهم السياسى الخاص المتمايز » .

وقد كافح المرحوم محمد على جناح القائد الأعظم فى بلوغ هذا الهدف ، وكان يشيد دائما بذكر اقبال قائلا : « انه كان دليلى ورفيقى » .

وفى عام ١٩٤٠ أعلن حزب الرابطة الاسـلامية لعموم الهنـد عن اتخـاذه فكرة انشـاء الدولة الاسلامية التى دعا اليها اقبال ، هدفا سياسيا عليه أن يحققه وينفذه . ولم تلبث أن تحولت الفكرة الى حقيقـة يوم ١٤ أغسطس عام ١٩٤٠ على يد القائد محمد على جناح ، وأعلن القائد الكبير فى هذه المناسبة التاريخية « ان تأسيس باكستان — وهو ما جاهدنا لأجله طيلة السنوات العشر الأخيرة — أصـبح اليوم ، بفضل الله ، حقيقة قائمة . فقـد كان المقصود من تحقيق هـذه الفكرة هو وجوب تأسيس دولة نستطيع فيها أن نعيش ، وأن نكيف حياتنا وفقا لمواهبنا وثقافتنا ، وحيث يمكن لتعاليم الاسلام عن العدالة الاجتماعية أن تجـد لها مكانا » .

وهكذا قامت باكستان على أساس من العقيدة والحضارة الاسلامية والمثل العليا ، ولم تقم أبدا على أساس الجنس . وينص الدسـتور على أن باكستان جمهورية اسـلامية تعيش بحسب تعاليم

الدين وعلى هديه ، وفى الميدان الخارجي تعمل فى ضوء صلتها بالدول الاسلامية ، وهى لهذا تناصر القضايا الإسلامية فى المحافل الدولية .

وساهم السيد جمال الدين الأفغانى فى الدعوة الى انشاء باكستان ، وكان يحلم بيقظة المسلمين من جديد ، واحياء التراث المجيد الذى خلفه لهم أجدادهم . وكانت أفكاره هى الأفكار نفسها التى اعتنقها بعده الشاعر الفيلسوف محمد اقبال .

وكذلك نظم الشاعر « ألطاف حسين حالى » مجموعة من الأشعار يستحث فيها المسلمين ، ويهدف فيها الى رفع حالهم . وكان متشبعا بآراء السيد أحمد خان . وأسهم « شبلى نعمانى » فى الدعوة الى انشاء باكستان حين كان أستاذا فى جامعة « عليكرة » ، وأنشأ فى « لكناو » ندوة العلماء قصد التقريب بين الحضارة الغربية والدراسات الشرقية . أما نذير أحمد فقد استخدم القصة والأدب فى توضيح مواطن الفساد ، والدعوة الى الصلاح والتقدم . أما « نواب وقار الملك » فقد تولى السكرتيرية الفخرية لجامعة عليكرة ، وهو الذى افتتح أول دورة لحزب الرابطة الاسلامية التى انعقدت فى مدينة « داكا » عام ١٩٠٦ م .

أما أغا خان فقد كان منذ أوائل القرن الحالى زعيما من زعماء الحركة الاسلامية ، وقد تولى رياسة الوفد التاريخى الذى ضم ممثلين عن كل المسلمين فى ربوع الهند ، وذهب الى سملا عام ١٩٠٦ ليقدم الى نائب الملك اللورد « منتو » العريضة التى ضمنوها مطالب المسلمين فى الاحتفاظ بدوائر انتخابية خاصة بهم وكفالة حقوقهم ، وكانت هذه العريضة ارهاصا بانشاء دولة جديدة تضم المسلمين فى الهند .

وقد جاء فى هذه العريضة : « يبلغ عدد المسلمين بالهند ، بحسب احصاء ١٩٠١ ، أكثر من ٦٢ مليون نسمة ، أو ما يساوى خمس مجموع سكان الدومنيون الهندى البريطانى أو ربعهم ، ونحن لهذا نرغب فى أن تتاح للمسلمين الفرصة لتمثيل أنفسهم فى أية صورة من الصور — شاملة أو محدودة — لا سيما وهم يطلبون الاعتراف بهم كعامل ذى أثر فى الدولة » .

وقد كان لهذا الاجتماع أثره فى تأليف حزب الرابطة الاسلامية فى العام نفسه ، وقد انضم أغاخان الى الحزب الجديد ، وكان رئيسه الدائم من عام ١٩٠٩ الى عام ١٩١٤ .

وكانت لأغا خان صلات قوية بالسيد أحمد خان . وبعد وفاته بذل أغا خان جهودا مشكورة فى تأسيس جامعة « عليكرة » ، وجمع لها مبالغ كبيرة أربت على ثلاثة ملايين روبية . وفى عام ١٩٢٨ رأس أغا خان مؤتمر مسلمى عموم الهند ، كما رأس فى عامى ١٩٣٠ و ١٩٣٢ الوفد الاسلامى لمؤتمر المائدة المستديرة بلندن .

ويتبع أغا خان عدد كبير من الناس ، فى باكستان والهند وآسيا الصغرى ، يبلغ عددهم نحو سبعين مليونا ، ويكادون يعبدونه ... حتى ليوصف بأنه الأمير الوحيد فى العالم الذى له رعية وليست له أرض يحكمها . ويهدى اليه أتباعه سنويا ما يوازى وزنه ذهبا . ولا تسيطر فكرة الصداق على عقود الزواج عند أتباع أغا خان ، وانما تتم هذه العقود على أساس المكانة الاجتماعية التى لأهل العروس ، وهى فى العادة تأتى بالأثاث اللازم للمنزل .

ومن الذين قاموا بدور كبير فى انشاء دولة باكستان السيد علي امام الذى رأس عام ١٩٠٨ الدورة السنوية الثالثة لحزب الرابطة لعموم مسلمى الهند ، ثم عين رئيسا للمجلس التنفيذى لدى نظام حيدر أباد ، والسيد عبد الرحيم أحد أعضاء الوفد الى سملا ، وقد رأس الدورة السنوية لحزب

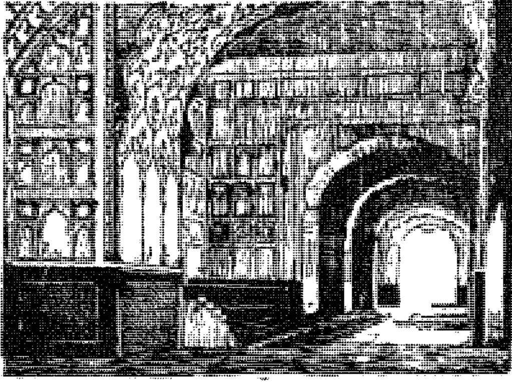
الرابطة الاسلامية التى انعقدت عام ١٩٢٥ . وسيد أمير على مؤلف كتاب « روح الاسلام » ، ومؤسس الجمعية المحمدية القومية ، وقد نظم فرع حزب الرابطة فى لندن . ونواب سليم الله كان له دور محمود فى تأليف حزب الرابطة الاسلامية ، وقد استطاع مع جماعة من أنصاره اخراج الفكرة الى حيز الوجود .

والشيخ عبد القادر من ألمع الشخصيات الاسلامية فى البنجاب ، وقد عمل على توحيد كلمة المسلمين ، وكان يحرر صحيفة « المخزن » باللغة الأوردية ، وعين بعد ذلك وزيرا فى حكومة البنجاب ، ومثل الهند فى اجتماعات عصبة الأمم .

وغير هؤلاء كثيرون ممن قاموا بنصيب مشكور فى سبيل تأسيس باكستان ، حتى تحققت النبوءة وأصبح الحلم حقيقة عام ١٩٤٧ .

وعندما قامت هـذه الدولة الاسلامية الكبرى نهض القـائد الأعظم محمد على جناح ليقول فى محفل من المحافل : « ان شعب باكستان لا يريد شيئا ليس له حق فيه ، ولا يتوق الا الى توفير حسن النية ، وتعزيز أواصر الصداقة مع كل الأمم الحرة فى العالم . ونحن فى باكستان قد عقدنا العزم ، بعد أن حصلنا على حريتنا التى حرمنا منها طويلا ، على أن نبذل أقصى ما فى مستطاعنا لا لكى نقيم لنا دولة قوية سعيدة وحسب ، بل لكى نسهم بكل ما فينا من قوة فى اقرار السـلام العالمى واشاعة الرفاهية » .

وقد اتجهت باكستان — قبل أن تعتنق سياسة الأحلاف الغربية — اتجاها اسلاميا عربيا حمده لها العرب والمسلمون . ففى عام ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ كان وزير خارجيتها السيد ظفر الله خان أكثر الخطباء فى هيئـة الأمم تحمسا لقضية العرب فى مشكلة



الفناء الداخلى لمسجد شاهى بمدينة لاهور

فلسطين . ولكنها لم تلبث أن تخلت عن سياستها التى رسمها لها مؤسسها محمد على جنـاح ، واندفعت مع تيار الأحلاف . وانها اليوم لتعود الى الروح التى نشأت عليها مستهدية بنور الاسلام ، وروابطها التاريخية المجيدة بالعالم العربى .

الاسلام فى الهند

تضم الهند ما يقرب من ٤٣ مليون مسلم من مجموع عدد سكانها البالغ ٣٥٧ مليون نسمة . ويقول سير توماس آرنولد : « ان عددهم يربو على ٦٦ مليونا » . والمسـلمون اليوم فى الهنـد بعضهم ورث الاسلام عن أسلافه ، وبعضهم وفد من البلاد العربية المجاورة ، واستقر به المقام فى الهند . ومنهم من اعتنق الاسلام لأنه وجده الدين الحق ، والشريعة المثلى ... ولكن السواد الأعظم من هؤلاء المسلمين هم سكان الهنـد الأصليون الذين ورثوا الدين الاسلامى جيلا بعد جيل .

وقد انتشر الاسلام فى الهنـد ، لأن الظروف هيأت له هذا الانتشار ... فمالت اليه النفوس ، وهفت اليه القلوب ، فرارا مما كانت ترسف فيه من ظلم وطغيـان ، ورغبـة فى التمتع بما كفله الاسلام من حرية وعدل ومساواة .

ولقد ارتبطت الهند بالعالم العربى منذ أبعد العصور ... فالملك سليمان كان يستورد الذهب والفضة والعاج والطواويس من بلاد الهند ، وأنشأ البطالسة موانىء على البحر الأحمر لتنشيط التجارة الهندية ، كما عاشت فى الاسكندرية جالية هندية كبيرة فى أوائل القرن الثالث للميلاد . وكانت السفن العربية تبحر من سواحل البحر الأحمر أو من السواحل الجنوبية ، فتتجه الى مصب نهر السند أو ساحل مالابار ، وتساعدها الرياح فى مجراها الى « كولم » والموانىء الأخرى . كما كانت السفن المبحرة من الخليج الفارسى تتخذ الطريق نفسه ، وبمساعدة الرياح تصل حتى جزائر الملايو وساحل الصين .

وفى القرن الثامن للميلاد أخذ نفوذ المسلمين يزداد . وفى خلال المائة التالية ، استقروا بساحل مالابار استقرارا تاما ، ورحبت بهم الحكومة الوطنية كتجار ، وسهلت لهم السبل للاستيطان والتملك ، وأطلقت لهم الحرية الدينية .

وفى أواخر القرن الثامن للميلاد ، انتشر المسلمون على ساحل الهند الغربى كله ، وأحدثوا ضجة بين أبناء البلاد من الهندوسيين بمعتقداتهم وعباداتهم ، وتحمسهم لنشر دينهم . وقد كانت الهند الجنوبية وقتئذ مسرحا للمصادمات الدينية بين الهندوسية والبوذية ، كما كان هذا العصر من الوجهة السياسية كذلك ... فكان الناس بطبيعة الحال مضطربين ومستعدين لقبول أفكار جديدة . فظهر الاسلام بتعاليمه السمحة التى لا تعرف التعقيد ولا الالتواء ، وعباداته المرنة الخفيفة ، فصادف فى النفوس هوى ، ولاقى فى القلوب استجابة وصدى .

وفى عهد عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، خرج العرب لفتح فارس على رأس حملات من البحرين وعمان لتأمين جانب الاسلام ، ورد غائلة المعتدين . وتوغلت جيوش المسلمين حتى سواحل الهند ، على مقربة من ميناء « كراتشى » الحالى وبمباى . ولكن الفاروق عمر نهى عامله بالبحرين ، الحكم بن أبى العاصى ، عن المضى فى هذه الحملة ... اذ كان يخاف البحر على جند المسلمين ، وكان يعتقد أن ركوب متن السفن فى البحر أشبه بحمل الدود على العود : من نجا منهم شرق ، ومن سقط منهم غرق .

ولكن الحكم بن أبى العاصى أوغل فى غزوه ، وبعث أخاه المغيرة الى ديبل عند مصب السند ، وقصد هو الى بروج . ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة خشى أن تصيب الاسلام نكسة من القبائل المتاخمة للبلاد العربية ، فأمر عامله فى العراق — وكان يسمى عبد الله بن عامر — أن يوجه بعض حملاته الى ثغور الهند ، فوجه اليها حكيم بن جبة العبدى الذى حدث الخليفة عن الهند حديثا لم ترتح اليه نفسه ، فصرف المسلمين عن غزوها فترة من الزمن . ولكنهم ما لبثوا أن توغلوا فيها ، ووصلوا الى مدينة « كابل » عاصمة الأفغانستان الآن . وانتشر المسلمون على شواطىء السند .

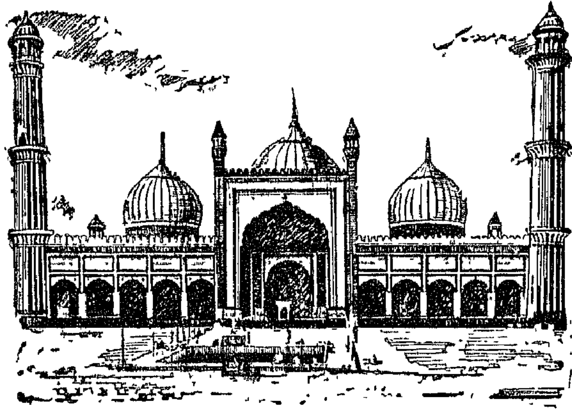
وفى أيام معاويه بن أبى سفيان جاء المهلب بن أبى صفرة ، ولكن الأراضى الجبلية والمناطق الوعرة ، صرفته عن أن يستمر فى حملاته فى الشمال ، فحصر جهوده بين كابل ومكران فى الجنوب .

وأرسل الحجاج الثقفى — حين ولى أمور العراق — سعيد بن أسلم الى مكران ، ولكن بعض الخارجين على حكم بنى أمية تربصوا به ، وقتلوه . فلما بلغ الحجاج هذا الخبر التمس

من الوليد بن عبد الملك أن يرسل حملة الى السند لقطع دابر الخارجين على حكم بني أمية في هذه المناطق. ولكن الخليفة آثر التمهل والروية.

ثم حدث أن أغار بعض القراصنة من الهنود على سفينة قادمة من جزيرة الياقوت (سيلان)، وعليها بنات وأرامل طائفة من التجار المسلمين، وجماعة من المسلمين يحملون هدية من ملك هذه الجزيرة الى الخليفة. وتأخر داهر ملك السند فى انقاذ المسلمين، بحجة أنه لا يملك السيطرة على القراصنة، فأوغر هذا صدر الخليفة، فأمر الحجاج بأن ينفذ حملة بقيادة عبيد الله بن نبهان الى ديبل، ولكنها صادفت مقاومة شديدة. فعول الحجاج على تجهيز حملة كبيرة اختار لها ابن أخيه محمدا بن القاسم — وكان فتى لم يبلغ العشرين، فى ريعان العمر وأوج الشباب — فزحف المسلمون من مكران صوب ديبل فى جيش قوامه اثنا عشر ألف جندى وثلاثة آلاف بعير.

وانضم الى جيش المسلمين عند ديبل عدد كبير من الخارجين على الحكومة البرهمية التى كانت تسومهم سوء العذاب، وتنبذهم لبذ النواة، وتحرمهم من امتطاء الدواب أو ارتداء غالى الثياب، ولا تسمح لهم الا بمزاولة أدنأ الحرف وأحقرها ... فساعدوا المسلمين على معرفة المسالك والدروب فى السند. واستخدم محمد ابن القاسم منجنيقه الكبير المعروف باسم « العروس »، ووقف خلفه خمسمائة من الرجال الأشداء، وتحطم فى هذه المعركة معبد الهنادكة الأكبر. وبنى ابن القاسم مسجدا فى « ديبل »، وعمر المسلمون أحياءها، ثم واصلوا زحفهم حتى بلغوا مدينة « ريناركوت »، فهش أهلها للدين الجديد، وأخذوا يتعلمون فرائضه وتعاليمه.



المسجد الجامع بمدينة دلهى بالهند

وعلى حين غرة هجم العدو على محمد بن القاسم، واشترك فى القتال داهر ملك السند — وكان يمتطى فيلا ضخما — فاشتد بالفيل العطش، فثار وهاج واندفع نحو النهر، فترجل الملك، وأخذ يبارز على قدميه حتى أصابت منه سيوف العرب مقتلا.

ووصل المسلمون بعد ذلك الى برهمن أباد، وقد عاملوا رؤساء الهنادكة وغيرهم فى هذه المدينة معاملة حسنة ضربت بها الأمثال: فأطلقوا لهم حرية العبادة مقابل أن يدفعوا جزية للمسلمين.

وقد دل أحد البراهمة محمدا بن القاسم على مكان خفى فى أحد المعابد، ملىء بالكنوز والأموال ... ففرح به ابن القاسم فرحا عظيما، وكان أول ما عمله أن رد الى بيت المال ضعف نفقات الحملة السندية حتى لا يضار المسلمون فى أرزاقهم.

وعول محمد بن القاسم بعد ذلك على فتح مملكة « قنوج »، أعظم امارات الهند، وكانت تمتد من السند الى بنغال. وكتب الى الحجاج يطلب منه الموافقة على ذلك، فأذن له.

واستهل ابن القاسم خطته بايفاد بعثة من رجاله الى ملك قنوج يدعوه الى الاسلام أو الجزية ، فرفض الملك ذلك رفضا باتا ... عندئذ لم يجد محمد بن القاسم مناصا من المضى فى خطته ، فجهز جيشا قوامه عشرة آلاف من الفرسان . وفجأة وافته الأنباء بوفاة الحجاج والوليد ، وتولية سليمان بن عبد الملك الخلافة . فاستدعى ابن القاسم .

ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، أخذ يدعو للاسلام فى رفق وهوادة ، وأرسل الرسل الى الهند من أجل ذلك ، واستعان بعمرو بن مسلم الباهلى فى هذه المهمة ... حتى أقبل الهنود على دين الله أفواجا ، وأسلم ولد داهر نفسه . وظل المسلمون يرسلون بعثاتهم وحملاتهم الى هذه الأراضى طيلة العهد الأموى .

وفى بداية العصر العباسى بعث أبو مسلم الخراسانى الى السند عبد الرحمن بن أبى مسلم العبدى ، فموسى بن كعب التميمى ، فجدد بناء المنصورة على شاطىء السند ، وأنشأ بها مسجدا جديدا ... كما أرسل السفاح عمر بن حفص فعمل على نشر التشيع بالسند .

أما الخليفة المهدى ، فقد عنى عناية كبيرة بنشر الاسلام فى الهند . ولكن الخلافات التى دبت بين القبائل المهاجرة حدت من هذا الانتشار . ثم جاء الليث بن ظريف بعد وفاة المهدى ، فقطع شوطا كبيرا فى تهدئة الخواطر ، ونشر السكينة . وان ظلت الأطماع تحرض على الفرقة ، فكانت بعض القبائل تنادى بتقسيم البلاد بين قريش وربيعة وقيس ... وقد استعان هارون الرشيد ببعض أطباء الهند فى علاجه .

ووفد على السند فى بداية القرن الرابع للهجرة دعاة للفاطميين ، وعلى رأسهم الهيثم رسول عبد الله المهدى . ثم توالى عليها دعاة الاسماعيلية فنشروا المذهب فيها . وفى أواخر القرن الرابع للهجرة ، أقبل الغزناويون — وهم مسلمون ، وان لم يكونوا عربا — على الهندستان فاتحين ، فاستولوا عليها .

ويروى المسعودى مشاهداته عام ٩١٦ للميلاد ، فيقول : « ان عشرة آلاف مسلم من سيراف وعمان والبصرة وبغداد ، استقروا فى مدينة سيمور بالقرب من بمباى ، واستوطنوها حتى أصبحوا يعرفون فيها بالبياصرة » . ولاشك أن قيام الدولة العباسية فى بغداد كان له أثر كبير فى ترويج التجارة ، وتنشيط الصلات العلمية والثقافية بين العرب والهند .

وقد وصف الجاحظ ، فيلسوف البصرة ، هذه العلاقات فقال : « لقد نبغ أهل الهند فى علوم الفلك والطب ، واخترعوا الشطرنج والأرقام الحسابية . وهم لا يكاد يضاهيهم أحد فى فن المعمار والنقش ، وفى صناعة السيوف المهندة وفى علوم الحساب » .

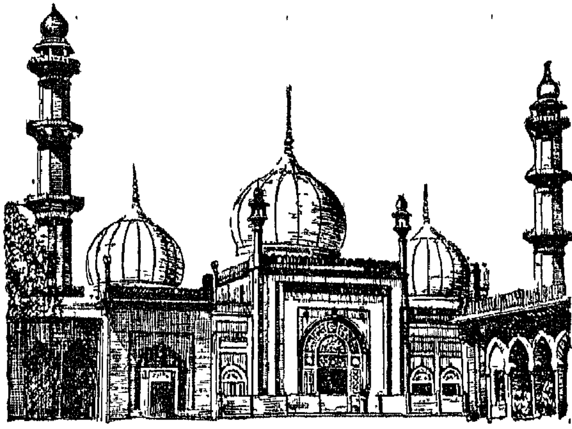
وكان لتشجيع الخلفاء العباسيين من أمثال المنصور وهارون الرشيد ، وتعضيد الوزراء البرامكة من أمثال خالد ويحيى وجعفر ، أثره فى دعم العلاقات الثقافية بين الهند وعاصمة الخلافة العباسية ... فنزع نفر من علماء الهند ورجال الحكمة والطب الى بغداد . نذكر من بينهم باخار وراجا وساهر وزنكال وأريجال وأنكو وغيرهم . وقد أثبت حكماء الهند الذين ذهبوا الى بغداد قدرتهم على التطبيب حين عالج « منكا » الخليفة هارون الرشيد وشفاه من علته ، وعالج صالح بن بهلة ابن عم الخليفة فأبرأه من مرضه .

ومن آيات مهارة حكماء الهند وأطبائهم ، أن أصبح ابن دهن — وهو واحد منهم — مديرا للمستوصف البرمكى فى بغداد ، كذلك ترجم فى

هذا العهــد عدد كبير من أمهات الكتب فى شتى العلوم والفنون ، من اللغة السنسكريتية الى اللغة العربية ، فى دار الترجمة التى أنشأها المنصور . ومنها : السندهند وأركند فى الفلك ، وبوذاسف فى القصص الخيالى الرائع ، وكتـاب فى أمراض النساء والولادة وضعته سيدة هندية ، وكتابان آخـران من تأليف شانامد : أحـدهما فى الطب البيطرى ، والآخر فى السموم ، وكتاب لباكسهر فى الموسيقى اسمه النفير . واشترك الهنود كذلك فى ترجمة عدد آخر من الكتب الى اللغة العربية . فعرب منكا كتابا فى الجراحة ، وآخر فى طرق العلاج يحوى وصفات لأمراض مختلفة يبلغ عددها ٤٠٤ .

وكان من الشخصيات البـارزة فى بلاط خلفاء بغداد « كانكى بانديت » وهو من أشهر المؤلفين . وقد ترجمت مؤلفاته الى اللغة العربية ، كما ترجمت كذلك « البانشـاتانترا » — وهى مجموعة مـن القصص الرائعة التى تقوم على الحكم والأخلاق — الى اللغة العربية ، وعرفت بين قرائها فى بلاد العرب باسم « كليلة ودمنة » ، وكانت الترجمـة العربية المصدر الذى ترجم منه الكتاب فيما بعد الى اللغات الأخرى . فترجم الى الاغريقية واللاتينية والعبرية والسريانية والاسبانية والفرنسية والتركية والانجليزية والفارسية .

ويقول الدكتور « سوشين » ان كثيرا من المحافل العربية عنيت بنقـل المؤلفات العلميـة الى اللغة العربية ، وزادت عليها ، فعلقت على طريقة عرض الموضوعات ، وأضافت لها الحواشى ، وفاضلت بين مؤلف ومؤلف . ومن ذلك أن عبد الله بن أحمد السرقسطى وضع كتيبا نقد فيه السندهانة ، وعدد الأخطاء التى وقع فيها « براهما جوبتا » فقام ابن سعيد الأندلسى فوضع كتابا آخر ، فند فيه رأى



المسجد الجامع بمدينة عليكرة بالهند

عبد الله السرقسطى ، وأثبت صـحة ما ذهب اليه براهما جوبتا .

وقد كتب كثيرون من العـرب من أمثال أبى العباس والمقدسى والشهرستانى وغيرهم عن ديانة الهندوس ومعتقداتهم وعاداتهم . كمـا نقل علماء العرب الذين وفدوا الى الهند ، وعلماء الهند الذين جاءوا الى بغداد ، كثيرا من معارف الهند وعلومهم الى عاصمة الخلافة الاسلامية ، وسرعان ما اختلطت هذه العلوم بالبحوث الاسلامية .

وبعد أن دالت دولة العباسيين ، وسقطت بغداد فى أيدى المغيرين عام ١٢٥٨ م ، رحل أحد حفدة الخليفة المنتصر الى الهند عام ١٣٣١ م ، فمنحه الملك غياث الدين طغلاق قصرا يقيم فيـه ، آنيته من الذهب والفضة ، وحمامه من الذهب الخالص . وأعطاه مبلغا قدره ٤٠٠ ألف تانك ، كمـا أقطعه مدينة سيرى — احدى مدن ولاية دلهى الأربع — وعينه حاكما من قبله على الولاية كلها .

وفى تلك السنة قدم ابن بطوطة الى الهند فمنحه طغلاق ٦٠٠٠ تانك ، ووهبه الحكم فى خمس قرى ، ومنحه جعلا سنويا قدره ١٢٠٠٠ تانك ، كما عينه قاضيا على دلهى . ثم اختاره بعد ذلك مبعوثا له الى الصين فذهب الى الميناء تحرسه جماعة قوامها

ألف فارس . ويقول « ابن بطوطة » : « ان ملوك الهندوس كانوا يتجنبون كل ما من شأنه أن ينفر العرب منهم ، لأن قسطا كبيرا من ثروتهم كان يتوقف على تجارتهم مع العرب » .

كما زار الرحالة المسعودى الهند مرتين : أولاهما عام ٩١٤ م ، والثانية عام ٩١٦ م . ووصف أنهار الهند وجبالها وممالكها وحكامها .

وقد زار البيرونى الهند فى القرن الحادى عشر للميلاد ، وبقى هناك دهرا طويلا ألف فيه كتابه المعروف « ماللهند من مقولة » ، وهو أصدق مرجع لتاريخ الهند فى العصر الوسيط وأوفاه . وقد كشف بهذا العمل الضخم لقراء اللغة العربية عن كنوز المعرفة الهندية فى الرياضيات والفلك والفلسفة والدين . وقد أتقن البيرونى اللغة السنسكريتية ونقل منها الى اللغة العربية كتبا كثيرة ، ثم نقح كثيرا من الكتب المترجمة أو المقتبسة واختصرها ، فقدم للعرب جماع المعارف الهندية حتى العصر الذى عاش فيه .

ويقول البيرونى : ان دارات النجوم كما عرفت عن طريق قانون العالمين « الفزارى » و « يعقوب ابن طارق » ، قد نقلت عن رجل هندى كان قد جاء الى بغداد فى احدى البعثات السياسية التى أرسلتها حكومة السند الى الخليفة المنصور عام ١٥٤ للهجرة (٧٧١ م) .

وقد بقيت فى الهند مدن تحمل الأسماء العربية ، ومنها مدينة « المحفوظة » التى بناها الحكم بن عوانة الكلبى ، كما بنى مدينة أخرى تسمى « المنصورة » .

وعندما تفككت أوصال الدولة العباسية ، وسقطت بغداد فى القرن الثالث عشر للميلاد ، انفصلت السند عن الدولة العباسية ، وقامت فيها حينئذ ولايتان أو امارتان للمسلمين : امارة فى الجنوب ، وعاصمتها « المنصورة » ، وامارة فى الشمال وعاصمتها « ملتان » .

وقد أتيح الاستقرار لهاتين الامارتين بما توفر لهما من خيرات البلاد ، ومن التجارة الواسعة التى كانت بين السند والشرق والغرب .

وقد قامت بعد ذلك الدولة الغزنوية ، وكانت دولة اسلامية . ويعد محمود بن سبكتكين من أشهر أبطال الاسلام وناشريه فى الهند . وقد استطاع أن يهزم البراهمة هزيمة منكرة مع كثرة عددهم ، وغنم ما لا يحصى ولا يستقصى من كنوز الهند ، ففتح « قنوج » و « كشمير » . وقد تألب عليه ملوك البراهمة عام ١٠٢٤ م بعد أن فتح الملتان عام ١٠٠٥ ... فاستأنف فيهم صولته المعهودة ، ودخل « لاهور » ، وخلع سلطانها بعد أن وجد ترحيبا من أهلها ، وضم جميع البنجاب الي سلطنته . فكانت ملاذا للاسلام والمسلمين فى الهند ، ثم هاجم « كاليجارا » و « كفاليور » ، فأدى له ملوكها الجزية .

وقال القلقشندى فى « صبح الأعشى » انه فتح « بهاضية » عام ٣٩٦ للهجرة ، وسار الى « بيدا » ملك الهند ، فهرب منه الى مدينته المعروفة « بكاليجار » ، فحاصره فيها حتى صالحه على مال . فأخذ المال وألبسه خلعته ، واستعفى من شد وسطه بالمنطقة ، فلم يعفه من ذلك ، فشدها على كره .

وفى عام ١٠٢٥ للميلاد غزا ساحل « الكوجرات » وهدم صنم « سومنات » الشهير . وبهذه الفتوحات كلها التى فتحت للاسلام أبواب الهند ، أطلق عليه الخليفة العباسى « القادر بالله » لقب سلطان ، وسماه « يمين الدولة ويمين الملة » . وقد كان همه من فتح الهند نشر كلمة التوحيد ، وقلع عبادة الأصنام ... وقد فاز — مع هذا الفوز المعنوى — بغنائم من

الذهب والفضة والحجارة الكريمة لم تدخل فى حوزة أحد من قبل .

وبعد وفاة « محمود بن سبكتكين » ظهر الأتراك السلجوقيون على خراسان ، وحاولوا الانقضاض على ملك أبناء سبكتكين ، فانتقلوا من غزنة الى لاهور فى الهند . وما زالت أمورهم فى انحطاط الى أن غلب على ملكهم الغوريون الأفغان ... ففتح أبو المظفر محمد بن الحسين الغورى مدينة لاهور عام ٥٤٧ للهجرة — على قول القلقشندى ، و ٥٧٩ للهجرة على قول ابن الأثير — وتمكن من بلاد الهند ، وأقطع مملوكه قطب الدين أيبك مدينة دلهى التى هى قاعدة الهند .

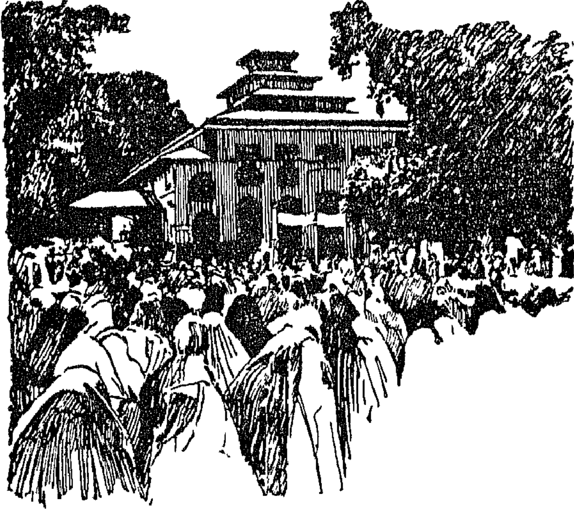
وبعث أيبك عساكره ، فملكت من الهند أماكن لم يدخلها مسلم قبله ، حتى قاربت جهة الصين .

وتوالت ملوك الاسلام وفتوحاتهم فى الهند ، الى أن كان محمد بن طغلق شاه ، فى زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فقوى سلطانه بالهند ، وكثرت عساكره ، وفتح معظم الهند .

وكما أن سلاطين المماليك بمصر ملأوا مصر والشام مساجد وعمارات شريفة ، كذلك كان سلاطين المماليك بالهند فالسلطان « أيبك » الذى خلف محمد الغورى ، بنى فى دلهى الجامع المسمى « جامع مسجد » والمنارة المسماة « قطب منار » ، وبنى فى أجمير الجامع المنسوب اليه .

وانتقلت سلطنة الهند من أيدى المماليك الى آل « قيلجى » عام ١٢٧٠ م ، وهم أفغانيون ، وظلوا يحكمونها حتى استولى عليها « بنو طغلق » الأتراك عام ١٣٢١ م ، وأزالوا الدولة الأفغانية .

وفى عام ١٣٩٨ م زحف « تيمورلنك » بجيش جرار على الهند ، فدخل « البنجاب » وصعد الى دلهى ، فلاقاه سلطانها محمود الثالث فى «بنيبات» ، فدارت الدائرة على محمود ، ودخل تيمورلنك



صلاة الجمعة فى الجامع الكبير بمدينة (شريناجار) الحديثة بالهند

الهند فاتحا ، وأعلن نفسه سلطانا عليها فى الجامع الأعظم ... فصارت ممالك الهند الاسلامية هى : سلطنة دلهى ، ومملكة الدكن ، ومملكة البنغال ، ومملكة جاونبور ، ومملكة ملفى ومملكة كوجرات .

وجاءت بعد ذلك الدولة المغولية فى الهند التى استمرت من ٩٣٣ هـ (١٥٢٦ م) الى ١٢٧٣ هـ (١٨٥٧ م) . وكان مؤسسها يسمى « بابرشاه » ، واسمه الكامل ظهير الدين محمد بابر .

وقام همايون ابن بابر بجهود عظيمة فى توطيد ملك المغول بالهند ... ولا سيما بعد أن فر من الهند بعد أن هزمه شيرشساه سورى ، وخذله اخوته . فنزح الى ايران ، ثم عاد مرة ثانية الى الهند منتصرا ظافرا . وقد كثر فى عهده التشيع لأنه سمح لكثيرين من الشيعة من ايران والعراق بالعمل فى حكومته ، واستخدم كثيرين منهم مثل بيرمخان الشيعى فى بلاطه .

أما جلال الدين أكبر بن همايون بن بابر التيمورى ، فقد ولى الحكم عام ٩٦٣ هـ (١٥٥٦ م) الى ١٠١٤ هـ (١٦٠٥ م) . وقد سير أكبر دولته على أصول ادارية جديدة ، ورفع استبداد الأمراء ،

وأزال الفوضى من البلاد ، ولم يعامل « أكبر » الهنود معاملة الغالب للمغلوب ، انما عاملهم معاملة طيبة كريمة الى أن لاقى ربه .

وكانت كشمير تحت حكم الملوك المسلمين ، ولكن الفتن والمنازعات كانت سائدة بين جنباتها . فأرسل أكبر حملة لضمها اليه ، فدخل ملكها فى حاشية أكبر ، وصارت ولاية من ولاياته عام ٩٩٥ ﻫ (١٥٨٦ م) . كما ضم « أكبر » السند الى ملكه ، وقوندهار التى أصبحت ولاية من ولايات الهند . وقدم راجوات الهند طاعتهم لأكبر ، وأصبحت مملكته الاسلامية تشمل الهند الشمالية والوسطى ، بما فيها كوجرات ومالوى والبنغال فى الشرق وافغانستان فى الغرب ... كما فتح « أكبر » مملكة خانديس وعاصمتها « برهانبور » ، واستولى على قلعتها الحصينة ... ثم غزا مملكة بيجابور فى الجنوب ، ولكنها صمدت أمامه . وبذلك أصبحت مملكة « أكبر » تشمل الهند كلها ، ما عدا الطرف الجنوبى من شبه الجزيرة الذى كانت تحكمه ممالك « بيجابور » و «كولنكدة » الاسلاميتان و « فيجايالنكر » الهندوسية التى كانت تقع فى نهاية الجنوب .

وبذلك أصبحت ممالك الاسلام فى تلك الآونة تشمل : كابل وقوندهار والسند وملتان ولاهور وكشمير ودهلى « دلهى » وأكره واجمير والهابات وأوده وبهار وبنجال وأورية ومالوى وكفرات وخانديس وبرار وأحمد نكر .

أما الاسلام فى جنوب الهند فيرجع دخوله الى القرن الثامن للميلاد ، حين وفدت الى هذه المنطقة طائفة من اللاجئين من العراق . وكانت الصلة وثيقة فى هذه الآونة بين العرب وبلاد الفرس ، وكانت التجارة رائجة بينهما — كتجارة التوابل والعاج والأحجار الكريمة — مما أدى الى توالى تدفق جموع غفيرة من المهاجرين المسلمين الى الساحل الغربى من بلاد الهند الجنوبية . وهكذا أصبح سكان هذه المنطقة خليطا من الدم العربى والدم الفارسى ، ولكنهم جميعا كانوا مسلمين .

وقد لاقى الهنود الذين دخلوا فى دين الاسلام عقب اسلامهم احتراما كبيرا وتقديرا اجتماعيا عظيما بعد ما كانوا ينتمون الى أقل طبقات المجتمع .

وهكذا كان حال الهنود الذين اعتنقوا الاسلام فى الشمال ، فقد زادهم الله قوة وعزة ، وازدادوا تكاتفا وتساندا ، واستطاعوا أن يكونوا مثلا يحتذى فى الاخلاص والتضحية والفداء .

وقد انتشرت المدارس الاسلامية فى الهند منذ العصور الاسلامية الأولى ، وقامت بدور كبير فى نشر الاسلام وتعاليمه وربما كانت أقدم مدرسة هندية تلك التى بناها « ناصر الدين قباتشا » لمولانا قطب الدين الكاشانى فى « ملتان البنجاب » . وفيها تلقى العلامة الشيخ بهاء الدين زكريا الملتانى (ولد عام ٥٧٨ للهجرة) دروسه . ولا يعرف على وجه التحديد تاريخ تأسيسها . ويروى الندوى أن أقدم مدرسة نظامية هى المدرسة البيهقية فى « هيشابور » التى أنشئت عام ٣٨٤ للهجرة .

ولعل أولى المدارس لم تكن أكثر من مسجد ذى جناح ممتد ليكون مكتبة أو مكانا يأوى اليه الطلاب . ولكن المعاهد التى أنشئت بعد ذلك كانت أوسع وأكثر تفصيلا . وقد أنشئت منذ نحو تسعين عاما مدرسة دار العلوم فى « ديوباند » ، وهى مجموعة من المبانى تشتمل على مسجد ومكتبة وقاعات للمحاضرات وأماكن فسيحة لسكن الطلاب والأساتذة على السواء ، وكانت المدارس أنواعا مختلفة : فمنها المكاتب للتعليم الأولى ، ومنها المدارس العامة للتعليم الدينى والعلوم غير الدينية والأدب ، ومنها مدارس لتعليم القرآن وحده ،

ومنها دور لدراسة علم الحديث ، ومنهـا مدارس لدراسة الفقه الاسلامي . وكان ملوك الهند يولون طلاب هذه المدارس عناية كبيرة ، فكانوا يقدمون لهم هبات واعانات سخيـة ، الى جانب وجبـات الطعام المعتادة .

ومن الطريف أن عادل شـاه ملك بيجابور كان لا يقدم الخبز وحده ، بل كان يقدم معه البرياني للطلاب — وهو أرز باللحم — كما كان يقـدم الزعفر ، وهو أرز محلى بالزعفران . وفى العشاء كان يقدم الكشرى ، وهو أرز مخلوط بالعدس والزبد الكثير كما كان فيروز شاه كريما جدا ، فكان يقدم الوجبات فى سخاء وكرم عظيمين . وكان الطلاب أحرارا فى الانضمام الى أية حلقة يشاءون .

يقول أبو الحسن الـندوى فى كتابه « هنـد ستاناكى قادم اسلامى درسجاهن » ، الذى طبعته دار المصنفين فى آزا مجار عام ١٩٣١ : « انه كان فى مدينـة دلهى ١٧ مدرسـة ، وفى البنجـاب ٤ مدارس ، وفى آجرا ١٥ مدرسـة ، وفى أود ١٧ مدرسة ، وفى بيهار ٦ مدارس ، وفى البنغـال ١٢ مدرسة ، وفى مدراس والدكن ١٢ مدرسـة ، وفى ملـوة ٧ مدارس ، وفى ملتـان ٣ مدارس ، وفى كشمير ٥ مدارس ، وفى ججرات ٨ مدارس ، وفى سورات ٤ مدارس ... عدا المدارس الموجودة فى القرى والدساكر ، وذلك فى الفترة الاسلامية فى الهند . ويرجع انشـاء مدرسة الناصرية فى مدينة دلهى الى القرن السابع للهجرة ، حيث أنشـأتها السلطانة رضية ، تخليدا لذكرى أخيها نور الدين محمود بن السلطان شمس الدين الطمش عام ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) » .

كما أنشئت مدرسة الحوض الخاص عام ٦٩٢ هـ (١٢٩٣ م) . وأما مدرسة فيروز شـاه فكانت احدى المدارس التى يعتز بانشـائها ضياء الدين بارنى ، وقد أنشئت عـام ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) .

وفى عهـد الامبراطور « اورانجـزيب » أنشئت المدرسة « الرحيمية » نسبة الى شاه عبد الرحيم ، والد شاه ولى الله ، وأحد مؤلفى كتاب « فتـاوى المجيرى » الذى يسمى أيضا كتاب « الهنـدية » عند فقهاء الحنفية .

وقد أنشـأت بيبى راجا بيجوم فى عام ٨٥٦ هـ (١٤٥٢ م) مدرسة فى مدينة «جونبور » تعد من أشهر دور العلم . وتمتاز « لكناو » بأنها مقر أشهر مدرسة فى شبه القارة الهندية ، وهى « فرانجى هل » التى كان يقوم بالتدريس فيها « ملا نظام الدين » الذى كان من أشهر علماء عصره . وفى الدكن أنشأ محمود جاوان البدارى ، وزير محمد شاه بهمانى ، مدرسة من أشهر المدارس .

وقد ذكر الندوى فى كتابه فى معرض الحديث عن مدارس دلهى قوله : « ومنها المدرسة المعزية بمدينة دهلى (دلهى) القديمة عند الجامع الكبير ، وكان بناؤها فى غاية الحصانة والارتفاع ، حتى ان القرامطة لما أغاروا على دهلى أيام السلطانة « رضية بنت الطمش » دخلوها ظنا منهم أنها جامع كبير ، لعظم شأنها وارتفاعها ، كما فى الطبقات الناصرية ، ولم أقف على غير ذلك ، ولكنى أظن أن قطب الدين أيبك أسسها وعزاها الى سيده السلطان شهاب الدين الغورى الملقب بمعز الدين » .

كما قال الندوى فى معرض حدبثه عن مدرسة الدكن : « بناها عماد الدين محمود الـكيلانى الوزير بمدينة أحمد أباد بيـدر ، وطولها شرقا وغربا خمس وسبعون ذراعا ، وعرضها شـمالا وجنوبا خمس وخمسون ذراعا ، وأسس بجانبها المنـارتين العظيمتين ، وهمـا فى غـاية الحسن والارتفاع ، وأحاطهما بسور تلحقه دور ومقاصير ومساكن لطلبـة العـلم (ويذكر المؤرخون أنه

الحق بهـا مكتبة من أفخم وأغنى المـكتبات فى أيامه) ، وفى داخلها مسجد يصلون فيه ، ويعطون الطعام واللباس ، وكل ما يحتاجون اليه . ورتب العلماء للتدريس ، وجعل لهم الأرزاق السنية مما وقفه عليها من العروض والعقار ، وكان ذلك عام ٨٧٤ هـ » .

ولا تزال بالهند حتى اليوم جامعات ومعـاهد اسلامية يدرس فيها الطلاب العلوم الاسلامية . ومن ذلك جامعة « عليكرة » التى أسسها المغفور له السيد أحمد خان عام ١٨٧٥ م ، وأخذت هذه المدرسة تنمو مع الزمن حتى أصبحت كليـة من الطراز الأول . ولم يكد ينتقل مؤسسها الى رحمة الله عام ١٨٩٨ م حتى بذلت الجهود لرفعها الى مرتبة الجامعة . ففى شهر ديسمبر عام ١٩٢٢ م أصبحت جامعة مركزية رسمية ، وذلك على أثر صـدور قانون جامعة عليكرة الاسلامية فى هذا العام . وفى الجامعة أماكن لسكنى الطـلاب ، ويعد رئيس جمهورية الاتحاد الهندى رئيسا لها ، وسيد رضا على نواب رانبور مديرا ، وحافظ محمد احمـد سـيد خان نواب شاتارى مسـاعدا للمـدير ، والدكتور ذاكر حسـين وكيلا . وتهيىء هـذه الجامعة جميع الفرص اللازمة للطلبـة المتفوقين ، فهى تقدم دراسات مجانية فى كثير من الفروع ، أهمها الفارسية والعربية والتـاريخ الاسـلامى والفلسفة الاسلامية .

ويصـدر الطلبة بأنفسـهم المجلة الجامعيـة الاسلامية التى تطبع فى مطبعـة الجامعة ، كمـا توجد صحيفة خاصـة لأعضاء هيئة التدريس . والجريدة الجامعية الاسلامية هى الجريدة الرسمية الناطقة بلسان الجامعة .

أما أهداف الجامعة ومقاصدها ، فقد أجملهـا السيد احمد على خان فى قوله : « نريد من هذه المدرسة أن تخرج لنا الى معترك الحيـاة رجالا يمسك أحدهم العلم باحدى يديه ، والحكمة باليد الأخـرى ، وعلى رأسـه تاج لا اله الا الله محمد رسول الله » . وقد بينها بالتفصيل الأستاذ السيد عبد الحق حقى الأعظمى ، نائب أستاذ اللغة العربية فى الـكلية ، فى كتاب نشره عنهـا عام ١٩١١ م ، كما يلى :

أولا : انشاء مدرسة جامعة للمسلمين خاصـة يتعلمون فيها العلوم الغربيـة الحديثة بلا خوف ولا وجل من أن يلحقهم أدنى ضرر فى دينهم .

ثانيا : أن يكون للجامعة دور لاقامة التلاميذ فيهـا ليلا ونهـارا ، مستكملة شروط الصحة ، مستوفية لوازم السكنى الطيبة والعيشة الهنيئة ، ويرسل الآباء اليها أبناءهم وهم مطمئنون عليهم من حيث الصحة والأدب والأخلاق والسـيرة ، فيقضون فيها حياتهم الدراسية ، وهم بعيدون عن تلك المفاسـد والملاهى التى تفسـد الأخـلاق والنفوس والعقول .

ثالثا : أن يكون التعـليم فيها مقصورا على ما يزيد وينمى أدمغة التلاميذ وأذهانهـم ... بل يكون مع ذلك شاملا للأعمال البدنية التى تقوى العضلات ، وتكسب الجسم الصـحة والنشاط والعادات الحسنة والخصال الجميلة والأخـلاق الفاضلة والتربية العالية والتهـذيب الصـحيح والعقائد الحقة ، مع تعويد الشبان من الصغر على العناية بأداء الفرائض الدينية ، وعـدم التهاون أو التساهل فى سننها وآدابها

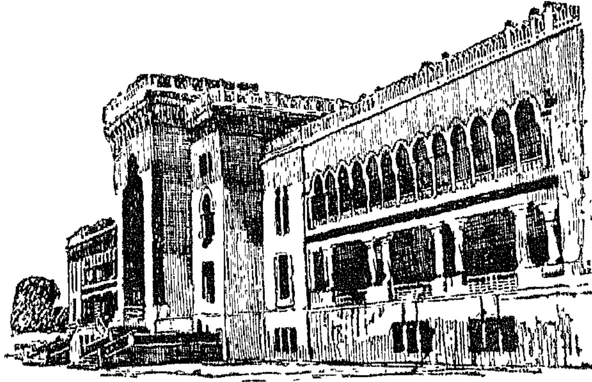
وقد قام السيد أحمد خان بدور كبير فى ميدان الثقافة ، فألف كتـاب « جلاء القلوب » الذى تحدث فيه عن نشأة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن دعوته وتعليماته . وقد نهج فيه نهجا جديدا يبعد عن الروايات الضعيفة والعقائد الباطلة ، وكان

له أثر كبير فى مسلمى الهند . وله الى جانب ذلك كتاب « تحفة حسن » وكتاب « تسهيل فى الجر الثقيـــل » لأبى ذر اليمنى . وغـير ذلك من المؤلفات التى تشهد ببراعته ، وكانت سـببا فى انتخابه عضوا فى الجمعية الملكية الاسلامية .

وفى حيدر أباد — الى جانب تلك الجامعة التى أسسها أحمد خان فى عليكرة — الجامعة العثمانية التى أسست عام ١٩١٨ م . وفى خطاب حاكم الهند الذى وجهه الى الجامعـة عام ١٩٤٨ تبـدو لنا مكانتها العلمية فهو يقول : « ان الجامعة العثمانية فريدة فى نوعها فى الهند بأثرها فى أن المواد العلمية والأدبية فيها تلقن بلغة هندية ، هى النتاج الفنى المشترك لاتصال المسلمين والهندوس ، وهى فريدة لأن أية جامعة أخرى فى الهنـد تسـتخدم اللغة الانجليزية . أما ما قمتم به أنتم فعمل لايدعو الى فخركم فحسب ، بل الى فخر الهند كلها » .

والجامعة العثمانية ، كشقيقتها جامعة عليكرة ، بها جناح لسكنى الطلبة . وقد تكلف بناء الجامعة ما يقرب من عشرين مليون روبية ، كمـا يجرى العمل الآن فى اضـافة أبنية جديدة اليها . ومن الأبنية التى تم انشـاؤها : كلية الفنون ، وقاعة الطلبة التى قال عنها سائح أجنبى : « انها قطعـة شعرية شرقية ساحرة نحتت من الحجر الأحمر » .

وأنشئت عام ١٩٢٠ الجامعة الملية بفضل شيخ الهند مولانا محمود الحسن ، الذى عاد من مالطة فى يونيو عام ١٩٢٠ ، وكان من أنصار انشاء جامعة جديدة لاتخضع لسيطرة الحكومة ، يقوم منهجها على أساس دينى وروح قوميـة . وقد أنشئت الجامعة الجديدة فى مجموعة من الخيام بمدينـة « عليكرة » ، ولم تلبث أن انتقلت الى نيودلهى ، وأقيمت لها المبانى الضخمة . وكان المدرسون فيها يتنازلون عن مرتبـاتهم أو عن جزء منهـا حتى



الجامعة العثمانية فى حيدر اباد بالهند وهى تعنى بتدريس العلوم العربية الاسلامية والفارسية والاوردية

يستطيعوا ادخار رصيد من المال يكفى لانشـاء المبانى اللازمة لهذه الجامعة الجديدة . وكان على رأس هذه الحركة الدكتور ذاكر حسين الذى عين مديرا لها فترة من الزمن .

وفى مدينة « ديوبند » بالهند جامعة أخرى على مسافة مائة ميل الى الشـمال الشرقى من دلهى تقريبا . وهى معهد اسلامى نموذجى يعرف باسم دار العلوم . وقد أسس هذا المعهد فى نهاية القرن الماضى مولانا محمد قاسم نانوترى ، وبدأ ككتاب صغير ، ثم نما مع الزمن الى أن أصبح فى صورته الحالية بفضل شيخ الهند مولانا محمود الحسن .

ويدرس فى هـذا المعهد : الحديث والتفسـير والقانون الاسـلامى ، والشريعة الاسـلامية ، وأصول الفقه وعلم الكلام والفلسـفة والأدب والفلك والطب والحسـاب والتاريخ وغيرها من العلوم المماثلة . ويعنى هـذا المعهـد بتـدريس الحديث وتفسيره عناية زادت من شهرته ، ورفعت مكانته فى الشرق الاسلامى بأسره . ولا يقتصر المعهد على تعليم طلبته بالمجان ، بل هو يقـدم الكتب والمسكن والمأكل بلا مقابل كذلك . وهو معهـد دولى يفـد اليه الطلبـة من السـودان وأندونيسيا والملايو وباكستان وغيرها من الدول طلبا للعلم .

ومكتبة المعهد من أكبر المكتبات فى الهند ، فهى تضم أكثر من عشرة آلاف كتاب باللغات العربية والفارسية والأوربية ، وتشمل مخطوطات نادرة ووثائق ذات قيمة تاريخية .

ولم يقتصر مولانا قاسم نانوتوى على انشاء هذا المعهد فى ديوبند ، انما أنشأ كذلك المدرسة القاسمية فى « مراد اباد » ، ولذلك يعد من أعلام الفكر الاسلامى فى الهند . وبلغ من شهرته وعلو اسمه أن المتخرجين فى مدرسة « ديوبند » ينتسبون اليه ، فيكتبون أسماءهم « محمد قاسمى » و « عبد الله قاسمى » ونحو ذلك . وحفيده هو مولانا محمد طيب قاسمى مدير دار العلوم فى ديوبند الآن ، ومن أشهر علماء الهند وخطبائها المسلمين .

وقد نبغ من الهنود علماء كثيرون درسوا الاسلام ، وكتبوا فى التفسير والشريعة والدين . ونذكر منهم شاه ولى الله الأهلوى الذى ولد عام ١١١٤ هـ (١٧٠٤ م) ، وتوفى عام ١١٧٦ هـ (١٧٦٣ م) . وقد أطلق عليه قطب الدين ، لأن الشيخ قطب الدين بختيار الأوشى — أحد الصوفيين الكبار — بشر أباه ، وطلب أن يسمى باسمه . ومن مؤلفاته كتاب « حجة الله البالغة » فى الشريعة ، وكتاب « المسوى فى شرح الموطأ » وطبع فى الهند ومكة فى مجلدين ، وكتاب « الخير الكثير » فى الحكمة الاسلامية ، وطبع بالهند ، وكتاب « تأويل الاحاديث » وكتاب « التفهيمات الالهية » فى التصوف ، وكتاب « شرح تراجم أبواب صحيح البخارى » وكتاب « القول الجميل فى التصوف » ، وكتاب « البدور البازغة » فى الحكمة الاسلامية .

وقد قام الى جانب هذه الجهود الجبارة فى ميادين الشريعة والحديث ، بترجمة القرآن الى الفارسية ، وكتابة حاشية تفسيرية عليه حتى يمكن هؤلاء الذين لايعرفون العربية من تذوق حكمته وبلاغته . كما نظم مجموعة من الأشعار فى الزهد والتصوف .

وقامت هناك جهود أخرى فى الهند لتفسير القرآن الكريم ، ومن أهمها ما يلى :

علاء الدين أحمد بن أحمد المهائمى الهندى من قبيلة « خايتى » ببلاد قوجارات . أصله من القرشيين الذين استوطنوا الهند على عهد الحجاج ابن يوسف الثقفى ، توفى فى جمادى الأولى عام ٨٣٥ هـ (يناير ١٤٣٢ م) . وله « تبصير الرحمن وتيسير المنان » المشهور بتفسير الرحمانى ، وطبع على هامش المصحف بدلهى عام ١٢٨٦ هـ ، و « ارادة الحقائق » طبع فى بومباى دون تاريخ ، و « عوارف العطائف » ، و « الخصوص على معنى النصوص » .

ومحمد بن أحمد ميجانيو بن نصير ، ألف عام ٩٨١ هـ (١٥٧٣ م) التفسير المحمدى ، ويوجد بديوان الهند .

فيض الله بن زين العابدين الحسام البنانى (٩٠٢ هـ — ١٤٠٢ م) بأحمد أباد ، وكتب لمحمود شاه سلطان قوجارات ، وله « دستور الحفاظ فى تفسير القرآن العظيم » ، وتوجد نسخة منه بمكتبة الاسكوريال بأسبانيا .

فيض الله أبو الفضل بن المبارك الهندى ، توفى عام ١١٠٤ هـ (١٥٩٤ م) بأكرة ، وله « موضع الابهام فى تفسير القرآن » طبع لكناو على الحجر ١٣٠٦ هـ ، وهو تفسير خال من نقط الاعجام ، وهذا عجيب .

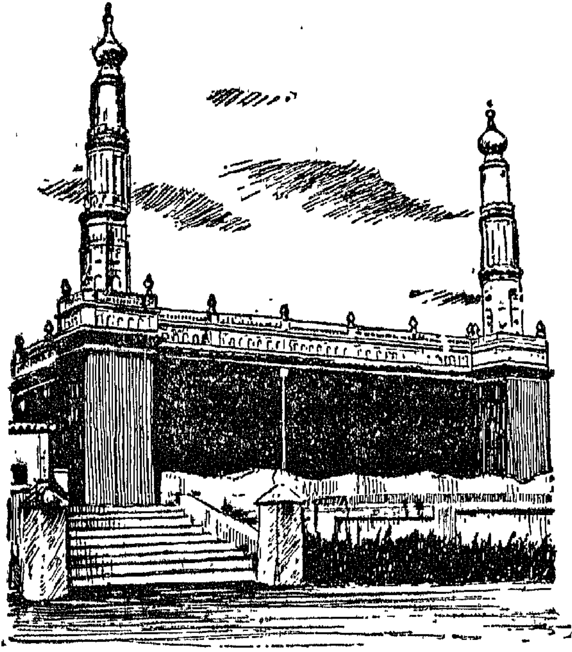
محمد على الكربلائى ، خدم السلطان عبد الله قطب شاه ، وله « الواضحية فى تخريج كل آية » ، وهو معجم للآيات القرآنية .

وساهم العلمـاء الهنود ، الى جانب ذلك ، فى ميادين الأدب والتاريخ . ومن أشهر أدباء الهند : عبـد الله بن جمعـة اللاهورى ، عام ١١٢٢ هـ (١٧١٠ م) ، وله كتـاب « مبهج النفوس ومبلج العبوس » ، وأبو بكر بن محسن باعبود العلوى ، وله كتاب « المقامات الهنـدية » على غرار مقامات الحريرى ، وتوفى عام ١١٢٨ هـ (١٧١٥ م) . وعبد الجليل البلغرامى ، توفى ١١٣٨ هـ (١٧٢٥ م) ، وله كتـاب « الحكم العرفانية » . وغـلام على ابى نوح البلغرامى ، توفى عام ١٢٠٠ هـ (١٧١٩ م) ، وله ديوان من الشعر .

كما ألف علماء الهند كثيرا من دوائر المعارف ، مثل : « كنز السـعادة » لطاسـكبرى زادة ، و « جامع العـلوم » الملقب بدسـتور العلماء لعبد النبى بن عبد الرسول الأحمـد نقـارى ، وكشاف « اصطلاحات الفنون » لمحمد علاء بن على قاضى التهانوى .

وفى ميدان التاريخ ألف الملك أحمد بن الملك بير محمد الفاروقى — من رجال القرن الحادى عشر للهجرة — كتـاب « زاد الأحباب فى مناقب الأصحاب » ، وهو كتاب فى تراجم الشيعة . كما كتب حبيب الله القندهارى « أعجب التواريخ فى تراجم علماء الهنـد » ، وميرزا محمد رستم خان الحارشى كتاب « مصبـاح النـاجى فى تراجـم الصحابة » ، وكتاب « تراجم الحفاظ » ، وكتاب « تحفة المحبين بمناقب الخلفاء الراشدين » .

وألف مولانا غـلام آزاد البلكرامى كتـاب « سبحة المرجان فى آثار هندستان » ، وهو يشتمل على أربعـة أبواب ، بدأها بنقل كتب التفسـير والحديث ونحوها . وفى آخر الكتاب تحدث عن البلاغة والابداع فى الشعر والنثر ، ثم تحدث عن الحب عند العرب وعند أهل الهند . ومن مصنفات



المسجد المثلث بمدينة مدراس بالهند

مولانا غلام أزاد كذلك كتاب « ضوء الدرارى فى شرح صحيح البخارى » ، وكتاب « شفاء العليل » فى المؤاخذات على الشـاعر أبى الطيب المتنبى ، و « روضة الأولياء » فى ترجمة مشاهير المتصوفة . وله سـبعة دواوين من الشـعر ، سميت باسـم « سبعة سيارة » ، وجمعت مدائح الرسول منها فى كتاب أطلق عليـه « تسلية الفؤاد » ... فضلا عن ديوان يسـمى « مرآة الجمـال » يعد نموذجا للغزل الهندى .

وتقوم دائرة المعارف العثمانية الآن بطبع أمهات الكتب العربية ، ونشر كتب علماء الهنود .

وقد تأثر الهنود بالفن الاسلامى فى بناء مساجدهم ومعاهدهم . ولا يزال كثير من الآثار الهندية حتى اليوم يحمـل الطابع الاسلامى ... من ذلك منارة القطب التى تقف كالحارس الأمـين الى جانب العاصمة الهندية ، ويبلغ ارتفاعها ٢٣٨ قدما ، وهى مصنوعة من الحجر الأحمـر والرخام . وأول من أمر ببنائها السلطان قطب الدين أيبك ، فى مستهل

القرن الثالث عشر ، تخليدا لذكرى انتصاره على شمال الهند الغربى ، ثم أكملت فى عهد السلطان الطمش حوالى عام ١٢٢٠ م .

والمنارة مؤلفة من خمسة طوابق ، ولكل طابق منها شرفة أثرية تطل على الفضاء المحيط بها ، وترتكز على دعائم حجرية متينة مزخرفة بما يشبه أقراص الشهد .

ومنها أيضا : قباب المسجد الجامع فى عليكرة ، ومئذنة المسجد الجامع فى دلهى الذى بناه شاه جيهان وقبابه ، ومآذن مقبرة جهانجير فى شاهدارا من أعمال لاهور ، ومقبرة محمد عادل شاه الذى كان معاصرا لشاه جيهان امبراطور المغول ، وتعرف باسم « جول جومباز » ، وترجع أهمية هذه القبة الى أنها بنيت على عقود جانبية وأقواس متقاطعة ، ولم يكن رجال فن البناء فى الهند يعرفون هذا الأسلوب فى العمارة حتى هذا العصر .

على أن أعظم ما ينسب الى « شاه جيهان » ، مقبرة « تاج محل » التى دفنت فيها زوجته الملكة « ممتاز محل » ، والتى استمر بناؤها ٢٢ عاما ، واشترك فى بنائها عشرة آلاف بناء وصانع ، وعشرون ألف عامل . وقد شيدت من الحجر الأحمر المرصع بالمرمر الأبيض . وفى وسط داخل المقصورة تابوتا الملك والملكة ، وحولهما شبكة مرمرية مرصعة بالأحجار الكريمة ، من زبرجد وعقيق وياقوت ولؤلؤ ومرجان ، تمثل الزهور البديعة بألوانها الطبيعية . وقد بلغت من الدقة درجة فائقة ، حتى ان الزهرة الواحدة مؤلفة من مائة حجر كريم تقريبا .

أما مقبرة « هومايون » التى أنشئت تحت اشراف « حاجى بيجوم » أرملته عام ١٥٦٤ م ، فهى نموذج للفن الاسلامى الرفيع . وكان الامبراطور أكبر ، الابن الأصغر للبيجوم ، يزودها برأيه وارشاداته فى أثناء البناء . واذا كانت القبة الكبيرة ، والسقوف المعقودة ، والممرات الداخلية ، توضح الطابع الاسلامى ... فان المقبرة العظيمة تحمل كثيرا من آثار الفن الهندى التقليدى القديم .

ويضم مسجد شاه حمدان ذو الطابقين ، والمسجد الجامع بسريناجار ، آثار الفن الاسلامى فى الحفر على الخشب والبراعة فى الاتقان .

وفى عام ١٦٠١ م ، بنى « أكبر » — بعد أن انتصر على « كانديشى » — باب طريق « بولاند دلاوازا » ، ونقش عليه « لقد قال يسوع بن مريم عليه السلام : الدنيا قنطرة تعبرها ، ولكن لا تبن فيها بيتا . ان من يأمل فى ساعة ، فانه يأمل فى الخلود ... الدنيا ساعة فلتقضها فى الصلاة والعبادة ، لأن ما بعد هذه الساعة غامض ومجهول » . ويرتفع هذا الباب مائة وثلاثين قدما ، فهو أكبر باب ... لا فى الهند وحدها ، ولكن فى العالم بأسره .

ولا تزال هذه الصروح الاسلامية سامقة فى سماء الهند حتى اليوم ، وتشرف عليها مصلحة الآثار فى الهند ، وتقوم برعايتها وصيانتها .

ويحتفل المسلمون الهنود بالأعياد الاسلامية ، فهم فى أجمير مثلا يحتفلون بليلة المولد النبوى الشريف ، فى مزار خواجا معين الدين ششتى ، منذ عهد طويل .

وقد أسندت الحكومة الهندية الى كثيرين من المسلمين أعمالا مهمة فى السلك الدبلوماسى . ورأس مولانا أبو الكلام آزاد الوفد الهندى فى الدورة السادسة لليونسكو ، وفى الجيش الهندى لفيف كبير من القواد المسلمين : منهم الميجر محمد يونس نائب السكرتير الحربى لرئيس الجمهورية الهندية ، والجنرال محمد أنيس خان .

وفى القضـــاء يشغل كثـــيرون من الهنود المسلمين مناصب بارزة فى المحكمة العليا وغيرها من محاكم الهنـــد . وفى ادارة البوليس والقـــانون والنظام يحتل المسلمون مراكز مرموقة .وفى مختلف الولايات ثلاثة وعشرون وزيرا مسلما ، كما أن هناك حاكمين من حكام الولايات الهندية ، هما : سيد فضـــل على ، وذاكر حســـين . وأحدهما فى « أسام » ، والآخر فى « بيهار » .

وفى أكبـــر ولايات الهنـــد — وهى ولاية « أوتاربراديش » — يرأس لجنة الخدمات العامة مسلم ... وهناك آلاف من المسلمين يخدمون فى مختلف المصـــالح الحكومية ، ويشـــغلون شـــتى الوظائف . والبرلمان الهنـــدى يضـــم الآن اثنين وخمسين عضوا مســـلما . وفى الهند نحو ســـتة وزراء ونواب وزراء مســـلمين ، وهم يعملون فى الحـــكومة المركزية . والجمعيـــة التأسيسية التى أعدت مشروع الدستور الهنـــدى ، كان من بين أعضائها خمسة وأربعون من المسلمين .

* * *

أما جزيرة سيلان فعدد المسلمين فيهـــا نقدر بحوالى ٠٠٠ر٤٣٣ نســـمة من عـــدد سكانهـــا البالغـــين ٠٠٠ر٦٥٧ر٦ نســـمة تقريبـــا . وبها مساجد جميلة البناء . ومن أهمها مسجد كولومبو الذى تحيطه الحدائق الغناء والمروج الخضراء ، ومســـجد بيرولا . وبهـــا رابطتان اســـلاميتان : احـــداهما رابطة مســـلمى ســـيلان ، والأخرى الرابطة الملاوية .

وعند ما زار ابن بطوطة سيلان ، كان المسلمون قد استقروا فى الجزيرة منذ القرن الثامن ، أى قبل ستة قرون من مجىء ابن بطوطة ، وكان منهم « الجلسطى » الوزير ، وحاكم البحر ، وكان له حرس من الأحباش .

ويعيش المسلمون فى سيلان فى المنطقة الشرقية ، الا أن خمسين منهم يعيشون فى الحصن القديم « كالى » ، ويعملون بالتجارة . وهم من أصل عربى أو من البحارة التجار الذين وصلت سفنهم الى « كالى » منذ ألف عام ، قادمة من مصر أو من بلاد العرب أو فارس أو جاوة ، للمتاجرة بالذهب والمجوهرات والعـــاج والقرفة وطير الطاووس . وقد يكون بعضـــهم من أصل آخر لأنهم طوال القامة تشبه وجوههم فى حدتها الصقر ، ويتميزون بعماماتهم وأرديتهم الطويلة . وهؤلاء يعـــرفون محليا بالأفغانيين الذين نزحوا من الحدود الهندية .

الاسلام فى جزائر مالديف

جزائر مالديف أرخبيل يقع فى المحيط الهندى ، جنوب غربى جزيرة ســـيلان ، وعاصمتهـــا جزيرة مالى ، وهى مقر الحكومة ، وتبعد عن سيلان نحو ٤١٧ ميـــلا . ويبلغ مجموع هـــذه الجزائر ١٢٧١ جزيرة ، منها ٢١٥ جزيرة آهلة بالسكان ، وبقيتها خالية .

ويبلغ عـــدد سكانهـــا ١٠٠٠٠٠ كلهم مسلمون متمسكون بأحكام الدين الاسلامى . ولهم لغة خاصة ، تسمى اللغة « الديفهية » تكتب من اليمين الى اليسار . وأول سلطان معروف كان على دين بوذا ، وظل بوذيا أحد عشر عاما ، ثم أسلم على يد الشيخ حافظ بن البركات البربرى المغربى ، عام ٥٤٨ هـ . وقد أسلم معه جميع أهالى الجزائر .

وقد أغار البرتغاليون على هـــذه الجزائر عام ٩٦١ هـ ، واستمر الحكم البرتغالى نحو ٢٠ سنة ، وظل الشعب يكافح فى سبيل الاستقلال حتى تم جلاء البرتغاليين عنها عام ٩٨١ هـ . وأغار عليها أيضا

الملاباريون عام ١١٦٦ هـ ، ولكن حكمهم لم يدم سوى ٧ سنوات .

واستقلت الجزائر على يد السلطان حسن عز الدين . وآخر من انتخب للعرش (والملك هناك انتخابى بعد ما كان وراثيا منذ ٢٢ سنة) هو الحاج عبد المجيد ديدى ، ولكن حالت الأقدار دون تعيينه فمات قبل توليته . ثم انتخب لجمهورية مالديف الزعيم محمد أمين ديدى الذى كان رئيسا لمجلس الوزراء من قبل . ويوجد بجزائر مالديف كثير من المساجد والجوامع والآثار الاسلامية ، كما تتقلد الوظائف الدينية فيها بعض خريجى الأزهر .

الاسلام فى الملايو

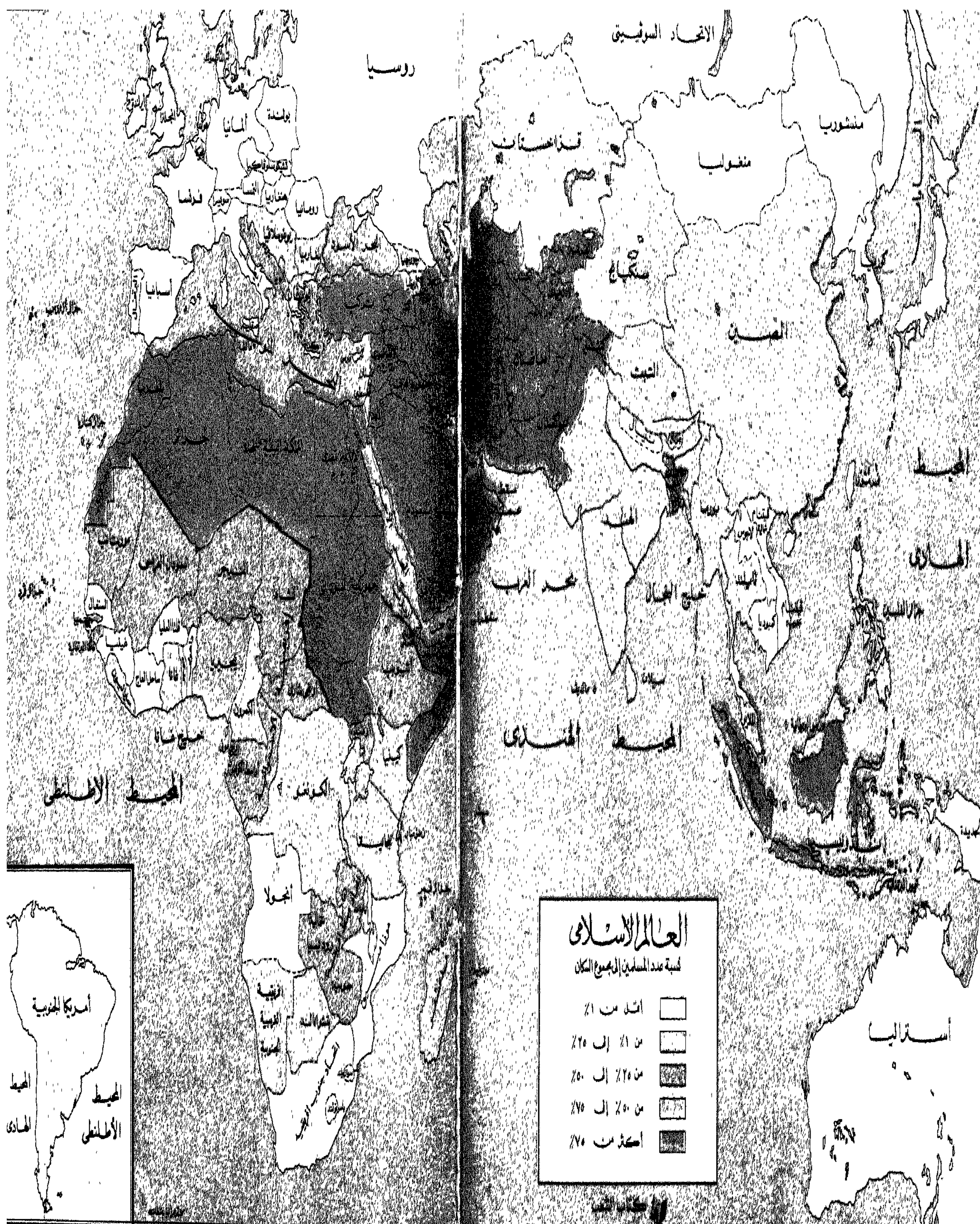
يقع شبه جزيرة الملايو فى جنوب شرقى آسيا ، ويتصل بالهند الصينية شمالا ، ويحيط به شرقا بحر الصين ، وغربا خليج بنغال ، وطوله من الشمال الى الجنوب ١٩٠ كيلو مترا ، وعرضه يتراوح بين ٤٥ كيلو مترا و ١٩٠ كيلو مترا ، وأرضه جبلية صحرية ، ويكاد ينفصل عن القارة الأسيوية ، ولا يربطه بها الا برزخ كرا عند خط ١٠° شمال خط الاستواء .

ومن الصعب أن يعرف التاريخ الدقيق لأول دخول الاسلام فى شبه جزيرة الملايو ، ولكن الشيء المؤكد أن العرب زاولوا مع بلاد الشرق تجارة واسعة منذ عصور مبكرة جدا . ففى القرن الثانى للهجرة كانت التجارة مع سيلان كلها فى أيديهم . وفى مستهل القرن السابع للميلاد لقيت تجارتهم مع الصين من طريق سيلان رواجا عظيما ، حتى لقد وجدنا تجار العرب فى أواسط القرن الثامن يقيمون فى كانتون فى جموع غفيرة ، وفيما بين القرنين العاشر والخامس عشر الى قدوم البرتغاليين ، كان العرب سادة التجارة مع الشرق دون منازع ، وكانوا قد أرسوا قواعدهم فى شبه جزيرة الملايو .

وقد روى السير توماس آرنولد رواية عجيبة عن دخول الاسلام فى شبه الجزيرة ... وخلاصتها أن عالما عربيا يدعى الشيخ عبد الله ، حضر الى قويدة — وهى احدى ولايات شبه جزيرة الملايو فى أقصى الشمال — وزار الراجة ، وسأل عن ديانة البلاد ، فأجابه الراجة : « دينى ودين رعيتى كلها هو الذى وصل الينا من الشعب القديم انا جميعا نعبد الأصنام » فقال الشيخ « اذن ماسمعتم جلالتكم شيئا عن الاسلام والقرآن الذى أنزله الله على محمد ، ونسخ به كل الديانات الأخرى » . فقال الراجة « اذن أرجو منك ، ان كان حقا ما تقول ، أن تعلمنا هذا الدين الجديد ، وتهدينا بنوره » .

ففرح الشيخ عبد الله فرحا عظيما لذلك ، وتهلل وجهه ، واحتضن الراجة بين ذراعيه ، ومضى يشرح له تعاليم الاسلام ، وطلب منه أن يستحضر آنية الأرواح التى كان يعكف عليها الراجة . فلما حضرت الآنية رفعها الراجة ، وسكب ما فيها وحطمها تحطيما . فاستبشر الشيخ عبد الله بهذا العمل ، ولم يلبث أن ازداد استبشارا حينما أمر الراجة باحضار جميع الأصنام الموجودة فى القصر وما حوله ، فأحضر رجال القصر له هذه الأصنام — وكان بعضها مصنوعا من الذهب الخالص — فانهال عليها الراجة تحطيما : فتارة يقذفها بيديه على الأرض ، وطورا يهوى بفأس ضخمة عليها .

واستدعى الراجة بعد ذلك بعض نساء القصر ، فحضرن ليشاهدن هذا المنظر . ولما رأى الشيخ عبد الله أن الدهشة بدت على وجوههن ، أخذ يشرح لهن تعاليم الدين الجديد فانشرح صدرهن له ، وطلبن اعتناقه . ولم يبرح أن استدعى الراجة


العالم الإسلامى
نسبة عدد المسلمين إلى مجموع السكان
أقل من ١٪
من ١٪ إلى ٢٥٪
من ٢٥٪ إلى ٥٠٪
من ٥٠٪ إلى ٧٥٪
أكثر من ٧٠٪
روسيا
الاتحاد السوفييتى
منشوريا
منغوليا
قزاخستان
سنكيانج
الصين
التبت
ألمانيا
بولندة
فرنسا
أسبانيا
رومانيا
الهند
بحر العرب
خليج البنغال
المحيط الهندى
المحيط الهادى
المحيط الأطلنطى
خليج غانا
السنغال
غانا
الكونغو
كينيا
أنجولا
أستراليا
أمريكا الجنوبية
المحيط الأطلنطى
المحيط الهادى

الوزراء المسنين فى قصره — وكانوا أربعة — فلما حضروا تولاهم العجب ، واستبدت بهم الدهشة ، وأرادوا أن يستبينوا حقيقة الأمر . فشرح لهم الراجة الأمر الذى جاء من أجله الشيخ عبد الله الذى يجلس بجواره فأبدوا رغبتهم فى أن ينهجوا نهجه ، ويتبعوا رأيه ، وآمنوا بما قاله الشيخ عبد الله . وعندئذ طلب منهم الشيخ عبد الله أن يبرهنوا على ايمانهم ، فلما سألوه عن كيفية برهان ذلك ، قال لهم .

« استدعوا شعبكم بأسره الى بهو الاستقبال ، ومروهم بتحطيم الأوثان التى ألفوا أن يعبدوها » .
فأطاعوا ونفذوا ما طلب ، وأحضروا فى الوقت المحدد الأصنام المطلوبة ، وحطموها وأحرقوها أمام جماهير الشعب التى حضرت لتشهد مصرع هذه الأصنام .

وقد فرح الوزراء فرحا عظيما بهذا ، ولم يظهر أحد منهم غضاضة لهذا العمل .

وعلى اثر ذلك بنى الراجة المساجد ، وأمر أن يلحق بكل مسجد ٤٤ شخصا على الأقل من السكان يقيمون فيه ، ويعكفون على العبادة . ومضى الشيخ عبد الله فى أثناء هذا كله يبشر بالاسلام ، ولا يدخر وسعا فى سبيل ذلك وهرع الناس اليه من كل صوب يطلبون على يديه الهداية ، وتعلم شعائر الاسلام .

وترامت أنباء اسلام سكان قويدة الى « أتجية » . فأرسل اليهم سلطان هذه البلاد رجلا يدعى الشيخ نور الدين — وهو داع عربى كان قدم من مكة — ومعه بعض الكتب ورسالة ، وهذا هو نص الرسالة :

« هذه الرسالة من سلطان أتجية ونور الدين ، الى أخينا سلطان قويدة والشيخ عبد الله اليمنى الذى يقيم الآن فى قويدة . أرسلنا اليكم كتابين من كتب الدين حتى تتأكد دعائم العقيدة الاسلامية ، ويتعلم الناس واجباتهم وشعائر دينهم تعلما كاملا » .

فلما وصل هذا الكتاب الى سلطان قويدة أخبر الشيخ عبد الله به ، فأرسل رسالة شكر الى سلطان أتجية . ومنذ ذلك الوقت أكثر الشيخ عبد الله من بناء المساجد ، وأطلق أسماء اسلامية على أبناء السلطان ، فأطلق على أولاده راجة معظم شاه ، وراجة محمد شاه ، وراجة سليمان شاه .

ولا تزال توجد حتى اليوم فى جزر الملايو أضرحة دعاة العرب الذين عملوا على نشر الدعوة فى هذه البلاد . ويحرص المسلمون هناك على صوم رمضان وتأدية فريضة الحج الى مكة المكرمة ، ويقيمون المساجد كلما احتاجوا الى أماكن للعبادة ، ولا يدخرون وسعا فى تأثيث المسجد ، وامداده باللوازم ليكون مكانا محترما لتأدية العبادة .

وقد توغل الاسلام على اثر ذلك بين أهالى سيام من البوذيين ، ويطلق على من دخلوا فى الاسلام منهم اسم « السامساميين » . كما اعتنق الاسلام بعض رجال القبائل فى شبه الجزيرة ممن عرفوا بالقسوة والوحشية . واستطاع تجار العرب والفرس أن يدخلوا الاسلام كذلك فى الهند الصينية ، ولكن الفضل الأول فى نشر الدعوة فى هذه البلاد يرجع الى أهل الملايو وهجراتهم التى بدأت فى نهاية القرن الرابع عشر .

وقد وجد « ماركو بولو » الاسلام قد توطد ركنه فى الملايو عام ١٢٩١ م . وتوجد فى بعض المدن نقوش بحروف فارسية عربية تسرد العقوبات الاسلامية لارتكاب الفحشاء وغيرها من الجرائم . كما تحتوى بعض النقوش على ألفاظ عربية مثل : رسول الله ، واسلام ، وفرض الجمعة ، وصلى الله عليه وسلم . ويقول أحد الباحثين فى تاريخ الملايو ، وهو السير رينشباردو بينستو : « ان هذا النقش

يرجع تاريخه الى عام ١٣٢٦ م أو عام ١٣٨٦ م ، وهو يدل على تغلغل اللغة العربية فى هذه المناطق » .

ومن المترجمات الملايوية الأولى ، المنقولة عن الفارسية : حكاية نور محمد ، وحكاية معجزة النبى عن انشقاق القمر اجابة لطلبه ، وحكاية عن حلاقة النبى ، وحكاية وفاة النبى ، وحكاية يوسف وزليخا . ولحكاية حلاقة النبى ترجمات بعدة لغات ملايوية : كاللغة الجاوية لأهل الملايو ، واللغة الاشيزية لأهل سومطرة ... بل اللغة البوغيزية لجزائر سيليبيس .

ومن القصص الاسلامية التى استغلها كتاب الملايو : حكاية تميم الداري ، وحكاية ابن أمير المؤمنين عمر الذى حد لشربه الخمر . كما يبدو أن هناك ترجمة حديثة عن العربية لحكاية « سيف ابن ذى يزن » .

وعلى بعض القبور أشعار مقتبسة من ألف ليلة وليلة . وهناك ترجمات لكتاب « كليلة ودمنة » ، أقدمها مستقاة من النص الفارسي لنصر الله ، الذى أهدى كتابه الى « بهرام شاه » ملك غزنة المتوفى عام ١١٥٧ م . وتحتوى تلك الترجمة كذلك على ثلاث قصص من كتاب « أنوار سهيلى » لحسن واعظ كاشفى ، المتوفى عام ١٥٠٤ للميلاد . ولكليلة ودمنة ترجمة أخرى تسمى « حكاية بنجاة تنديران » نقلت فى عام ١٨٣٥ م عن لغة تاميل (جنوبى الهند وسيلان) بقلم عبد الله بن عبد القادر ، معلم سير ستانفورد رافلز الذى أسس سنغافورة الحديثة . ثم هناك ترجمة ملايوية منقولة عن ترجمة هولندية للنص التركى .

وتوجد فى بلاد الملايو رسائل شتى فى علم التوحيد الاسلامى ، وفى الفقه والأصول والتصوف وفى التاريخ الاسلامى . وبعض هذه الرسائل من كتابة الدعاة المسلمين الأجانب من هنود وأنصاف هنود ، أو من كتابة العرب الذين استوطنوا هذه البقاع ، أو من كتابة أهل الملايو أنفسهم .

وقد أخذ الهولنديون عقب عودتهم من هذه البلاد بعض الكتب المكتوبة باللغة الجاوية . وقد اتضح أن مؤلف هذه الكتب رجع الى بعض المصادر العربية فى التصوف والدين ، مثل كتاب « احياء علوم الدين » للامام الغزالى .

وعند أهل الملايو أوفى نسخة لكتاب « ألف مسألة » . وهو أول كتاب عربى عن الاسلام عرفته أوربا . وهذا يوضح لنا توضيحا تاما أن لغة الملايو كانت احدى اللغات التى نشرت الثقافة الاسلامية نشرا بعيدا جدا .

والى جنوب شبه جزيرة الملايو جزيرة سنغافورة، ويفصلها عنها البوغاز العظيم « سيلات تميراو » . وتنقسم عاصمة هذه الجزيرة الى عدة أحياء : ففيها حى الملايو ، وحى الصين ، وحى المالابار ، وحى العرب . ويضم هذا الحى الأخير طائفة من العرب الذين وفدوا الى هذه المناطق ، فنشروا الدين الاسلامى بين عدد من الناس ، وأقاموا بعض المساجد والزوايا لأداء فرائض الصلاة . ولهم قبورهم الخاصة ، وتقاليدهم المتبعة فى المواسم والأعياد .

الإسلام فى إندونيسيا

تقع أندونيسيا فى الجنوب الشرقى لآسيا بين المحيطين الهادى والهندى ، وبين قارتى آسيا واستراليا . وهى مجموعة كبيرة من الجزر تبلغ نحو ثلاثة آلاف جزيرة ، تتراوح مساحة كل منها بين بضعة آلاف من الكيلو مترات المربعة ، وبضع عشرات من الكيلو مترات .

ولفظ أندونيسيا مكون من كلمتين : « أندو » بمعنى الهند ، و « نيسيا » بمعنى الجزر ، فأندونيسيا معناها جزر الهند . وتبلغ مساحة هذه الجزر جميعا نحو مليون ومائتي ألف كيلو متر مربع . ويبلغ عدد سكانها حوالى ٨٦ مليون نسمة . وأهم هذه الجزر : جاوة ، سومطرة ، كاليمانتان ، سولا ، يسنى ، سوندا الصغرى ، بالى .

وقد كان أهل هذه الجزر منذ أن وجدوا يهتدون بفطرتهم ، الى أن حمل اليهم الصينيون والهنود ، فى القرن الخامس للميلاد ، معتقداتهم الدينية ، أى الديانتين البوذية والبراهمانية . وأخذت هاتان الديانتان تنتشران انتشارا واضحا فى الجزر . وفى القرن الحادى عشر للميلاد حمل التجار العرب الى الجزر الخضراء دين الاسلام ولغته وثقافته . وساهم الفرس فى هذا المضمار ، فكانوا يقومون برحلات الى هذه الجزر ، وينشرون الاسلام هناك . ومن جانب آخر كان أهل هذه الجزر يضربون فى فجاج البلاد الاسلامية ، فيعتنقون الاسلام ثم يرجعون الى أهلهم بدينهم الجديد ، فيكونون خير دعاة لنشره وذيوعه .

واتسع منذ ذلك الوقت نطاق التبادل التجارى بين الجزر الخضراء وموانى جنوب الهند والخليج العربى وجنوب الجزيرة والبحر الأحمر . كما انتظم سفر القوافل ذهابا وايابا بين موانى البحر الأبيض المتوسط وموانى الخليج العربى بطريق البر فى القرن الرابع عشر وبعده ، مما أدى الى انتشار الاسلام فى معظم الجزر ، وانشاء المساجد والتكايا ومعاهد العلم الدينية .

وكان الرحالة يسمون هذه الجزر « جزائر الصين » تارة ، و « جزائر الهند » تارة . وذكر بعض المؤرخين أن ملقا محرفة من الكلمة العربية ملاقاة ، لأن التجار كانوا يتلاقون فيها . ويقال ان الهنود كان لهم دور كبير فى نشر الاسلام فى هذه الجزر ، بدليل وجود بعض الفنون الهندية على المقابر . ويروى الرحالة « ماركو بولو » أن الاسلام كان منتشرا فى مدينة فرلاك عام ١٢٩٢ م ، وأن ميراسيلا — أحد حكام المقاطعات — أسلم ، وسمى نفسه بالملك الصالح . وقد وصل الاسلام الى ملقا فسومطرة الشمالية ثم جاوة وغيرها .

ويقال انه تكونت فى القرن الثانى عشر مملكة فى سومطرة الشمالية على مضيق « ملقا » تعرف بمملكة باساى سامودرا . ولا يعرف بالضبط بدء قيام هذه المملكة ، ولا أول من تولى عليها من الملوك أو الأمراء ، ولا السنة التى تأسست فيها ... ولكن الثابت عند المؤرخين أنها كانت مملكة اسلامية ، وكان من أقدم ملوكها الملك الكامل . ويظن أنها تألفت اثر التيار الاسلامى الذى بدأ ينتشر حينئذ فى هذه الجزر ، وأن التجار ومن رافقهم من العلماء هم الذين حملوا الى هذه البقعة بذور الاسلام . والمعروف أنهم جاءوا اليها من أقطار تدرجت فى مدارج المدنية ، وسمت فى سلم الحضارة والعلم ، وهم يحملون عقولا راجحة وعلوما ، فنشروا ما لديهم ، وعرضوا ما حملوه معهم .

وان كانت الممالك قد تركت هياكل وتماثيل ونقوشا على المبانى تسترعى الاعجاب ... فقد تركت مملكة « باساى سامودرا » روحا قوية لاقامة العدالة وتركيز مكارم الأخلاق ، حتى امتدت فروعها بعد زمن فشملت جميع « أتاشية » حيث تكونت « مملكة أتاشية » المشهورة بقوتها وبعد نفوذها وعدالتها . وهذه الدولة الأخيرة هى التى حمت بلادها من الغزاة المستعمرين ... فردت

البرتغاليين على أعقابهم ، والانجليز الذين جاءوا من بعدهم فأبرموا معها معاهدة ، كما ردت الهولنديين ، وحاربتهم حربا طويلة جدا .

وقد ذكر السياح الذين زاروا هذه الدولة أنها كانت على جانب عظيم من رواج التجارة ، وحسن الادارة ، وغزارة الثروة ، وانتشار العلم .

وقام الأندونيسيون أنفسهم بدور كبير فى نشر الاسلام ... ففى سواحل الخليج الغربى — حيث تقوم المدن والحواضر فى الشاطئين شرقا وغربا — تقف السفن القادمة من الشرق ، فيتلقف تجار تلك المدن ما تحمله من متاجر ، وما تنقله من محصولات الشرق الأقصى — كالبهارات المختلفة الأنواع ، والأفاويه والعاج والأخشاب والبخور — ويمتزج البحارة الأندونيسيون بالسكان ، ويتعارفون ويشاهدون ما لديهم من عروض جميلة ، وفنون ظهرت فى النقوش والرسوم والسجاجيد ، فيقتنون منها ما يقتنون ، ويرون هناك الأحجار الكريمة والعقاقير والأقمشة الحريرية وغيرها ، فيشترون منها ويبيعون .

وفى سيراف ومسقط وهرمز والبصرة وغيرها ، تقف السفن الأندونيسية ، وينزل الأندونيسيون ليمتزجوا باخوان لهم فى الدين ، فيتبادلوا العروض التجارية ، ويشاهدوا الكتب الخطية التى تعرض عادة فى سوق الوراقين ، وينادى بها الوراقون . وبين هذه الكتب يشاهدون الأدب العربى والفارسى ، ويقرأون الحكايات والروايات ... فيحملون ما شاءوا أن يحملوه منها الى بلادهم ، فيروونه بلغته الأصلية ، أو يترجمونه الى اللغة الأندونيسية .

وفى سومطرة الشمالية تقرأ هذه الحكايات فى حفلات سنوية تقام فى المنازل ، ويدعى اليها الناس ليسمعوا سرد هذه القصص ، فيصغوا اليها اصغاء المعجب ، وينصتوا اليها انصات الخاشع .

وقد جاهدت أندونيسيا جهادا مريرا حتى حصلت على استقلالها . وقام كثير من أقطاب المسلمين فيها بنصيب مشكور فى هذا الجهاد . وقد زادهم الاسلام ايمانا فى جهادهم ، فكانوا لا يدخرون وسعا فى سبيل الحصول على الاستقلال ، وتحرير الشعب من ربقة الذل والاستعباد ... فلم تكد تطأ أقدام الهولنديين هذه الجزر فى القرن السادس عشر ، حتى اعتبرهم السكان معتدين آثمين يريدون استغلال حاصلاتها لمصالحهم الخاصة دون مبالاة بالعدل والانصاف . ومن هنا بدأ تاريخ الجهاد والمقاومة ، فقامت ثورات دموية عنيفة سجل التاريخ بعض أخبارها برغم المحاولات المتعددة من قبل الهولنديين لطمس هذه الحقائق .

وكانت هذه الثورات نواة صالحة للجهاد والكفاح ، فلم يستهل القرن العشرون حتى دخلت الحركة الوطنية مضمارا جديدا ودورا عظيما . فتأسست عام ١٩٠٨ أول هيئة أندونيسية تسلك فى جهادها منهجا مرسوما لتحقيق ما تصبو اليه نفوس الأندونيسيين من نيل الحرية ... هى جمعية « بودى أوتومو » ، ومعناها الأخلاق الفاضلة . وقد حمل مشعلها الدكتور وحيد الدين ، فبذل جهدا كبيرا فى رفع مستوى الشعب الأندونيسى من الوجهتين التعليمية والاجتماعية ، ايمانا منه بأن هذا الطريق سيؤدى بالشعب الأندونيسى الى أمنيته الشريفة من الوجهة السياسية .

ثم تكونت « شركة داجانج اسلام » ، أى الشركة التجارية الاسلامية ، وهى حركة اسلامية نشيطة عمدت الى محاربة الاستعمار فى ميدان التجارة والاقتصاد ، والقضاء على الرأسمالية

الاحتكارية بانشاء الجمعيات التعاونية ، وتنظيم صفوف العمال وتوحيد كلمتهم ، وانشاء نقابات قوية لهم .

وقد أسس هذه المنظمة ، التى أطلق عليها فيما بعد « شركة اسلام » ، الحاج سموندى ، عام ١٩١١ فى مدينة صولوا — التى يقال لها أيضا « سورا كرتا » — بالقرب من مدينة « جوكجاكرتا » فى جاوة الوسطى . ثم تحولت الى حزب اسلامى يستهدف تحقيق غايات اجتماعية وسياسية . وقد أحرزت « شركة اسلام » تقدما سريعا دل على أنها منظمة كان الشعب يترقب ظهورها منذ مدة طويلة ، لأسباب أهمها روح الاسلام السائدة فى أندونيسيا ، وبغض الاستعمار الهولندى المخالف للاسلام .

وجاء فى القانون الأساسى لهذا الحزب الاسلامى أن غايته هى احراز تقدم محسوس للشعب الأندونيسى بتقوية الأخوة والاتحاد والتعاون بين المسلمين . وقد حرم القانون أن يكون أعضاء مجلس الادارة من الموظفين لدى حكومة الهند الهولندية . وكانت حكومة الهند الهولندية تؤمل كثيرا ألا تتجاوز هذه المنظمة الاسلامية حدود مديرية صولو ، ولكن أبى الله الا أن يتسع نطاقها ، فقد نجحت دعايتها فى جاوة الشرقية نجاحا عظيما .

وفى ١٦ يناير عام ١٩١٣ انعقد المؤتمر الأول لشركة اسلام فى مدينة « سورابايا » فأحرز نجاحا باهرا ، ثم عقدت عدة مؤتمرات لهذه المنظمة فى الفترة ما بين يونيو ١٩١٣ وسبتمبر ١٩١٨ . وبلغ عدد أعضائها مليونين فى نحو ثمانين فرعا منتشرة فى أنحاء البلاد . وسادت روح الاسلام جهاد هذه المنظمة ، فكان لها أثر بعيد فى تقدم البلاد ونيل استقلالها .

وقد تأسست الجمعية المحمدية فى ١٨ نوفمبر عام ١٩١٢ بمدينة « جوكجاكرتا » . أسسها المرحوم الحاج « أحمد دحلان » ، وأخذت منذ ذلك الحين تنمو وتزدهر ، وتنشىء الفروع والشعب فى مختلف مدن أندونيسيا وقراها ، حتى شملت جميع أرجاء البلاد من أقصاها الى أقصاها ، وصمدت هذه الجمعية لجميع العراقيل التى وضعتها السلطات الاستعمارية الحاكمة فى طريقها . ومن أهدافها تنقية عقيدة الاسلام من آثار الديانات الأخرى — كالبرهمية والبوذية — وأوهامها .

وقد تخرج فى هذه الجمعية كثيرون من قادة أندونيسيا وزعمائها السياسيين والاجتماعيين الذين قاموا بدور كبير فى بعث الحركة القومية بأندونيسيا ، والكفاح الوطنى فى سبيل استرداد حرية البلاد واستقلالها .

وعندما اندلعت نيران الثورة فى أندونيسيا عقب الحرب العالمية الثانية ، وهب الشعب الأندونيسى على بكرة أبيه للذود عن حرية بلاده ... كانت الجمعية المحمدية فى مقدمة الصفوف ، وأبلت بلاء حسنا فى الكفاح والدفاع عن حياض الوطن ، حتى خلت المعاهد والمؤسسات من جميع رجالها الذين تسابقوا الى الميدان .

ومن الذين تخرجوا فى مدارس هذه الجمعية الجنرال « سوديرمان » قائد جيش التحرير ضد الاستعماريين ، وقد ظل حتى آخر أيامه مثال المؤمن الصادق فى الحرص على أداء فرائض الدين . وقد انضم كثير من أعضاء الجمعية المحمدية الى بعض الأحزاب السياسية ، وبخاصة الحزب الاسلامى « ماشومى » ، وهو من أكبر الأحزاب السياسية فى أندونيسيا .

وللجمعية المحمدية قسم خاص بالنساء يعرف باسم « العائشية » ، تيمنا باسم السيدة عائشة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم . ويقوم هذا القسم بنشر الرسالة الدينية والاجتماعية لهذه الجمعية بين السيدات ، وقد أنشأ كثيرا من المدارس والمعاهد الخاصة بالفتيات فى جميع أنحاء أندونيسيا لتعليمهن ، وتنشئتهن تنشئة اسلامية قويمة ، ليكن أمهات صالحات يدركن ما عليهن من واجبات تجاه الأسرة والمجتمع .

وقد بلغ عدد مدارس ومعاهد هذه الجمعية المحمدية فى جميع مراحل التعليم عدة آلاف ، تضم ٢٣٠٫٠٠٠ تلميذ وطالب ، وأكثر من أربعة آلاف مدرس . ويبلغ عدد الأيتام الذين تؤويهم الجمعية فى ملاجئها ٥٧٠٠ يتيم ، وعدد الفقراء والمحتاجين الذين تمدهم بالمعونة نحو ٢٧٫٠٠٠ شخص ، وعدد المرضى الذين يعالجون فى مستشفياتها نحو ٦٠٠٠ مريض . وقد بنت الجمعية كذلك ٣١ مكتبة ، و ٣٨٤ مسجدا .

ومن مؤسساتها الجديدة : دار لحفظ القرآن للبنات فى « كومان » ، يتعلمن فيها أيضا بعض الصناعات اليدوية ، ومدرسة للبنات فى « جوديان » ، وثلاث مدارس أخرى فى « مسويودان » .

وفى أندونيسيا جمعية اسلامية أخرى تسمى « نهضة العلماء » . أسسها نخبة من علماء الشافعية بأندونيسيا فى ٣١ يناير عام ١٩٢٦ . ولم تمض مدة طويلة حتى كان لها نفوذ فى المجتمع الأندونيسى ، وهى كالجمعية المحمدية تعنى بنشر التعليم ، واقامة الشعائر الاسلامية . ولكنها أكثر نفوذا فى الأوساط الشعبية ، وأكثر التزاما لمذهب الامام الشافعى وأقوال علمائه . وكان بين الجمعيتين شبه تنافس ، بيد أن هذا التنافس لم يلبث أن خفت حدته بعد تأسيس رابطة الأحزاب والمنظمات الاسلامية .

ومن زعماء جمعية « نهضة العلماء » : الشيخ عبد الوهاب الذى صار فيما بعد من زعماء الحزب الاسلامى « ماشومى » ، والأستاذ عبد الواحد هاشم الذى تولى منصب وزير الشئون الدينية ، والأستاذ زين العارفين الذى تولى فرقة « حزب الله » التابعة لحزب « ماشومى » عندما قامت هولندا بأعمالها العسكرية للقضاء على الجمهورية الأندونيسية .

ومن المنظمات الاسلامية ذات النفوذ القوى : جمعية « الاتحاد الاسلامى » التى تأسست قبل الحرب العالمية الثانية تحت رعاية عالم أندونيسى معروف بجاوة الغربية ، هو فضيلة الشيخ الحاج أحمد سنوسى الذى توفى منذ سنوات . ومنها « برسريكاتان علماء » ، أى جمعية العلماء ، بزعامة فضيلة الشيخ الحاج عبد الحليم . ويوجد فى خارج جزيرة جاوة منظمات اسلامية ذات شأن خطير ، لاسيما فى سومطرة ، وسولاويس ، وكاليمانتان ، وبورنيو .

ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها عام ١٩٤٥ ، واستسلمت اليابان للحلفاء ، وأعلن الشعب الأندونيسى استقلاله ... تأسس فى ٨ من نوفمبر عام ١٩٤٥ م حزب اسلامى جديد بقرار مؤتمر حضره مندوبو المنظمات الاسلامية فى جميع أندونيسيا ، وهو الحزب المسمى « مجلس شورى مسلمى أندونيسيا » ، ويرمز اليه بلفظة « ماشومى » . ويهدف — كما ذكر فى المادة الثانية من قانونه الأساسي — الى :

١ — تأييد سيادة الجمهورية الأندونيسية ، وتعزيز الدين الاسلامى .

٢ — تحقيق مقاصد الاسلام فيما يختص بحكم البلاد وسياسة الأمة .

وقد رأى رجال هذا الحزب أن أول شرط للوصول الى هذه الغاية ، هو ايجاد اتحاد قوى بين المسلمين تحت قيادة حزب قوى . وقد تقرر أن تتنوع الأعمال طبقا لما يقتضيه الدفاع عن الدولة . ومن ذلك : تأليف جيش المتطوعين الشعبى المعروف بحزب الله ، وتأسيس منظمة الشباب الاسلامية المسماة « حركة الشباب الاسلامى » الأندونيسى ، ووحدة التجار المسلمين ، وجمعية المزارعين الأندونيسيين وغير ذلك .

وقد قامت هذه الجمعيات الدينية بدور كبير فى الدفاع عن أندونيسيا واستقلالها ... فقد حاولت هولندا أن تخلق فى أندونيسيا حكومات صورية تؤيدها فى سياستها الاستعمارية ، معتمدة على ماتوهمته من خلاف بين الأندونيسيين ولكن خاب ظنها ، وفشلت سياستها ... لأن الخلاف الذى توهمته لم يكن خلافا جوهريا ، انما هو نوع من اختلاف الرأى فى الطريقة التى ينبغى سلوكها . زد على ذلك أن الاسلام وحد بين الأندونيسيين ، وجعلهم يعتصمون بحبل الله جميعا ، ويقولون بصوت واحد ، بعد المعارك الطاحنة التى دارت فى أواخر عام ١٩٤٨ : أعيدوا لنا وحدتنا ، لأننا شعب واحد ينبغى أن تجمعنا حكومة واحدة . واضطرت هولندا الى أن تسلم السيادة على هذه البلاد الى أبنائها فى عام ١٩٤٩ م .

وفى حكومة أندونيسيا وزارة للشئون الدينية ، من مهمتها توضيح الأمور الدينية والشرعية ، حتى يفهم الشعب الأهداف التى ترمى اليها الوزارة من سن مختلف الأنظمة والقوانين .

وتهدف وزارة الشئون الدينية فى أندونيسيا الى تثقيف الشعب الاندونيسى ثقافة تستنير بهدى الدين . وهذه المهمة ملقاة على كاهل قسم التربية الدينية التابع لهذه الوزارة . وهذا القسم يقدم المساعدات اللازمة للمدارس الاسلامية الأهلية ، ويزودها بمناهج التعليم الدينى ووسائل الارشاد ، لبثّ الأخلاق الفاضلة فى نفوس الشعب . وتنفق الوزارة مبالغ غير يسيرة لمساعدة هذه المدارس ، بجانب الميزانية التى خصصتها وزارة المعارف لهذا الغرض .

ويحرص المسلمون الأندونيسيون حرصا شديدا على أداء شعائر الدين . وتستقبل أندونيسيا شهر الصيام كل عام بأعظم مظاهر الحفاوة والاكرام . ويحرص الأندونيسيون على الصيام حرصا شديدا . وقلما يوجد مفطر ، والفطر جريمة منكرة فى نظرهم ... بل ان كثيرين من الأطفال يصومون تقليدا لآبائهم ، وتنشرح بالصوم نفوسهم البريئة ، مع ما يلقونه من شدة وعنت ، وان أحدهم ليغضب غضبا شديدا اذا لم يوقظ للسحور .

ومن أبرز مظاهر شهر رمضان فى أندونيسيا — بعد أن استردت حريتها واستقلالها — أن يعقد فى السابع والعشرين من هذا الشهر احتفال كبير بقصر الرياسة ابتهاجا بالليلة المباركة التى أنزل فيها القرآن هدى ورحمة ونورا للعالمين ... فأخرج الناس من الظلمات الى النور ، ومن الضلال الى الهدى .

وينهض المسلمون الأندونيسيون مبكرين ، فى صباح يوم العيد ، لأداء الصلاة فى المساجد والساحات والميادين الكبرى ، فى جموع كبيرة زاخرة تبلغ مئات الألوف . وينبعث عن تكبيراتهم القوية دوى مجلجل كهزيم الرعد ، تردده جنبات

الوديان وقنن الجبال حتى يبلغ عنان السماء ... كما تحتفل الهيئات والمنظمات الاسلامية فى أندونيسيا كل عام بأعياد المسلمين والمواسم وليلة الاسراء والمعراج . فيقام احتفال كبير فى القصر الجمهورى يحضره عدد كبير من كبار الشخصيات والمسلمين الأندونيسيين ، ويخطب فيه الرئيس أحمد سوكارنو ، كما يشترك فيه رئيس الوزراء وغيره من علية القوم .

وفى « جوكجاكرتا » ، عاصمة أندونيسيا ، جامعة اسلامية . وقد أوفدت منذ سنوات الأستاذ « سوناريو » لدراسة نظم المعاهد المصرية وتدريس الثقافة الاسلامية فيها ، وكذلك الامكانيات المتاحة لاستخدام أساتذة من مصر للتدريس فى أندونيسيا . وقد اتصل الأستاذ سوناريو بشيخ الجامع الأزهر ، كما اتصل بوزارة التربية والتعليم . ولم تلبث الجمهورية العربية المتحدة أن عقدت المعاهدات الثقافية مع أندونيسيا ، وأرسلت الى هناك عشرات من الأساتذة لهذا الغرض .

ومعظم العرب المسلمين الذين يستوطنون أندونيسيا ، من الحضارمة الذين حضروا من حضرموت ، واندمجوا فى الأهالى ، ونسوا جنسياتهم ، وتسموا أسماء أندونيسية . وبعضهم من أولاد المغاربة الأول ، وكثيرون من أولاد من جاء بعدهم .

وفى أندونيسيا آثار قديمة للمسلمين ، منها مقبرة للمغاربة عليها كتابات عربية من المرمر ، هدمت هولندا جزءا منها لظنها أنها تحوى ذهبا وفضة ، فلم تجد غير رمم بالية . وقد كتب على المقبرة تاريخ ٦١١ هـ . وفى اللغة الأندونيسية ألفاظ عربية ، مثل كرسى وصابون وقرطاس وسلام واستراحة ونحو ذلك ، مما يدل على فضل العرب على هذه البلاد ، وتأثيرهم فى لغة الأندونيسيين .

وقد حاول الهولنديون أن يعزلوا المنحدرين من أصل عربى فى ناحية ، وأبناء البلاد الأصليين فى ناحية أخرى . ولكن العرب يعدون اليوم — كما كانوا دائما — جزءا من كيان الجمهورية الأندونيسية المستقلة .

ولم تتجه عناية العرب فى أندونيسيا الى تشييد المبانى الدينية الضخمة — كما كان شأن البراهمة والبوذيين — بل كان معظم همهم متجها الى الفتوحات الروحية ، ونشر الدين ... فليس فى جاوة أو غيرها من الجزر ما فى سائر البلاد الاسلامية من المساجد التى تبهر الأنظار ببديع الصنعة وفخامة البناء ، ولكن الجوامع كثيرة العدد ، ولا يخلو منها بلد . وعدد الذين يحجون الى بيت الله الحرام كل سنة كثير . ولقب حاج له فى النفوس تقدير كبير . والمسلمون فى جاوة وسومطرة وبورنيو وسلاب نحو ٤٠ مليونا .

ولا تزال الحروف العربية شائعة الاستعمال فى أندونيسيا . وقد أدخلت عليها صور فارسية ، كما زيدت صور أخرى تعرف بالبيجو . وهى الآن أقرب الى الصور الهندسية منها الى الصور الفنية . وتعتمد على الخطوط وتحديد الارتفاع والانخفاض .

ولولا الاسلام فى أندونيسيا ومحافظة المسلمين بها على تعلم القرآن والكتب الدينية ، لما كنا نرى اليوم للحروف العربية أثرا فى أندونيسيا . ولكن القرآن الشريف — ذلك الكتاب الخالد المبين — هو الذى حافظ على هذه الحروف .

الإسلام فى الصّين

تواترت فى دخول الاسلام بلاد الصين روايات كثيرة ، اختلفت فى أسباب دخوله ، ولكنها اتفقت على أنه بدأ ينتشر شيئا فشيئا فى شمال الصين وجنوبها منذ صدر الاسلام .

وقبل أن يكتمل القرن الأول للهجرة ، قام القائد الكبير « قتيبة بن مسلم » بفتح الصين لانقاذ المسلمين فيها من ظلم الملوك والأباطرة ، فأقسم — بعد أن اكتسح سهول آسيا ومدنها وأقطارها وأمصارها ، وهزم ملك الترك الغاشم ، واستولى على سمرقند وبلخ وبخارى وغيرها من مدن آسيا — أن يكتسح هذه الامبراطورية الواسعة المترامية الأطراف ، ويطأ بقدميه ثرى قصر امبراطورها ، ويسترق بنيه ، ويحمل ما عنده من الأموال الى أمير المؤمنين فى دمشق ... أو يدخل دين الاسلام . وشعاره الماثل دائما نصب عينيه : الاسلام أو الجزية أو القتال .

ودهش امبراطور الصين دهشة عجيبة لأمر هذا القائد الشجاع ، واستدعى طائفة من المسلمين وخاطبهم فى أمره قائلا : « كيف يجرؤ على اقتحام بلادى الواسعة فى هذا النفر الضئيل من الناس ؟ » ، فقال قائلهم : « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله . وان الذى أول خيله فى بلاد الزيتون (الشام) ، وآخر خيله فى بلادك لا يستعصى على جيوشه شىء » . فارتاع الملك من قوة قتيبة وأنصاره . وكانت أنباء انتصارات جيشه تقرع آذانه قرعا ، فزاد فزعه ، وازدادت رهبته . وأشار عليه بعض أقطاب مملكته أن يرسل الى قتيبة ابن مسلم حفنة من تراب قصره ليطأه القائد العظيم ، كما طلب من قتيبة ختمه ليختم به الامبراطور أبناءه كالرقيق ، ويدفع الجزية ... وهكذا بر قتيبة بن مسلم بقسمه ، وانتصر على ملك الصين انتصارا عظيما .

وفى هذه الآونة مات الحجاج بن يوسف الثقفى ، وتولى الوليد بن عبد الملك ، فسليمان بن عبدالملك . وكان سليمان يحقد على أنصار الخليفة السابق ، لأنهم كانوا يرغبون فى اقصائه عن الحكم ، فأرسل فى طلب القواد المسلمين — وكان منهم قتيبة ابن مسلم — فلما جاءه أمر سليمان بن عبد الملك ذهل ذهولا شديدا ... فقد كان الأمر يتطلب بقاءه لتأمين حال المسلمين ، وتوطيد دعائم الاسلام . ولكن سليمان بن عبد الملك أصر على استدعائه ضاربا عرض الحائط بالفتوح العظيمة التى حققها قتيبة بن مسلم .

وظل قتيبة مترددا فى أمر الرحيل الى دمشق ، واطاعة أمر الخليفة ... حتى بدأت الفتن تنتشر فى جيشه لصالح سليمان بن عبد الملك ، وأخذ أتباع سليمان يتهمونه بالتمرد والعصيان ، وطفقوا يدبرون المؤامرات ، وينظمون الدسائس للتخلص منه . وفى احدى الليالى قتله بعض الثائرين غيلة وخيانة . وهكذا أسدل الستار على حياة بطل من أبطال الاسلام ، قاد المسلمين من أرض الى أرض ، ومن نصر الى نصر .

ولكن الاسلام منذ أن غزا قتيبة بن مسلم هذه الأصقاع ، أخذ يزداد انتشارا ، وكثرت المساجد والمعاهد العلمية التى تلقن فيها أصول الاسلام .

وشرع المسلمون الصينيون فى تلقين مبادىء الاسلام الى أنصارهم على مر العصور . وقد أنشأ « لانشوما » أول معهد اسلامى فى الصين . وكذلك قام « هاى بابا »[1] بانشاء مدرسة مماثلة فى أحد المساجد ، واستطاع أن يلقن عددا كبيرا من

(1) كلمة بابا تعنى ولى الله عند مسلمى الصين .

الناس تعاليم الاسلام ، حتى أن أبناء الصين أطلقوا عليه « هاى بابا » منذ ذلك التاريخ ، احتراما لما قام به من مجهود فى نشر الاسـلام وتعليم مبادئه . وقد سار « خوتاى شى » على منوال « هاى بابا » فى تعليم الاسلام ... فبعـد أن أدى فريضة الحج عاد فتوسع فى انشاء المدارس فى المسـاجد ، حتى انتشرت العلوم الاسلامية فى الصين انتشارا عظيما ، ولقب « بتاى شى » ، أى الأستاذ الأكبر ، كما لقب باسم « خوبوجاو » ، أى الضوء الشامل .

وقد قامت دولة منج ، التى حكمت الصين حتى القرن السـابع عشر ، بخدمة الاسلام والمسلمين هنالك . كما قام الامبراطور « هنج وو » بدور كبير فى هذا الميدان ، فعمل على انشاء كثير من المساجد التى ألحقت بها المعاهد العلمية الدينيـة . وعندما قدم سفير صينى الى قصر الشاه « رخ بهادر » فى سمرقنـد فى القـرن الخامس عشر ، دعا الشاه امبراطور الصين الى السلام ، وأرسل مع السفير عند عودته ، رسالتين لهذا الغرض : احداهما باللغة العربية ، والأخرى باللغة الفارسية . وهذا هو نص الرسالة العربية :

« بسم الله الرحمن الرحيم ... لا اله الا الله محمـد رسول الله . قال رسـول الله محمد عليه السلام : لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله ، لا ينصر من خذلهم ، ولا يطاع من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك . لما أراد الله تعالى أن يخلق آدم وذريته ، قال : « كنت كنزا خفيـا فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق لأعرف » . فعلم أن حكمته — جلت قدرته ، وعلت كلمته — من خلق نوع الانسان ، ايثار العرفان ، واعلاء أعلام الهدى والايمان ...

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ... ليعلم الشرائع والأحكام ، وسنن الحلال والحرام . وأعطاه القرآن المجيد معجزة ، ليفحم به المنكرين ، ويقطع لسـانهم عند المنازعة والخصام . وأبقى — بعنايته الكاملة ، وهدايته الشـاملة — آثاره الى يوم القيـامة ، ونصبه — بقدرته فى كل حين وزمان وفرصة وأوان — فى أقطـار العالمين من الشرق والغرب والصـين ، ذا قدرة وامكان ، وصـاحب جنود مجندة وسـلطان ... ليروج أسواق العدل والاحسان ، ويبسط على رءوس الخلائق أجنحة الأمن والأمـان ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر والطغيـان ، ويرفع بينهم أعلام الشريعة الغراء . وأزاح من بينهم الشرك والكفر بالتوحيد فى الملة الزهراء ...

« فوفقنا الله تعالى ، بسوابق لطفه ولواحق فضله ، أن نسعى فى اقامة قوانين الشريعة الطاهرة ، وادامة قواعد الطريقة الزاهرة . وأمرنا بحمد الله أن نفصـل بين الخـلائق والرعايا ، فى الوقائع والقضايا ، بالشريعة النبوية والأحكام المصطفوية ، ونبنى فى كل ناحية المسـاجد والمدارس ، ونعمر الخوانق والصـوامع والمعابد ، كى لا يندرس أعلام العـلوم ومعالمهـا ، وتنطمس آثار الشريعة ومراسمها ... ولأن بقاء الدنيا الدنية وسلطتها ، واسـتدامة آثار الحكومة وايالتها ، باعانة الحق والصواب ، واماطة أذى الشرك والكفر عن وجه الأرض لتوقع الخير والثواب ... فالمرجو والمأمول من ذلك الجناب وأركان دولتـه أن يوافقونا فى الأمور المذكورة ، ويشاركونا فى تشييد قواعـد الشريعة المعمورة » .

أما الرسالة الفارسية فيبدو من نصها أنها أكثر صراحة فى الدعوة الى اعتناق الاسلام من الرسالة الأولى ، المحررة باللغة العربية . وقد جاء فيها :

« لما خلق الله الأعظم — بحكمته البالغة ، وقدرته الكاملة — آدم عليه السلام ، جعل بعض أبنائه أنبياء ورسلا ، وأرسلهم الى الخلق يدعونهم الى الحق ، وأنزل على بعض هؤلاء الأنبياء — كابراهيم وموسى وداود ومحمد (عليهم السلام) — كتابا ، وعليهم شريعة ، وأمر أهل زمانهم أن يتبعوا شريعة كل منهم ودينه ودعا هؤلاء الرسل جميعا الناس الى دين التوحيد وعبادة الله ، ونهوا عن عبادة الشمس والقمر والنجوم والملوك والأصنام . ومع أن كلا من هؤلاء الرسل كانت له شريعة خاصة ، فانهم كانوا جميعا متفقين على توحيد الله الأعظم ...

« ولما صار أمر الرسالة والنبوة الى محمد المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، نسخت كل الشرائع الأخرى وهو نبى آخر الزمان ورسوله ، وواجب على العالم بأسره — أمراء وسلاطين ووزراء ، وأغنياء وفقراء ، وصغارا وكبارا — أن يعملوا بشريعته ، وأن يتركوا كل الملل والشرائع السابقة ، هذه العقيدة الصحيحة تسمى الاسلام ...»

« ومنذ سنوات خلت تهيأ « جنكيز خان » للقتال ، وأرسل أبناءه الى بلاد وممالك مختلفة . فأرسل جورجى خان الى حدود سراى وقرم ، ودشت قفجاق ، حيث أسلم بعض الشاهات من أمثال أوزبك وجانى خان وأرس خان ، وعملوا بشريعة محمد عليه السلام ، وأصبحوا بذلك مسلمين ، وانتقلوا الى الدار الآخرة سعداء بشرف الاسلام . ومن هؤلاء : الملك الصادق غازان ، والجايتو سلطان ، والشاه سعيد الحظ أبو سعيد بهادر ، وغيرهم بعدهم ... حتى ولى العرش والدى المكرم أمير تيمور كوركان . وقد عمل والدى كذلك بشريعة محمد عليه السلام ، فى كل البلاد التى حكمها ، ولعم المسلمون طول عهده برخاء شامل ...

« والآن ، وقد انتقلت الى يدى — بلطف الله وفضله — ممالك خراسان وما وراء النهر والعراق وغيرها ، فان حكم البلاد فى كافة أرجاء المملكة ، بموجب الشريعة المطهرة النبوية ، أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ... ومنذ ذلك التاريخ صار يقينا ومحققا أن الخلاص والنجاة فى يوم القيامة ، والسلطان والدولة فى الدنيا ، سببها ايمان الفرد واسلامه ، وعناية الله تعالى . ومن الواجب علينا أن نعامل رعيتنا بعدل وانصاف . وانى لأرجو — بفضل الله وكرمه — أن تعملوا أنتم بشريعة محمد رسول الله (عليه السلام) ، وأن تقووا الاسلام فتنالوا بدلا من سلطان الدنيا سلطان الآخرة ... » .

وليس ببعيد أن تكون هاتان الرسالتان سببا فى اعتناق أحد أباطرة الصين للاسلام ، كما تقول السير توماس أرنولد ، نقلا عن تاجر مسلم يدعى سيد على أكبر ، قضى فترة من الزمن فى بكين فى نهاية القرن الخامس عشر .

ويضيف هذا التاجر قائلا : ان ثلاثين ألف أسرة مسلمة كانت قد استوطنت مدينة « كنجنفو » فى هذه الفترة من التاريخ . وكان الامبراطور الصينى يحسن معاملتهم ، ويبيح لهم اقامة شعائرهم الدينية دون خوف ولا وجل . وكان فى العاصمة نفسها فى هذه الآونة أربعة مساجد ، وما يقرب من تسعين مسجدا غيرها فى الولايات الأخرى . وقد بنيت كلها على نفقة الامبراطور .

وفى عام ١٨٦٧ للميلاد نشر مؤرخ روسى يدعى « فاسيليف » بحثا عن الاسلام فى الصين عبر فيه عن الفكرة التى تقول بأن الاسلام يتخذ طريقه لأن يكون الدين القومى للامبراطورية الصينية ، ويقلب

نتيجة لذلك الأوضاع السياسية فى العالم الشرقى رأسا على عقب .

وتنتشر فى الصين الآن المدارس الاسلامية ، وبعضها مدارس أولية ، وبعضها مدارس عالية . والأولية كثيرة الانتشار ، وتكاد توجد فى كل مسجد ، ويلتحق بها أولاد المسلمين اذا زادت سنهم على أربع سنين وأربعة شهور وأربعة أيام . ويدرسون فى هذه المدارس مبادىء القراءة والهجاء والاملاء ، كما يدرسون معنى الشهادة بأن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ثم يحفظون سورا من القرآن الكريم وسورة الكهف ، ويطلعون على بعض كتب الأوراد والتراتيل الدينية .

والدراسة بالمدارس الأولية تؤهل الطلاب المسلمين للالتحاق بالمدارس الاسلامية العالية التى توجد فى بعض المساجد ويقوم الطلاب الأغنياء بالانفاق على الطلاب الفقراء فى هذه المدارس ... فالموسر يطعم طالبا واحدا أو طالبين أو ثلاثة طلاب .

ويعين من يتخرج فى هذه المدارس اماما فى مسجد من المساجد ، وينعم عليه بطيلسان أخضر ، وعمامة بيضاء ... كما تقدم اليه قطعة كبيرة من الحرير الأحمر ، طولها متران وعرضها متر ، كتبت عليها العلوم التى نجح فيها ، وأظهر نبوغه وتفوقه .

ويبلغ عدد مساجد الصين وزواياها نحو أربعين ألفا ، وفقا لما جاء فى كتاب « برومهول » عن الاسلام فى الصين . وهذه المساجد بمثابة المراكز الثقافية التى تشع منها مبادىء الاسلام وتعاليم الدين الحنيف . وقد تصدع بعض هذه المساجد على مرور الزمن ، ولكن رمم كثير منها فى السنوات الأخيرة . ويتردد عليها الموظفون والعمال والطلاب المسلمون ، وتقام فيها الشعائر الدينية — وخاصة فى الأعياد الاسلامية — فتزدحم بجمهور غفير من المسلمين الذين يحضرون الى المساجد ليهنىء بعضهم بعضا بهذه المناسبات السعيدة .

وفى مدينة بكين وحدها نحو ٦٥ مسجدا ، وفى « شنغهاى » ٢٧ مسجدا ، وفى « كنتون » وجميع المدن الأخرى الكبيرة مساجد يقوم بالاشراف عليها عدد من الأئمة المسلمين .

ويتبع الصينيون المسلمون تقاليد الاسلام ، فمراسم تشييع الجنازة ومراسم الدفن مثلا تجرى عندهم وفقا لأحكام الشريعة بوجه عام . ويقوم بهذه المهمة خدم المسجد وبعض موظفيه ، وهم يمنحون فى العادة ملابس المتوفى كجزء من أجرهم ، ثم يوضع الجثمان فى النعش وتشيع الجنازة الى القبر . وقد جرت العادة أن ينثر على أرض اللحد المسك والكافور ، وهو تقليد سائد فى كثير من الأمم الاسلامية .

وتتميز قبور الصينيين المسلمين بأنها مستطيلة ، بخلاف قبور البوذيين فانها مخروطية مستديرة . ويراعى عند الدفن فى اللحد أن يكون الرأس جهة الشمال ، والقدمان صوب الجنوب ، والوجه فى اتجاه الكعبة .

وللمسلمين فى الصين مقابرهم الخاصة بهم ، وفى مساء يوم الدفن ، وعند ذكراه ، يتوافد المعزون لسماع تلاوة القرآن الكريم .

وقد فكر بعض أقطاب الاسلام فى الصين ، فى نهاية الربع الأول من القرن العشرين ، فى انشاء معهد دينى كبير فى مدينة « تشنيان » — عاصمة مقاطعة « شانتونج » — لنشر الثقافة الدينية بين الشعب ، وللمحافظة على العادات والتقاليد الاسلامية ، ومخافة أن تختلط هذه العادات بعادات البوذيين والوثنيين على مر الزمن ، فتضيع معالم الاسلام فى أرض الصين الفسيحة .

فاجتمع الأستاذ محمد على تان كوسان ، والشيخ عبد الرحمن ماسون تين ، ولأستاذ مانوشين ، وغيرهم من أقطاب المسلمين فى الصين ، ووضعوا مشروع تأسيس معهد دينى ، ورسموا منهج الدراسة فيه ، وأطلقوا عليه مدرسة « جندا الاسلامية » للمعلمين .

ولم تلبث أن دخلت الفكرة فى حيز التنفيذ ، وعين الأستاذ محمد على تان كوسان ناظرا لهذه المدرسة ، والشيخ عبد الرحمن ماسون تين وكيلا . واسم المدرسة معناه « التربية والترقى » . ويقصدون بذلك أنها تعمل على تربية النفوس وتهذيبها ، وصقلها عن طريق دراسة الاسلام .

وقد قامت هيئة الطلاب فى هذه المدرسة بالوعظ والارشاد فى البيوت الخاصة والمساجد ، ونظمت حلقات دينية فى المواسم الدينية وشهر رمضان المبارك . ولكن حدثت ظروف سياسية عقب ذلك أدت الى اغلاق هذه المدرسة ، وتشريد طلابها .

وفى عام ١٩٣٣ سافرت بعثة من الأزهر الشريف مكونة من الشيخين : السيد محمد الدالى ، وابراهيم فليفل ، لاصلاح الدراسة فى هذا المعهد . وعلى أثر وصولهما أنشئت فرقتان فى هذه المدرسة ، هما . فرقة التدريس ، وفرقة الوعظ والارشاد . وألحقت بها مكتبة زاخرة بكثير من الكتب العلمية تم بناؤها عام ١٩٣٦ ، وزودت بشتى المراجع العلمية والدينية من مصر وغيرها من البلاد الاسلامية .

وفى بكين معهد اسلامى كبير بدىء العمل فيه منذ نوفمبر عام ١٩٥٥ . ومهمته تثقيف المسلمين ، واعداد أئمة المساجد الصالحين . وتشرف على المعهد وتتولى الانفاق عليه الجمعية الاسلامية فى الصين التى أنشئت عام ١٩٥٣ . وقد أوفدت الجمهورية العربية المتحدة اليه طائفة من العلماء لتدريس اللغة العربية والدين .

وتعد « جمعية التقدم الاسلامية » من أبرز الجمعيات الاسلامية فى الصين . وقد أسسها الشيخ عبد الرحمن وان هاوزان وطائفة من أعلام المسلمين هناك . وتقوم الجمعية باصلاح التعليم الاسلامى والدينى ، وتصدر مجلة اسلامية باسمها تطلق عليها « موكوانغ » ، أى نور المحمدية ، وقد قامت بترجمة القرآن بقلم الشيخ سعد الياس وان وين تسينغ .

أما الجمعية العلمية الاسلامية فقد أنشئت فى شنغهاى عام ١٩٢٥ وانتحب استاذ ماكانغ حو رئيسا لها ، والشيخ هلال الدين وكيلا لها . وتهدف هذه الجمعية الى نشر التعاليم الاسلامية والأحكام الشرعية ، وانهاض المعارف الاسلامية العامة ، والاهتمام بجمع الزكاة لمساعدة المحتاجين وخدمة المتعلمين .

وقد قامت هذه الجمعية بانشاء مدرسة « تون خوا » الابتدائية الاسلامية ، واصدار المجلة العلمية ، وتأسيس المكتبة الاسلامية ، وترجمة القرآن الكريم لنشره بين طبقات الصينيين المختلفة .

وفى الوقت نفسه قام الطلاب المسلمون فى الجامعات بانشاء رابطة بينهم لنشر الاتحاد بين الطلاب المسلمين فى الصين ، وبحث الثقافة الاسلامية ، وتسهيل الاتصال بين الصين والعالم الاسلامى .

وتوجد كذلك فى الصين جمعية « رقى التعليم الاسلامى » التى تأسست عام ١٩٣١ ، ثم انتخب الجنرال «عمر باى» رئيسا لها عام ١٩٣٣ . وترمى هذه الجمعية الى وضع مشروعات التعليم الاسلامى فى الصين ، وتعقد بين حين وحين مؤتمرات

ثقافية لهذا الغرض ، يشترك فيها عدد كبير من المسلمين فى الصين وغيرها من الدول الإسلامية .

أما « جمعية الدفاع الاسلامية » التى أنشئت فى مدينة « هانكو » عام ١٩٣٨ ، فتهدف الى إنقاذ الصين من غائلة الأعداء — وكان تأسيسها على أثر الحرب التى دارت بين الصين واليابان — عن طريق نهضة الدين الاسلامى . وقد انتخب الجنرال « عمر باش جونغ هي » رئيسا لها ، ثم انتقلت الى مدينة «هونج كنج » .

والجنرال عمر باى كان عضوا وقتذاك فى مجلس الدفاع الصينى الأعلى ووزير التدريبات العسكرية ، ووكيل رئيس أركان حرب الجيش ، المكلف بتدبير الخطط الجوية .

وتشرف جمعية الدفاع الاسلامية على المجلات الاسلامية » ، ومجلة « أنوار الاسلام » ، ومجلة « ناقوس الاسلام » التى صدرت بيونان تحت اشراف الجمعية الفرعية هناك ، ومجلة « الهلال والنجمة » التى تصدر فى شنغهاى وغيرها من المجلات الاسلامية فى الصين .

وقد نشر بالصين كثير من الكتب الاسلامية ، منها كتاب « الهداية الى قواعد الدين الصحيح » الذى نشر فى مدينة « كانتون » عام ١٦٦٨ م ، وهو يثنى على نشاط الدعوة الى الاسلام ، ويشير الى هؤلاء الذين دخلوا فى هذا الدين من بين الوثنيين . ويتعلم المحدثون فى الإسلام قواعد هذا الدين الأساسية فى كتب منظومة .

ومن الكتب المؤلفة فى عصر « نانسينغ » (١٠٥٢ — ١١٣٠ هـ) كتاب « موقظ الضالين » . وقد أتم تأليفه عام ١٠٩٠ « شاي يوشان » . ويتناول فيه كثيرا من أمور الاسلام بالعرض والتحليل . ومما يذكر أن مؤلف هذا الكتاب حفظ القرآن وأجاد تفسيره ، وكثر تلاميذه .

وألف « ماجو » كتاب « الابرة المغناطيسية فى الاسلام » ليشرح للملك عام ١٠٩٨ القرآن الكريم ، وطلب منه تطبيق أحكامه فى بلاد الصين ، ولكن ملك الصين لم يقبل . وهذا الكتاب يتناول خلق الكون ، وأحكام الآخرة ، وأسرار السماء والأرض ، وينقسم الى عشرة أجزاء .

وقد قام « صالح ليوجى » المولود فى مدينة نانكين — بوصية من والده — بترجمة مئات الفصول من الكتب الاسلامية ، منها : « آداب الاسلام » ، و « الطبيعة فى الاسلام » و «ترجمة المصطفى » .

هذا وقد ترجم كتاب « ترجمة المصطفى » الى اللغة الانجليزية تحت عنوان « النبى العربى » .

وألف « نور الحق ماجى » (توفى عام ١٩٠٣) مجموعة من الكتب باللغات الصينية والعربية والفارسية ، منها : « مفتاح المراح » ، « والعوامل فى النحو » ، و « التيسير فى علم الفلك » ، و « المختصر » ، و « سائر الجواشي فى علم الصرف » ، و « الحواصيل » ، و « تفصيل الايمان » ، و « شرح اللطائف » مع الحاشية فى علم التصوف . ونقل كتاب العلامة صالح ليوجي فى علم الطبيعة من الصينية الى العربية مع الحواشي .

وعقد الشيخ « بانغ جون مين آخوند » موازنة بين الاسلام والنصرانية والكونفوشيوسية والبوذية فى كتابه « الأديان الأربعة » ، وترجم كتاب « عقائد النسفي » الى اللغة الصينية ، و « القاموس العصرى » لالياس أنطون الياس (عربى انجليزي) الى اللغة الصينية .

وألف الشيخ الحاج عبد الرحيم ماسوتين كتاب « الاسلام والحياة » . أما الأستاذ عثمان عفيف

الدين ماشوى فقد نقل « رسالة التوحيد » للشيخ الامام محمد عبده الى اللغة الصينية .

وهكذا قام العلماء الصينيون المسلمون بتأليف الكتب الدينية باللغة العربية تارة وترجمة الكتب العربية الى الصينية تارة ... كما استعانوا بكثير من الكتب الفارسية فى تآليفهم .

وقد قام العلماء المسلمون الصينيون بترجمة بعض مؤلفات العرب المحدثين الى اللغة الصينية . فترجم الأستاذ عبد الله ماجى كتاب « الصين وفنون الاسلام » ، ومقالات الدكتور عبد الوهاب عزام بعنوان « أخلاق القرآن » ، ومقالات الأستاذ عبد الرازق حميدة بعنوان « الطابور الخامس فى القرآن » . وترجم الأستاذ ابراهيم هونغ جين تسونغ كتاب « الاسلام » للمرحوم فتحى زغلول ، وكتاب « الخلفاء الراشدون » للشيخ عبد الوهاب النجار ، وكتاب « الميراث فى الشريعة الاسلامية » للأستاذ عبد المتعال الصعيدى .

ونقل الأستاذ محمد تواضع بالغ كتاب « تاريخ التشريع الاسلامى » للأستاذ محمد الحضرى ، وكتاب « مناهل العرفان » للأستاذ عبد العظيم الزرقانى ، وكتاب « رسالة الكلام والمتكلمين » للدكتور محمد غلاب .

ومما يذكر أن الاسلام توغل فى شمال الصين وشمالها الشرقى ، حتى ان عدد المسلمين فى مدينة « بيكين » يبلغ مائة وسبعين ألفا من مجموع سكانها البالغ مليونا وسبعمائة وخمسين ألفا . وفيها ٤٧ مسجدا فى شتى أنحاء المقاطعة ، ومنها المساجد الأربعة الملكية التى بنيت بأمر الأباطرة ، وهى : مسجد نيوكين فى الجنوب ، ومسجد فامينغ فى الشمال ، ومسجد بومينغ فى الغرب ، ومسجد تونغ سى باى لو فى الشرق الذى ألحقت به مدرسة « جندا » للمعلمين .

وفى مقاطعة « هونان » قرية تسمى « سانغ بو » ويسكنها حوالى عشرة آلاف نسمة كلهم مسلمون ، ولهم سبعة مساجد للرجال ، وأربعة مساجد للنساء . وفى كل مسجد مدرسة دينية عالية .

أما مقاطعة « شان تونغ » فعدد سكانها حوالى ٤٠٠ ألف نسمة ، بينهم ١٢ ألف نسمة من المسلمين . وفى مقاطعة « شانى » مئات الأسر المسلمة ، وبها « جمعية التبليغ الاسلامية » ويرأسها عبد الحميد ماتشونج تو .

وكذلك يوجد عدد كبير من المسلمين فى مقاطعات هو بوى وسو يوان وشاهار وجيهول . ويبلغ عدد المسلمين فى منشوريا حوالى نصف مليون مسلم . ومن أشهر العلماء هناك الشيخ أبو بكر جانغ .

أما منغوليا فهى بلاد وثنية ، ومع ذلك يوجد عدد من المسلمين فى عاصمتها « كولون » ولهم مسجد يصلون فيه ، ويجتمعون لدراسة هدى الله عز وجل .

أما فى جنوب الصين الشرقى فيبلغ عدد المسلمين فى مدينة « شنغهاى » وحدها مائة ألف نسمة من مجموع سكانها البالغ نحو خمسة ملايين نسمة . ومن أشهر الجمعيات الاسلامية هناك « جمعية ادارة شئون المسلمين » ، وتشرف على المساجد ، وتحصى أحوال المسلمين لتقدم لهم يد المعونة ، و « جمعية الفضائل الاسلامية » التى تعقد أسبوعيا سلسلة من المحاضرات الاسلامية ، يؤمها عدد غفير من المسلمين من شتى بقاع الصين ، و « جمعية النساء الاسلامية » التى تصدر مجلة « المسلمات » ، وأنشأ الشيخ الحاج مى جيون مكتبة اسلامية فى

هذه المنطقة تباع فيها الكتب العربية والاسلامية والفارسية والصينية .

أما مدينة « نانكين » فتضم ٣٠٫٧٠٧ من المسلمين ، ولهم ستة وثلاثون مسجدا ، وتسع مدارس ابتدائية .

وتنقسم مقاطعة « كيانغ سو » التى تضم مدينة نانكين وغيرها من المدن الكبرى ، الى ٦١ اقليما تزخر بالمسلمين .

أما مدينة « يانغ شوى » فقد انتشرت فيها شعائر الاسلام منذ عهد أسرة سونج (٩٦٠ — ١٢٧٨ م) . وفى مدينة « جانغ شو » فى مقاطعة « شاى كيانغ » ، مسجد قديم يعرف باسم « مسجد العنقاء » .

أما مقاطعات أنهوى وخونان وخوبوى وكيانغ سى وكانغ تونغ وفوكيان ، فحافلة بالمساجد والأسر المسلمة . ويبلغ عدد المسلمين فى مقاطعة « خونان » وحدها ٦٠٫٢٠٤ ، وعدد المساجد ٧١ مسجدا ، كما يبلغ عدد المسلمين فى مقاطعة خوبوى ١١٫٢٥٦ مسلما ، ويبلغ عدد المساجد ٣٥ مسجدا . أما مقاطعة كيانغ سى فيبلغ عدد المسلمين فيها ١١٫٤٢٠ مسلما ، وعدد المساجد ٧ مساجد ، ويبلغ عدد المسلمين فى مقاطعة فوكيان ٢٨٫٠٠٥ ، وعدد المساجد ٧ مساجد .

وتوجد فى مقاطعة « يونان » ، فى جنوب الصين الغربى ، مكتبة كبرى تضم مجموعة كبيرة من الكتب العربية والاسلامية . ويطلق على هذه المكتبة اسم « جين سيو » ، أى نهضة العلم . واشتهر من مسلمى مقاطعة « يونان » الجنرال أحمد ماتسونغ ، الذى رأس « جمعية الدفاع الاسلامية » التى تكونت حين قامت الحرب الصينية اليابانية لتدفع خطر العدوان اليابانى .

وعدد المسلمين فى مقاطعة « زيتشوان » قليل . غير أنه توجد جماعة الطلاب المسلمين فى جامعة « فونان » ، ولهم مطعم خاص ، وجريدة خاصة لنشر التعاليم الاسلامية اسمها « لين تساو » . ويبلغ عدد المسلمين فى مقاطعة زيتشوان ٢٤٫٧٦٠ نسمة ، وعدد المساجد ١١٨ مسجدا . أما مقاطعة « كوانغ سى » فيبلغ عدد المسلمين فيها ٩٫٣٨٥ نسمة ، وعدد المساجد ٢٢ مسجدا .

ويبلغ عدد المسلمين فى مقاطعة « كوى شو » ٢٠٫١٢٩ نسمة ، وعدد المساجد ٤٤ مسجدا . ولا يوجد فى العاصمة « كوى يانغ » غير مسجد واحد . وفى مقاطعة « سى كانغ » حوالى عشرة آلاف مسلم ، ولهم خمسة مساجد . وأنشئت بها الجمعية الفرعية لجمعية الدفاع الاسلامية عام ١٩٤٠ .

أما التبت ففيها عدد غير قليل من المسلمين . وفى عاصمتها « لاسا » مسجدان . ويوجد المسلمون كذلك فى غرب التبت ، بيد أن عددهم غير معروف .

والجدير بالذكر أن المسلمين فى الصين يتمتعون دائما — فيما عدا أوقات الثورات والانقلابات — بالحقوق والامتيازات التى ينعم بها سائر أفراد الشعب ، فلا تغلق فى وجوههم وظيفة من وظائف الدولة ، فهم يشغلون كثيرا من المناصب فى الوزارة والقضاء والجيش ، وغير ذلك من وظائف الدولة .

والغريب أن معظم الصينيين المسلمين يستطيعون تحديد الفترة التى اعتنق فيها آباؤهم أو أجدادهم الاسلام ، ويعتزون بها اعتزاز بالغا ، ولا يألون جهدا فى سبيل نشر الاسلام . وفى بعض الأحيان يكونون ضحايا للاضطهاد الدينى من البوذيين أو الكونفوشيوسيين أو الشيوعيين ، أو غيرهم من أصحاب المبادىء والمذاهب التى تتعارض مع الاسلام .

الاسلام فى اليابان

دخل الاسلام اليابان ، كما دخل الصين ، من طريق التجارة والتبشير . ولا يوجد فى اليابان الا عدد ضئيل من المسلمين ، هاجر بعضهم اليها من جزر المحيط الهادى أو الهندى .

وقيل ان أحد الأمراء اليابانيين زار السلطان عبد الحميد فى الآستانة ، وأخذ يتجاذب معه الحديث ، وتطرق بهما الحديث الى الأديان ، فقال له السلطان : « بلغنى أنكم تبحثون عن دين ، فان كان الخبر صحيحا فأنا أوصيكم بالاسلام » . فقال له الأمير اليابانى : « ليس الخبر كما بلغ سيادتكم ، بل نحن متمسكون بديننا » .

ومع ذلك فقد شرعت الحكومة العثمانية فى التقرب الى اليابانيين ، وظهرت الصحف وأعمدتها تزخر بوجوب نشر الدعوة الاسلامية فى اليابان . واختير المبشرون للقيام بهذا المشروع الاسلامى الكبير ، وأرسل السلطان وفدا على ظهر بارجة حربية ، ومضى الناس يتناقلون أخبار هذا العمل الجليل ، ويؤيدونه أشد التأييد . وقالت صحيفة مصرية عام ١٩٠٦ : « ان بريطانيا العظمى — وفى حكمها ستون مليونا من المسلمين — لتخشى كل الخشية أمر اسلام اليابان ... الأمر العظيم الذى لو حدث لتغير على الأثر مجرى السياسة الاسلامية العامة تغيرا كليا هائلا » . وقال شيخ من شيوخ مسلمى الصين : « إذا شاءت اليابان أن تدرك منزلة لم تدرك مثلها دولة فيما مضى ، وأرادت أن ترفع آسيا على شأن سائر القارات ، فلا يتم لها ذلك ألبتة الا باتخاذها الإسلام دينا » .

وقد استقبلت اليابان وفد المسلمين استقبالا حسنا ، وأحلته محل الرعاية والاكرام . ولم يستطع هذا الوفد أن يحقق رسالته التى أتى من أجلها ... غير أنه بشر تبشيرا طيبا بالدين الاسلامى هناك ، مما كان له أبعد الأثر فى نفوس يمكن أن تعتنق الاسلام بشىء من الاقناع والاستمالة ، وشىء من الصبر والاصرار .

ولا يزال الدين الاسلامى فى هذه البقاع فى حاجة الى من يدعو له ، وينافح عنه ليخرج الناس من الظلمات الى النور .

وفى مدينة كوبى مسجد تأسس عام ١٩٣٥ من ثلاثة طوابق ، يستخدم الطابق الأرضى منها مخبأ من الغارات الجوية ، وتقام فيه الصلوات الخمس ، كما تقام فيه صلاة التراويح فى شهر رمضان المبارك . وفى طوكيو مسجد آخر أسس عام ١٩٣٧ بفضل الامام التركى الشيخ محمد عبد الحى القوربنالى ، وتشرف عليه الجمعية الاسلامية فى طوكيو ، وملحقة بالمسجد مدرسة فيها عدد يربى على العشرين من الطلاب .

وقد ترجم القرآن الى اللغة اليابانية منذ سنوات ، ويحرص ما يقرب من ألف مسلم متناثرين فى أرجاء الجزر اليابانية ، على تلاوته والاستفادة من مواعظه وعبره .

الاسلام فى جزائر الفيلبين

تقع جزائر الفيلبين بين المحيط الهادى شرقا وبحر الصين الجنوبى غربا وبحر سليس جنوبا . وهى أرخبيل يشمل مجموعة كبيرة من الجزر يبلغ عددها ٧٢٠٠ جزيرة ، أشهرها جزيرة لوبيون وجزر بابوان وجزر كالاميان . وهى جزائر جبلية بركانية كثيرة الزلازل ، وعدد سكانها ٧ ملايين ، وبها عدد وفير من المسلمين ، كما يوجد بها كاثوليك ووثنيون . وسميت الفيلبين نسبة الى

فيليب الثانى ملك أسبانيا الذى بلغها الاسبان فى عهده عام ١٥٦٨ .

وبعض المسلمين لا يلم الماما سليما بالاسلام . وقد ذهب المرحوم وجيه افندى الكيلانى النابلسى الى الفيليبين لتفقيه المسلمين هنـاك فى أمور دينهم ، غير أنه مرض فرجع الى بلاده ، وقطعت عنه الدولة العثمانية راتبه الشهرى ، وأبت أن ترسله مرة ثانية . ولكنه تحمس وسافر على نفقته الخاصة الى هذه الجزر ، وقام بتعليم المسلمين هناك أمور دينهم ، وكان كشيخ اسلام فى الفلبين . وقد أوفدت الجمهورية العربية المتحدة بعض مبعوثيها الى هذه البلاد لتعليم العربية وتعاليم الدين الاسلامى . غير أن المسلمين هنـاك لايزالون فى حاجة الى مزيد من العناية والاهتمام .

ويبلغ عدد المسلمين هناك نحو ٣٨٠ر٠٠٠ ، وهم موزعون كالآتى :

١٠٧ر٢٠٥ فى كوتاباتو
٦ر٥٠٠ فى دافو
٧٥ر٩٦٠ فى لانوا
١٤٤ر٠٠٠ فى سولو
٤٥ر٠٠٠ فى زامبوانجا

وعلاوة على ذلك يوجد نحو أربعمائة فى جزيرة « ينجروس » وجزيرة بوهول ، وخمسة آلاف فى بالاوان وبالابك ، وأربعمائة فى بوكيدنون ، ومائة فى كاجايات . وقد شيد أول مسجد فى البلاد فى « توبجندنان » فى القرن السادس عشر .

وقد ذكر المسيو شاتليه فى بحث له فى مجلة العالم الاسلامى بعنوان « السياسة الاسلامية » أن هناك جاليـات من المسـلمين مبعثرة فى جزر المحيط الهادى ، ولكنها كلما تباعدت قل عددها . بيد أنها على أى حال أكثر فى هـذه الأصـقاع البعيدة من الجاليات الأوربية ، وهى تبث الاسلام هناك بالتجارة والأخذ والعطاء .

الاسلام فى الاتحاد السوفييتى

يقف الاسلام فى الاتحاد السوفيتى بين تيـارين متضادين من المؤرخين : تيـار يتـأثر بالمذهب الشيوعى ، فيشيد بحرية المسـلمين فى الاتحـاد السوفيتى ، وتيار يهاجم سياسة الاتحاد السوفيتى ازاء المسـلمين والذى لا شـك فيه أن الدين الاسلامى لاقى كثيرا من المحن فى عهود مختلفة من جانب السوفيت ، ولعل الاتحـاد السوفيتى غير سياسته تجاه الدين الاسـلامى فى هـذه الآونة لكسب الشعوب الشرقية فى مضمار السياسـة الدولية .

ويظهـر أن الاتحـاد السـوفيتى غير اتجاهه ازاء الاسلام والمسلمين منذ نهاية الحرب العـالمية الأخيرة ، اذ ساهم فيها عـدد كبير من المسـلمين الروس من شتى المقاطعات الاسلامية والأوربية ، فـرأت الحكومة الشـيوعية أن تترك لهم أمور العبادات ، وأداء فرائضهم الدينية ، فسـمح لهم بمزاولة بعض نشاطهم القديم ، وترخصوا فى اقامة الاجتماعات الدينية مالم تكن متعارضة مع النظام الشيوعى .

وتدار الجمعيات الدينية الاسلامية بوساطة أربعة مراكز دينية ، هى :

١ — المجلس الدينى الاسلامى للقسم الأوربى من اتحـاد الجمهـوريات الاشتراكية السوفيتية ولسبيريا ، وهو يدير الشئون الدينيـة للمسلمين الذين يعيشون فى القسم الأوربى من الاتحـاد السوفيتى — باستثناء القوقاز الشمالى وداغستان — وفى سيبيريا . ومقر المجلس الدينى مدينة « أوفا » ، ورئيسه المفتى شاكر خيال الدينوف .

٢ — المجلس الدينى الاسلامى لآسيا الوسطى

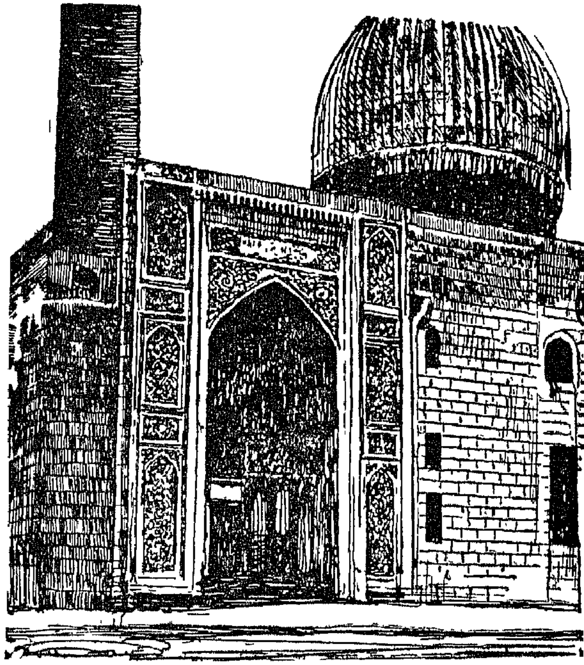
وكازاخستان . وهو يدير الشئون الدينية للمسلمين الذين يعيشون فى أوزبكستان ، وقرغيزيا ، وتاجيسكتان ، وتركمانستان وكازاخستان . ومقره مدينة « طشقند » .

٣ — المجلس الدينى الاسلامى لما وراء القوقاز ، ومقره مدينة « باكو » ، ويدير الشئون الدينية للمسلمين من الشيعة والسنيين الذين يعيشون فى أذربيجان وجورجيا وأرمينيا .

وقد استطاع مسلمو « ماوراء القوقاز » السوفيتية أن ينظموا مجلسا دينيا واحدا للشيعة والسنيين معا .

وتسوى المجالس الدينية المسائل الدينية البحتة المتعلقة بالعقيدة والعبادة ، والتى تظهر فى تفسيرها صعوبات أو خلافات فى الرأى . وقرارات المجالس الدينية فى مسائل الشريعة يطلع عليها المسلمون حاملة توقيع المفتى أو توقيع شيخ الاسلام . وللمفتى أو شيخ الاسلام أن يصدر الفتاوى فى هذه المسألة أو تلك من مسائل الشريعة .

وهناك مسائل أخرى تعالجها المجالس الدينية : كتعيين الخطباء والأئمة لطوائف المسلمين ، والتصديق على انتخاب الأئمة بوساطة المسلمين ، وتعيينهم بعد أن تمتحن معارفهم امتحانا وافيا ، والوسائل المتعلقة بتعيين أو فصل أو نقل القائمين بخدمات العبادة الدينية ، وتوزيع الوثائق اللازمة عليهم ، وكذلك الرقابة العامة على نشاط الطوائف الاسلامية فى الجمهوريات والأقاليم والمناطق ، واختيار مناهج التعليم للمدارس الدينية (سمحت لها الحكومة السوفيتية أخيرا بمزاولة نشاطها) ، ودراسات لتدريب القائمين بخدمات العبادة الدينية ، والرقابة على تدريبهم فى هذه المدارس ، ونشر المؤلفات الدينية ، والتصرف فى مسائل انشاء



مسجد لينينجراد بالاتحاد السوفيتى

مساجد جديدة ، وادارة المسائل المالية والادارية الخاصة بالمجالس الدينية والرقابة عليها محليا ، وتنظيم بعثات الحج الى مكة ، والاتصال بالهيئات الدينية الأجنبية للمسلمين ، ومسائل أخرى تتعلق بالعقيدة والادارة التنظيمية .

والمألوف فيما يختص بالدراسة الدينية أن يلقن رب العائلة أبناءه مبادىء الدين الرئيسية وفروضه وفقا لمقدرته واطلاعه . وبعد هذا الاعداد الأولى يأتى الآباء — اذا أرادوا — بمدرس خصوصى ليتابع تعليم الأبناء الدين .

ولبعض العلماء فى آسيا الوسطى وداغستان مثلا عدد من التلاميذ الخصوصيين . وكثيرا مايكتشفون الطلبة القادرين ، ويوصون المجالس الدينية بالحاقهم بمدارس الدين . ومثال ذلك مدرسة « مسيرعرب » فى بخارى التى تعمل تحت اشراف المجلس الدينى الاسلامى لآسيا الوسطى وكازاخستان . ومدة الدراسة فى هذه المدرسة تسع سنوات ... يتلقى الطالب فى السنوات

الخمس الأولى تعليما متوسطا ، وفى السنوات الأربع الأخيرة بتلقى تعليما عاليا .

والمدرسة داخلية ، ويعيش فيها الطلاب على نفقة المجلس الدينى الذى أرسلهم اليها ، ويزورون منازلهم عادة خلال العطلة الصيفية . وعند تخرجهم فى المدرسة يعينهم المجلس الدينى أئمة وخطباء لطوائف المسلمين ، وشيوخا للمزارات بحسب أعمارهم ومواهبهم ، وقد يعين بعضهم مدرسا فى المدرسة نفسها .

وتعمل مدرسة « بركة خان » فى طشقند بالطريقة ذاتها ، وهى أيضا من أبرز مدارس الاسلام فى آسيا الوسطى .

وتصدر المجالس الدينية بانتظام النتائج الهجرية وطبعات جديدة من القرآن الكريم ، وكتب الفقهاء ، كما تصدر الفتاوى الشرعية ، ومختلف المبادىء والتفسيرات ، متناولة مختلف المسائل الدينية لخدمة الدين . وفى عام ١٩٤٥ صدر كتاب « الاسلام دينى » باللغة التترية ، بقلم المفتى السابق عبد الرحمن وسوليف ، رئيس المجلس الدينى الاسلامى للقسم الأوربى من الاتحاد السوفيتى ولسيبيريا ، ويشرح الكتاب بالتفصيل جميع الواجبات المتعلقة بالصلاة شرحا وافيا .

وفى أوائل عام ١٩٥٦ أصدر المجلس الدينى الاسلامى لآسيا الوسطى وكازاخستان فى طشقند طبعة جديدة من القرآن الكريم باللغة العربية . وفى خريف عام ١٩٥٦ أصدر المجلس الدينى الاسلامى للقسم الأوربى من الاتحاد السوفيتى ولسيبيريا طبعة جديدة من القرآن الكريم . كما ألف المفتى شاكر خيال الدينوف ، رئيس هذا المجلس ، كتابا جديدا صدر حديثا بعنوان « الاسلام والعبادات » .

وفى روسيا كثير من الآثار الاسلامية ، وعدد غفير من المساجد فى روسيا الأوربية ، ومن أشهر هذه المساجد مسجد « لينينجراد » الذى يؤمه المسلمون هناك لأداء فريضة الصلاة كل يوم ، ويجتمعون فيه أيام الجمع والأعياد الرسمية . ويشرف عليه المجلس الدينى الاسلامى للقسم الأوربى من الاتحاد السوفيتى ولسيبيريا وتجمع صلوات عيد الفطر أو عيد الأضحى فى جامع « موسكو » عادة ٨٫٠٠٠ مسلم ، أما جامع تل الشيخ — وهو أحد مساجد طشقند الستة عشر الكبيرة — فيتراوح عدد المصلين فيه بين ١٠٫٠٠٠ ، ١٢٫٠٠٠ مسلم ومسلمة ، اذ يسمح للسيدات بحضور الصلاة على أن يكن بمعزل عن الرجال

وفى طشقند وحدها ١٦ جامعا كبيرا ، واذا أضيفت اليها الخلوات والمصليات أربت على المائة ... منها مساجد قديمة ، كمساجد تل الشيخ ، ومساجد حديثة نسبيا ، كمساجد الرقيات ومرزا يوسف وكريل تاوش واركان كوتشا وغيرها .

وبالقرب من مدينة « مرفا » القديمة (مارى الآن) فى تركمانستان لا يزال المسجد الذى بنى عام ٨٦٩ قائما حتى الآن ويدعوه الناس بالجامع الحمدانى ، نسبة الى الزعيم المسلم الكبير الحاج يوسف الحمدانى ، ويؤمه فى الأعياد آلاف من المسلمين فى جميع أنحاء تركمانستان . وبالقرب من مدينة مارى يقوم صرح من أقدم الصروح المعمارية فى آسيا الوسطى ، وهو ضريح السلطان « سنجق » الذى كان من أتباع الحاج الحمدانى . وقد بنى الضريح فى القرن الثانى عشر ، وما زال محتفظا بروعته حتى الآن .

وفى أوزبكستان مسجد « بيبى هانم » زوجة تيمورلنك الأولى ، وقد ظل محتفظا بروعته طيلة خمسة قرون كاملة . وفى نهاية القرن الماضى عانى كثيرا بسبب الزلازل وقد تم بناء المسجد عام ١٤٠٤ بعد خمسة أعوام من البدء فى بنائه . ويقول

مؤرخ « تيمورلنك » على يزدى ، الشهير بشرف الدين ، فى كتـابه « ظفـر نامة » ، أى كتاب « الانتصارات » : « ان قبته فريدة فى نوعها ، وقوسه نسيج وحده ، ومنارته ترتفع فى السماء كى تقول . هذه أعمالنا تشير الينا ، فيصل قولها أركان العالم الأربعة » .

ومن مبانى سمرقند التاريخية ضريح « جور » أمير مكانة كبرى وقد شيد بأمر تيمورلنك بين عامى ١٤٠٤—١٤٠٥ م فوق قبر أحب أبنائه وولى عهده السلطان محمد ، المتوفى عام ١٤٠٣ م . وفى داخل الضريح مجموعة من الخطوط الرائعة على القبور وأصبح ضريح تيمورلنك ضريحا لأسرته بعد وفاته ، ودفن فيه اثنان من أبنائه أيضا ، هما شاروخ وميران شاه كما دفن فيه أحد ملوك أسرة تيمورلنك « أولغ بك جراجانى » .

وفى مدينة « بخارى » جامع « كليان الكبير » . ويرجع تاريخ بنائه الى عام ١٥٤١ م ، ويقع بجوار مدرسة « مسير عرب » التى يرجع تاريخ انشائها الى عام ١٥٣٦ ، ويجاور الجامع والمدرسة مئذنة طويلة أقيمت نحو عام ١١٢٧ م ، أى قبل انشاء الجامع والمدرسة

وتؤلف هـذه المبانى الثلاثة البـارعة — وهى المدرسة والمئذنة والجامع — مجموعة معمارية رائعة فى قلب بخارى القديمة .

ومن أشهر الأضرحة التى يؤمها مسلمو آسيا الوسطى ضريح الامام « أبو بكر كفال شاشى » ، ويدعونه بالامام لشهرته فى آسيا الوسطى كلها ، وضريح مولانا عطا فى خيوة ، وقبر سلطان بابا فى كاراكالباكيا ، وجامع تازة بير الكبير فى باكو .

وتنتمى الأغلبية الساحقة من المسلمين فى الاتحاد السوفيتى للطائفة السنية . أما الشيعة فهم قليلون نسبيا ، ومنهم المسلمون فى أذربيجان ، وعدد ضئيل منهم يعيش فى داغستان وتركمانستان وأوزبكستان وفى تاجيكستان يوجد اسماعيليون كما يوجـد سنيون .

ويبلغ عدد المسلمين جميعا فى الاتحاد السوفيتى نحو ٣٦ مليون مسلم .

ويقول « فنسنت مونتيل » : « ان عدد المسلمين يبلغ نحو ٢١ مليونا : منهم ١١ مليونا فى آسـيا الوسـطى ، ٤ر٥ ملايين فى القـوقاز ، ٤ر٥ فى الفولجا ، وما تبقى موزعون فى أنحاء البلاد المختلفة » .

ويبلغ عدد المسلمين فى منغوليا نحو ٢٠ر٠٠٠ . وقد دخل الاسلام اليها منذ العصور الوسطى من طريق القوافل التجـارية التى تتنقل بين الصـين ومنغوليا .

أما مسلمو القرم فمن أصل تترى مغولى ، وهم رعاة رحل ، ويتبعون فى الغالب المذهب الحنفى . وفى ليتوانيا ما يقرب من ألفى مسلم .

والجمهوريات الاسلامية فى الاتحاد السوفيتى ، هى تازاكسـتان ، وأزبكستان ، وأذربيجان ، والقرغيز ، وكازاخستان ، وتركمانستان . ويوجد نفر ضئيل من المسـلمين فى الجمهوريات غير الاسلامية ، وهى : روسيا ، وأكرانيا ، وبيلوروسيا (روسيا البيضاء) وجورجيا ، وأرمينيا ، ولتوانيا ، ولتونيا ، وكرليا ، ومولدافيا .

ويبلغ عدد المسلمين فى تازاكستان نحو مليون وخمسمائة ألف مسلم ومسلمة ، وهم ينتمون الى أصـل ايرانى ، وزعيمهم الروحى هو القاضى عبد الرشيد موزابكوف .

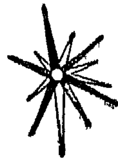
أما أزبكستان فتبلغ نسبة المسلمين فيها ٩٣٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٦ر٢٨٢ر٤٤٦ نسـمة . ونسبتهم فى « أذربيجان » ٨٠ ٪ من

مجموع عدد السكان البالغ ٣٠٩٫٧٣٠ر٣ نسمة .
وفى تركستان ٨٠ ٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٩٨٥ر٢٣٥ر١ ، وهم سنيون أحناف ، وزعيمهم الروحى هو الامام الخطيب عبد الرحمن شارينوف .

وفى « القرغيز » تبلغ نسبة المسلمين ٧٨ ٪ من مجموع السكان ، وهم على مذهب أهل السنة .

ونسبتهم فى تازاكستان ٥٠ ٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٣٧٩ر١٤٥ر٦ .

ويحرص كثيرون من المسلمين على أداء فريضة الحج ، وزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة ، والأماكن المقدسة . وفى مكة يلتقون بالمسلمين من جميع أنحاء العالم فى جو تسوده المحبة ، وترفرف عليه ألوية السلام .



الإســـلام فى إفريقيـــة

الاسلام فى الجمهورية العربية المتحدة
الاقـــليم الجنوبى

كانت مصر قبـل قدوم العـرب اليها احدى الولايات الواقعـة تحت حكم الرومان . وكانت — كغيرها من الولايات — تدين بالوثنية ، الى أن ولد المسيح عليه السـلام فى عهـد الامبراطور أغسطس قيصر ، مؤسس الامبراطورية الرومانية ، على أثر انتصاره على جيوش أنطونيوس وكليوباترا سنة ٣١ قبل الميلاد . ومنذ تلك الفترة انتشر الدين المسيحى ، وطغى على الوثنيـة الى أن جعـل الامبراطور تيودوسيس المسيحيـة الدين الرسمى للدولة عام ٣٨١ م .

ومنذ أن اسـتولى الرومان على مصر عام ٣٠ قبل الميلاد جعل أغسطس قيصر هذه البلاد ضيعة من ضياع الرومان ، يستنزفون خيراتها ، ويسلبون ثرواتها ، ويفرضون الضرائب على أهلها بلا رحمة ولا هوادة ، ويسلبون الأهالى أموالهم وأثاث بيوتهم وممتلكاتهم دون رادع من عقل ولا وازع من ضمير .

وكان المصريون ملزمين بإيواء من يمر بهـم من الموظفين الملكيين أو العسكريين من الرومانيين ، وكانوا مجبرين على توفير أسباب الراحة لهم فى حلهم وترحالهم ... بل كانوا مضطرين الى فتـح بيوتهم لهم فى أى ساعة من ساعات الليل أو النهار . ولذلك تطلع المصريون بصبر نافد وشوق شديد الى التخلص من نير هذا الاستبداد ، والتحرر من ربقة هذا الاستبعاد . وقد كتب الله لهم ذلك على يد عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين .

عند ما وصل عمر بن الخطاب الى الجابية عام ١٨ للهجرة (٦٣٩ م) طلب منه عمرو بن العاص أن يأذن له فى المسير الى مصر ، وقال له : « انها أكثر الأرض أموالا ، وأهلها أعجز الناس عن الدفاع عن أنفسهم » (يقصد الرومانيين الذين سيطروا على أزمة الحكم فى البلاد) . وأضاف قائلا : « انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم » .

وقد تردد الخليفة فى بداية الأمر لاشفاقه من فشل التجربة من جهة ، ولأن كتائب المسلمين كانت متفرقة فى الشام والجزيرة وفارس من جهة أخرى ... زد على ذلك أن عمر كان لا يطمع فى الفتح . ولكن عمرو بن العاص أقنعه بأن هذا الفتح سيكون فتحا للمسلمين ، وخلاصا لمصر من المستعمرين . كما أن بقاء مصر فى يد الروم سوف يعرض العرب فى بلاد الشـام للخطر ، فيكونون شوكة تقض مضاجع المسلمين ، ولا تسلمهم الى الطمأنينة أو الهدوء .

فأذن عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص . وجهز عمرو جيشا قوامه ٤٠٠٠ مقاتل . وقبل أن يتحرك عمرو بن العـاص بهذا الجيش اللجب ، قال له الفاروق عمر : « انى مرسل اليك كتابا ، فان أدركك وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها ، فانصرف ... وان دخلتها قبل أن يأتيك كتابى ، فامض لوجهك ، واستعن بالله واستنصره » .

ويقال ان كتاب عمر وصل الى عمرو وهو برفح ، فلم يتسلمه من الرسول ... حتى كان قرب العريش ، أخذ الكتاب وقرأه على أصحابه ، فاذا عمر يأمره فيه بالانصراف ان لم يكن دخل أرض مصر . فأمر عمرو بن العاص الجيش بالسير على بركة الله .

وقد وصل عمرو الى العريش عام ١٨ للهجرة ، وفتحها من غير مقاومة تذكر ، واستمر فى زحفه حتى وصل مدينة الفرما ، وكانت أول مدينة مصرية يصل اليها ، لأن العريش كانت تقع فى قسم الحدود وقتذاك . وقد اضطر المسلمون الى حصار الفرما شهرا ونصف شهر ، حتى تم فتحها فى أول شهر المحرم عام ١٩ للهجرة (منتصف يناير عام ٦٤٠ م) . وقد ساعد القبط المسلمين فى حصار الفرما ضد الرومان .

واستأنف عمرو زحفه حتى استولى على بلبيس ، ومنها الى أم دنينة حيث نشب قتال مرير بين المسلمين والرومانيين الذين تحصنوا فى حصن بابليون . ولما استمر القتال بين الفريقين عدة أسابيع ، طلب عمرو من عمر بن الخطاب أن يمده بمدد ، فأمده عمر بأربعة آلاف على رأسهم أربعة من مشهورى الصحابة هم : الزبير بن العوام ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، والمقداد بن الأسود . وكتب الخليفة لعمرو « قد أمددتك بأربعة آلاف فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل » .

واستطاع عمرو بن العاص بمساعدة المدد القادم أن يحاصر حصن بابليون سبعة أشهر كاملة حتى نفدت معدات الحرب عند العرب . ولكن المقوقس طلب أخيرا الصلح ، وقال لعمرو فى كتاب أرسله اليه : « قد جئتم أرضنا ، وطال مقامكم فيها ، وأنتم عصبة يسيرة ، وأخشى أن تغشاكم الروم فتندموا . فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتى الأمر بيننا على ما نحب وتحبون » .

وقد حملت رسل المقوقس هذا الكتاب الى عمرو ابن العاص ، بيد أنه قال لهم ، بعد أن أبقاهم يومين : « ليس بيننا وبينكم الا احدى خصال ثلاث : اما دخلتم فى الاسلام فكنتم اخواننا ، وكان لكم ما لنا وعليكم ما علينا . وان أبيتم فالجزية ... واما القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين » .

ولما رجعت بعثة المقوقس اليه زادت لهفته لمعرفة أحوال المسلمين فسألهم عنها ، فقالوا : « رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة ، والتواضع اليهم من الرفعة . ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ... جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد منهم . ما يعرف كبيرهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد . واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد ، يغسلون أطرافهم فى الماء ، ويخشعون فى صلاتهم » .

وقد دارت المفاوضة بين الفريقين لعقد الصلح . فأراد المقوقس أن يتخلص من هذه الشروط الثلاثة ، ولكن عبادة بن الصامت رفع يديه وقال . « لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شىء ، ما لكم عندنا خصلة غيرها ، فاختاروا لأنفسكم » . فقال المقوقس لقومه : « أطيعونى وأجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث ، فوالله ما لكم بهم من طاقة . وان لم تجيبوا اليهم طائعين ، لتجيبنهم الى ما هو أعظم من ذلك كرها » .

وقد عرض المقوقس الأمر على هرقل ملك الروم ، فأنبه على هذا الصلح ، وحقر له شأن المسلمين حتى خرقت الهدنة القائمة بين الطرفين . فاضطر عمرو ابن العاص الى الزحف الى الاسكندرية ، فاستولى على الحصون التى تقع على الفسطاط والاسكندرية وكان على رأس المقدمة عبد الله بن عمرو بن العاص ،

وكان حامل اللواء وردان مولى عمــرو . وكانت حامية الاسكندرية يربى عددها على خمسين ألف جندى ، والعرب نحو اثنى عشر ألفا . وأخيرا دانت للعرب حصون الاسكندرية ، واستطاع عبادة بن الصامت أن يقتحم أسوارها .

ولم يلبث المقوقس نفسه أن أبرم الصــلح مع العرب ، وتقرر فيه المهادنة أحد عشر شهرا ، واحتفاظ العرب بمراكزهم مدة الهــدنة ، وألا يباشروا أعمالا حربية ضد الاسكندرية . كما فرض على الجنــود الرومانية أن يكفوا عن الأعمــال العدوانية . وتقــرر أن يدفع كل من فرض عليه الجزية دينارين فى كل سنة ، وألا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء ، وألا يتدخلوا فى أمور المسيحيين ، وأن يبقى اليهود بالاسكندرية ، وألا يعــود أو يحاول استرداد مصر جيش رومانى ... كما ترحل الحامية التى بالاسكندرية مع ما يملك أصحابها من أموال وأمتعة ، وأن يدفعوا الجزية عن شهر عند رحلتهم ، وأن يكون لدى المسلمين من الروم ١٥٠ جنديا و ٥٠ ملكيا بمثابة رهينة لتنفيذ المعاهدة .

وقد أقلق هذا الصلح جانب الروم ، وحاولوا أكثر من مرة الاستيلاء على الاسكندرية ، وشنوا الغــارات تلو الغارات لتحقيق أغراضهم . ولكن عمرو بن العاص وقف لهم بالمرصاد ، وأعمل السيف فى رقابهم ، واسترد الاسكندرية بعد ما استولى عليها الروم . ومنذ ذلك الوقت انتشرت القبائل العربية فى مصر .

وقد اشترك فى هذا الفتح قبــائل مختلفة من قريش والأنصار وخزاعة ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف وقيس ... وقــد ســكنوا الفســطاط . أما همدان فلم يقبلوا أن يسكنوها واختاروا الجيزة لهم مقرا . وحاول عمرو أن يصحبهم الى الفسطاط فلم يستطع حتى انه خاطب الخليفة فى شأنهم .

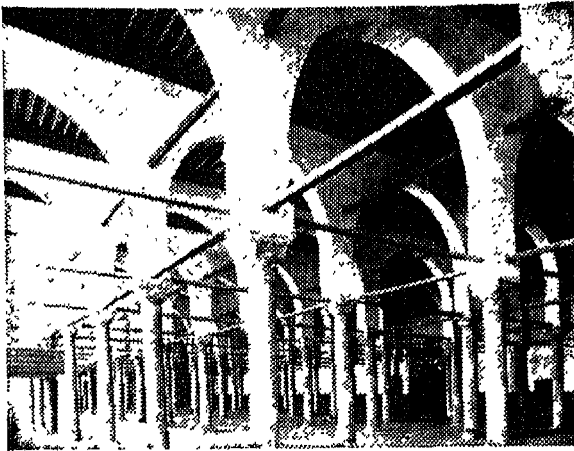
وعلى اثر ذلك انتشرت القبائل العربية فى جميع أنحاء البلاد ، وكان منهم أولاد الكنز وأصلهم من ربيعة ، وكانوا ينزلون اليمامة فقدموا أرض مصر ، زمن خلافة المتوكل ، فى عدد كثير ، وانتشر فريق منهم فى أعالى الصعيد . كما وفدت قبيلة جهينة الى مصر ، وفى ذلك يقول المقريزى فى كتابه البيان والاعراب : « وجهينة أكثر عرب مصر ، وهؤلاء كانوا يسكنون حول أسيوط وما بعدها » .

وفى الفيوم نزل بنو كلاب ، ومن ميت غمر الى زفتى سكن سعود خــزام ، وسكن حول تنيس ودمياط قوم ينتسبون الى نصر بن معاوية ، وهم من هوازن .

وهكذا انتشرت القبــائل العربية فى مصر ، وحملت معها الاسلام فى أرجائها المختلفة حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا . وأصبحت مصر حصنا من حصون الاســلام ، ومعقلا عظيما للذود عن مبادئه . وقد قامت الدول الاسلامية التى تولت حكم مصر على مر العصور ببناء المساجد والجوامع ، وتعمير بيوت الله

اول مسجد فى مصر

وبنى عمرو بن العاص فى عام ٢١ للهجرة (٦٤٢ م) .



صحن جامع عمرو بن العاص اول مسجد انشىء فى الاقليم الجنوبى من الجمهورية العربية المتحدة

أول مسجد فى مصر ، وكان المسجد يوم أنشىء يتكون من فضاء رحب ، تسوره جدران عادية ، وله بابان فى مواجهة دار عمرو ، وبابان فى الناحية البحرية ، وبابان فى الناحية الغربية . وكان سقفه المصنوع من الجريد منخفضا جدا ، واتخذت أعمدته من جذوع النخل ، ولم يكن له صحن يتسع لجلوس المسلمين .

وقد اهتم قرة بن شريك بعد ذلك باصلاح المسجد وعمارته ، كما عنى غيره من ولاة مصر بذلك ، حتى أصبح عميد المساجد العربية فى الاقليم الجنوبى . وبنيت بعد ذلك مساجد فى شتى أنحاء البلاد فى عهد الحكام المسلمين الذين تولوا الحكم فى مختلف العصور ، كالطولونيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين فى العصر الحديث .

ويعد الجامع الأزهر من أهم المساجد فى الاقليم الجنوبى ، لا لقدمه ومكانته التاريخية فحسب ، وانما لأنه أصبح جامعة دينية يؤمها طلاب العلم من شتى الأقطار والأمصار ، ويحضرون اليه من كل فج عميق لاستكمال ثقافتهم الدينية . وقد تخرج فى هذا الجامع ، بل هذه الجامعة ، آلاف من العلماء والفقهاء ، رفعوا لواء الاسلام ، وكانوا رسل الثقافة الاسلامية الى مختلف أرجاء المعمورة . وقد بنى هـذا المسجد فى عهـد المعز لدين الله الفاطمى ، وأجريت به منذ ذلك الحين عمارات كثيرة ، كان أهمها عمارة الأمير عبـد الرحمن كتخدا الذى استبدل بقبلته القديمة قبلة جـديدة ، وزاد فيه كثيرا .

ولم يكن فى الأزهر على عهده الأول امتحانات ، انما كان كل شيخ يجيز تلميذه اجازة تشهد بأن الطالب قد صار عالما فيما درس من فقه أو نحو أو تفسير وما اليها ، وتؤهله بدوره للتدريس . وكان أهم ما يدرس فى الأزهر ، هو علم الكلام وعلم التوحيـد وتفسـير القرآن الكريم والحـديث الشريف . وكان للعلمـاء على المجـاورين سلطان عظيم ، وكان الطلاب يحترمون شيوخهم احتراما فائقا ، ويقبلون أيديهم ، ويحملون نعالهم ، ويؤدون لهم مختلف الخدمات ، ولا ينادون شيوخهم الا بكلمة أستاذ أو كلمة مولانا .

وقد حوت مجموعة محفوظة فى « ليبزج » كثيرا من المعلومات عن الدراسـة فى الأزهر فى القرن الثـانى عشر للهجرة . وكان على رأس الأزهر فى القرون الوسطى ناظر ينتخب من بين كبار موظفى الدولة . وكان لكل رواق شـيخ ، ولكل طريقة نقيب . ولم يكن للأزهر شيخ أكبر الا منذ العهد العثمانى . وجرت العادة أن تتخلل الدراسة عطلات تختلف طولا وقصرا ، وأطولها العطلة التى تبدأ فى شـهر رجب ، وتسـتمر طوال شـهرى شـعبان ورمضان ، وتنتهى بعد عيد الفطر فى أوائل شوال . وبعد ذلك بنحو شهرين تحل عطلة عيد الأضحى ، وتستمر أياما . وتقف الدراسة أيضا فى أيام الموالد ، وخاصة فى المولد النبوى ومولد البدوى فى طنطا . ولم يلبث أن تقلد مشيخة الأزهر علماء أفاضـل عملوا على رفعته ورفع شأنه حتى العصر الحديث .

ومن المساجد التى أنشئت فى مصر : مسجد أحمد ابن طولون ، مسجد قايتباى بحى الأزهر ، مسجد الغورى ، مسجد الامام الحسين ، مسجد السلطان حسن ، مسجد برقوق ، مسجد السلطان المؤيد ، مسجد السيدة زينب ، مسجد السـيدة نفيسة ، مسـجد أبو العلا ، مسـجد المديولى ، مسـجد العباسى ، مسـجد الامام الشـافعى ، مسـجد أبو العباس بالاسكندرية ، مسجد السيد البدوى

بطنطا ، مسـجد الرفاعى بالقلعـة ... وغيرها من المسـاجد التى بنيت فى فترات متفاوتة من تاريخ مصر ، وبقيت الى اليوم تحمل رسالة الاسـلام ، ويتردد بين جنباتها صوت المؤذنين مؤذنا للصلوات الخمس ، وصـوت القارئين مرتـلا آى الذكر الحكيم ... تنزيل من الله العزيز العليم .

الاسـلام فى ليـبيا

تضم ليبيـا ثلاث ولايات ، هى برقـة ، وطرابلس ، وفزان . وقد كانت برقة قبـل الفتح الاسلامى تابعة للاسكندرية تحت حكم الروم . وكان فتحها على يدى عمرو بن العاص فى عام ٢١ للهجرة — وقبل عام ٢٢ — بمثابة خلاص لها من نير الرومان ، فاستقبله أهلها استقبالا حسنا ، ولم يرفعوا فى وجه جيشـه سلاحا . فقد علموا بما أبداه العـرب من شجاعة ، وبما فى الاسلام من سماحة ومسـاواة بين الناس ، واحترام للأديان الأخـرى ... ففتحوا لهم صدرهم ، وطلبوا من عمـرو الصلح ، فصالحهم على ثلاثة عشر ألف دينـار فرعونى ، يدفعونها جزية اليه كل عام ، فكانوا يرسـلونها اليه دون أن يرسـل اليهم جابيا . وكانت برقة قبل الفتح الاسلامى تسمى « انطابلس » ، وهى كلمة رومية معناها بالعربية خمس مـدن . وقد بنيت على بعض أنقاضهـا مدينة بنغازى .

ثم فتح عمرو بن العاص عام ٢٢ هـ « زويلة » فى اقليم فزان ، وفرض على أهلها ٣٠٠ رأس من العبيـد ، ثم سـار الى طرابلس . وقد حاصرها عمرو نحو شهر ، ثم استولى عليهـا عام ٢٢ هـ . وكان سور طرابلس منيعا جـدا ، فلم يسـتطع المسلمون أن يتسوروه أو يقتحموا أبوابه الا بعد مشقة كبيرة .

وعندما وضع المسلمون أيديهم على المدينـة ، أمنـوا أهلهـا ، وكفلوا لهم أموالهم ، ومنعـوا التعدى على أعراضهم ومعابدهم . ويقـال انهم بنوا فيها مسجدا ، وان مسجد أحمد باشـا بنى على أنقاضه .

دخلت ليبيـا فى الاسلام فى خـلافة عمر بن الخطاب . وبعد مقتل عمر ارتدت بعض القبائل ، فأرسل عثمان عبد الله بن أبى سرح — وهو أخوه فى الرضاعة — عام ٢٧ هـ لتأديب المرتدين . وقد وقفت فى وجهـه بعض الجمـوع ، ولكن تم له أخـيرا النصر . وقد سمى هذا الجيش « جيش العبادلة » لأنه ضم سبعة من كبار الصحابة كل منهم يحمل اسم عبد الله وهم : عبد الله بن عباس ابن عم النبى ، عبـد الله بن أبى سرح ، عبد الله ابن جعفر ، عبد الله بن عمر ، عبد الله بن عمرو ابن العاص ، عبـد الله بن الزبير ، عبـد الله بن مسعود .

وقد انتهت المعركة بفوز المسلمين بعد مناوشات بسيطة . واتفق الطرفان على عقد صلح بينهما ، على أن يدفع الروم ألفى ألف وخمسـمائة ألف دينار للعرب ، مقابل ارتحال العرب عن افريقيا .

ويرجع انشاء مملكة ليبيا الى النشاط السياسى الذى بذله السنوسيون فى سبيل ذلك . وكانت السنوسية فى بادىء الأمر طريقـة دينيـة صرفة ، ووسيلة الى عبادة الله عز وجل . فأسس شيخها السيد محمـد السنوسى فى بنغازى عام ١٨٥١ طائفـة من الزوايا ، لتكون مراكز للتعليم ونشر الطريقـة ... الا أن اتجاه السنوسيين عقب ذلك تحول الى السياسة والى انشاء دولة مستقلة .

وقد بذلت جامعـة الدول العربيـة مساعى

مشكورة فى قضية ليبيا ، فما كادت تمر أشهر على توقيع ميثاقها ، حتى سارع الأمين العام بارسال مذكرة الى مجلس وزراء خارجية الدول العظمى فى لنـدن ، فى سبتمبر عام ١٩٤٥ ، جاء فيهـا : « ان كل تجزئة لطرابلس الغـرب (ليبيـا) الى قسمين أو ثلاثة ، هى ضد مصلحة البلاد ، وضد رغبة الأهالى . ولا ترضاها الدول العربيـة التى ترتبط بميثاق الجـامعة ، والتى اتفقت فى هـذا الميثاق على أن تراعى شـعوب العرب ومصالحهم أينما كانت » .

وجاء فى هذه المذكرة أيضا : « لا شك أن تأخير الوصول الى حل يحقق هذه الأمانى سيؤدى الى خيبة أمل مريرة ... ليس فى ليبيا فحسب ، بل وفى أنحاء العـالم العربى أجمع . ومن الطبيعى أنه اذا دعت الحال الى فترة انتقال ، فيجب اسـناد مهمة ارشاد الشعب الليبى الى تحقيق هـدفه المنشود — وهو الاستقلال التام — الى دولة عربية أو الى الجامعة بأجمعها . ولا شك أن اختيـار أمة عربية للوصاية على شعب عربى فى جوهره لما يتفق مع الروح التى تسود المنظمة العالمية الجديدة » .

وفى ٢٣ من اكتـوبر عام ١٩٥٠ قررت اللجنة التى ألفهـا مندوب الأمم المتحـدة اعلان النظام الملكى فى ليبيـا تحت تاج أمير برقة . وألفت أول حكومة ليبية مؤقتة فى ٢٩ من مارس عام ١٩٥١ . وفى ١٧ اكتوبر عام ١٩٥١ صادقت الجمعية الليبية المؤقتة على مشروع دستور ليبيا بالاجماع .

وفى ٢٨ مارس عام ١٩٥٣ وافق مجلس جامعة الدول العربية على انضمام ليبيا للجامعة . ووصف رئيس الحكومة المصرية هذا اليوم بأنه عيد عنده ، لأنه يقدر جهاد ليبيا وما قدمه مليكها وشعبها من تضحيات فى سبيل سيادتها واستقلالها .

وسارعت انجلترا فى العام نفسه (١٩٥٣) بعقد معـاهدة مع ليبيا ، حصلت انجلترا بمقتضاها على قواعد عسكرية داخل الأراضى الليبية .

وقد حاولت انجلترا فى أثناء العدوان الثلاثى على مصر ، فى اكتـوبر ونوفمبر عام ١٩٥٦ ، أن تستخدم القواعد الليبية فى شن هجومها على مصر . ولكن الحكومة الليبية احتجت على استخدام هذه القواعد ، واتجهت النية الى التفـكير فى تعـديل المعاهدة الليبية البريطانية التى تنتهى عام ١٩٧٧ .

وقد أذاعت الصحف — بعـد فشل العدوان على مصر — أن مصطفى بن حليم ، رئيس الوزارة الليبية فى فترة الاعتداء لم يقف موقفا مشرفا مع مصر ، وأن بريطانيـا كافأته بنصف مليون جنيه لتعاونه معهـا فى حملة القناة ، اذ كانت الطائرات البريطانية تمون من ليبيا لضرب مصر . وعندما علم الملك السنوسى نبأ هذه الخطة غير الكريمة أظهر اسـتياءه ، وأذن لضـابطين مصريين فى زيارة « بنى غازى » للوقوف على حقيقة الأمر .

وقد هب الشعب الليبى يطالب حكومته بمعاونة المصريين ، والكف عن مساعدة الانجليز ، سواء فى الموانى أو المطـارات أو المعسكرات : فحاول مصطفى بن حليم أن يخفت الأصـوات المنـادية بتأييد مصر باثارة الشكوك حول السياسة المصرية ومراميها عن طريق التضليل والافتراء ... ولكن وزارته اضطرت الى الاسـتقالة ، وخلفتها وزارة السيد عبد الحميد كعبار ، التى حاولت أن ترأب الصدع الذى تركته الوزارة السابقة .

وتنتشر فى ليبيـا الدعوة السنوسية انتشارا كبيرا . ومؤسس هذه الدعوة هو محمد بن على السنوسى ، من أوائل القرن التاسع عشر . وقـد حج السـيد محمـد السنوسى الى مكة ، وزار الأزهر ، وأخذ العلم عن مشايخه ، ويتبعه عـدد كبير من المسـلمين فى ليبيا . ومن العلماء الذين

تتلمذ عليهم : الشيخ حسن العطار ، والشيخ الأمير ، والشيخ القويسنى فى مصر . والسيد أحمد بن ادريس الفاسي فى مكة واليمن .

وقد عمل السيد السنوسي علي نشر الاسلام فى واحة جغبوب وغيرها من الواحات في الصحراء الكبري ، ولم يلبث أن انتقل النشاط الي واحة الكفرة ، فانتشرت الدعوة للاسلام بين القبائل المختلفة ... ولاسيما فى عهد السيد محمد المهدي فى أواخر القرن التاسع عشر . وقد بني السنوسيون كثيرا من المساجد والجوامع والزوايا فى أنحاء متفرقة من ليبيا .

ويبلغ عدد سكان ليبيا ١٫٠٩١٫٨٣٠ نسمة ، منهم ١٫٠٧٢٫٠٠٠ نسمة من المسلمين . وقد قام هؤلاء المسلمون بدور كبير فى نشر المذهب السنوسى فى القارة الافريقية ، حتى صارت نواحى بحيرة تشاد هى مركز الاسلام العام فى وسط أفريقيا .

الاسلام فى تونس

تقع تونس بين الجزائر من الغرب ، وليبيا من الجنوب الشرقي ، والصحراء من الجنوب الغربى ، وتربطها بالجزائر سلسلة جبال الأطلس التي تعد العمود الفقري لأقطار المغرب العربي . ويبلغ عدد سكانها ٣٫٣٥٠٫٠٠٠ نسمة ، بينهم ٣٫٢٠٠٫٠٠٠ نسمة من المسلمين . وفيها أقلية من اليهود والايطاليين والفرنسيين .

وكان الفينيقيون أول الشعوب التي استعمرت تونس فى القرن التاسع قبل الميلاد ، ثم احتلها الرومان عدة قرون . ولم تكد تسقط الدولة الرومانية حتى توالت علي تونس حملات الفندال . ثم بدأ الفتح العربى للمغرب ، ولم تلبث أن ظهرت علي مسرح الحوادث أسر عربية كونت دولا معروفة في التاريخ ... كدولة بني الأغلب الذين نقلوا عاصمة ملكهم الي القيروان عام ٩٠٩ م ، وأسرة الفاطميين الذين تولوا الحكم من بعدهم عام ٩٧٣ م ، واتخذوا « المهدية » عاصمة لهم .

ولما انتقلت عاصمة الفاطميين الى مصر ، وأنشئت قاهرة المعز لدين الله الفاطمى ... أصبحت تونس تابعة للخليفة الفاطمي ، وشهدت فترة ازدهار وتقدم حتي منتصف القرن الحادي عشر . ثم استولت الأسرة الحفصية علي الحكم ، فجعلت مدينة تونس العاصمة ، وعاد الأمن والنظام الي البلاد عام ١٢٣٠ م . وفى عام ١٢٧٠ م كان لويس التاسع ملك فرنسا ، الملقب بالقديس ، عائدا من حملته الصليبية علي مصر ، فحدثته نفسه — عندما اقترب من سواحل تونس — أن يغزو هذا القطر ، ولكن الموت عاجله ولم يتمكن من تحقيق هذا المطمع .

وقد حاول الأجانب طرد المسلمين من الأراضي التونسية ، لما كانوا عليه من قوة ومنعة وسيطرة على السفن العابرة من مضيق جبل طارق فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد . وفى ١٥٣٤ م وطد الأتراك سلطانهم فى تونس ، وطردوا السلطان العربي ، ودارت الحرب بين الطرفين ,وهجم الاسبان علي العثمانيين غير أن النصر كان حليف العثمانيين في النهاية عام ١٥٧٤ م . واستمرت السيادة التركية علي تونس ، الي أن أعلنت فرنسا حمايتها عام ١٨٨١ . ولم تعترف تركيا بالأمر الواقع الى أن عقدت معاهدة سيفر فى أعقاب الحرب العالمية الأولي عام ١٩٢٠ ، فتنازلت تركيا عن كل حق لها فى الأراضي التونسية . وانتهى الأمر باستقلال تونس منذ سنوات ، وانضمامها الي جامعة الدول العربية .

والشعب التونسي يحرص على متابعة موكب القومية العربية على الرغم من التيارات الانحرافية التي يبثها أعداء القومية العربية وأذناب الاستعمار للنيل من كيان وطننا العربي المجيد ... ذلك أن الروابط الوثيقة والوشائج المتينة التي تربط تونس بالوطن العربي منذ أبعد الحقب والأزمان لا يمكن أن تنال منها تلك الانحرافات الهزيلة.

وفي تونس فرق صوفية متعددة، كالقادرية والرحمانية والعيسوية السلامية والتيجانية والشاذلية. وبها عدد كبير من الزوايا لكل من هذه الطرق، وكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم.

ويسود المذهب المالكي بين التونسيين، ما عدا الأسر التركية التي تتبع المذهب الحنفي. وقد اتجهت سياسة فرنسا، منذ فرضت حمايتها على تونس، الى محاربة التعليم الديني، ومحاولة القضاء على اللغة العربية ... لغة القرآن الكريم. ولكن ذهبت محاولاتها سدى، وظل جامع الزيتونة — أو الجامعة الزيتونية — الذي يشبه نظام التعليم فيه نظام التعليم بالجامع الأزهر، يزاول مهمته في هذا الميدان. كما يقوم معهد ابن خلدون بالمهمة ذاتها

وفي مدينة القيروان بعض المساجد القديمة. ومن أشهرها جامع القيروان الذي بني وهدم عدة مرات، وله ثمانية أبواب: أربعة منها في الجهة الشرقية، وأربعة في الجهة الغربية وفي وسط الجامع مزولة شمسية على منصة مرتفعة ... فاذا اقتربت ساعة الظهر للصلاة، وقف رجل بثياب بيض يرقب المزولة، فاذا وصل الظل عليها الى الساعة المعينة، رفع هذا الرجل يده فيراه رجل آخر واقف على المئذنة الكبرى، فيرفع علما أبيض. وحينئذ ترتفع أصوات المؤذنين بالأذان من فوق جميع المآذن. ويشتمل الجامع على مقصورة للنساء تحيط بها حواجز من الخشب المحفور حفرا جميلا لطيفا، وفيها نوافذ من الزجاج الملون المثبت في رخام مخرم. وتقع هذه المقصورة على يمين المحراب، وقد أمر ببنائها المعز بن باديس.

ويوجد في القيروان كذلك زاوية سيدي صاحب، التي تعرف عند عامة الناس باسم « جامع الحلاق »، وسميت هذه الزاوية باسم عبد الله البلوى، أحد الصحابة الأولين الدين اشتركوا في فتح افريقيا عام ٣٤ للهجرة. وقد دفن عبد الله البلوى في القيروان، ودفنت معه ثلاث شعرات قيل ان الرسول كان قد اعطاه اياها. ويعد جامع سيدي صاحب أجمل جوامع القيروان، ويتألف من مدرسة وزاوية ومشهد. ويوجد كذلك جامع الزيتونة الذي بنى عام ١١٤ هـ، وجامع سيدي أبو جعفر.

الاسلام في الجزائر

كان أهل الجزائر وأبناء عمومتهم التونسيون والمغربيون يدينون بالوثنية ... الى أن ظهرت المسيحية. ثم انبثق نور الاسلام، فعمر القلوب، واستقر فيها استقرارا تاما وقد استقرت القبائل العربية في بلاد المغرب العربي منذ أيام الفتح الاسلامي. وانتشرت في الجزائر قبائل جوشم ورياح وزغبة ومعقل — وكلهم من بني هلال بن عامر — وقبائل دياب وزغب وعون، وهم من بني سليم بن منصور.

وقد نشأت في الجزائر دول عربية مثل دولة تيهرت عام ١٦٩ للهجرة، ودولة الموحدين عام ٥٢٤هـ التي قضت على المرابطين في المغرب الأقصى، واستطاعت أن تسيطر سبعين عاما على الجزائر والمغرب. وأصبحت مدينة تلمسان من أعظم البلدان

رفعة ، وكانت تزخر بالعلماء والفقهاء ومعظم أهل الجزائر سنيون ، بيد أن فيهم من يؤمن بالدعوة الشيعية التى ورثوها من الدولة الفاطمية

ويعد غزو فرنسا للجزائر فى ١٤ من يونيو عام ١٨٣٠ م ، استمرارا للسياسة الاستعمارية التى تغلغلت فى أوربا ضد القومية العربية ، منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث ففى هذا اليوم المشئوم نزلت جيوش ملك فرنسا شارل العاشر فى « جون سيدى فرج » قرب عاصمة الجزائر وبدأت احدى الغزوات الصليبية الجديدة فى القرن التاسع عشر ضد ديار الاسلام وموئل حرية الأديان

ولم يقف الأهالى مكتوفى الأيدى ازاء غزو الفرنسيين ، بل اجتمع شمل القبائل ، ونسوا خصوماتهم فى سبيل تحرير وطنهم العربى من براثن المغتصب الأثيم ، وهبوا هبة رجل واحد يدافعون عن بلادهم ، والتف الجزائريون حول بطل عظيم رابط كالأسد فى حصن « فيليب » الحصين ... الا وهو البطل عبد القادر الجزائرى ، الذى هزم الفرنسيين فى معارك شتى ، منها معركة « وهران » المشهورة .

وظل الأمير عبد القادر يجاهد سنوات فى سبيل تحرير بلاده ولكنه ازاء الهجمات الشديدة التى قام بها الفرنسيون ضد الأهالى العرب العزل من السلاح ، اضطر الى توقيع الهدنة مع فرنسا حتى تتمكن البلاد من دعم كيانها ، وجمع شتاتها ، والثورة مرة أخرى فى سبيل حريتها .

ومنذ ذلك التاريخ وفرنسا تحاول أن تجعل الجزائر جزءا منها ، واتبعت سياسة الادماج . فطبقت القانون الفرنسى بحذافيره ، ووهبت العطايا والهدايا للتجنس بالجنسية الفرنسية .

وتعاقبت الثورات العنيفة فى الجزائر منذ عام ١٨٣٠ م حتى اليوم واستخدمت فرنسا كل وسائل التعذيب والارهاب للتنكيل بالجزائريين ، واستعملت كل أساليب الوحشية للانتقام من الزعماء الجزائريين ، وسولت لها نفسها أن تخطف بعض القادة من الثوار ، وتلقيهم فى غياهب السجون . ولكن هذا كله لم يفرق شمل الجزائريين ، ولم يعصف برأيهم ... وانما زاد اصرارهم ، وتأججت حماستهم فى سبيل تحرير هذا الوطن العربى

ومن الأساليب الظالمة التى استخدمتها فرنسا ضد المسلمين ، قانون « الأنديجنا » الذى كان معمولا به فى الجزائر منذ انتهاء ثورة المقرآنى الى أمد قريب . ويعامل هذا القانون الجائر « الجزائرى المسلم » معاملة بربرية لا يقرها شرع ولا دين ولا انسانية ومن مقتضيات قانون « الانديجنا » أن لكل فرنسى أو متفرنس الحق فى عقاب المسلم بالسجن أو التغريم بمجرد الصاق تهمة به ، وما على الحاكم الا تنفيذ الحكم الصادر ضد المتهم حالا دون تأخير ومع أن هذا القانون ألغى ... الا أن فرنسا لا تزال حتى اليوم تعامل الجزائريين معاملة لا تتفق مع النظم الانسانية ، ولا مواثيق حقوق الانسان التى أقرتها الهيئات الدولية ، بله الشرائع والأحكام التى نزلت بها الأديان السماوية

وهب جيش التحرير يقاتل فى سبيل تحرير الجزائر ، باذلا النفس والنفيس لتحقيق مطالب الجزائريين فى بناء دولة ديموقراطية اجتماعية ، ولاحترام جميع الحقوق الأساسية للسكان دون تمييز عنصرى أو دينى ، وتطهير الحركة الوطنية الثورية من آثار الفساد ، والاتجاه نحو الاصلاح ، وتجميع قوى الشعب الجزائرى وتنظيمها من أجل تصفية النظام الاستعمارى .

والواقع أن الوضع الاقتصادى والاجتماعى فى الجزائر سيىء جدا ... فان نحو مليون ونصف مليون من الأوربيين فى الجزائر يسكن معظمهم

المدن والمناطق الخصبة الجيدة التربة الحسنة المناخ ، ويستحوذون على خيرات البلد ، ويصدرونها نهبا مستباحا الى فرنسا ... في حين يعيش الشعب الجزائري في ضيق اقتصادي ، وفقر اجتماعي لا مثيل لهما . وتتصرف الزراعة الرأسمالية الاستعمارية في ثلث الأراضي المزروعة المسلوبة من الفلاحين الوطنيين ... كما مكنت الحكومة الفرنسية رجال الأعمال الفرنسيين وكبار الاقطاعيين من الحصول على أراضي القبائل والعشائر المغتصبة .

وفي الوقت نفسه ينتشر جنود فرنسا في أرض الجزائر يقتلون ويسفكون الدماء ، ويمثلون بالقتلى ... ويقول أحد القواد الفرنسيين — وهو سانت أرنو — في احدى رسائله : « ان بلاد بني نصر خصبة جميلة يانعة ، وهي من أغنى ما رأيت في افريقيا ... فالقرى متجاورة ، والمساكن تقع في صف واحد . وعند ما جئت أشعلت النيران فيها فلم تبق فيها أثرا ، وأكلت النار الأخضر واليابس ، وتركته هشيما تذروه الرياح ... آه الحرب ، وما أدراك ما الحرب ! كم من نساء وأطفال طاردناهم الى ثلوج جبال الأطلس حتى قضوا نحبهم من البرد والجوع ! » .

وقال الكحاك نقلا عن مونتاليالك في كتابه رسائل جندي : « قطعت رأسه ، واحتززت يده اليسرى ، وعدت الى المعسكر ، ورأسه مرشوق في سن الخنجر ، ويده المقطوعة معلقة في عمود البندقية ، فقدمت هاتين التحفتين الى الجنرال بارغواي الذي كان معسكرا قريبا من هناك ، فاهتز لهما طربا ! » .

وقد فجر هذا الطغيان الدماء من نفوس الأحرار في شتى الأقطار والأمصار ، فهبوا لتأييد الجزائر في كفاحها ضد الظلم والاستعباد ، بالأموال والأسلحة والأرواح .

وهب الكتاب الجزائريون وغير الجزائريين يدبجون المقالات ، وينظمون القصائد من أجل تحرير الجزائر ، وتصوير المآسي الدامية التي تحدث على مسرح الحياة في هذه الديار الحبيبة .

وفي الجزائر جمعية عربية اسلامية تسمى جمعية علماء الجزائر . وقد أسست هذه الجمعية عدة مدارس ومعاهد ، منها معهد عبد الحميد بن باديس التكميلي ، وغيره من المعاهد . وقد أثرت السياسة الفرنسية في الحركة الدينية ، وأضرت باللغة العربية في هذه البلاد .



وفي الجزائر نوعان من المدارس العربية : المدارس التي تنال المساعدة من الحكومة ، وعليها أن تخصص ثلث حصص التعليم لتدريس اللغة الفرنسية . والمدارس التي تديرها جمعية علماء الجزائر . وتعتمد هذه المدارس على الاعانات الخاصة ، وهي منصرفة كل الانصراف الى العلوم العربية والاسلامية .

وجمعية علماء الجزائر منظمة دينية سياسية ، أسست عام ١٩٢٩ م ، وهي تعتمد على الاصلاح الديني والاجتماعي باعتباره أساسا للحرية السياسية ، ولمقاومة التيار الاستعماري الذي يهدف الى فرنسة الجزائر ، ومحو القومية العربية فيها ، وطمس معالم الثقافة الاسلامية . وتهدف هذه الجمعية الى استقلال الجزائر ، واتحادها مع أقطار شمال أفريقيا ، وانضمامها الى جامعة الدول العربية .

ويحاول أعضاء هذه الجمعية أن يكونوا على اتصال تام بالجامعة القروية في المغرب ، والجامعة الزيتونية في تونس ، حتى يتم للجزائريين خدمة الثقافة العربية ، ونشر التعاليم الاسلامية .

وقد تكونت في الاقليم الجنوبي حكومة جزائرية مؤقتة تهدف الى التخلص من نير الاستعمار ،

ومهما اختلفت الأحزاب فى الجزائر ، فان الشعب الجزائرى يرفض الاستعمار بكافة ألوانه ومختلف أنواعه وشتى صوره وأقنعته ، ويعتقد الشعب الجزائرى أن التخلص من الاستعمار تخلص من الاضطهاد الدينى ، وفكاك من تكميم الأفواه ، ووأد الحريات ، والتضييق على الشعب فى أداء فرائضه الدينية فى حرية وانطلاق . ويترقبون اليوم الذى يتم لهم فيه الخلاص ، فيتمتعون بحريتهم الشخصية والدينية ... وانه لآت قريب .

الإسلام فى المغرب

يتكون سكان المغرب من البربر والعرب ، وهم سلالة الفاتحين الأولين الذين فتحوا المغرب عام ٦٣ للهجرة (٦٨٢ م) . وقد ظل المغرب تابعا لولاية القيروان أيام الأمويين والعباسيين ، حتى تأسست الدولة الادريسية فى القرن التاسع الميلادى . ثم قسم المغرب بين أمراء كثيرين : منهم بنو حمود الذين امتد ملكهم الى الأندلس ، ثم تغلب بنو عباد ، ملوك اشبيلية ، عليهم وأخرجوهم من الأندلس ، فظلوا قابعين فى المغرب . ثم استولى على المغرب المرابطون بزعامة يوسف بن تاشفين الذى جمع قواته ، وهزم ملك أرجون فى معركة الزلاقة عام ٤٨٩ هـ (١٠٩٥ م) ، واستولى على معظم الأندلس . كما شهد المغرب ملك الموحدين الذى امتد من برقة الى المحيط الأطلسى ، واستمرت دولتهم قوية النفوذ منذ عام ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) ، حتى اضمحلت عام ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) . وعندما سقط الموحدون استقل بنو حفص بأفريقيا ، وبنو زيان بتلمسان ، وبنو مرين بالمغرب عام ٦٦٨هـ (١٢٦٩ م) .

ثم استهدف المغرب بعد ذلك للفوضى نحو قرنين ، فطمع فيه البرتغاليون ونزلوا على سواحله ، فهبت لنجدته الأسرة الشريفية المنتمية الى الدوحة النبوية المطهرة ، ونعنى بها أسرة السعديين . ومنذ هذا التاريخ اتخذ المغرب طابعه الاجتماعى الذى احتفظ به حتى اليوم على يد الأشراف السجلماسيين ، وهم الحاكمون الى الآن .

وهكذا ظل المغرب متمتعا بالاستقلال حتى أواخر القرن الماضى على الرغم من المحاولات الكثيرة التى قامت بها الدول الكبرى للتحرش به واحتلال أراضيه فى القرون الماضية . فقد قامت أسبانيا بعد وفاة السلطان عبد الحميد بن سليمان باحتلال عدة موانىء ، ومضت تهدد باحتلال البلاد كلها . فسارعت الدول الكبرى الى عقد مؤتمر فى مدريد عام ١٨٨٠ ، اشتركت فيه الدول الأوربية كلها مع الولايات المتحدة والمغرب ، وانتهى بمعاهدة حددت فيها مصالح كل دولة ، ونص فيها على استقلال البلاد وسيادة سلطانها .

غير أن هذه المعاهدة مهدت للتدخل الأجنبى فى البلاد ، اذ منحت جميع الدول التى وقعتها حق اضفاء الحماية على الرعايا المغربيين ، وحق الملكية العقارية والانتفاع بمزايا الدولة الأكثر رعاية . والواقع أن مطامع الدول الأجنبية لم تهدأ منذ احتلال الجزائر عام ١٨٣٠ ، واحتلال تونس عام ١٨٨١ . فقد أخذت فرنسا تفكر فى بسط نفوذها على ساحل أفريقيا الشمالية برمته ، ولا سيما بعد أن سكنت على احتلال مصر عام ١٨٨٢ ، وتركت الانجليز ينفذون خطتهم فى احتلال وادى النيل .

وقد انتهزت فرنسا فرصة القلاقل والاضطرابات الداخلية فى البلاد ، فأرسلت حملة عسكرية من الجنود الفرنسيين ، طوقت مدينة فاس ، وأشاعت الذعر فى نفوس الأهلين .

وقد قام الزعيم عبد الكريم الخطابى بثورة كبرى

فى منطقة الريف ، استطاع على اثرها أن يخضع المنطقة كلها لنفوذه ، ويقيم فيها حكومة دستورية رشيدة ظلت تحكم المنطقة نحو خمس سنوات . ولم تعامله فرنسا فى بادىء الأمر بالشدة ، لأن ثورته كانت موجهة ضد الحكومة الاسبانية لا ضد الحكومة الفرنسية . ثم حشدت فرنسا ضده قواتها ، فحاربها حربا ضروسا لاهوادة فيها ، دفاعا عن الحرية والاستقلال ، وحمل راية الجهاد فى هذه المرة نجله محمد عبد الكريم الذى قاتل قتالا مجيدا ... وأخيرا اضطر الأمير الى تسليم نفسه للقوات الفرنسية ، فنفته هو وأسرته الى جزيرة رينيون فى المحيط الهندى .

وظل الأمير فى منفاه حتى طلبت جامعة الدول العربية — بناء على رغبة الشعب المغربى — اطلاق سراحه . فوافقت الحكومة الفرنسية ، على أن يقيم فى باريس . وفى أثناء مروره بميناء بورسعيد فى عام ١٩٤٧ ، طلب من الحكومة المصرية اعتباره لاجئا سياسيا لديها . فقبلت الحكومة طلبه، وعاش مع أسرته فى ربوع البلاد وظل يتابع جهاده فى سبيل خدمة القضية المغربية .

وقد قاسى المغرب فى أثناء الحرب العالمية الثانية كثيرا من الاجراءات التعسفية والضيق ، واستغلال مرافق البلاد ومواردها الاقتصادية . فلما منيت فرنسا بالهزيمة وجد السلطان محمد الفرصة مواتية للمناداة بالاستقلال ، وحصل على وعد صريح من فرنسا بتحقيق هذه الأمنية الوطنية الكبرى . ولكن فرنسا ماطلت وسوفت حين مال ميزان الحرب فى جانبها مرة أخرى مع الحلفاء .

وقد وقف السلطان من الحركات الوطنية فى بلاده موقفا مشرفا ، مما أوغر صدر فرنسا ، فعملت جاهدة على اخماد هذه الحركات . وطلبت من السلطان أن يعلن براءته منها ، ويطرد الوطنيين من رجال الديوان وكبار الموظفين وصغارهم . وأخذت تنثر الأموال ذات اليمين وذات الشمال على أتباعها وأنصارها ليثيروا القلاقل فى البلاد ، وحرضت بعض الاقطاعيين ، أمثال الجلاوى ، على الانتقاض على السلطان ومحاصرة قصره لترغمه على التنازل على العرش لابنه الأصغر ، أو تنفيه فى الحال .

ووجه الجنرال جيوم المقيم العام الفرنسى انذارا بذلك ، فلم يأبه السلطان بالانذار ، ومزق وثيقة التنازل ، وآثر المنفى .

وفى ٢ من مارس عام ١٩٥٦ اعترفت فرنسا باستقلال المغرب رسميا ، وحقه فى تأليف جيش مغربى مستقل ، وتمثيل نفسه دبلوماسيا فى الخارج . وجاء فى التصريح المشترك ما يلى :

« ان حكومتى الجمهورية الفرنسية وجلالة محمد الخامس سلطان مراكش تؤكدان عزمهما على تنفيذ تصريح سان كلو الصادر فى ٩ من نوفمبر عام ١٩٥٥ . وهما تقرران — بعد التقدم الذى أحرزته مراكش — أن معاهدة فاس التى عقدت فى ٣٠ مارس عام ١٩١٢ لم تعد ملائمة لضروريات الحياة العصرية ، وتحدد العلاقات المراكشية الفرنسية . ومن ثم فان الحكومة الفرنسية تؤكد رسميا الاعتراف باستقلال مراكش ، وهو استقلال يتيح لها بصفة خاصة جيشا وسلطة دبلوماسية . كما تؤكد الحكومة الفرنسية عزمها على احترام وحدة الأراضى المراكشية التى تكفلها المعاهدات الدولية ... » .

وفى أبريل عام ١٩٥٦ أصدرت الحكومة الاسبانية بلاغا رسميا أعلنت فيه أن مجلس الوزراء وافق على تصريح يقضى بالغاء الحماية الاسبانية على مراكش الخليفية ، والاعتراف باستقلال المغرب كله ووحدته .

وهكذا ظفر المغرب لقسمين من أقسامه الثلاثة بالاستقلال الذى جاهد فى سبيله . فحصلت مراكش الشريفية — وهى أكبر أقسام المغرب ، وعاصمتها الرباط — على الاستقلال فى مارس . ثم لم تلبث مراكش الخليفية — وهى أصغر كثيرا من القسم الأول — أن حصلت على الاستقلال فى أبريل .

أما القسم الثالث — وهو منطقة طنجة الدولية ، وأصغر أجزاء المغرب — فان تقرير مصيره يتطلب اجراءات مع جميع الدول التى تتولى الاشراف عليه .

وقد قدم المغرب على أثر استقلاله طلبا للانضمام الى الأمم المتحدة فقبل طلبه ، وأصبح عضوا فى الهيئة الدولية ، كما أصبح عضوا فى جامعة الدول العربية .

ويبلغ عدد سكان المغرب ٠٠٠ر٨٦٤ر١١ نسمة ، منهم ٠٠٠ر٣٠٤ر١١ نسمة من المسلمين . ويزاول المسلمون شعائرهم الدينية فى كثير من المساجد والزوايا . وأهم جامعاتهم الدينية جامعة القيروان فى فاس ، كما يوجد معهد مولاى الحسن ، ومعهد مولاى المهدى فى تطوان . ومن المنتظر أن يزدهر مستقبل الاسلام فى المغرب فى السنوات المقبلة ، ولا سيما بعد أن ظفر باستقلاله ، وتحرر من النفوذ الأجنبى .

الاسلام فى السودان

العروبة فى السودان عميقة الجدور ، تمتد الى أقدم الأزمنة ، وذلك نتيجة الهجرات المتواصلة من الجزيرة العربية الى شتى الأقطار والأمصار ، وقد سلكت هذه الهجرات ثلاثة طرق مختلفة : أولها اتجه من الجزيرة العربية نفسها الى شرق السودان ، وقد عبرت القبائل العربية لهذا الغرض البحر الأحمر ، واستقرت فى شرق السودان ، ومنه انتقلت الى الشمال والجنوب . والطريق الثانى اتجه من شمال وادى النيل ، ثم انحدر الى الجنوب . والطريق الثالث اتجه من ليبيا الى الشرق ، وتفرع الى السودان .

ولاحظ بعض الباحثين أن هناك أماكن على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر أو قريبا منه ، تحتفظ بأسمائها العربية الدالة على نظائرها فى بلاد العرب ، مثل « نجران » التى كانت الاسم القديم لمملكة بلو (فى شرق السودان) . والبليون — أو البلو فى بعض الروايات السودانية الوطنية — قوم من العرب ، وفدوا على السودان قبل الفتح الاسلامى . وربما كانت سوبا اسما محرفا من « سبأ » التى نجد نظيرا لها فى جنوب بلاد العرب ، وورد اسمها واسم بلقيس ملكة سبأ فى كثير من المراجع التاريخية .

وقد حملت القبائل المهاجرة من الجزيرة العربية ، الى السودان اللهجات العربية معها ، فاللغة العربية نفسها ، أى لغة قريش أشهر قبائل الجزيرة العربية ، فلما ظهر الاسلام حملت القبائل المهاجرة معها هذا الدين الحنيف وكتابه المنزل الكريم ، فانتشر الاسلام فى شتى أنحاء السودان ، ودخل السودانيون فى دين الله أفواجا .

وقد قام بدور كبير فى نشر الاسلام ، العرب الوافدون من بنى هلال وبنى سليم وربيعة ولخم وجذام ، والجعافرة — وهم بنو جعفر بن أبى طالب — وفزارة وغيرها ... كما قامت قبائل البربر المغربية بدور لا سبيل الى تجاهله فى هذا الميدان .

ولما جاء « غلام الله بن زائد » فى القرن الرابع عشر للميلاد — وهو جد السادة الركابية — عمل

على نشر الاسلام بين الدناقلة ، وقطع شوطا كبيرا فى هذا المضمار . فالتف حوله عدد كبير من الناس ، وآمنوا بمبادئه وتعاليمه .

وقد ساعدت التجارة بين مصر والسودان فى نشر الاسلام . وقد كانت معاهدة « البقط » التى نظمت العلاقات التجارية بين البلدين ، وسمحت بانتقال قوافل القمح والسلع الأخرى بين القطرين ، من أهم الأسباب فى نشر الاسلام . وكانت أعداد التجار الوافدين على بلاد النوبة تتزايد ، ويزيد نشاطهم التجارى والدينى كلما نمت العلاقات وتطورت بين البلدين . وقد بلغت ذروة النمو فى القرن الثالث عشر للميلاد .

واشتد تيار الهجرة من الشمال الى الجنوب منذ ظهور الاسلام ، وطرقت القبائل المهاجرة بلاد النوبة ، واتجهت الى منطقة أسوان وشمال السودان ، لأن هذه الجهات تشبه الى حد كبير بلاد العرب فى ظروفها المناخية .

ونشأت فى العصر الفاطمى امارة عربية نوبية فى أسوان ، كان لها نفوذ كبير على كثير من القبائل فى هذه الجهات . وفى العهد الأيوبى ظهرت امارة كنز الدولة فى بلاد النوبة ، وعملت على نشر الدعوة الاسلامية فى أنحاء متفرقة من البلاد ، وامتد سلطانها حتى العصر المملوكى ، وفى هذا العهد توغلت العناصر العربية فى النوبة والسودان .

وفى العصر الحديث لم يتوقف تيار الهجرة الى السودان ، بل ظل المسلمون يهاجرون اليه من شتى المواطن ، ويدعون الى العقيدة الاسلامية دون كلال ولا ملال .

وانتشرت فى أرجاء متفرقة من السودان سلالات قبائل الجعليين وجهينة والكواهلة ، وظلوا محافظين على مبادىء الاسلام ، متمسكين بفرائضه وواجباته .

وجدير بالذكر أنه تأسست فى السودان ممالك سودانية مختلفة ، منها مملكة الفونج (١٥٠٥ — ١٨٢٠ م) ، وسلطنة دارفور (١٦٣٧ — ١٨٧٥ م) .

وقد انتشرت الدعوة الى الاسلام فى عهد الفونج ، ولم يدخروا وسعا فى نشر الدين ، وقام الشيخ بدوى أبو صفية البديرى بدور كبير فى سبيل نشر الدين . وقد وطد الفونج صلاتهم ببعض العرب ، وأسهم هؤلاء العرب فى نشر الاسلام بين القبائل المختلفة .

ويبدو أن مملكة « سنار » كانت من أكثر الممالك الاسلامية أثرا فى نشر الاسلام فى السودان ، حتى ان سلطنة دارفور نفسها استعانت بعلماء سنار فى نشر الاسلام ، وشجع « سليمان سلونج » ، الذى تولى عرش دارفور عام ١٦٣٧ ، فقهاءها على النزوح الى مملكته .

وقد انتشرت الطرق الصوفية فى السودان امتدادا لانتشارها فى مصر والحجاز والعراق والمغرب وغيرها من البلاد العربية ، ورحب أهل السودان بمجىء هذه الطرق الى البلاد ، وقد قام بعض شيوخ السودان بتشجيع المريدين ، والتف حوله كثيرون من الأتباع .

ومن أشهر الطرق : الطريقة القادرية التى ظهرت على يد عبد القادر الجيلانى فى القرن الثانى عشر ، ثم دخلت افريقية الغربية فى القرن الخامس عشر ، وتوغلت فى السودان فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، وكان لأصحاب هذه الطريقة — وكانوا أربعة من المشايخ — السلطة الروحية والزمنية فى عهد الفونج .

والطريقة الشاذلية التى تنسب الى أبى الحسن الشاذلى (١١٩٦ — ١٢٥٨ م) فى تونس . وقد رسخت دعائمها فى السودان على يد الشيخ خوجلى عبد الرحمن المحس المتوفى عام ١٧٤٣ م . ووجدت

فى السودان كذلك الطريقة التيجانية نسبة الى مؤسسها فى فاس أحمد بن محمد التيجانى عام ١٧٨٢ م .

والسودانيون منذ أن دخلوا فى الاسلام على المذهب السنى ، ويدينون بمذهب الامام الأشعرى فى العقائد التوحيدية ، ويغلب عليهم مذهب الامام مالك فى الفقه .

ويقول الدكتور عبد المجيد عابدين : « وهم يقرأون القرآن على طريقة « ورش » فى دنقلة ودارفور ، وعلى « أبى عمرو » فى سائر مناطق السودان . والظاهر أن قراءة ورش كانت منتشرة فى دنقلة فى أيام الفونج ، ثم ضعفت بمرور الزمن . أما فى دارفور فلا تزال آثارها قوية ، ومن رواد التجويد وعلماء القراءات فى أيام الفونج : التلمسانى المغربى الذى قدم على محمد عيسى سوار الذهب ، وعلى يده انتشر التجويد فى الجزيرة » .

وقد انتشر الاسلام عن طريق الخلوة أو الكتاب ، وعن طريق الجامع والمسجد . والخلاوى فى السودان يدرس فيها القرآن أساسا ، ثم بعض الاملاء ومبادىء الحساب ، وقد أنشأ كثيرون من أغنياء السودانيين وسراتهم كثيرا من الخلاوى فى أنحاء متفرقة فى السودان ، وأوقف بعضهم كثيرا من الأملاك عليها وعلى الانفاق على طلبتها .

أما المساجد فقد وجدت فى السودان قبل عصر الفونج . ونصت معاهدة « النفط » على حرمة مسجد المسلمين فى بلاد النوبة ، وجاء فى بعض المصادر أن العرب القاطنين على ضفاف النيل الأزرق حصلوا — فى القرن العاشر للميلاد — على اذن ببناء مسجد فى « سوبا » عاصمة المملكة المسيحية فى ذلك الحين .

ويقول نعوم شقير : « وكان فى دارفور مساجد جمة ، فى كل بلدة مسجد أو أكثر ، يعلم به الكتابة والقرآن . وكان لكل عالم مسجد قرب منزله يصلى به الصلوات الخمس ، وفى لصقه خلوات للمجاورين يعلم بها العلوم الشرعية ، وله « حاكورة » هبة من السلطان يعيش هو وتلامذته فى ريعها . أما الجوامع فكان لهم فى كل بلدة شهيرة جامع ، الا الفاشر ففيها جامعان ، وكوبى ففيها جامعان » .

هذه هى حال المساجد والجوامع فى عصر الفونج ، وقد ازداد عددها على مر العصور ، كما ازداد عدد الزوايا التى يؤمها لفيف كبير من المتصوفة للتعبد والتهجد وذكر الله تعالى .

ووفد الى القاهرة كثيرون من السودانيين للتعلم فى الجامع الأزهر على يد العلماء والفقهاء ، وأظهروا نبوغا وتفوقا عظيمين . وظهرت فى الأزهر أروقة للسودانيين القادمين من سنار وبرنو وصليح ودنقلة ودارفور وغيرها من أنحاء السودان ، وسميت هذه الأروقة بأسماء البلاد الوافدين منها ، فهناك رواق السنارية ، ورواق الدناقلة ، ورواق دارفور ... وغيرها .

وتأسس فى السودان « الجامع العتيق » نحو عام ١٨٤٧ م . وقد درس فيه الشيخ ابراهيم عبد الدافع مفتى الديار السودانية ، والشيخ الأمين الضرير وغيرهما من العلماء .

وقد ازداد سفر الحجاج الى الأراضى المقدسة فى العصر الحديث بعد أن كان فى عهد المهدية يصادفه بعض الصعاب ... فقد منع المهدى الحج مؤقتا حتى يتقى شر الدسائس التى كانت تحيط ببلاده من الخارج .

ونشطت الجمعيات التى تحارب الخرافات والعقائد الفاسدة والأوهام . ومن هذه الجمعيات : جمعية أنصار السنة التى أنشئت عام ١٩٣٩ ،

وتهدف الى التوحيد الخالص المطهر من مظاهر الشرك ، والتزام صريح الكتاب وصحيح السنة ، ومجانبة البدع ومحدثات الأمور ، والتمسك بالفضيلة ، والقضاء على الخرافات والتقاليد الرجعية .

ويقوم المعهد العلمي فى أم درمان بدور كبير فى نشر الثقافة العربية والاسلامية الصحيحة . وبالمعهد مكتبة كبيرة مزودة بشتى الكتب والمراجع الدينية ، وبعض هذه الكتب ضم اليها من طريق الوقف أو التبرعات ، وكان عدد الطلبة فى أول عهد الشيخ أبى القاسم نحو ستين طالبا (عام ١٩١١ م) . وكان الطالب يعطى جراية رغيف خبز ، ثم استبدلت بها ثلاثون قرشا فى الشهر . وكان مرتب المدرس فى المعهد العلمي بأم درمان لا يتعدى ثلاثة جنيهات الا فى أحوال نادرة .

وفى عام ١٩٤٨ تأسس المجلس الأعلى للمعهد العلمى بأم درمان ، على اثر توصية خاصة من المجلس الاستشارى لشمال السودان . وتولى رياسته الشيخ أحمد الطاهر قاضى القضاة السودانى السابق ، ثم عين فضيلة الشيخ حسن مدثر ، قاضى القضاة الحالى ، خلفا له فى نوفمبر عام ١٩٥١ .

وقد بذل فضيلته جهودا مشكورة فى النهوض بالمعهد الدينى لأداء رسالته على خير وجه ... فاهتم باصلاح حال المدرسين فى المعهد ، ومنحهم درجات مالية أسوة بموظفى الدولة ، ونظم مناهج الدراسة ، وأجرى تعديلات فى المواد التى تدرس فيه ، واستمر مشرفا على هذا المعهد حتى تقرر انشاء مصلحة الشئون الدينية عام ١٩٥٥ . ومنذ ذلك التاريخ أخذت هذه المصلحة ترعى المعهد ، وهى لاتألو جهدا فى الاهتمام بشئونه العلمية والادارية .

وقد تولى مشيخة علماء السودان بالمعهد ، منذ تأسيسه حتى اليوم ، سبعة مشايخ . وآخر هؤلاء المشايخ الأماثل : الشيخ محمد المبارك عبد الله الذى تولى رياسة المعهد منذ عام ١٩٥٦ حتى الآن .

وقد تخرج فضيلته فى الجامعة الأزهرية ، ثم عاد الى وطنه ، واستأنف جهاده الدينى فى خدمة الاسلام والمسلمين .

ويبلغ عدد المسلمين فى السودان الآن ستة ملايين ونصف مليون نسمة . وهم يحافظون على شعائر دينهم محافظة تامة .

وبانضمام السودان الى جامعة الدول العربية دخل فى دور التعاون العملى مع البلاد العربية ، وتبادل المنافع الثقافية بين البلاد المختلفة ، وبموجب الاتفاقيات والمعاهدات الثقافية بين الدول الأعضاء فى الجامعة ، أمكن ارسال عدد كبير من المبعوثين والمدرسين الى السودان للمساهمة فى التدريس الدينى فى كثير من المدارس والمعاهد الدينية هناك .

وقام الاقليم الجنوبى من الجمهورية العربية المتحدة بدور ملحوظ فى خدمة الثقافة والاسلام فى الدولة الشقيقة .

الاسلام فى الحبشة

عرف العرب الحبشة منذ العصر الجاهلى . ولما اختار الله سبحانه محمدا صلى الله عليه وسلم لتبليغ رسالته ، وبعثه بالهدى ودين الحق الى الناس كافة ، صادف الرسول الكريم فى سبيل دعوته ضروبا من الأذى ، ولاقى صنوفا من الهوان ... بيد أنه صبر وثابر . وقد نال أصحابه من الاضطهاد والهوان ما ضيق فى وجوههم المسالك ، وترصدتهم المهالك فى كل طريق ، وأوذوا فى أنفسهم وأموالهم ، فقال لهم الرسول صلوات الله عليه : « اخرجوا الى جهة أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد ،

وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » .

وخرجوا مهاجرين الى الحبشة ، وعدتهم ثلاثة وثمانون رجلا وثمانى عشرة امرأة ، وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب . وأوفدت قريش فى أثرهم عمرو ابن العاص — وكان وقتئذ على دين قريش — وعمارة بن الوليد بن المغيرة ، ومعهما هدية الى النجاشى ملك الحبشة ، لكى يرد الى مكة من هاجر الى بلاده من المسلمين .

فلما دخل عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد على النجاشى ، سجدا له ، وجلس أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، وقالا : « ان نفرا من بنى عمنا نزلوا أرضك ، فرغبوا عنا وعن آلهتنا ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم . وقد بعثنا الى الملك فيهم أشراف قريش لتردوهم اليهم » . فقال النجاشى : « وأين هم ؟ » . قالوا : « بأرضك أرسل فى طلبهم » . فانتفض النجاشى من مكانه ، وقال فى عزم واصرار ورباطة جأش : « والله لا أسلم حتى أعلم على أى شىء هم » .

فأراد عمرو بن العاص أن يستخدم دهاءه — وكان معروفا بالدهاء — حتى يظفر برضا ملك الحبشة ، ويوغر صدره على المسلمين فيسلمهم فقال : « يا أيها الملك العظيم . انهم قوم لا يسجدون للملك اذا دخلوا عليه رغبة عن سنتكم ودينكم » ، ولكن النجاشى أراد أن يتأكد من ذلك بنفسه ، فأمر باحضارهم ليعلم صدق حديثهم ، ويقف بنفسه على أمرهم . فلما جاءوا كان جعفر بن أبى طالب على رأسهم ، فأخذوا يتشاورون فيما يجيبون به الملك اذا دخلوا عليه . فاستقر رأيهم على أن يجيبوا بما أمر به الرسول الكريم ، الصامد فى مكة يصابر قريشا ويتحمل أذاها ويناضل فى سبيل الدعوة الاسلامية دون كلال ولا ملال ودون خوف ولا وجل .

ودخلوا على النجاشى حاملين المصاحف فى أيديهم ، وابتدروه بالسلام ، فقال الملك لجعفر : « ما لك لا تسجد ؟ » . وسارع عمرو بن العاص فقال : « ألا ترى أنهم يكتفون بأنهم حزب الله أيها الملك ؟ انهم مستكبرون ، ولم يحيوك التحية اللائقة ! » . ولكن النجاشى لم يثر ، ولم يغلظ القول ، انما قال لهم فى تؤدة وهدوء : « ما منعكم أن تسجدوا وتحيونى بتحيتى التى يحيينى بها الناس ؟ » .

قال جعفر بن أبى طالب فى شجاعة وصلابة عود : « لا نسجد الا لله عز وجل » . فسر الملك بهذه الشجاعة النادرة ، وهذا الايمان العميق وقال : « لم ذلك ؟ » ، فأجابه جعفر : « لأن الله تعالى أرسل فينا رسولا ، وأمرنا ألا نسجد الا لله عز وجل ، وأخبرنا أن تحية أهل الجنة السلام . وقد حييناك بالذى نحيى به بعضنا بعضا » . فأيقن النجاشى بصدق قولهم لما يعلمه من ذلك فى الانجيل .

وشعر عمرو بن العاص بخيبة مسعاه ، وفشله فى تأليب النجاشى على المسلمين ، فاندفع قائلا : « انهم يخالفونك فى ابن مريم ، ولا يقولون انه ابن الله عز وجل » . فقال النجاشى لجعفر : « فما تقولون فى ابن مريم وأمه ؟ » . فقال : « نقول كما قال الله عز وجل : روح الله وكلمته ألقاها الى مريم العذراء فخرج منها عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام » .

فقال النجاشى : « يامعشر الحبشة والقسيسين والرهبان ما يزيدون على ما تقولون . أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذى بشر به عيسى فى الانجيل . فأشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ...

لقد سألت عن نسب الرسول ، فقالوا : هو فينا ذو نسب . وهكذا الأنبياء يرسلها الله ويصطفيها من صفوة خلقه . وسألت عن حاله أيطلب ملكا فقالوا : لا . وهكذا الأنبيـاء فى دعوتهم الى الله خالصة لا يبغون من ورائها جاها ولا سلطانا . وسألت عن صدقه ، فقالوا : صادق . وهكذا الأنبياء يشتهرون بالصدق ، ويتسمون بالاخلاص . والله انه لرسول الله حقا . وستنتشر دعوته حتى تعم الآفاق ، فخذوا على يد هذا الرجل الأمين » .

وقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، على يد عمرو بن أمية ، كتابا الى النجاشى جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى النجاشى ملك الحبشة : سلم أنت ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس ، السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقـاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخته ، كما خلق آدم بيـده . وانى أدعوك الى الله وحـده لا شريك له والموالاة على طاعتـه ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى ، فانى رسـول الله أدعوك وجنودك الى الله عز وجل . وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى . والسلام على من اتبع الهدى » .

فلما سلم جعفر بن أبى طالب الكتاب الى النجاشى ، وضـعه على عينيه ، ونزل عن سريره وجلس على الأرض ، وقال : « أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله » . وطلب حقا من العاج ، ووضع فيه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول : « لن تزال الحبشة بخير ما كان هذا الكتاب بين أظهرهم » . ثم بعث بكتاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم الى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من النجاشى أصحمة سلام عليكم يانبى الله من الله ورحمتـه وبركاته الذى لا اله الا هو ، والذى هدانى للاسلام . أما بعد ، فقد بلغنى كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى عليه السلام فورب السماء والأرض ان عيسى عليه الصلاة والسلام لا يزيد على ما ذكرت . وقد عرفنا ما بعثته الينا وقربنا ابن عمك وأصحابك ، وأشهد أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم صادقا . وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يده بالله رب العالمين » .

وقد سر النبى سرورا عظيما لاسلام النجاشى ، وعده ظفرا للمسلمين ، ولما توفى فى عام ٦٣٠ م صلى عليه الرسول صـلاة الغائب وقد عبثت بقبره السنون ، فجدد ضريحه أحـد أغنياء السـودان الأتقياء ، وهو الحاج أزماج محمد عبده ، من أهالى عدوة تجرى ولا يزال الأحباش يؤمونه حتى اليوم مترحمين على أول ملك مسلم فى تاريخ الحبشة .

والجدير بالذكر أن الرسول الكريم كان يعامل الأحباش معاملة حسنة ، ويفقههم فى أمور الدين ... بل لقد لازمه بعضهم ، ورووا الأحاديث النبوية عنه ومن هؤلاء ذو مخمد — أو مخبر فى رواية أخرى — وهو ابن أخى النجاشى وقد لازم النبى ملازمة كلية حتى عده بعض العلماء من مواليه . ونزل الشام فى آخر أيامه ، ومات فى حدود الستين للهجرة .

وقد تتابع على مر السنين اسلام القبـائل الحبشية فأسلمت قبيلة « الحباب » التى تعيش بين بنى عامر والبحر ، وهى تضم ثلاث قبائل فى الشمال الغربى من مصوع ، وأسلمت قبائل مسيحية مثل « تيماريام » ، أى عطية مريم ، و « هبته » أى عطية يسوع ، و « تاكلية » أى بنات يسوع .

كما اعتنق السواد الأعظم من قبيلتى المنساع الاسلام بعد ذلك .

وكذلك أسلمت قبائل عفر أو « الدناكل » ، وهى فى الشرق بحذاء الساحل ، وتمتد مساكنها جنوبا حتى تصل الى الصومال .

وتنتشر فى الحبشة الطرق الصوفية . ومن أشهر هذه الطرق : الطريقة القادرية ، وهى فرع من الطريقة التى أسسها الشيخ عبد القادر الجيلانى فى بغداد عام ١١٦٦ م . وتهدف الى روح التسامح مع النصارى واليهود ، وهم يبشرون بالاسلام من طريق التجارة وتبادل المنافع ؛ ويفتحون كتاتيب خاصة بهم ، لا فى زوايا الطريقة فحسب ، انما فى كل القرى ، ويلقن شيوخ هذه الطريقة الأطفال الأحباش الدين الاسلامى فى أثناء التعليم ، ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا الى مدارس طرابلس والقيروان وجامع القرويين والأزهر الشريف .

وفى الحبشة كذلك الطريقة الأحمدية ، وهم أتباع الزعيم الصوفى أحمد بن ادريس الذى توفى بالعسير فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، والطريقة الصالحية ، نسبة الى محمد صالح ، وكان مقامه فى مكة وهذه الطريقة فرع من الأحمدية ، وقد استطاع أحد تلاميذ محمد صالح من علماء الصومال — وهو محمد بن عبد الله حسان ، الذى لقب أخيرا بالمهدى — أن يبوىء الصالحية مركزا قويا بين قبائل الصومال ، فأسس جماعات منظمة على ضفاف الأنهار .

وتنتشر فى الحبشة أيضا طرق صوفية أخرى ، مثل الختمية والشاذلية وهذه الطريقة الأخيرة كانت منتشرة فى المغرب ، وانتقلت الى الحبشة ، وكان مركزها « بوبريت » فى مراكش . ومن أشياخها سيدى العربى الدرقاوى المتوفى عام ١٨٢٣ م . ويطيع الدرقاوية مشايخهم طاعة تامة ، طبقا لتعاليم شيخهم الأكبر ، الذى قال حينما حضرته الوفاة : « يجب على الاخوان أن يكونوا فى يد المرشد كالجثة بين يدى الغاسل » .

وفى ٢١ يناير عام ١٩٥٣ افتتح مسجد مصوع فى الحبشة . وقد بنى المسجد بجوار الكنيسة فصدق قول شوقى :

أدار محمد وتراث عيسى
لقد رضياك بينهما مشاعا

لقد نبذ التعصب فيك قوم
ليمتنع الحمى بهم امتناعا

وقد بنى المسجد على نفقة الأمبراطور هيلاسلاسى امبراطور الحبشة الحالى ، وقال قاضى مصوع لجلالته عند افتتاحه : « نظرتم الى الاسلام بحكمتكم الرشيدة ، وأدركتم طبيعته السليمة ، ووقفتم عند الغاية التى ينشدها رعاياكم المسلمون فى هذا البلد ... تلك هى عمارة المسجد ليؤدوا فيه شعائرهم الدينية فى كل وقت وحين » .

وفى بعض المناطق بالحبشة محاكم شرعية اسلامية ، ويشغل الشيخ عبد القادر محجب قاضى القضاة منصب رئيس المحكمة ، وهو من أهالى بلدة « كرن » بأريتريا . أما عضواها فهما الشيخ أحمد عبد الرحمن ، والشيخ سلطان جميل ، وقد تلقيا علومهما بالأزهر الشريف .

وقد أصدر هيلاسلاسى منذ سنوات أمرا باصدار جريدة « العلم » باللغة العربية ، الى جانب الصحف الأخرى التى تصدر باللغات الأمهرية والانجليزية والفرنسية فى أديس أبابا . وتصدر العلم كل أسبوع . وكتب الامبراطور فى صدر هذه الصحيفة تقول :

« منذ تسلمنا مقاليد الحكم ، ونحن دائبون على

فتح المدارس لأبناء المسلمين والمسيحيين على السواء دون تحيز بين الأديان أو القبائل ، لأن الجميع أمام القانون سواء ، ولأنهم أبناء أثيوبيا بالرغم من جهود العدو التى بذلها للتفريق بين عنصرى الأمة . وقد بذلوا جميعا دماءهم فى سبيل القضية الكبرى . والمسلمون أذكياء ناهضون ، عرفوا مقاصد العدو فأفسدوا عليه حيله ، لأنهم يعرفون ما أوصى به نبيهم الكريم صلى الله عليه وسلم عن كرم أثيوبيا ، وحسن وفادتها للمسلمين الأوائل الذين هاجروا اليها » .

ويبلغ عدد المسلمين فى الحبشة ٤٫٧٨٠٫٠٠٠ نسمة من جملة السكان البالغ عددهم ١١٫٨٩٥٫٠٠٠ نسمة . وهم يزاولون فرائضهم الدينية فى المساجد المنتشرة فى ربوع الحبشة ، وفى الزوايا العديدة الموجودة فى القرى . ويرجع تاريخ بعض هذه الزوايا الى مئات السنين . ومن أشهر مساجد الحبشة كذلك مسجد أسمرة .

وهناك المدرسة الاسلامية الابتدائية بأسمرة ، وقد أنشأها الحاج محمد عبيد باحبيش عام ١٩٤٢ ، وهو من التجار الحضارمة ، ومؤسسة صالح باشا ككيا بمدينة حرقيقو من ضواحى مصوع ، وتضم خمس مدارس : المعهد الدينى ، والمدرسة الأولية ، والمدرسة الوسطى ، ومدرسة للبنات ، ومدرسة فنية صناعية . وقد وقف عليها صالح باشا ككيا ثلاثين حانوتا فى أديس بابا تغل كل شهر ثلاثمائة جنيه .

وهناك معهد مصوع الدينى الذى أنشأه الحاج أحمد عبد الرحمن هلال ، التاجر المصرى ، على أنقاض مسجد عبد الله المهدى ، ويشتمل على ثلاث حجرات صالحة للدراسة ، ووقف عليه أحد عشر حانوتا تقع فى الطابق الأول من بناية المعهد ، وتغل ٢٥ جنيها فى الشهر . وكذلك معهد كرن الدينى ، ويقع بالقرب من حدود السودان من جهة كسلا ، وهو يشتمل على ست حجرات للدراسة .

وقد تقرر منذ سنوات أن تتحد اريتريا مع أثيوبيا — واريتريا تقع فى الشمال من هضبة أثيوبيا — فى اتحاد فيدرالى أو حكم اتحادى .

ويكاد يتساوى عدد المسلمين فى كل من اريتريا وأثيوبيا ، وهم يعيشون مع اخوانهم المسيحيين فى جو تسوده المحبة والوئام .

الاسلام فى أفريقية الغربية

يوجد عدد كبير من المسلمين فى غانا ونيجيريا والكمرون وتوجولاند ... ونيجيريا هى أكبر الدول فى غرب أفريقيا . ومن المنتظر أن تستقل فى أكتوبر عام ١٩٦٠ ورئيس وزارتها مسلم هو الحاج أبو بكر تفاوا ، نائب زعيم حزب مؤتمر شعب الشمال ، الذى أثبت فى الانتخابات الأخيرة أنه أقوى الأحزاب السياسية . ويبلغ عدد سكان نيجيريا ٢٤ مليون نسمة ، منهم ١٧٫٤٠٠٫٠٠٠ نسمة من المسلمين .

ويسكن غانا قبائل آتية من المغرب ، منذ القرن الحادى عشر . وقد أسس فرع من هذه القبائل دولة المرابطين فى اسبانيا ومن أهم المدن التى ازدهر فيها الاسلام « والاتا » التى زارها بعض الرحالة العرب ، وتضم بعض المساجد . وقد خضعت غانا فى منتصف القرن السادس عشر لمولاى أحمد سلطان مراكش ومنذ ذلك الوقت انتشرت فيها بعض القبائل الاسلامية .

وقد ضمت توجولاند أخيرا الى غانا ، وبها ٣٠٫٠٠٠ من المسلمين ، وثلاثة مساجد ، وست مدارس لتحفيظ القرآن .

أما الكمرون التى استقلت فى أول يناير عام

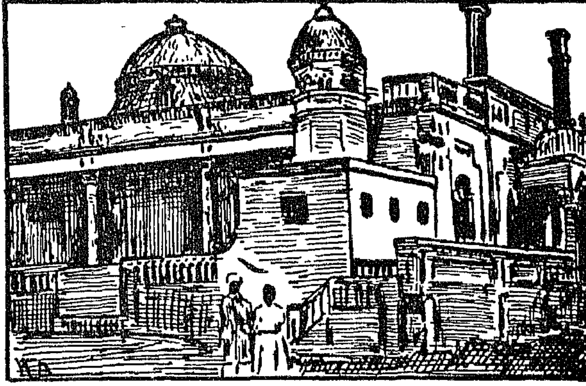
١٩٦٠ م ، ففيها بعض المسلمين . وقد تقلد رياسة الحكومة فيها زعيم مسلم ، هو أحمد واجيد جو .

أما ليبريا فيبلغ عدد المسلمين فيها نحو ٣٠٠ر٠٠٠ نسمة ، وفيها نشاط ملحوظ لبعض الطرق الصوفية مثل القادرية والتيجانية وغيرها .

وقد تعاقبت على غرب أفريقيا ، منذ القرن التاسع حتى القرن التاسع عشر ، امبراطوريات اسلامية كثيرة كان لها أثر بالغ فى انتشار الاسلام فى تلك الجهات .

وقد كتب موريل فى كتابه يتحدث عن أفريقيا الغربية ومشكلاتها ، فقال : « ان الاسلام لا يتطلب — من وجهة نظر أهل نيجيريا — أن يفقد أحدهم قوميته ، لأن ذلك شىء لا يصحب الدخول فى الاسلام ، ولا يستلزم تغيرات انقلابية فى الحياة الاجتماعية ، ولا هو يقوض نفوذ الأسرة أو سلطة الجماعة . وليست هناك هوة بين الداعى الى الاسلام والمتحول اليه ... فكلاهما متساو — عمليا لا نظريا — أمام الله ، وكلاهما أفريقى ، وهما من أبناء أرض واحدة ...

« ومبدأ التآخى الانسانى ينفذ تنفيذا عمليا . ولا يعنى الدخول فى الاسلام أن ينصرف الداخل فيه عن شئونه وأسرته وحياته الاجتماعية ، ولا عن احترامه لسلطان حكام بلاده الأصليين . وليس هناك من لا يعجب بسلوك المسلم النيجيرى ووقاره ... بل بسلوك مسلمى أفريقية عامة . وان هيئة الرجل العامة لتنم عن شعور بالقومية ، واعتزاز بالجنس . يخيل اليك أنه يقول : ان كلا منا يختلف عن الآخر ، ولكننا جميعا بشر . وان انتشار الاسلام الذى نشهده اليوم فى نيجيريا الجنوبية ليؤثر بصفة خاصة تأثيرا اجتماعيا .



مسجد سالتبوند بجمهورية غانا

ويمنح الاسلام هؤلاء الذين يتصلون به منزلة أرقى وفكرة أسمى عن مكانة الانسان من العالم المحيط به ، ويحرره من ربقة الأوهام الخرافية »

الاسلام فى الكنغو البلجيكى

وصل الاسلام الى الكنغو عن طريق منافذ مختلفة ... فبعض المسلمين جاء من الحبشة ، وبعضهم جاء من السودان ، وبعضهم وصل من زنجبار . وقد تولى القيادة فى الكنغو البلجيكى بعض الزعماء المسلمين ، مثل حميد بن محمد ، الذى كان له نشاط سياسى معروف فى النصف الأول من القرن التاسع .

ويبلغ عدد المسلمين فى الكنغو البلجيكى والفرنسى نحو ٢ر٥٢٢ر٠٠٠ نسمة من مجموع السكان البالغ نحو ١١ر٧١٦ر٠٠٠ نسمة .

الاسلام فى روديسيا

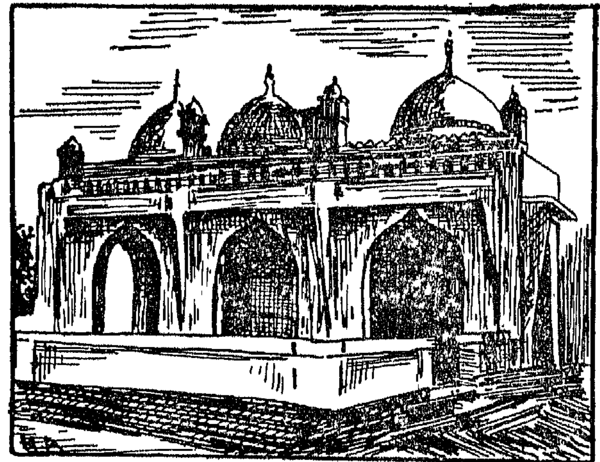
يبلغ عدد سكان روديسيا ٣ر٨٩٣ر٠٠٠ نسمة ، منهم ١١٢ر٠٠٠ نسمة من المسلمين ، منتشرون فى روديسيا الشمالية والجنوبية . أما نياسالاند ففيها عدة مكاتب لتحفيظ القرآن الكريم .

الاسلام فى موزمبيق

تقع موزمبيق بين افريقيا الوسطى البريطانية وجنوب أفريقيا . وقد دخل الاسلام اليها فى القرن الثانى عشر للميلاد ، على يد أمير مسلم يسمى داود الثانى . وقامت الهجرات بدور كبير فى نشر الاسلام فى تلك المنطقة ، ولا سيما على الساحل ، ثم توغل فى المنطقة . ويبلغ عدد المسلمين فى قمران على الساحل نحو ٢٠٠٠ ، كما يوجد عدد من المساجد فى موزمبيق ، ومحكمة شرعية .

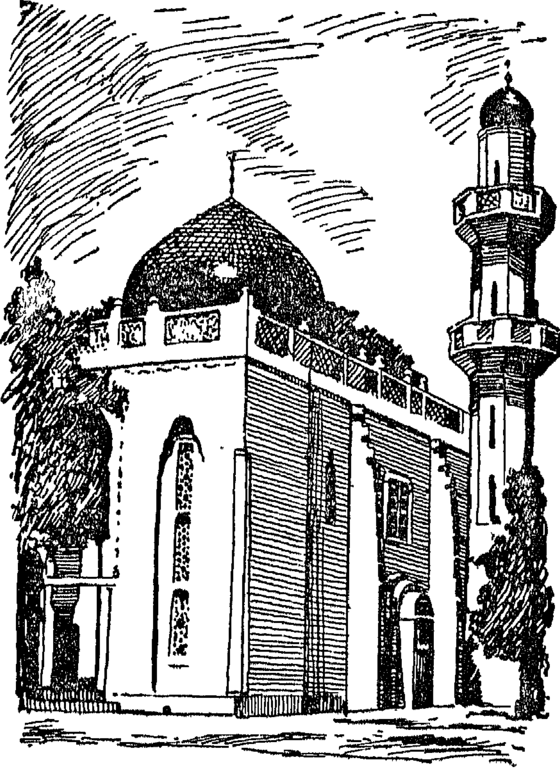
الاسلام فى شرق أفريقية

توجد فى شرق أفريقية أربعة أقاليم سياسية ، هى كينيا وتنجانيقا وأوغندة وزنجبار . ويبلغ عدد المسلمين فى هذه المقاطعات حوالى أربعة ملايين . وهناك العرب الذين نزحوا — ولا



مسجد دار السلام بشرق افريقيا

يزالون — من جزيرة العرب ، وخاصة من عمان وحضرموت وعدن ومسقط . وهم متغلغلون فى البلاد كلها ونجدهم — على قلتهم فى المدن وفى القرى وفى الغابات — يندمجون مع الوطنيين ،



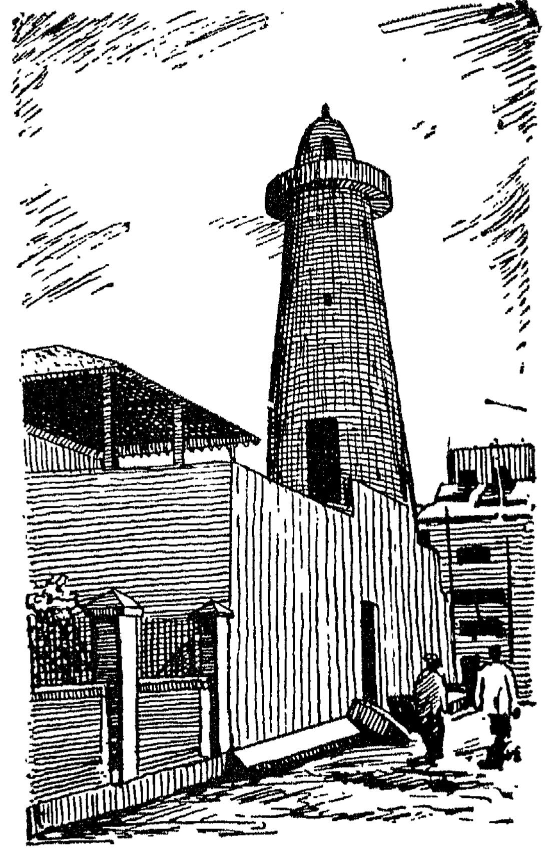
جامع معهد التعليم الاسلامى بشرق افريقيا

ويتزوجون منهم . وحاكم زنجبار مسلم ، ويدين له عرب أفريقيا الشرقية بالطاعة والولاء .

وفى زنجبار قضاة لأهل السنة ، وقضاة لطائفة الأباضية ، وفيها بعض الشيعة الاثنا عشرية ... كما أن بها مدارس لطائفة الاسماعيلية . وهم يرون انحصار الخلافة فى على وذريته ، ولا يزالون يتمسكون بعادة الحداد على الحسين عليه السلام ، ولهم كثير من المساجد الضخمة التى ينفقون عليها بسخاء .

ولطائفة الاسماعيلية نشاط تجارى ملحوظ فى شرق افريقية .

وفى زنجبار أيضا طائفة البهرة ، وهم فرع من الشيعة ، وزعيمهم فى الهند هو طاهر سيف الدين . وهم يرون أنه معصوم من الخطأ ، وينسبون له كثيرا من الخوارق والكرامات .



جامع فى مدينة ممباسا بشرق افريقيا

وقد كان سلطان أوغنـدة مسلما فى فترة من الفترات . وكان ينوى بنـاء مسجد للمسلمين ، ولكن المنية عاجلته ، وقد قام حفدته من بعده بهذا العمل العظيم .

ومن المنتظر أن يكون للاسلام مستقبل عظيم فى تلك الجهـات ، لو كثرت البعثات التبشيرية اليهـا .

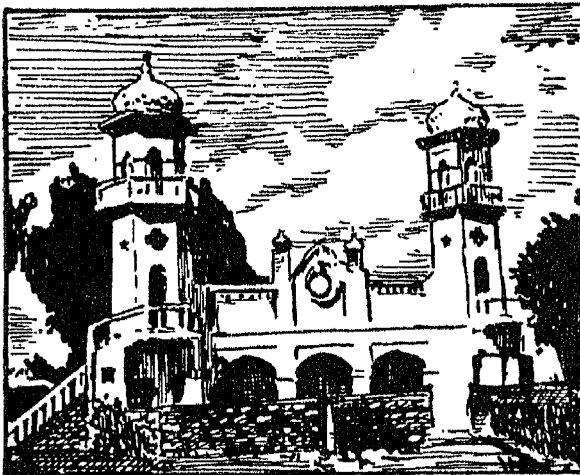
الاسلام فى كينيا وزنجبار

تقع كينيـا بين تنجانيقـا والصومال الايطالى وأوغندة . وقد دخلها الاسلام عام ٨٦٠ م على يد أهل عمان الذين حضروا الى البـلاد للاستعانة بجهود الأهلين فى عمران العراق . ومعظم سكان الساحل من العرب المسلمين . وقد دخل الاسلام الى بعض القبائل المجاورة للساحل .

وفى شمال كينيا توجد قبائل صومالية مسلمة . وللمسلمين هناك مدارس لشتى فروع التعليم . وفى مدينـة « منبسة » مدرسـة عربيـة ثانوية للبنين ، ومدرستان ابتدائيتان كبيرتان : احداهما للبنين ، والأخـرى للبنات . كما يوجـد معهـد للدراسات الاسلامية يؤمه عدد كبير من المسلمين من تنجانيقا وأوغنـدة والصومال . ويبلغ عـدد سـكان كينيـا ٥ر٦٩٢ر٠٠٠ نسـمة ، منهم ٢٠٨ر٠٠٠ نسمة من المسلمين .

* * *

تقع جزيرة زنجبار على مسافة عشرين ميلا أو نحوها من الساحل الأفريقى . ويبلغ عدد سكانها نحو ٣٠٠ر٠٠٠ نسمة ، ومساحتها ١٥٠٠ ميل مربع وبين السكان ٤٠٠٠٠ عربى ، و ٢٥٠٠٠ هندى ، و ٢٣٠٠٠٠ أفريقى ، وبضع مئات من الأوربيين . وقد استقر العـرب فيها منذ نحو ١٠٠٠ سنة . وبعد خمسمائة سـنة وصـلها الرحالة البرتغالى



مسجد الاحمدية بمدينة نيروبى ـ كينيا

المعروف « فاسكو داجاما » ، وأصبحت عام ١٥٠٣م مستعمرة برتغالية .

وبعد مائتى سنة جاء أسطول زاخر بالمحاربين العرب ، أرسلهم سلطان عمان ومسقط ، فحرروا تلك المنطقة من البرتغاليين ، وأصبحت قسما من تلك السلطنة . وفى عام ١٨٣٢م نقل سعيد بن سلطان بلاطه من مسقط الى زنجبار ، وتم انفصالها عن سلطنة عمان . وقد أسس السلطان سعيد برغش عام ١٨٨٣ م بيتا على النظام العربى يسمى بيت العجائب ، ويلعب فى حدائقه الأطفال فى جزيرة زنجبار .

ويقوم السلطان خليفة بن حرب ، سلطان زنجبار ، بكثير من الجولات لتفقد أحوال المسلمين فى الجزيرة .

الاسلام فى الصومال

تقع الصومال على المثلث الذى تنتهى اليه أفريقيا ، بين خليج عدن والمحيط الهندى . ويحد هذا المثلث شمالا خليج عدن ، وجنوبا وشرقا المحيط الهندى ، وغربا الحبشة .

وفى الصومال بعض المسلمين ، وأكثرهم على المذهب الشافعى . وقد جاء فى كتاب السلطنة الاستعمارية الألمانية ما يفيد أن أهل الصومال اختلطوا بالعرب منذ أقدم العصور ، وأن صورهم وتقاطيعهم لا تختلف عن صور العرب وتقاطيعهم . وجاء فى دائرة معارف البستانى أن لغة أهل الصومال الأصليين فيها كثير من الألفاظ العربية . ويقول أحد الباحثين — وهو الاستاذ عبد الله المشد ، عضو البعثة الأزهرية لهذه البلاد — ان الصوماليين ينطقون لفظ الجلالة الله : « الهى » ، ويعبرون عن أشكرك بقولهم : « شكرنا غنى » ، وعن أحسنت بقولهم : « أسحنت » .

وفى منطقة أوجادين — التى كانت بريطانيا قد أهدتها الى الحبشة مكافأة لها على اشتراكها فى اخماد ثورة عبد الله المهدى فى الصومال ، ثم أكدت هذه المكافأة بمعاهدة عام ١٨٩٧م — كثيرون من المسلمين ، ومن زعمائهم الشيخ محمد عبد الله حسن ، الذى تلقى العلوم الدينية والعربية فى الحجاز . وقد حافظ على الشريعة الاسلامية ، ونهى الصوماليين عن شرب الخمر وتعاطى المسكرات .

ومن علمائهم الشيخ على الصوفى ، الذى تلقى العلم فى مكة ، وقام بالتدريس فى هرر وأوجادين . وفى الصومال قبائل الاسحاقيين الذين ينتمون الى اسحاق بن أحمد ، الذى نزح من الجزيرة العربية الى زيلع فى القرن السابع للهجرة . وهناك مسلمون فى قبائل هاويا والأبقال والدروبيمال وعيسى ، وغيرها من القبائل التى تستوطن الصومال . ومن أشهر العرب فى الصومال الحاج محمد على كبيش الذى يعد أكبر تاجر فى جيبوتى . وقد أسس مدرسة النجاح الاسلامية بها ، وابنه السيد سعيد محمد على كبيش ، والسيد على الثقاف ، القاضى الشرعى المتخرج فى الأزهر . وهناك جاليات باكستانية . وفى الصومال فضلا عن ذلك بعض الطرق الصوفية : مثل الطريقة القادرية ، والطريقة الصالحية الأحمدية ، والطريقة الرفاعية ، والطريقة الدندراوية ... نسبة الى الشيخ أبى العباس الدندراوى ، من أهل دندرة فى صعيد مصر .

وتوجد أسطورة شائعة لدى الصوماليين بأن عربيا عريقا فى الأصل أجبر على أن يغادر بلاده ،

فعبر البحر الى عدن ، ودعا الى الاسلام بين أجدادهم .

وفى القرن الخامس عشر للميلاد جاءت من حضرموت جماعة تتألف من ٤٤ عربيا نزلوا فى بربرة على البحر الأحمر ، ثم انتشروا فى بلاد الصومال يدعون الى الاسلام . وقد شق أحد هؤلاء اللاجئين — وهو الشيخ ابراهيم أبو زرباى — طريقه الى هرر حوالى عام ١٤٣٠ م ، واستطاع أن يحول كثيرين الى هذا الدين ، ولا يزال قبره موضع تعظيم فى هذه المدينة .

ويقول سير « توماس أرنولد » انه يوجد عن كثب من بربرة جبل يسمى جبل الأولياء ، وقد أطلق عليه هذا الاسم تبركا بمن كانوا يخلون الى أنفسهم فى ظله للتعبد والتهجد والدعوة الى الاسلام . وقد قام التجار الوافدون من اليمن بنشر الاسلام فى الصومال ، ولا سيما فى المرافىء والمراكز الساحلية التجارية التى نزلوا بها . وقد ظل أثر هؤلاء التجار اليمنيين المسلمين باقيا فى نشر الاسلام حتى اليوم .

الاسلام فى اتحاد جنوب أفريقية

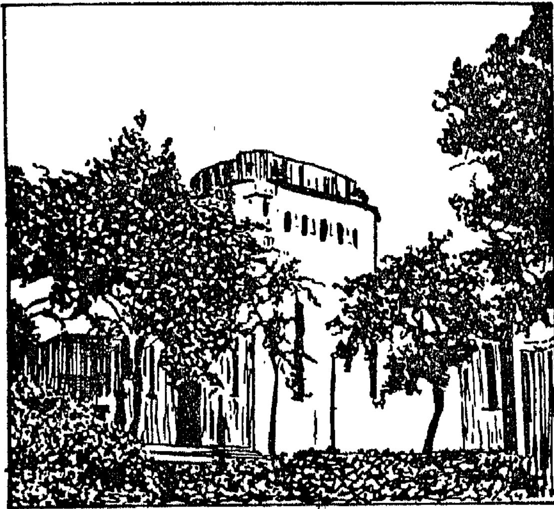
يبلغ عدد السكان فى اتحاد جنوب افريقيا ١١٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة ، منهم ٨٣٫٠٠٠ نسمة من المسلمين ، جاء معظمهم من الملايو وجزر الهند الشرقية . وفى اتحاد جنوب أفريقيا مدارس ابتدائية لتدريس اللغة العربية ، وبه كثير من المساجد . ومن أهم المدن العامرة بالمساجد مدينة الكاب التى تضم نحو ٢٣ مسجدا ، وفى مدينة كمبرلى مسجدان . ويحرص القادرون من المسلمين على أداء فريضة الحج . وفى اقليم بيتشوانالاند ، فى شمال اتحاد جنوب افريقيا ، يبلغ عدد المسلمين نحو تسعة آلاف .

الاسلام فى الجزر الأفريقية

يوجد عدد من المسلمين فى جزر مدغشقر وقمر وأنجوان وسقطرى وكمران وسيشل وغيرها من الجزر . وكان العرب الأولون يسمونها جزائر القُمر (بضم القاف وسكون الميم) ، وقد تحرك الميم فتلفظ قُمُر (بضمتين) ، ويسميها الفرنج (قومور) .

وقد ذكر المسعودى فى مروج الذهب أن قنبالو أو انجوان فتحت عام ٨٢٤ م على أيدى الأزد الأباضيين ويقول « كارثى » فى كتابه « جزر افريقيا فى بحر الهند والجزر العربية » : ان رجلا عربيا باسلا قد نصب نفسه سلطانا على جزائر القمر الكبرى ، ويوجد فى جزائر القمر ٦٧٠ مسجدا وزاوية .

أما جزيرة مدغشقر فقد انتشر الاسلام فيها بين قبائل الانتامورونا التى تسكن الساحل الجنوبى الشرقى من مدغشقر . ويقال ان أصلهم من مكة ، ويحفظون كتبا عربية خطية قديمة جدا ، وينادون بأن كل انسان منهم يجب عليه أن يكتب ويقرأ



مسجد نازال (أو مسجد لندن) باتحاد جنوب افريقيا

باللغة العربية ، ليكون أهلا لتقلد أى منصب من المناصب أو التقدم للزواج . وكانت جميع الرسائل الرسمية ، فى قصور ملوكها الأقدمين ، مكتوبة باللغة العربية . وهم يستخدمون دائما البسملة والحوقلة فى أحاديثهم .

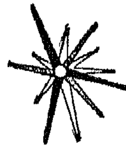
وقد أشار الرحالة المشهور « ماركوبولو » الايطالى البندقى — عندما قام برحلته المشهورة فى القرن الثالث عشر — الى انتشار الاسلام بين هذه القبائل . وقال مؤرخ فرنسى يسمى « فرانسوا غوش » : « ان الديانة المحمدية التى يدين بها أهالى السواحل المقابلة لمدغشقر ، لاشك أنها وصلت الى مدغشقر نفسها . فانهم يختتنون ، ولا يشتغلون يوم الجمعة ، ولا يأكلون لحم الخنزير أو المختنقة ، ولا يأكلون لحم الحيوان الا اذا كان مذبوحا ، ولا يجلسون الا متربعين على السجاد أو الحصير ، ولا يؤدون شيئا من الشعائر دون أن يغتسلوا » .

ويبلغ عدد سكان مدغشقر ٤٫٣٤٩٫٠٠٠ نسمة ، منهم ٨٣٠٫٠٠٠ نسمة من المسلمين .

أما جزيرة أنجوان — وهى من أرخبيل جزائر القمر — ففيها كذلك عدد من المسلمين . وهناك جالية من العرب ، أصلها من سواحل خليج فارس أو سواحل البحر الأحمر ، وعليها سحنة أهل اليمن . وأكثر المسلمين هناك يدعون شرف النسب الى النبى وأهله وعشيرته ، ويقضون معظم أوقاتهم مضطجعين فى داخل بيوتهم ... حتى اذا أزف الغروب ، ذهبوا الى الجامع للصلاة .

ويتبع الأنجوانيون سياسة خاصة فى تعليم أبنائهم ، فلا بد للطالب فى سن السادسة أن يعرف القراءة والكتابة والحساب والتقويم والعقائد . ويكتب لهم المعلم على ألواح بيضاء ، بقلم من قصب الكامو ، آيات من القرآن الكريم لابد للأولاد أن يحفظوها . ويواظب أهل أنجوان على الصلوات الخمس . ومن الغريب أن جميع الأهالى يصومون رمضان ... حتى غير المسلمين ، كما يقول المؤرخ الكبير شكيب أرسلان .

ويوجد فى الجزائر الأخرى طوائف متناثرة من المسلمين تنتشر هنا وهناك ، وتؤدى عباداتها على قدر ما تتلقن من تعاليم الاسلام ، وما يقوم به الوعاظ من دور تبشيرى فى هذا الميدان .



الإسلام فى أوربا

دخل العرب أوربا عن طريقين : الطريق الأول طريق الأندلس وقد وصلوا منه الى جنوب فرنسا . والطريق الثانى طريق صقلية ومدن ايطاليا ، وقد استطاعوا أن يتوغلوا فى ايطاليا ، وأن يحاصروا روما مقر الحبر الأعظم . حتى ان البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ — ٨٨٢ م) ظل يؤدى لهم الجزية مدة سنتين .

ثم دخل الأتراك أوربا من الشرق فى القرن الخامس عشر . وكان العرب والأتراك يحملون فى هذه الفتوح الدين الاسلامى ، والثقافة الاسلامية اللذين كان لهما أثر كبير فى نفوس الأوربيين ، فاعتنق بعضهم الاسلام ، وأحب بعضهم الثقافة العربية حبا جما ، وعكف على دراستها والتزود منها ، وأنشئت معاهد تهتم بالثقافة الاسلامية والحضارة العربية ، ونقل بعض آثار العرب الى اللغات الأجنبية . وكان تأثير الفلاسفة العرب والعلماء العرب فى الحضارة الأوربية قويا ملحوظا .

الاسلام فى جزر البحر الابيض

وقد فتح المسلمون جزيرة صقلية ، وظلت فى حوزتهم مائة وتسعة وثمانين عاما ، وعمروا مدينة « بالرمو » ، وأنشأوا فيها المساجد ، حتى ان الرحالة الجغرافى « ابن حوقل » ذكر فى وصفها أنه وجد فيها أكثر من مائة وخمسين حانوتا للقصابين لبيع اللحوم ، وأنها تضم أكثر من ثلاثمائة مسجد ، وأن مسجدهم الجامع قام فيه أكثر من ستة وثلاثين صفا للصلاة ، كل صف يحتوى على ما يقارب مائتى رجل مما جعل عدد المصلين يبلغ سبعة آلاف .

وقد قامت صقلية بدور كبير فى نشر الثقافة العربية والدين الاسلامى فى أوربا . ولم تكن جزيرة صقلية الجزيرة الوحيدة التى احتلها العرب فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، انما استولوا على بعض الجزر الأخرى ، ومنها جزيرة أقريطش « كريت » التى افتتحها عام ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) بحار عربى باسل هو أبو عمر حفص بن عيسى الأندلسى . وفتح المسلمون جزيرة كورسيكا ، موطن نابليون بونابرت ومسقط رأسه ، على يد موسى بن نصير فاتح الأندلس عام ٧١٣ م ، ثم فتحوها بعد ذلك أكثر من مرة ، واستطاعوا البقاء فيها أكثر من قرن ، كما فتحوا جزيرة « سردانيا » منذ فاتحة القرن الثامن للميلاد .

وفتح العرب جزيرة مالطة عام ٢٥٥ م واستولوا على جزيرة قبرص ، وكانت بينهما وبين المسلمين علاقات طيبة ، كما كانت تنقسم الى قسمين : قسم للمسلمين ، وقسم للنصارى ، وكان للمسلمين بها أمير وحاكم . ويقول ابن حوقل ان جزيرتى قبرص واقريطش « كريت » كانتا جزيرتين كثيرتى الخير والمير والتجارة .

وفى رودس الآن مئات من المسلمين ، ورئيسهم الشيخ سليمان قاشلى آوغلو ، وهو مفتى رودس ، وعالم كبير . والمسلمون اليونانيون حاربوا فى عام ١٩٤٠ ضد ايطاليا واستشهد منهم مئات الشباب ، وفتحوا نصف ألبانيا .

ويبلغ عدد المسلمين فى اليونان حوالى مائة ألف مسلم ، وأكثرهم فلاحون يسكنون فى مقاطعه ترافيا الغربيـة ، وعاصمتهم « كوموتينى » وحكومة اليونان تسمح بنشر الدعوة الاسلامية ، وتشجع الحركات الثقافية ، وتبنى على حسابهـا المدارس الاسلامية وفى العام الماضى نشرت ترجمة يونانية للقرآن الكريم .

والمسلمون فى ايونان يبنون المساجد ، وتشجعهم الحكومة على ذلك ، وتمدهم بالمعونة والأموال .. ولكن معظم حفظة القرآن فى اليونان يرتلونه دون أن يدركوا معناه ومغزاه ، وبعضهم يظن أن الاسلام فى المسـجد وفى الاسم ، وفى دفتر تقييد المواليد واجراء عملية الختان ونحو ذلك ولذلك كان لابد من ارسـال البعوث الدينية الى البلقـان لتعليم المسلمين هناك تعـاليم الاسـلام الصـحيحة ، وليفقهوهم فى الدين .

وقد ساعدت القوافل التجارية على نشر الاسلام فى أوربا ، الى جانب هذه الفتوحات الكبيرة التى أقدم عليها العرب : لا رغبة فى سفك الدماء ، انما من أجل تأمين جانبهم ، وصيانة دولتهم ، وعملا على نشر العقيدة الاسلامية ، والمجاهدة فى سبيل الله ... ولذلك نشأت واحات اسـلامية فى أوربا بجهود أفراد من السياح والتجار المسلمين والوعاظ والزهاد .

وقد عرف المسلمون الشعوب السلافية ، وكانوا يسمونهم باسم الصقالبة منذ عهد بعيد . وقد اعتنق كثيرون منهم الاسلام ، ولا سيما بعد أن استولى العرب على الساحل الشرقى للبحر الادرياتيكى ، أى مقاطعة دالمسيا فى يوغوسلافيا الحالية . وقد كان بعض هؤلاء الصقالبة يفدون الى البلاد العربية منذ العصور الاسلامية الأولى للتزود بالثقافة العربية والتعرف الى الدين الاسلامى

يقول ياقوت الحموى فى كتابه « معجم البلدان » فى تفسيره باشقارد : « وجدت بمدينه حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشقاردية ، شقر الشعور والوجوه جدا ، يتفقهون على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه ، فسـألت رجلا منهم اسـتعقلته عن بلادهم وحالهم ، فقال : أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية فى مملكة أمة من الافرنج يقال لهم « الهنكر » . ونحن مسلمون ، ولساننا لسان الافرنج ، وزينـا زيهم ، ونخدم معهم فى الجندية فسألته عن سبب اسـلامهم ، مع كونهم فى وسط بلاد الكفر ... فقـال : سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون أنه قدم الى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار ، وسكنوا بيننا ، وتلطفوا فى تعريفنا ما نحن عليه من الضلال ، وأرشدونا الى الصواب من دين الاسلام ... فهدانا الله والحمد لله ، فأسلمنا جميعا ، وشرح الله صدورنا للايمان . ونحن نقدم الى هذه البلاد ونتفقه ، فاذا رجعنا الى بلادنا أكرمنا أهلها وولونا أمور دينهم . فسألته : لم تحلقون لحـاكم كما يفعل الفـرنج ؟ فقـال : يحلقها منا المتجددون ، ويلبسون لبسة السلاح مثل الافرنج ، أما غيرهم فلا فقلت : فكم مسافة ما بيننا وبين بلادكم ؟ فقال : من هنا الى القسطنطينية نحو شهر ونصف ، ومن القسطنطينية الى بلادنا نحو ذلك » .

وهكذا انتشر الاسـلام فى أوربا الجنـوبية الشرقية . غير أن بعض الملوك ظلـوا يحاربـون الاسلام مثل الملك كارل الأول روبرت (١٣١٠ — ١٣٤٢ م) الذى أصدر قانونا يمنع فيه الصيام أو تناول الطعام على غير الطريقة المسيحية ، ويعاقب من يمتنع عن أكل لحم الخنزير ، أو يتوضأ قبل الصلاة . وأغرى من يبلغ عن أحد من المسلمين بتمليكه جزءا

من أموال المسلم واذا قام أحد بزيارة مسلم ، أو دعا مسلما ليضايفه ، فعلى كليهما أن ىأكلا لحم الخنزير . وهكذا اضطهد المسلمون فى هنغاريا ، ولكن المسلمين لم يلبثوا أن تحرروا من هذا النير بموت هذا الملك ، وظلوا بين مد وجزر سنوات طويلة حتى العصر الحديث

الاسلام فى يوغوسلافيا

أما فى يوغوسلافيا فالمسلمون كثيرون منذ العصور الأولى ، ولا سيما بين قبائل البنجاك والبشناق . وقد وصف أحد الرحالة حالة المسلمين فى « البوسنة » فقال : « انه لعجيب حقا أن يتغلب الاسلام فى هذه البلاد الأوربية على التقاليد القومية اليوغسلافية ، حتى لينظر اليها المسلمون الآن كأنها عادات أجنبية عنهم . ولعل هذا هو ما يميزهم عن بقية مسلمى العالم .. فهم فى قلب أوربا أشد تمسكا بالتقاليد والعادات الاسلامية من اخوانهم فى الشرق . وقد أتيح لى أن أزور بعض بيوتهم الجبلية ، وشاهدت أساليبهم فى المعيشة ، وشعرت كأننى فى بيوت العرب المتقدمين » .

وقد دخل أهل البوسنة فى دين الله أفواجا بعد فتحها عام ١٤٦٣ م ، وأسلموا طواعية ومن الأدلة الساطعة على عدم اكراه أهالى البوسنة على اعتناق الاسلام ماورد فى الوثيقة الموجودة فى دوجى — احدى البيع الأرثوذكسية فى هرسك — والمؤرخة عام ١٥٠٥ ، وجاء فيها أن كثيرا من الناس اعتنقوا الدين الاسلامى بدون أى اكراه . وظل الاسلام يعيش بين عدد كبير من مسلمى أوربا الجنوبية الشرقية فترة طويلة .

وفى يوغوسلافيا اليوم جالية اسلامية كبيرة العدد تتمتع بحريتها الدينية الكاملة ، ويكفلها لها الدستور . وينظم المسلمون شئونهم الدينية لأنفسهم ويقوم على المسائل الدينية مجلس الأوقاف الأعلى ، ومقره مدينة سيراجيفو ، وينتخب ثلث أعضائه على الأقل من رجال الدين وفى يوغوسلافيا عدد كبير من المساجد ، علاوة على مئات من المكاتب الاسلامية ، ومدرسة ثانوية دينية فى « سيراجيفو » التى تعد عاصمة الاسلام هناك

وللمسلمين فى يوغوسلافيا دورهم فى الحياة العامة فمنهم الوزير فى الوزارة الاتحادية مثل عثمان كربيجو فتش ، وحسن بيركتش رئيس لجنة التجارة الخارجية ، وبعادل منصبه منصب وزير التجارة فى الدول الأخرى . وحتى المرأة المسلمة خرجت الى الحياة العامة ، وتولت منصب القضاء ، ونابت عن الناس فى البرلمان ويوجد مجلس للعلماء يتألف من أربعة أعضاء فى سيراجيفو (سراى بوسنة) وتوجد المشيخة الاسلامية فى بلغراد العاصمة ، وعلى رأسها شيخ الاسلام الذى يسمى رئيس العلماء ، ويعين بالانتخاب بوساطة لجنة مكونة من أعضاء مجلس العلماء وأهل الفتوى ومدير مدرسة القضاء الشرعى ومندوبى لجنة الأوقاف بمجلس النواب .

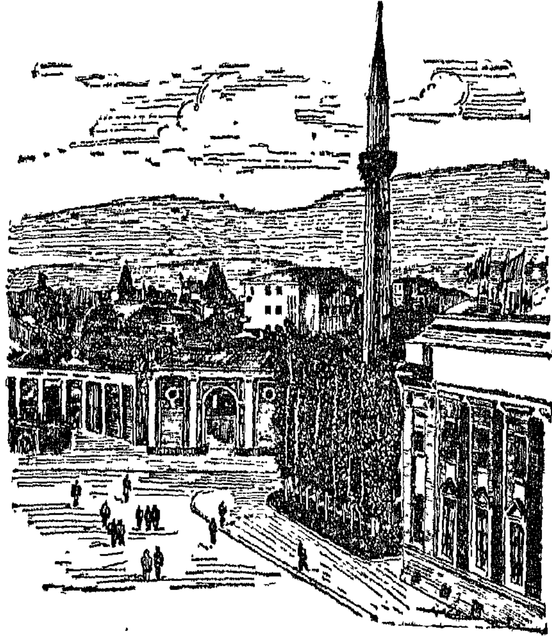
وللمسلمين فى مجلس النواب ثلاثون نائبا منتخبا . ومن بينهم أعضاء مجلس العلماء ومحكمة التمييز وهم يبحثون فى هيئة خاصة مصالح المسلمين ، وخصوصا ميزانية الأوقاف والمعارف ومجالس المديريات . ولكل مديرية بها خمسة آلاف من المسلمين فأكثر محكمة شرعية ، وقاض شرعى للفصل فى شئون الطلاق والزواج والميراث والأوقاف الى غير ذلك ، كما توجد محكمة عليا تسمى محكمة التمييز فى سراى بوسنة .

وفى سراى بوسنة أيضا مدرسة للقضاء الشرعى ، ومدرسة للعلوم الشرعية ، ومدرسة للمعلمات

والمعلمين يستطيع طلبتها اتمام دراساتهم العالية فيما بعد فى جامعات اسلامية أو أوربية وفقا لاختصاص المدارس .

الاسلام فى البانيا

أما ألبانيا فقد انتشر فيها الاسلام على يد الأتراك . ولما فتح الأتراك البلقان قاومهم الألبانيون أشد المقاومة بقيادة جورج كستريوت بن حنا كستريوت . ولكن جورج لم يلبث أن اعتنق الاسلام ، وظل فى خدمة الجيش العثمانى ، وصار من قواده وسمى اسكندر بك .

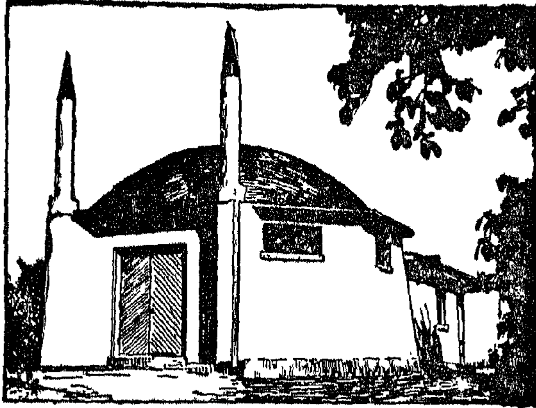


مسجد تيرانا بالبانيا

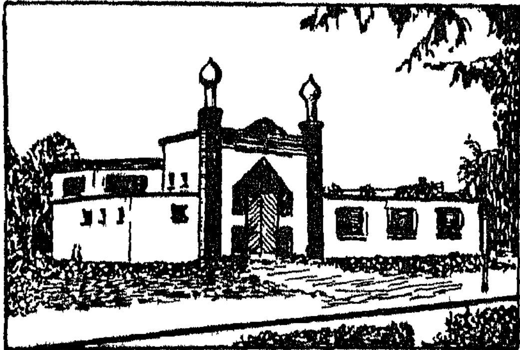
ويقدر سكان ألبانيا بنحو مليونين : نصفهم من المسلمين ، والنصف الثانى من الأرثوذكس والكاثوليك . ويتعلم المسلمون فى بعض مدارسهم القرآن الكريم . ومن أشهر المعاهد الدينية الاسلامية فى ألبانيا : مدرسة تيرانا الدينية . وكلمة مدرسة باللغة الألبانية هى نفسها باللغة العربية . ويتخرج من مدرسة تيرانا الطلبة مفتين وأئمة ومؤذنين ووعاظا ومدرسين للديانة .

الاسلام فى ألمانيا

أما ألمانيا فيبلغ عدد المسلمين فيها نحو تسعة آلاف مسلم : منهم ثلاثة آلاف من الألمان ، والباقون من العرب والهند والباكستان وسائر الدول الاسلامية . والحرية الدينية مكفولة بألمانيا . وهناك جمعيات اسلامية فى بعض المدن ، وجمعية الأخوة الاسلامية التى يرأسها السيد أحمد هارون . وفى « فرانكفورت » جمعية المسلمين ، ورئيسها شاب ألمانى اعتنق الدين الاسلامى ، ويدعى محمد أمين . وفى مدينة « هامبورج » جمعية اتحاد المسلمين . وامام برلين يدعى محمد أمان ، وهو عالم كبير ألف عدة كتب ، منها كتب مصورة للصلاة باللغة الألمانية حتى يقرب فرائض الدين الاسلامى



المسجد الذى اقامته جماعة الاحمدية بمدينة فرانكفورت بألمانيا الغربية



مسجد الاحمدية بمدينة هامبورج بألمانيا الشرقية

للمسلمين الألمان ، وينوب عن الامام محمد أمان السيد محمد أحمد ، ويقوم بجهود تبشيرية واسعة .

والمسلمون فى ألمانيا على اتصال دائم بمسلمى سويسرا والنمسا وهولندة وفنلندة والسويد ، ويؤدى المسلمون الألمان صلاتهم باللغة العربية . وهناك ترجمة رصينة للقرآن الكريم بهذه اللغة .

الاسلام فى فرنسا

أما فرنسا فيبلغ عدد المسلمين فيها نحو مائتى ألف ، منهم عشرون ألفا بباريس وضواحيها ، وأكثرهم من شمال أفريقيا من طبقة العمال فى الصناعة والتجارة .

وفى مرسيليا تكية تديرها سيدة يمنية كريمة ترحب بالضيوف واللاجئين الشرقيين . وفى باريس مسجد كبير افتتح فى ١٥ يوليو سنة ١٩٢٦ ، وبه قاعة للمحاضرات . وقد بنى المسجد على الطراز الاسلامى المغربى ، وفرش بأنفس البسط والسجاجيد ، وتدلت من سقفه مجموعة فخمة من الثريات . وفى بعض ساحاته أحواض رائعة مليئة بالزهور تتوسطها نافورات المياه .

الاسلام فى انجلترا

أما انجلترا فيبلغ عدد المسلمين فيها نحو ثلاثين ألفا . ويرجع تاريخ الاسلام فيها الى عام ١٨٨٠ م حين اعتنق الاسلام اللورد استانلى أوف ألدرلى ، أحد أشراف الانجليز وسفير انجلترا فى تركيا ، وقد سمى نفسه عبد الرحمن . وفى عام ١٨٦٦ م اعتنق الاسلام المستر كويليام أحد أعيان ليفربول ، وسمى نفسه عبد الله ، وكان بليغا قوى الحجة . وقد أثار اسلامه السلطان عبد الحميد ، فاستدعاه الى تركيا ومنحه لقب بك ، وعينه شيخا للاسلام فى بريطانيا : فعاد الشيخ عبد الله كويليام الى مدينة ليفربول ، وحول جزءا من داره الى مسجد ، وأصبحت داره ملتقى لمحبى الثقافة الاسلاميه . وقد أصدر جريدتين اسلاميتين ، وأخذ ينشر فيهما آراءه ، فكان لهما أثر كبير فى نشر الاسلام فى شمال انجلترا .

وظهرت فى انجلترا عام ١٨٨٦ م جمعية اسلامية استمرت سبعة عشر عاما . وقد حضر من الهند الى انجلترا شودارى فاتح محمد سيال وخوجه كمال الدين ، وشرعا يدعوان للاسلام حتى أسلم على يديهما اللورد هيدلى . وتأسست فى انجلترا جمعيات اسلامية منها الجمعية الغربية الاسلامية ، وتهدف الى حماية حقوق العمال المسلمين من العرب والهند والملايو والصومال ، وأكثرهم يشتغل فى الموانى الانجليزية ، وايواء الغرباء المعوزين من المسلمين ، وانشاء المدارس والمساجد لتعليم أبناء المسلمين . كما تألفت فى نهاية الربع الأول من القرن العشرين جمعية لايواء المسلمين الغرباء فى انجلترا ، وتولى ادارتها بعض محبى الثقافة الاسلامية من الانجليز وبعض الهنود والعرب من المسلمين .

ويوجد فى مانشستر مركز للثقافة الاسلامية لاقامة الشعائر الدينية . وقد منح الامام حق عقد الزواج . وفى هذا المركز قاعة لاقامة الصلوات ، وقاعة للمحاضرات ، وقاعة للاجتماعات والحفلات . والطابقان العلويان مخصصان لاقامة الطلبة المسلمين المتزوجين .

ويبلغ عدد المسلمين فى مانشستر وضواحيها أكثر من ثلاثمائة مسلم ، وتلقى فى المركز محاضرات أسبوعية لتعليم الدين الاسلامى الحنيف . ويجتمع المسلمون مرة فى الأسبوع أيضا للبحث فى القضايا الخاصة بالمركز وبأحوالهم عامة فى جامعة مانشستر . وفى الكلية الصناعية الكبيرة التابعة لها عدد

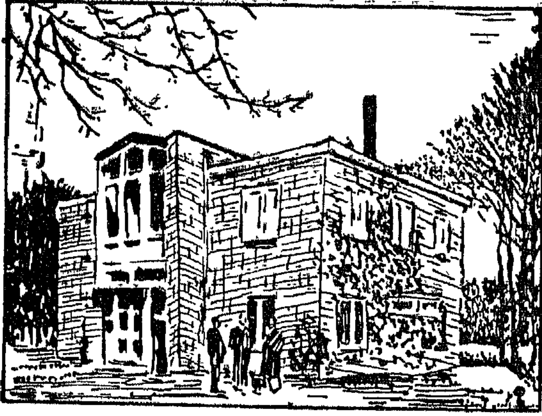
لا يستهان به من الطلبة العرب والمسلمين يتلقون فيها الدراسات العالية .

أما فى مدينة كارديف فتوجد جالية عربية من أبناء اليمن وعدن وبقية الامارات الأخرى ، ويبلغ عددها نحو ١٥٠٠ شخص . وهناك أيضا نحو ٦٠٠ عربى من الصومال لهم جمعية اسمها جمعية شباب الصومال . ويمتلك العرب المسلمون فى كارديف بعض المطاعم والمقاهى والفنادق وحوانيت البقالة والخضر والفواكه واللحوم .

وقد بنى المسلمون فى كارديف مسجدا يسمى « مسجد نور الاسلام » ، أنشأته « جمعية نور الاسلام العلوية » . وفى كارديف زاوية أطلق عليها اسم الزاوية العلوية الاسلامية ، وألحقت بها مدرسة ينفق عليها السيد على سلمان الزبيدى من ماله الخاص . ويأمل أهل كارديف فى بناء مسجد كبير لاقامة شعائرهم الدينية . وفى ضاحية «ووكنج» — وهى تبعد عن لندن ٢٨ ميلا — مسجد بنى منذ ثلاثة أرباع قرن بأموال جمعت من الهند . وكانت تنفق عليه والدة المرحوم بيجوم بهوبال بالهند ، ولذلك يسمى أيضا الشاه جهان ، وفى لندن نفسها مركز ثقافى يعمل على نشر الثقافة الاسلامية ، وشرح مبادىء الاسلام .

الاسلام فى اسبانيا والبرتغال

لما فتح العرب أسبانيا والبرتغال ، أطلقوا عليهما اسم « الأندلس » : وتاريخ الاسلام فى الأندلس حافل بالأمجاد والبطولات . فقد ظل طيلة ما يقرب من ثمانية قرون يحمل مشعل الحضارة لأوربا كلها ، ويقيم العمران ، وينشر المدنية والعدل فى ربوع البلاد . وقد دافع عن كيانه حتى آخر أيامه هناك دفاعا باسلا ... ولكن شاءت الأقدار



مسجد لاهاى بهولاندا

أن تحل المأساة الدامية ، ويغادر البلاد أبو عبد الله — آخر سلاطين بنى الأحمر فى غرناطة — مغلوبا على أمره ، ويسدل الستار على مجد سامق ، كان من الممكن أن يمتد فيشمل أوربا كلها .

وقد عمل العرب فى الأندلس على نشر الاسلام ، وانشاء المساجد ، وتشجيع العلم حتى قال العالم دوزى : « لم يكن يوجد فى بلاد الأندلس رجل أمى واحد فى الوقت الذى لم يكن فى أوربا من يلم بالقراءة والكتابة الا الطبقة القسس » : وقد أنشأ الحكم الثانى وحده ٢٧ مدرسة مجانية بلوازمها كى لا يبقى أحد من رعيته محروما من نعمة العلم . وكانت جامعة قرطبة أشهر من الجامعة النظامية فى بغداد .

ولا تزال آثار المسلمين باقية حتى اليوم فى الأندلس . ومن أشهر هذه الآثار قصر غرناطة الشهير بالحمراء : وهو قصر فخم من أبدع ما صنعته يد الانسان ، وله باب من المرمر منقوش فيه بالخط الكوفى نقشا بارزا : « هذا الباب المسمى بباب الشريعة أمر ببنائه أبو عبد الله ابن يوسف بن الحجاج الخزرجى » . واذا دخلت من هذا الباب استقبلك دهليز ساحته موصوفة

بالمرمر ، وحيطانه بدروب من اللبن الجيد . وفى جانبيه أماكن السيوف والرماح المعدة للحرس الملكى الخاص . ثم تنتهى من هذا الدهليز الى طرقة ذات ظل وأشجار وأثمار ورياحين ، وبها قصر الحمراء . وقد أبدع المؤرخون فى وصف قصر الحمراء ابداعا لا مزيد عليه ، وهو يضم عدة قصور تحوى مئات القاعات التى زينت أبدع زينة ، وزخرفت أروع زخرفة ، وفيها من بديع الصنع والرواء ما يشهد بما بلغته حضارة المسلمين فى الأندلس من تقدم وازدهار .

ومن الآثار الاسلامية الباقية حتى الآن فى أسبانيا « قصر اشبيلية » ، وهو قصر فخم بابه من خشب الصنوبر ، ومنظره بهيج جدا ، ويقع فى وسط بستان عظيم يشتمل على أنواع الأشجار ذات الظلال والثمار ، وفيه برك وغدران متعددة ، وعليها مقاعد ومجالس ملوك أشبيلية ، وجميع السقوف والحيطان والأبواب والنوافذ مزينة بالنقوش المحكمة البديعة ، المطلية بالذهب .

ولا تزال توجد حتى الآن قنطرة الوادى الكبير عند قرطبة ، وطولها أكثر من ٥٠٠ خطوة وعرضها نحو ٢٠ خطوة . وعليها حواجز حجرية . وأما قصر الزهراء الذى سارت بذكره الركبان والقصر الذى بناه الخليفة عبد الرحمن الداخل ، فلم يبق منهما الا اطلال بالية .

أما جامع قرطبة فيقع على طرف قنطرة الوادى الكبير ، وهو مسجد عظيم يحيط به سور ضخم ، ارتفاعه نحو ٨ أمتار ، ومبنى بالأحجار الصلدة والصخور الضخمة . وارتفاع الجامع نفسه لا يتعدى ثمانية أمتار ، وطوله مائة وثمانية وستون مترا ، وعرضه مائة وخمسة وعشرون مترا . وسقفه مرفوع على أقواس مزخرفة بالقيشانى ، معقودة على عمد من المرمر الملون الباهر ، وطول كل عمود منها أربعة أمتار ، ويبلغ عدد الأعمدة فى الجامع تسعمائة عمود . وفى الساحة الخارجية عمد عددها مائتان . وأرض المسجد مرصوفة بأنواع اللبن الملون المحكم ، والمحراب والمنبر من المرمر الصافى تزينهما نقوش بديعة . وعلى المحراب كتبت هذه الآية الكريمة بالخط البارز الكوفى المحلى بالذهب « بسم الله الرحمن الرحيم : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » ، وكتبت تحت هذه الآية بالصفة المذكورة عبارة : « الامام الحكم أمير المؤمنين » .

تلك هى أهم الآثار الاسلامية الباقية فى الأندلس (أسبانيا والبرتغال) ، حتى اليوم ، وهى تشهد بما كان عليه الاسلام فى تلك الآونة من قوة النفوذ وامتداد السلطان ، وعلو الذكر ، وارتفاع المكانة . ولولا ما ألم بالأندلس من اضطرابات وفتن ، وما فشا فيها من شحناء ومنازعات ، لامتد الاسلام الى أوربا ، واستطاع أن يتوغل فيها .

وفى أسبانيا ، حتى اليوم ، عدد من المسلمين لايزالون يؤدون فرائضهم الدينية فى البقاع التى شهدت مجد أجدادهم ، وعظمة آبائهم الأولين . وفيها معهد للدراسات العربية يقوم بخدمة طلاب العلم الذين يرغبون فى استكمال ثقافتهم العربية ، كما يبين معالم الثقافة الاسلامية والدين الاسلامى لمن شاء من الباحثين والدارسين .

الإســـلام فى الأمـريكـتـين

الإسلام فى الولايات المتحدة الأمريكية

لا يمكن معرفة عـدد المسلمين فى الولايات المتحدة على وجه التحديد ، لأنه لا توجد أى هيئة حكومية فى الولايات المتحدة تحصر عدد المواطنين وفقا لدياناتهم . وتقول بعض المصادر ان عـددهم يبلغ ٥٠٠ر٣٢ نسمة ، فى حين تقول مصادر أخرى ان عددهم يصل الى ٠٠٠ر٥٠ أو ٠٠٠ر٦٠ نسمة .

وقـد جاء هؤلاء المسـلمون الى الولايات المتحـدة من جميع البلاد الاسلاميـة فى الشرق الأوسـط وشمال أفريقيـا ، ومنهـم آلبانيـون ويوغوسلافيون جاءوا من شرق أوربا ، ومنهم تتر وأتراك من أواسط آسيا ... بل هناك مسلمون من جنوب آسيا وجنوبها الشرقى .

ويتركز أكبر عـدد من المسلمين فى الولايات المتحدة فى مدينة ديترويت بولاية ميتشيجان ، ففيها نحو ١٥٠٠٠ مسلم . أما فى نيويورك فيقدر عددهم بنحو ٣٠٠٠ ، وفى شيكاغو ٢٥٠٠ ، وفى توليدو بولاية أوهايو نحو ١٥٠٠ مسلم . وهناك جماعات صغيرة متفرقة فى الولايات المتحـدة منهم ١٥٠ مسلما يعيشون فى مدينـة سيدار رابيد ، ونحو ٦٠٠ فى سكرامنتو بمنطقة كاليفورنيا .

وقد عمل المهاجرون الأولون من المسلمين فى مختلف الحرف والمهن التى أتقنـوها ، واستطاع كثـيرون أن يحسنوا مستواهم العلمى والثقافى . وكانوا فى جميع الأحوال يهتمون بتعليم أولادهم ، فاحتل الجيل الثانى — وهم الموجودون الآن — مراكز بارزة فى مهن الطب والقانون والمحاسبة . ومارس كثيرون من المسلمين ، من أبنـاء الشرق الأوسط ، حرفة التجارة .

وهم يقرأون القرآن الكريم باللغة العربيـة ، وان كان بعضـهم لا يجيد القراءة . وقـد تلقوا تعاليم الاسلام عن آبائهم أو عن امام المنطقة التى يعيشون فيها اذا كانت الجالية كبيرة ، وكان هناك مسجد لاقامة الصـلاة وعقـد الاجتماعات لتلقى تعاليم الاسلام .

وتوجـد فى مدينة « سكرامنتو » فى ولاية كاليفورنيا جالية باكستانية يشتغل أكثر أبنائها فى الزراعة ، وبعضهم يملك مزارع كبيرة تدر عليه آلاف الدولارات . ويملك المسلمون الباكستانيون فى مدينة نيويورك ناديا خاصا بهم فى حى مانهاتن أطلقوا عليه نادى العصبة الاسلامية . وتهتم هذه الجمعية الاسلامية بالشـئون الدينيـة المتعلقـة بالمسلمين البـاكستانيين فى نيويورك ، وأكثرهم يشتغل فى المصانع أو يدير بعض المطاعم الشرقية أو نحو ذلك .

وفى بروكلين جالية يمنية تحمل الطابع اليمنى فى حياتها ، وهى حوالى ٣٠٠ شخص . وقد اتجه أكثرهم الى العمل فى المصانع أو المعامل أو نحو ذلك .

وتوجد فى نيويورك جالية سودانية وأخرى سورية ولبنانيـة ، وتعيش هـذه الجاليات مع

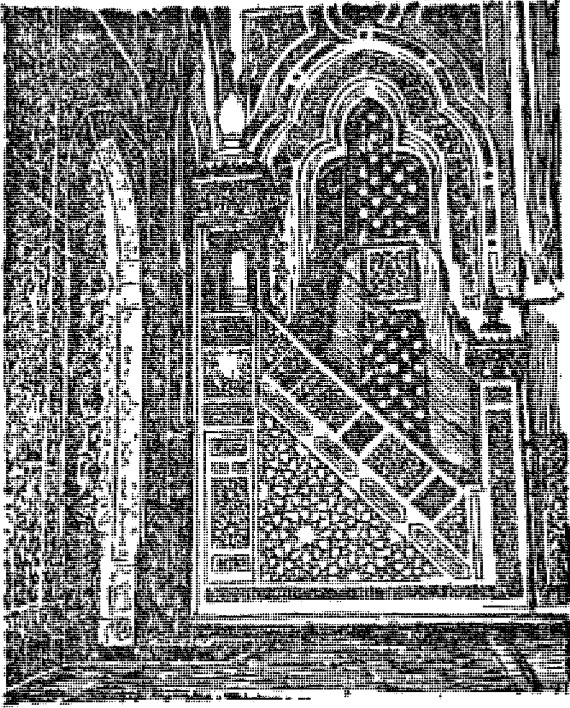
الجاليات الاسلامية الأخرى فى تعاون ومودة واخاء .

وقد قام الزنوج فى أمريكا بدور كبير فى نشر الاسلام . ومن الذين قاموا بالتبشير له فى حى « هارليم » — وهو حى الزنوج فى نيويورك — رجلان من المسلمين عام ١٩٣١ م : أحدهما زنجى يدعى صوفى عبد الحميد ، نشأ فى شيكاغو ، وعاش فترة من حياته فى الشرق الأوسط . أما الآخر فكان يدعى حافظ الحكيم ، وكان متضلعا فى العلوم الاسلامية . وقد صادفت دعوتهما هوى فى قلوب كثيرين من الزنوج لأنهما أعلنا لهم أن الدين الاسلامى هو دين المساواة ، ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ، وان أكرمكم عند الله أتقاكم ، وان الله لا ينظر الى ألوان الناس ولا الى صورهم ، انما ينظر الى قلوبهم وأعمالهم .

وقد ظلا يدعوان الناس الى حضور دروسهما الدينية فى الدار التى خصصت لذلك حتى بلغ عددهم عام ١٩٣٦ ، ٣٠٠ شخص ، أسلم منهم ٢٥٠ شخصا .

وفى عام ١٩٣٨ م قام أحد تلاميذ صوفى وحافظ ، ويدعى عبد الودود ، بتأسيس المركز الأسلامى الغربى الوطنى فى هارليم ، وطفق ينظم هو وزوجته « رزقه » الاجتماعات الدينية لنشر التعاليم الاسلامية بين زنوج نيويورك . وفى عام ١٩٤٢ قامت سيدة هندية تدعى البيجوم عطية بتأسيس المعهد الاسلامى . وبعد سنتين أسس عبد الودود الجمعية الاسلامية الدولية .

ويقوم محمد جواد تشيرى ، الملقب بخادم الشريعة الاسلامية فى أمريكا ، بدور كبير فى الدعوة الى الدين الاسلامى فى الولايات المتحدة . وقد نشأ فى مدينة النجف بالعراق ، وسافر فى عام ١٩٣٦ الى لبنان ، وهناك درس أصول الدين



محراب ومنبر مسجد واشنطن

والشريعة ، ثم سمع به بعض اللبنانيين المسلمين المهاجرين فى ديترويت بولاية متشيجان الأمريكية ، فدعوه للاقامة هناك لتفقيه الكبار وتعليم الصغار . فسافر اليها فى مارس عام ١٩٤٩ . وكان فى أول عهده هناك يدرس باللغة العربية لمن يعرفها حتى تعلم هو اللغة الانجليزية وأتقنها ، وبدأ يعظ بها .

أما لقب خادم الشريعة الاسلامية فقد أطلقه عليه مسلمو أمريكا لأنه وقف حياته على خدمة الدين . وقد تبرع السيد الرئيس جمال عبد الناصر بمبلغ ٤٤ ألف دولار لانشاء مركز اسلامى فى ديترويت يقوم بخدمة جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، ويبلغ عددهم نحو ١٥٠٠٠ . ويدير هذا المركز مجلس ادارة منتخب من أعضاء الجالية الاسلامية يتولى جمع الاكتتاب لاستكمال المشروع الذى يتكلف حوالى ٢٠٠٠٠٠ دولار .

وقد تقرر تزويد مساجد ديترويت بمكتبات

تساهم فيها وزارتا التربية والتعليم والأوقاف والمؤتمر الاسلامى والأزهر ، وفيها يتم تعليم اللغة العربية والدين للناشئين والكبار على السواء ، كما سيختار لهذه المساجد والمراكز أئمة من الأزهر. ويسمى زعيم المسلمين فى دترويت الامام وهبى اسماعيل ، وهو من مواطنى ألبانيا السابقين .

وفى توليدو بولاية أوهايو يقوم الشيخ كامل « عود تيش » بالدعوة الى الاسلام . وقد تلقى علومه فى كلية اسلامية فى يوغسلافيا ، ثم التحق بالأزهر وتخرج فيه ، ثم عمل مدرسا ومترجما فى القاهرة بعض الوقت ، ثم دعته الجالية الاسلامية فى شيكاغو عام ١٩٤٦ ليكون اماما . وفى عام ١٩٥٨ انتقل الى توليدو فى ولاية أوهايو ، وكان يدرس اللغة العربية ، ويفسر القرآن الكريم ، ويؤم المصلين . كما كان يدعى لعقد الزواج بين الطوائف الاسلامية فى مختلف مدن الولاية ، ويلقى ست محاضرات على الأقل شهريا فى مختلف الموضوعات الاسلامية .

وفى أمريكا الآن نحو اثنى عشر مسجدا ... وفى مقدمتها مسجد واشنطن الجديد ، وأصغرها مسجد الجالية الباكستانية فى مدينة سكرامنتو فى ولاية كاليفورنيا . وهناك غير ذلك عدد كبير من المصليات . وربما كان أول مسجد بنى فى نصف الكرة الغربى هو مسجد الجالية السورية اللبنانية فى دترويت . وقد تم انجازه فى عام ١٩٢٢ م ، غير أن الجالية شرعت فى بناء مسجد آخر . وأكبر مسجد قديم فى أمريكا هو مسجد ولاية ايوا الذى تم بناؤه عام ١٩٣٥ م . ويوجد فى نيويورك مسجد متوسط يؤمه كثيرون من الجالية التترية البولندية .

وفى مدينة لوس انجلوس بنى رجل أمريكى اعتنق الاسلام ، اسمه محمد عبد الله رينولدز ، مسجدا على شاطىء أمريكا الغربى .

أما مسجد واشنطن فهو أكبر المساجد الأمريكية وأجملها . وقد ألحق به معهد للدراسات الاسلامية ، ومركز للتعاون الثقافى بين الشرق والغرب ، ومكتبة تضم آلاف الكتب القيمة من جميع أنحاء العالم . وللمركز جناح لسكنى المدير والمكاتب التابعة للمعهد .

وقد استقبل المركز الاسلامى كثيرا من كبار الضيوف المسلمين مثل الرئيس الأندونيسى أحمد سوكارنو ، وشاه ايران ، وملك المغرب ، وملك المملكة العربية السعودية ، ورئيس وزراء افغانستان ، وكثيرين غيرهم من الضيوف الممتازين من جميع أنحاء العالم الاسلامى .

ويفتح المركز الاسلامى فى واشنطن أبوابه فى شهر رمضان المبارك لصلاة التراويح . وفى عيد الفطر المبارك وعيد الأضحى يجتمع مئات من المسلمين فى المساجد لأداء فريضة الصلاة ، ولتبادل التهانى بهذا اليوم السعيد .

وقد تكلف بناء المركز الثقافى الاسلامى فى واشنطن ٣ ملايين دولار ، وساهمت جميع الدول الاسلامية فى بنائه . وقد تبرع السيد يوسف أبو الهوى بربع مليون دولار لبناء هذا المركز ، وأقامت شركة البترول العربية السعودية ، ومركزها الظهران ، حديقة فيحاء مليئة بالزهور الجميلة ، والأشجار المنسقة حول المركز . فزادته جمالا وروعة .

ويوجد فى مدينة « سان فرانسيسكو » مركز ثقافى اسلامى ، يرأسه طبيب ايطالى اعتنق الاسلام ، وهو الدكتور كابريو . ويشغل منصب أمين الصندوق أحد أطباء الاقليم الشمالى ، ويعمل فى أحد مستشفيات مدينة « سان فرانسيسكو » . ووكيلة المركز سيدة أمريكية اعتنقت الدين الاسلامى ، وسمت أبناءها أسماء عربية مسلمة ،

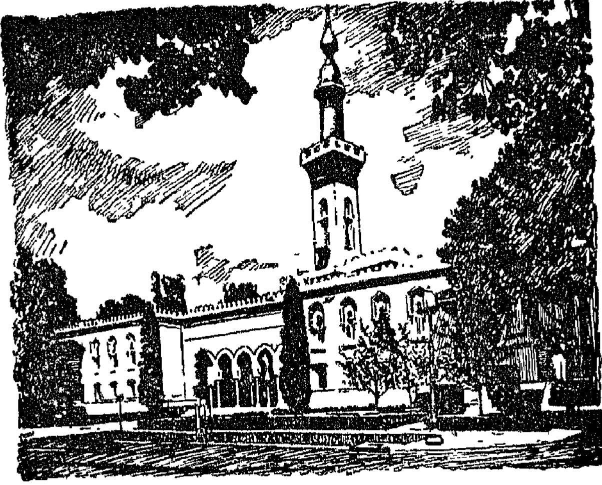
وهى صاحبة أياد بيض على المركز الاسـلامى فى « سان فرانسيسكو » .

وقـد عقد المسلمون فى الولايات المتحدة فى صيف عام ١٩٥٤ مؤتمرا فى مدينة شيكاغو ، حضره مندوبون كثيرون من شتى الجمعيات الاسلامية ، واشترك فيه من الاقليم الجنوبى الدكتور محمود الشوابى الأستاذ بجامعة ماريلاند ، وقرر المؤتمر تكوين اتحاد يسمى « اتحاد المنظمات الاسلامية فى الولايات المتحدة وكنـدا » ، وانتخب السيد عبد الله عجوم أول رئيس لأول اتحاد اسلامى فى نصف الكرة الغربى ، لما قام به من جهود كبيرة ، وما بذله من مساع مشكورة فى تكوين هـذا الاتحاد .

وقـد أقامت هـذه المنظمة الاسلامية دعائم دستورها على الآية القرآنية الكريمة « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » . والهدف الذى يرمى اليه دستور هذا الاتحاد هو تنمية روح الاسلام وفلسفته وأخـلاقه وثقافته بين أعضـاء المنظمة وأطفـالهم ، وايضاح روحه ومبادئه السامية عن طريق النشرات وغيرها .

وفى يونية عام ١٩٥٨ عقـد اتحاد الجمعيات الاسلاميـة فى الولايات المتحدة وكنـدا مؤتمره السابع الذى استغرق ثلاثة أيام ، وحضره ٧٠٠ منـدوب يمثلون ٤٥ اتحادا اسلاميـا فى أمريكا الشمالية . وقد بدأ المؤتمر بحفلات التعارف ، ثم بصلاة الجمعة .

وأنشىء فى نيويورك مجلس اسـلامى أعلى لمدينـة نيويورك ، مثل فيه كثير من الجمعيـات الإسلامية ، وهى : جمعية اتحاد وادى النيـل ، وجمعية الاتحاد النوبى السودانى ، وجمعية شمال أفريقيا الأمريكية ، وجمعية الاتحاد البـاكستانى بأمريكا ، والجمعية اليمنية الأمريكية ، والجمعية



منظر عام للمركز الاسلامى بمدينة واشنطن بالولايات المتحدة الامريكية ، الذى افتتح فى الثلاثين من ذى القعدة عام ١٣٧٦ ، وقد أقيم على قطعة من الارض مساحتها ٣٠٫٠٠٠ قدم مربعة تقع على شـارع ماساشوستس . وتكلف بنـاء هذا المركز ١٫٢٠٠٫٠٠٠ دولار اشتركت فى دفعها خمس عشرة دولة من الدول العربية والاسلامية .

الدولية الاسـلامية ، والجمعيـة الأندونيسية ، والجمعية الاسلاميـة الأمريكية ، والارساليـة الاسلامية الأمريكية ، وجمعية الملايو الأمريكية ، والاتحاد العـام للجمعيات المراكشية ، وجمعيـة الشباب الاسلامى ، والجمعية الثقافية للسيدات المسلمات .

ويقوم الشيخ وهبى اسماعيـل — وهو عالم ألبانى درس فى الجامع الأزهر ، ويرأس الجمعية الاسلامية الألبانية فى مدينة « دترويت » بولاية ميتشجان — باعداد دليل عام للمسلمين فى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا . وليس من شك فى أن اتمام هذا العمل العظيم سوف يعود بفائدة كبيرة على المسلمين هناك ، ويوضح للبـلاد العربيـة سفراءها المسلمين الذين يقومون بدورهم فى خدمة القضايا الاسلامية والعربية فى صمت وسكون ، ودون صخب ولا ضوضاء .

كما تعمل جمعية التعريف الدولى للاسلام على

طبع عــدد من النشرات والكتيبات . ومن بينها نشرات عن الفكرة الدولية فى الاسلام ، وحقوق المرأة فى الاسلام ، والنظم الاقتصادية فى الاسلام ، وآراء فلاسفة العرب وعلمائه فى الاسلام ، ولماذا أسلمنا ، وفضل الاسلام على الحضارة الغربية ، ونظرة الاسلام الى الرق والرقيــق ، والاسلام والتسامح الدينى ، والاخاء الدولى الاسلامى ، والاســلام والديموقراطية ، والحــرية والاخاء والمساواة فى الاسلام ، وآراء بعض من أسلموا من المثقفين الأوربيين والأمريكيين .

وتقوم الجمعية بطبع هذه النشرات بناء على توصيات سكرتير جمعية التعريف الدولى بالاسلام وهو الدكتور محمود يوسف الشواربى صاحب كتاب « الاسلام فى أمريكا » .

الاسلام فى أمريكا الجنوبية

يقــال ان العــرب حاولوا اكتشــاف أمريكا الجنوبية فى القرن العاشر للميلاد أو أوائل القرن الحادى عشر . ويستند أصحاب هذه الرواية الى ما كتبــه الادريسى المؤرخ المعروف فى كتــابه « نزهة المشــتاق فى اختــراق الآفاق » ، من أن جماعة من مسلمى الأندلس ، من أهل الخامة ، على مقربة من لشبونة ، يعرفون بالمغرورين — وهم ثمانية فتيان اخوة أو أبناء عم — أنشأوا لهم مركبا كبيرا ، وشحنوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهــم لأشهر ، ثم خرجوا الى بحر الظلمــات من ثغر لشبونة عنــد مهب الريح الشرقية ، وســاروا فى الغرب نحو أحد عشر يوما ، وصــادفوا مهالك كادت تودى بهم ، حتى أنقذهم لفيف من البربر ، وأعلموهم أن بينهم وبين الأندلس مسيرة شهرين ، وأن المكان الذى رسوا فيه يقع فى أقصى المغرب .

ولا يستبعد أن يكون الشاطىء الذى رسوا فيه جزيرة سان بول أو احدى جزر فرناندو دى نورونها الواقعة فى مياه أمريكا الجنوبية على مسافة نحو مائة وخمسين ميلا من شرق البرازيل ، فان مثل هذه المدة التى قطعوها تحملهم الى هذه المنطقة ولا يستبعد بعد ذلك أن يكون هؤلاء العرب قد استوطنوا هــذه الجزيرة ، ثم توغلوا فى القارة الجنوبية ، ونشروا دين الاسلام هناك بين طائفة من الناس .

وفى أقاليم أمريكا الجنوبية مسلمون تقومون بدور كبير فى ميدان الحضارة والتقدم ، ويعيشون جنبا الى جنب مع أهالى البلاد فى مودة واخاء . ويبلغ عــدد المسلمين فى أمريكا الجنوبيــة نحو ٥٣٠٠٠ نســمة ، على حسب الاحصــائية التى أصدرتها جمعية تقريب المذاهب الاسلامية ، والتى يرأسها العالم الايرانى الشيخ تقى الدين القمى .

ويقوم المسـلمون بأداء شـعائرهم الدينية فى المساجد والجوامع المنتشرة فى أحيــاء متفرقة من أقاليم أمريكا الجنوبية .

وهنالك عدد كبير من الزنوج المسلمين ، الذين أســلموا نتيجة لاختلاطهــم بالعرب الوافدين من اسبانيا وبلاد المغرب ، ومن الوطن العربى بوجه عام ، ولاطمئنانهم الى أن الاسلام هو دين المساواة ، ولايمانهم بأن لا خلاص لهم — فى هــذا العالم المتطاحن — الا باعتناقهم دينا لا يجد رسوله العربى فضلا لعربى على عجمى الا بالتقوى ، وتمسكهم بشريعته ...

الله فوق الخلق فيها وحده
والناس تحت لوائها أكفاء

